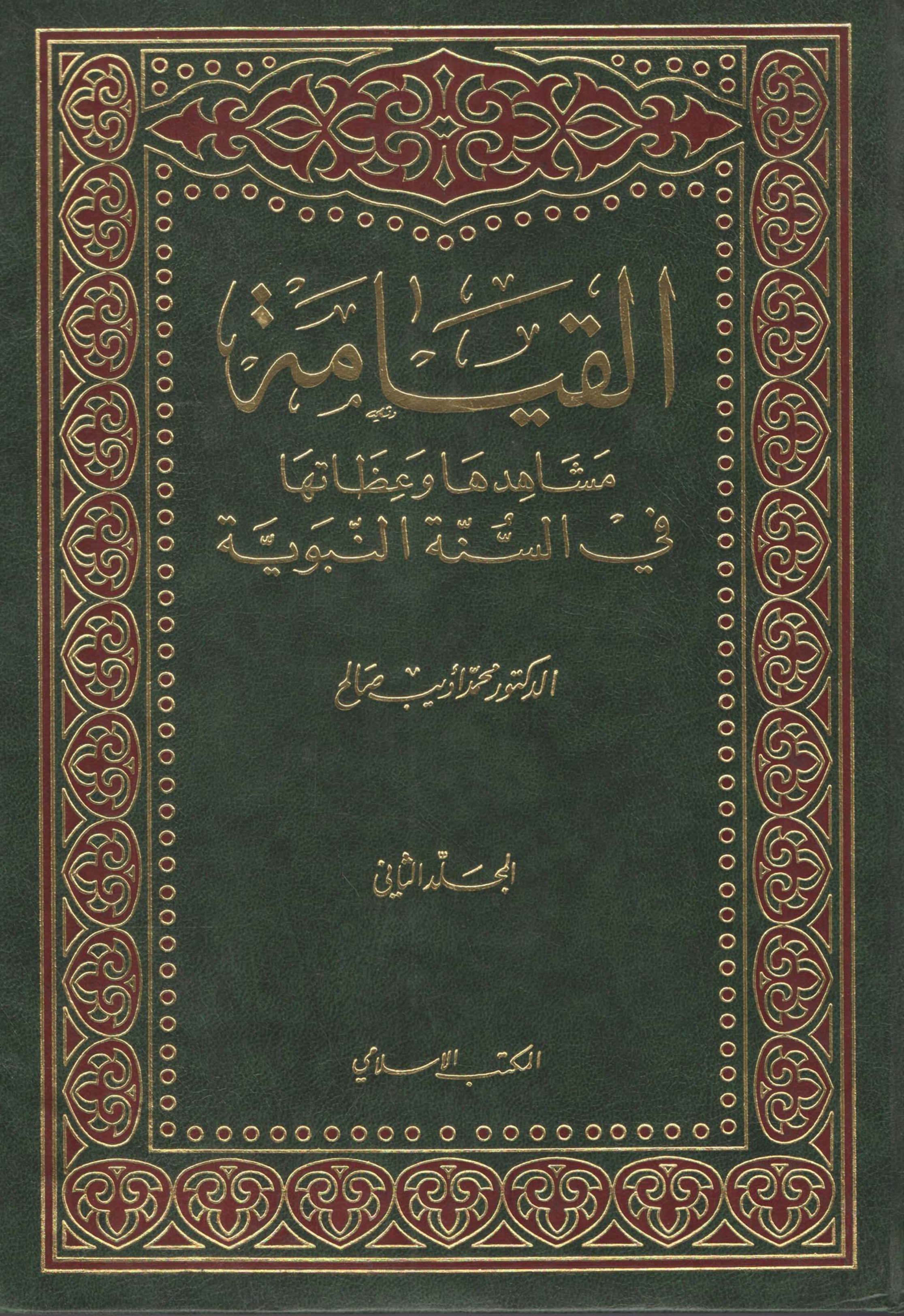
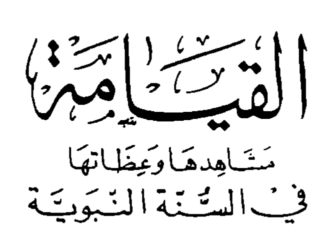
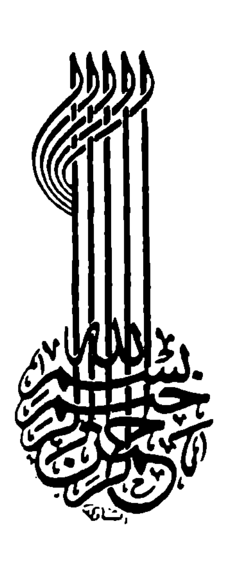

القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية
الدكتور محمد أديب صالح
المجلد الثاني
المكتب الإسلامي


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية



الدكتور محمد أديب صالح




المجلد الثاني

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

# دار العمل.. ودار الجزاء

الارتباط الوثيق ـ في الإسلام ـ بين دار العمل ودار الجزاء ، يحمل ما يحمل من العدل الإلهي المطلق ، والحكمة البالغة التي يدركها البررة أولو الألباب ؛ ولذلك ما له من أثر بالغ في بناء الإنسان ، والحضارة المتوازنة المؤمنة ، وصناعة التاريخ ؛ فالله تعالى ـ وهو الذي أمر بالعدل والإحسان ـ لا يضيع عمل عامل ، من ذكر أو أنثى ، والعلاقة بين العمل في الدنيا ، والجزاء في الآخرة ، لا ينالها تفكك أو انحلال . ومهما رجعت البصر والفكر في هذا المنهج الرباني ، فسوف تجد أن الحكمة تقود إلى حكمة وراءها ، وأن الإعجاز في تساميه ، يأخذ بيدك إلى إعجاز بعده ، وسبحان الحكيم الخبير .

وددت أن أقدم هذه الكلمات بين يدي حديث موصول بالكلام على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ومشهد إكرامها يوم الدين ؛ فهي ذات فضائل عظام، تذكر في هذه الدار فتشكر ، وفي الوقت نفسه جاءت الأحاديث الصحيحة التي تعلن ـ بمختلف رواياتها ومروياتها ـ عن إكرام الله لها يوم الدين ، جزاء ما قدمت للرسول عليه الصلاة والسلام ، وللدعوة الإسلامية التي كانت مهددة بالمخاطر من كل صوب .

والمؤمنون حقاً والمؤمنات ؛ الذين يضعون الوقائع موضعها ، عندما تؤرقهم مشاهد القيامة ، وما سيكون يوم الوعيد ، يوم يقول جبار السماوات والأرض لجهنم: ﴿**هل امتلأت وتقول هل من مزيد**﴾ يفرح قلوبهم ما حملت البشائر للمؤمنين الصادقين والمؤمنات الصادقات . وإذا ذكر هؤلاء ، فهنيئاً للسيدة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، ثناء الأمين على وحي الله ﷺ ، وما أعد لها الكريم المنان في دار المتقين .

وما من ريب في أن ما يسّر الله إيراده مـن الأحاديث في فضائلها ، وإكرام الله لـه يُبَيِّنُ الكثير من خصـائص شخصيته عليـه الصلاة والسـلام ، حتى قبـل أن يوحى إليه، وكيف كانت أخلاقه التي تراها منه ، دليلها الواضح المشرق على أن الله لن يخزيـه أبداً ؛ فحاشـا لله العليم الخبير ــ جلت حكمته ــ أن يُخزيَ محمداً ، ومحمد ﷺ يصـل الرحـم ، ويحمل الكلَّ ، ويقـري الضيـف ، ويكسـب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق ، إلى غيرما عرفت من كريم سجاياه قبل البعثة وبعدها .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكـر : فمما لا ينبغي إغفاله هنا ، ما أشرنـا إليه من قبل في شأن موقف عائشة من السيدة خديجة ، إذ مما يستوجب التأمل من الناحية الموضوعيـة ، ويؤكد تلكـم الفضائل لخديجة ، ويرفـع من قدر عـائشة رضي الله عنهما : ما كان من أمانتها في رواية ما سمعت من رسول الله ﷺمن فضل خديجة، وأن غيرتها كانت لا تتجاوز بها حدود الأخلاق الإسـلامية وتقوى الله ؛ فإن جلَّ ما ورد في مناقب السيدة خـديجة ، هو من رواية أم المؤمنين عائشة الصـديقة التي لم تكتم شيئـاً من أخبار بنت خـويلد ، ومن ذلـك الحديث الذي دعا إلى إيـراده ما سبق من نصوص .

جاء في كتاب بدء الوحي من الجامـع الصحيح قول الإمام البخاري : حدثنا يحيى بن بكير قال : حـدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عـن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثـل فلق الصبح ، ثم حبّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حـراء ، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ــ الليالي ذوات العدد قبل أن ينـزع إلى أهله ، ويتزود لـذلك ، ثم يرجـع إلى خديجة فيتزود لمثلهـا ، حتى جاءه الحق وهو في غـار حراء ، فجاءه الملك فقـال : اقرأ ـ قال: مـا أنا بقارىء . قال : فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء ، فـأخذني فغطني الثـانية حتى بلـغ مني الجهـد ، ثم أرسلني فقـال : اقرأ فقلت: مـا أنا بقارىء ، فـأخذني فغطني الثـالثة ثم أرسلنـي فقال : ﴿ **اقرأ باسم**

ربك الذي خلق .خلق الإنسان مـن علق . اقرأ وربك الأكرم ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنهافقال : زملوني زملوني ـ فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة : وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي ، فقالـت خديجة : كلا والله مـا يخزيك الله أبداً ــ إنك لتصل الـرحم، وتحمـل الكـلَّ وتكسـب المعـدوم ، وتقـري الضيـف، وتعين على نـوائب الحق ـ فانطلقت بـه خديجة حتى أتت بـه ورقة بن نوفل بـن أسد بن عبدالعـزى ابن عم خديجة ، وكـان امرءاً تنصّر في الجاهلية ، وكـان يكتب الكتـاب العبرانيَّ ، فيكتب من الإنجيـل بالعبرانيـة ما شـاء الله له أن يكتـب ، وكان شيخـاً كبيراً قد عمـي ، فقالت لـه خديجة: يا ابن عـمِّ اسمع من ابن أخيـك . فقال له ورقة : يـاابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى. ياليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال : نعم ،لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركنـي يومك أنصرْك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشـب ورقة أن توفي وفتر الوحي » .

جاء النص هنا بالنسبة لقـول الملك في المرة الأولى لرسول الله ﷺ : اقرأ بلفظ «قال : مـا أنا بقارىء » ولأبي ذرٍ والـوقت: «قلت» كما في المرتين التـاليتين. وورقة ابن نوفل ابن عم خديجة رضي الله عنها ، كان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألان عـن الله ، فأما ورقة : فأعجبه دين النصرانية فتنصر ، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى عليه السلام ولم يبـدل ، ولهذا أخبر بشأن النبـي ﷺ والبشـارة به ، إلى غير ذلـك ممـا أفسده أهـل التبديل وكذبوا على الله وعلى الناس . وأما زيد : فتدل الروايات على أنه هدي إلى اتباع ملة إبراهيم وإسماعيل ولكنه توفي قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام .

هذا: وحاجة التبيين على نطاق واسع لهذه النقطة المهمة وأثرها فيما تزدان به مشاهد القيامة مما أعد لخديجة مـن العطاء ، لنا عودة إلى هذا الحديث إن شاء الله وصلى الله وسلم على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمـد بن عبدالله ورضي الله عن أزواجه الطيبات الطاهرات أمهات المؤمنين .

# لا يخزيك الله أبداً

أن تكـون خـديجة رضي الله عنهـا، زوجَ النبي ﷺ أيـام كـان يخلـو في حِـراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد ـ كما جاء في الحديث ـ وقد تزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتـزود لمثلها .. عنـوان خيرية ، يـوحي بـاطمئنانها إلى مـا كان يصنـع صلوات الله وسلامه عليه .

أن يعود إليها حين يفجؤه الوحي ترجف بوادره ، فيخبرها بما جرى له، إخبار الواثـق بعقلها وقدرتها على الحوار في شـأن الحادث الجلل ، مفصحـاً عما جال في خاطره .

أن تستدل ـ فور الإخبـار بما حدث له ـ بأخلاقـه السمحة الكريمة ، على أن الله لن يخزيه أبداً ، ثم تـرى أن يذهب وتذهب معه إلى ابن عمها ورقـة بن نوفل، الذي كان بتوحيـده ومعرفته بالانجيل قبل التحريف والتبـديل ، أهلاً للمشورة فيما حصل ... كل أولئك من المعالم المشرقة التـي تضع أيدينا على حقيقة أن هذه السيدة الكريمة بنت خويلد ، كانت في المنزلة السامية ـ التي لا تجارى ـ في بنات جنسها يومذاك ، وأنه كان من حكمة الله وجميل صنعه ، أن قضاها واختارها ـ وهو أعلم بما يقضي ويختار ــ زوجاً للنبيﷺ في تلك المرحلة مـن مراحل حياتـه ـ وقد أعدَّه لحمـل الرسـالة الخاتمة والله أعلـم حيث يجعل رسـالته ــ فواجهـت المرحلة بكفاية منقطعة النظير ، وأصبحت ـ بحق ـ تلك المرأة العظيمة التي يزينها ذلك السمـو ـ ؛ عقـلاً وحصانة واستنارة بصيرة ـ كفـاء ما يوجب واقـع تلك المرحلة، فشدت من أزر النبيﷺ ، وكان في ذلك ما فيه من خير للبشرية جمعاء .

والحقيقة المستنيرة هذه: تتبدى شذرات ضيائها ــ أول ما تتبدى ـ في حديث بدء الـوحي الـذي أوردته مـن رواية الإمـام البخاري التـي سلفت مـن قريـب.

والحاجة إلى الاستنارة بتلك الشذرات، تدعو بداهة إلى اصطحاب هذا الحديث مرة أخرى ، ومن المفيد حقاً ، أن أورده برواية الإمام مسلم التي جاءت بنحو رواية البخاري ـ على اختلاف في بعض الألفاظ والعبارات ـ ربما أعان على المزيد من تجلية المعنى المراد ، وأسعف في تلمس بعض من تلكم الآفاق المضيئة في حياة أم المؤمنين رضي الله عنها . وهي آفاق تدل بالغ الدلالة ـ كما ذكرت آنفاً ـ على أنه، مع الفضل الإلهي الذي لا ينكره إلا جاحد ، فإنها ـ رضي الله عنها ـ قدّمت في دار العمل ، ما وجدت مثوبته في دار الجزاء ، بيتاً في جنة عدن من قصب اللؤلؤ لا نصب فيه ولا وصب، وهو بيتٌ مشهده أنعم به من مشهد يوم اللقاء . وسبحان من عطاؤه هو العطاء ﴿ **وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾.

ففي باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ أخرج رحمه الله في صحيحه عن عروة ابن الزبير « أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أنها قالت : كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حِراء يتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزدود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الحق وهو في غار حِراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ : قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب الرَّوع ، ثم قال لخديجة : أي خديجة مالي، وأخبرها الخبر . قال : لقد خشيت على نفسي . قالت له خديجة : كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ ،

وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبري ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : أي عم ! اسمع من ابن أخيك . قال ورقة بن نوفل : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى عليه السلام. ياليتني فيها جذعاً ، ياليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال ورقة : نعم! لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .

يلاحظ هنا أن الرواية عند مسلم جاءت على ذكر خمس آيات من سورة العلق حيث انتهت بقوله تعالى : ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ بينما جاءت رواية البخاري في كتاب بدء الوحي على ثلاث فقط حيث ختمت بقوله جل شأنه : ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ والخطب يسير .

البوادر : جمع بادرة وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق ، تضطرب عند فزع الإنسان .

وسبحان من خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ وقول خديجة رضي الله عنها ، وهي تعدد بعض أخلاق النبي ﷺ : «وتحمل الكل» أصل الكلِّ : الثقل ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وهو كَلٌّ على مولاه ﴾ ولايدخل في حمل الكل: الإنفاق على اليتيم والضعيف ، والعيال ونحو ذلك . وهو من الكلال بمعنى الإعياء . أما قولها : « وتكسب المعدوم » فقد قال أبو العباس ثعلب وأبوسليمان الخطابي وجماعات من أهل اللغة : بجواز ضم التاء « تُكسب» وفتحها « تكسب» فهما لغتان إذ يقال : كسبتُ الرجل مالاً وأكسبته مالاً بمعنى واحد . وأفصحهما باتفاقهم «كسبته بحذف الألف». والمراد بالناموس في كلام ورقة: جبريل عليه السلام ، وهو في أصل اللغة صاحب السر ، كما جزم به البخاري في أحاديث الأنبياء من الجامع الصحيح : وصلة الحديث الموعد إن شاء الله .

# الرحمة بين المعرضين والعتقاء

مرّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بإحدى المقابر فقال : « السلام عليك أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات. أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون . اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم . الحمدلله الذي جعل الأرض كفاتاً أحياءً أمواتاً، والحمد لله الذي خلقكم وعليها يحشركم ، وطوبى لمن ذكر المعاد ، وأعدّ للحساب ، وقنع بالكفاف » .

كفاتاً : أي تكفت الناس: تحفظهم أحياءعلى ظهرها في دورهم،وأمواتاً في بطنها.

فعنوان اليقظة والبعد عن الغفلة عند المؤمن : أن لا تستغرقه هذه الدار الفانية، فتلهيَه عن ذكر المعاد والدار الباقية ، وأن يكون تذكرة لما بعد الموت ، وما يحصل من سؤال القبر ثم الحشر والنشر ، ومشاهد القيامة ، وما تحمل تلك المشاهد من العبر والعظات : حافزاً قوياً على عمل الصالحات ، والتوبة النصوح من الزلات والمخالفات ، والمسارعة إلى مغفرة من الله تعالى ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمؤمنين الذين يعملون الصالحات .

أما السلوك المجافي لتلك اليقظة المباركة : ركوناً إلى دار الغرور ، وإدباراً عن الإنابة إلى دار الخلود : فتلكم الطامة التي تقود صاحبها إلى المهالك ، وتجعله في زمرة من يحرمون الأمن يوم الخوف ، إذ القلوب لدى الحناجر في يوم شديد الكرب ، منذر للغافلين بسوء المصير .

ولقد نعى الله على أقوام يصدون عن سبيل الله في الدنيا ، وينسون الله واليوم الآخر ، فلا تتحرك قلوبهم لأخبار الهول يوم الوعيد ، ولا تجود أعينهم بدمع

خاشعة في سجدة ذِلَّةٍ بين يدي جبار السماوات والأرض ، ولا يذكرون قوله جلت عظمته : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ حتى إذا جاء يوم الحشر الأكبر ، غشيتهم ظلمات الضلال في الدنيا ، وأرداهم وهن الغفلة ، فانقلبوا على أعقابهم خاسرين .. لقد ساء مصيرهم بما كسبوا من السيئات في الدنيا ، وبما نسوا يوم الحساب ، وتراهم ـ وقد أحيط بهم ،وأدركوا حقاً ما كانوا عنه غافلين ، يتمنون ـ وياللخزي ـ حين يرون العذاب ، لو يردون إلى الدنيا، ليعملوا غير الذي عملوا، فيسلكوا طريق الهداية الذي جفوه أشد الجفوة ، وناصبوا أهله أشد العداء ﴿ **ولو ترى إذ وُقِفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذِّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانون يخفون من قبل ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون**﴾.

إنها الأهوال التي لا ينجيهم منها هذا التمني الكاذب ! فقد خسروا أنفسهم بما غرقوا فيه من اللهو واللعب ، والصدِّ عن سبيل الله، والإعراض عن كل طريق توصل إلى الجنة ، وتباعد من النار ، وتجعلهم في مأمن يوم الخوف الأكبر حيث يجمع الله الخلائق للحساب ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾.

أجل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ترى كم هم في حمأة الغواية غارقون ، ولما يكون يوم القيامة ناسون !؟ كل هذا مع رحمة الله الواسعة التي لو كانوا أهلاً لها ، لوسعهم ما يسع غيرهم من أهل الشفاعة والرحمة ، فقد كتب سبحانه على نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً ، وقد غلبت رحمته غضبه ؛ روى أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي» وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين ، فيخرج من النار خلقاً لم

يعملوا خيراً ، مكتـوب بين أعينهم: عتقـاء الله » وروى عبدالـرزاق في «المصنف» عن سلمان في قوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ قال إنا نجد في التوراة عطفتين : أن الله خلق السماوات والأرض ، وخلق مائة رحمة ـ أو جعل مائة رحمة ـ قبل أن يخلق الخلق ، فوضع بينهم رحمة واحدة ، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، قال : فبها يتراحمون وبها يتعاطفون ، وبها يتباذلون ، وبها يتزاورون وبها تحنُّ الناقة ، وبها تبحُّ البقرة ، وبها تثغـو الشاة ، وبها تتابع الطير .. فإذا كان يـوم القيامة جمع الله تلك الـرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضـل وأوسع » أرأيت كم يظلـم الإنسان نفسه عندما يقسـو قلبه ، فلا يتحرك لأخبار ما ، .. ولا يتـأثر بما جاء في كتاب الله وبما ثبت عن الصادق المصدوق ﷺ في شأن ما يكون الفصل!!

يـاحسرة على هؤلاء الـذيـن استغرقهـم الباطـل، وأصـابهم من وثنيـة الهوى وزخرف الدينا مـا أصابهم ، حتى باتوا لا ينتفعون بمـوعظة ، لأن الران ضرب على قلوبهم بالأسداد؛ فأنَّى لهم وقد أوصدت منهم القلوب، أن تنالهم نفحات الرحمة التي جاء ذكـرها في الحديث بياناً لما جـاء في كتاب الله عز وجل ، وعنـدما يتمنى أحدهـم العودة إلى الدنيا ، كي يصلح ما أفسد ـ على زعمه ـ ترتد أمنيته إلى فيه ، لما يعلم الله من أن ما يتمناه ،عبث من العبث ، ولعقة على لسانه من لغو الكلام .

وإلى جانب مـا سبق : هذه صورة أخـرى في كتاب الله تؤكد هـذه الحقيقة ، ذلكم قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهـم الموت قال رب ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ .

هذا : وحـديث الـرحمة ، التي يسير هـؤلاء في غير الطريـق الموصلة إليهـا ، والذي رأينـاه موقوفـاً على سلمان عند عبدالـرزاق في مصنفه ، نجـد نحوه مرفـوعاً أيضاً إلى النبـي عليه الصـلاة والسلام . أخـرج مسلم بسنـده عن ابـن شهاب أن سعيد بن المسيَّـب أخبره أن أبا هريرة قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جـزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنـزل في الأرض جزءاً واحداً ؛

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » وله من رواية أخرى « إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوامِّ، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ».

ولمسلم أيضاً من رواية سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن لله مائة رحمة ؛ منها رحمة بها يتراحَم الخلق بينهم وتسع وتسعون يوم القيامة » . وأخرج نحوه أحمد وابن ماجة .

اللهم اجعلنا ممن تنالهم رحمتك فيأمنون يوم الخوف ، ويدخلون الجنة بغير حساب .

# طريق الجنة.. وطريق النار

كان من رحمة الله بهذه الأمة المحمدية أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أضاء لها بكتابه العزيز وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام طرائق سيرها من خلال الإيمان بالله واليوم الآخر .

ورأينا في ذلك توازناً وتكاملاً لا مثيل لهما ؛ ففي الوقت الذي تطفح فيه النصوص بالكلام على ما يكون بعد الموت ، وعلى مشاهد القيامة وما يثقلها من العظائم والأهوال ، وعما ينبغي للمؤمن فعله ، كيما يكون على الجادة ، فيحسن مصيره يوم التغابن ، ويحشر في زمرة أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وبشرهم جل ثناؤه بأنهم ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون**﴾... في الوقت الذي تشرق فيه تلك النصوص بذلك ، نجد النصوص الكثيرة الوفيرة في الكتاب الكريم ، وفي الحديث الشريف، التي تزخر بالهداية إلى الطريق الموصلة ـ بإذن الله ـ إلى دار المقامة والخلود ، والمزحزحة عن نار السعير ـ وهي طريق إن سلكها المؤمن صادق الوجهة ، مخلص النية ، فاز عند الله بالحسنى ، وكان من أهل النعيم المقيم الذين قال جل ثناؤه فيهم : ﴿**إن المتقين في مقام أمين . في جنّات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم**﴾.

ومفتاح ذلك ـ على تنوع موارده وأساليبه ـ تقوى الله ـ بمعناها الدقيق الشامل كما جاء في الكتاب والسنة ـ في مختلف الشؤون ، والسلوك الذي تحكمه ضوابط المنهج الرباني في تربية المسلم وإعداده .

والمهم قبل كل شيء : صدق الوجهة ، والحرص على سلامة المآل يوم الدين ؛ فذلك باب عريض من أبواب الخير إذا ولجه المؤمن ، اهتدى ـ بفضل الله ـ إلى مرابع النجاة من النار والفوز بالجنة ، وأخذ حظه في مشهد أهل النعيم ، يوم يغمرهم نور الإحسان الإلهي على رؤوس الأشهاد . عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه « باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » ثم قال : حدثنا موسى بن مسعود قال : حدثنا سفيان عن منصور والأعمش عن أبي وائل عن عبدالله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » .

الشراك : أحد سيور النعل التي تكون في وجهه ويختل المشي بفقده .

ولا يخفى أن الرسول ﷺ قد بلغ الغاية في هذا الحديث؛ إذ هو من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام في بيان هذه الحقيقة ، حقيقة قرب كل من الجنة والنار من الإنسان ، واستخدم وهو سيد البلغاء ـ صورة واقعية جد قريبة من الناس في تحركهم « أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » موضحاً ببساطة ويسر ، أن أقرب طريق إلى الجنة الطاعة ، وأقرب طريق الى النار المعصية ، والسعيد من عقل عن الله ورسوله فاهتدى .

هكذا تعلمنا هذه الكلمات الجوامع أن الطاعة ـ كما يقول ابن بطال ـ موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار ، وأن كلاً من الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء .

وما دام الأمر كذلك ، فينبغي للمرء أن لايزهد في قليل من الخير أن يأتيه ، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه ؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ، ولا السيئة التي يسخط عليه بها .

والذي اتجه إليه الإمام ابن الجوزي في معنى الحديث: «أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد ، وفعل الطاعة ، والنار كذلك، بموافقة الهوى وفعل المعصية» .

ومما يؤكد هذه الحقيقة التي يتنـاولها العلماء بالبيان من خلال الهدى النبوي ، ما أخـرج البخاري في كتاب الـرقاق من الجامع الصحيـح أيضاً ، عن أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « إن العبد ليتكلم بالكلمـة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً ، يـرفعه الله بها درجات . وإن العبد ليتكلم بالكلمـة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم» .

إن هذا التوجيه المبـارك ـ كما يحفز الهمم ويثير العزائم ـ يـدعو إلى الكثير من الحيطة والحذر . ولكـن إذا سلمت البداية على الـوجه المشروع، تساوقاً مـع هدي المصطفى عليه الصـلاة والسلام ،وإخلاصاً لله تبارك وتعـالى : فحدث ولا حرج، عما يكـون مـن طيـب الثمـرات في العاجلـة والآجلـة إن شـاء الله . روى الإمـام البخاري بسنده عن عمرو بن جرير قـال : سمعت أباهريرة عن النبي ﷺ قال : « انتدب الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال مـن أجر أو غنيمة ، أو أدخلـه الجنة ، ولـولا أن أشق على أمتي مـا قعدت خلف سرية ، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا » .

يذكر المؤمن هذه البشارة العظيمـة ، لمن يخرج مجاهداً مخلص النية ، ويذكر معها أهوال يوم الفصل ، وما يكون مـن الشدائد المذهلة يوم القيامة ، فيدرك أي فضـل يتفضّل الله بـه على عبـاده المؤمنين ، بما فتـح لهم من أبـواب السعـادة في الداريـن ، وما عليهم إلا أن يكـونوا على المستوى الإيماني الـذي أراده رسول الله ﷺ ـ وهـو لا ينطق عن الهوى ـ حين زفَّ إلى الأمـة هذه البشرى الكريمـة الغنية بما فيه عز الدنيا ووجود الأمة الحقيقي ، والفوز بالجنة في الآخرة .

وجميل صنيـع الإمام البخاري مـن إيراد هذا الحديـث تحت باب ترجـم له بقوله « الجهاد من الإيمان » في كتاب الإيمان مـن الجامع : وبمزيد من التفصيل ، روى الإمام مسلم عـن عُمارة وهو ابن القعقاع عن أبي زرعة عـن أبي هريرة رضي الله عنه قـال : قال رسـول الله ﷺ: « تضمَّن الله لمن خـرج في سبيله لا يخرجـه إلا

جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو عليَّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفسي محمد بيده ما من كَلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونُه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً. ولكن لا أجدُ سعةً فأحملهم ولا يجدون سعةً ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل». هكذا جاءت الرواية هنا بلفظ «تضمّن» كما رأينا عند البخاري «انتدب»، وفي رواية للبخاري وأخرى لمسلم - كما سيأتي - «تكفّل الله» والمعنى - كما يقول الإمام النووي - أوجب الله تعالى الجنة بفضله وكرمه سبحانه وهذا الضمان - أو الكفالة - موافق لقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ..﴾ الآية وعبارة «إلا جهاداً في سبيلي» هكذا جاءت - كما يقول العلماء في جميع النسخ «جهاداً» بالنصب، ولذا قال بعده: «وإيماناً وتصديقاً». وهو منصوب كما يقول النووي - على أنه مفعول له، وتقديره لا يخرجه المخرج ولا يحركه المحرك إلا للجهاد والتصديق، فهو لا يخرجه إلا محضُ الإيمان والإخلاص لله تعالى. وبه جاءت الرواية عند البخاري - كما رأينا - رواية أخرى لمسلم، ولعله الأصوب؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تكفّل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد في سبيله، وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة».

صلى الله وسلم على البشير النذير محمد رسول الله، وهنيئاً للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهنالك يأمنون يوم الخوف في عرصات القيامة، ويفوزون بالزحزحة عن النار ودخول الجنة في زمرة أهل التقوى والمجاهدين في سبيل الله مخلصين مصدقين.

# إن عذاب ربك لواقع

مباركة ميمونة الأثر ، غزيرة النفع ، مشرقة بالهدي النبوي ، تلك الأخبار التي حملتها إلينا دواوين الحديث النبوي الشريف عن الرسول المصطفى ﷺ المبين عن الله ما أراد في شأن ما يكون بعد الموت ، ويوم تقوم الساعة ، وما تنذر به القارعة من مشاهد تزرع الهلع وخوف المآل بعد ذلك ، لأنه ليس بعد الدنيا دار ـ كما جاء في صادق الخبر ـ إلا الجنة أو النار . ﴿ **فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى**﴾ .

من هنا كانت تلك الأخبار ـ بما تقدم من ألوان المعرفة بذلك كله ، في بيان لما جاء في القرآن الكريم ـ عاملاً من أهم العوامل في إذكاء روح العمل الصالح ، والإعداد لما بعد الموت ، وما يجري في عرصات القيامة إذ الفزع مطبق ، كفاء ما يكون عليه حال الخلائق ، وقد دنت الشمس من رؤوسهم ، وأحاطت بهم المخاطر ، ولا يجد المرء إلا ما قدم ، والأمر يومئذ لله .

وهكذا : فالمعرفة بأخبار الآخرة ، وما تفيض به ساعات الحشر من مشاهد ، ليست من باب الترف الثقافي في جمع المعلومات ، ولكنها ـ بالنسبة للمؤمن ـ بريد المسؤولية ، وحسن النظر في العواقب وإحكام الخطة ـ بعد الاستعانة بالله ـ في قدر العمل للدار الباقية حق قدره ، وفي خوف من الجحيم ، التي لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى ، خوفاً يبعث الهمة ولا يوقع في اليأس ، والرجاء بدخول الجنة التي حفت بالمكاره ، وطريقها حزن بربوة ، والتي أعدها الله لأهل التقوى من عباده ، رجاءً لا يبعث على التواني والتقصير في جنب الله .

والحق أنه لا ينفع القلب شيء ـ بعد سلامة الاستمساك بالكتاب والسنة ـ

مثل شوق مقلـق إلى جنة عدن وما فيها من الإكـرام الإلهي لأولي النهى ، حيث لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون ، ومثل خوف مزعج من نـار كلما نضجت جلـود أصحابها ، بـدّلهم الله جلوداً غيرهـا ليذوقـوا العذاب الذي يذكّر بـه قوله تعالى :﴿ إن شجـرة الزقـوم . طعام الأثيـم . كالمهـل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾ هـذا مع يقين أن دخـول الجنة مظهـر من مظـاهر الـرحمة والرضا، ودخـول النار مظهر من مظـاهر غضب الله ، والحرمان الـذي ليس بعده حرمان .

وعلى مر التاريخ ، تجد عباد الرحمن ينتفعون الانتفاع المصحوب بالطمأنينة ، لصلاح آخـرتهم ، عندما ينظرون فيما ورد في كتـاب الله وسنة رسوله عليـه الصلاة والسلام من تلكم الأخبار والحقائق التي نومىء إليها ، ويتفاعلون معها تفاعلاً ، يرتفـع بهم عن حمأة الغفلـة والخوض مع الخائضين ، ويسمـو بهممهم إلى حيـث الطاعة والتقـوى ، ومحاسبة النفس ومراقبة الله تعـالى في كل صغيرة وكبيرة ، حتى كأنهم يرون أمور الآخـرة تُظِلُّ خطاهـم في كل حين ، ويعيشون مشـاهد القيامة في هذه الدار ، لما أنه قد جاء بذلك الخبر الصادق والحمد لله . ولقد كان من ثمرات هـذا السلوك عنـد السلف الصـالح ومـن سار على نهجهـم ، سلامـة بنية الفـرد وسلوكه ، وانتظـام أمر المجتمع في كل زمـان يتحقق فيه ذلك المنهـج ؛ خشيةً لله بالغيب، وإيثاراً للباقية على الفانية .

وهل ينـازع منازع في شديد الحاجـة اليوم إلى هذا المنهج المستنير ، وقـد شط بـالأمة النـوى عن حقـائق الديـن ، وطـال الأمد وقسـت القلوب في الكثير مـن البقـاع، وزيــن الشيطـان لضعفــاء اليقين ، أن الحرص على إبـراز الترابــط بين المسؤولية في دار العمـل ، والجزاء في دار الجزاء ، من نافلة القـول وسقط المتاع !! والغفلةُ القاتلة يزداد سلطانها عن طريق المادة والغزو الفكري يوماً بعد يوم ؟

وإذا كان الأمـر كذلـك ، فلابـد من النظـر في بعض المواقـف التي تعين في

إعطاء أخبار القيامة مكانها على ساحة التأثير والتأثر ، والفاعلية والانفعال ، كيما تكون المعرفة ـ بحق ـ بريد القيام بالمسؤولية ، والعمل المجدي ليوم الحساب ، يوم تبلى السرائر ، ويتذكر الإنسان ما سعى .. هـذا عمر رضي الله عنه وأرضاه ـ وهو من هو ، حزماً في إنفاذ شريعة الله ، وقوة في داخـل الدولة الإسلامية وخارجها ، وتحقيقاً لـوجود الإنسان المسلـم ـ ينصدع قلبه عنـد ما يسمع تـالياً يتلو فـواتح سورة الطور وهي قوله تعالى : ﴿ **والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحـر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . مـاله من دافع** ﴾ إذ جاء تـأكيد هـذه الحقيقة حقيقـة أن العذاب واقـع بالكفـار لا محالة، بالقسـم وبأنَّ والـلام ؛ أجل ينصدع قلبـه ويمرض شهراً أو عشريـن يومـاً يعوده الناس فيها . وقـد أورد الحافظ ابن كثير في تفسيره ما أخـرج أبوبكر بن أبي الـدنيا بسنده عن جعفر بن زيد العبدى أنه قال : «خرج عمر رضي الله عنه يعسُّ المدينة ذات ليلـة ، فمر بـدار رجـل من المسلمين، فـوافقه قـائماً يصلي، فـوقف يـستمـع قراءته، فقرأ ﴿ **والطور** ﴾ حتى بلغ ﴿ **إن عذاب ربـك لواقع . مـا له مـن دافع** ﴾ قال: قسم ـ ورب الكعبة ـ حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ، ثـم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه ».

وهنالـك بعض الـروايات التـي تنص على أنـه هو رضي الله عنـه الذي قـرأ الآيات، وحصل له مـا حصل من التأثر العميق بهذه الحقيقـة القرآنية ، في شأن العذاب الذي سيلحق بالكفار ، والانفعـال الصادق بها ، إذ خاف صادقاً على نفسه ـ وهو خليفة المسلمين ـ ماذا سيكون المصير يوم العرض على الله ؟ ذلكم ما أخرج أبـوعبيد القـاسم بن سـلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ـ في « فضائل القـرآن » عن الحسن أن عمر بـن الخطاب قرأ ﴿ **إن عذاب ربك لواقع** ﴾ فربا لها ربوة عيد لها عشرين يـوماً . وأورده الحافظ بـن كثير في تفسيره والسيوطي في الـدر المنثور . وفي الدر المنثور أيضاً ، أخـرج أحمد في الزهد عن مالك بن مِغْوَل أنـه قال: «قرأ عمر ﴿**والطور . وكتاب مسطور . في رقٍ منشور** ﴾، قال: قسم ، إلى قوله : ﴿ **إن عذاب**

ربك لواقع . ما له من دافع ﴾ فبكى ثم بكى حتى عيد من وجعه ذلك ».

لقد ارتاع الخليفة الراشد الذي كانت الآخرة ـ وهو على كرسي الخلافة ـ نصب عينيه، خشية أن تزلّ قدمه ـ وهو يحمل المسؤوليات الكبار ـ فيكون ممن يمسُّهم سوط العذاب يوم المساءلة بين يدي من يعلم السر وأخفى . ارتاع رضي الله عنه عند تلاوته أو سماعه حقيقة ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ إنه قسم من الله عز وجل مصحوب بالتأكيد ؛ فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ مقسماً على ذلك مؤكداً له ، وذلك يوم القيامة ، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً﴾ . وما لهذا العذاب الواقع بالكافرين من دافع يدفعه، إذا أراد الله لهم ذلك ، أو ينقذهم منه إذا وقع . ولك أن تذهب بذهنك كل مذهب في الربط بين استقامة عمر وحزم عمر ، و إنفاذ شريعة الله على الجميع ـ دون محاباة من عمر ـ وما كان للمسلمين ودولة الإسلام من سطوة مباركة في عهده، لك أن تذهب في ذهنك كل مذهب في الربط بين ذلك كله ـ وهو بعض ما يجب أن يقال ـ وبين هذا التأثر بالقرآن ، وخوفه ـ أجزل الله مثوبته وأعلى مقامه في الآخرين ـ من سوء العاقبة يوم الدين ، نتيجة ما حمل من أمانة الحكم وسياسة الرعية بالإسلام .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وأحمد عن جبير بن مطعم قال : قدمت المدينة في أسارى بدر على رسول الله ﷺ ، فوقفت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب ، فسمعته يقرأ « إن عذاب ربك لواقع» فكأنما صدع قلبي . وجبير رضي الله عنه كان ـ في هذه الواقعة ـ ما يزال على غير دين الإسلام ، وقدم على رسول الله ﷺ في فداء أسارى بدر ، لما كان له من المكانة العظيمة عند قومه ، إذ كان من أكابر قريش وعلماء النسب فيها .

ويبدو أن سماعه لتلكم الكلمات المباركات من الذكر الحكيم ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فتح قلبه للحقيقة والتطلع إليها . قال الحافظ ابن حجر في

«الإصابة» وقدم على النبيﷺ - يعني جبيراً - في فداء أسارى بدر ، فسمعه يقرأ الطور ، قال: فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي . روى ذلك البخاري في الصحيح ، وقال له النبيﷺ : « لو كان أبوك حياً وكلمني فيهم لوهبتهم له» وأسلم ابن جبير رضي الله عنه بين الحديبية والفتح ، وقيل في الفتح .

إنها أمانة المعرفة : أن تكون حافز اليقظة والبعد عن الغفلة في دار الفناء.

وفي الأخبار الصادقة عما يكون يوم الحساب ، ما يكفي لأن يتجاوز المؤمن كل ما يقعده عن طلب الآخرة ،والعمل ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

# حين يعمل القرآن عمله في القلب

تقودنا متابعة الكلام على مشاهد القيامة ، إلى استذكار أن الذين يطمعون أن يجعلهم الله من ورثة جنة النعيم، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .. طريقهم إلى ذلك ـ بعد الاستعانة بالله عز وجل ـ حسن تمثلهم لحقيقة أن العلم بأخبار ما بعد الموت ، وما يكون بعد النفخ في الصور والحشر ، والحال التي يكون عليها العباد وهم يترقبون ساعة المساءلة والحساب ، لا يجوز أن يكون نصيبه من حياة المؤمن أن يتخذ لوناً من ألوان الترف الثقافي نزيد به المعلومات بعيداً عن المجاهدة والعمل ، بل يفترض أن يكون هذا العلم، باباً عريضاً ينفذ بصاحبه إلى الشعور الإيماني بمسؤولية العبد في الآجلة، عما كسب في العاجلة ، والتأثر الصادق رغباً ورهباً ــ كما أسلفت غير مرة ـ خوفاً ورجاءً ، وأخذ النفس بجدية المسارعة إلى البر ، والمحاسبة الواعية كيما تستقيم على سواء الصراط ، و يكون صاحبها من أبناء الآخرة الذين ترقى بهم عزائمهم إلى حيث يكونون ـ بصبرهم على لأواء الطريق ـ في عداد أولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وفازوا بجنة تجري من تحتها الأنهار جزاء بما كانوا يعملون .

ولنا في صنيع السلف الذين قام سلوكهم ـ وهم يأخذون بهذا الدين ـ على التأسي برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وانعكس ذلك على حياة الفرد بخاصة، وعلى المجتمع المسلم بعامة ... لنا في صنيعهم ما يوقظ من الغفلة . ويشد الأزر ، ويسعف ـ بعون الله ـ في الدأب على طريق الصالحين . وإذا استقام أمر المؤمن على هذا ، قطع الرحلة إلى الآخرة ، ومشاهد القيامة أمام ناظريه تدفعه إلى صالح العمل ، وتذكره إذا غفل . لأن يقظة القلب مدعاة إلى التأثر الفاعل بكلمات الله في كتابه العزيز ، وبيان رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام ، الأمر الذي لا يُحَدُّ نفعه على طريق العمل الأخروي .

ومن شواهد الصدق على ذلك، ما سلف من شديد تأثر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله تعالى: ﴿ **إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع** ﴾ وما أكثر الشواهد في حياة السلف عليهم الرحمة والرضوان، والجنة مفتحة الأبواب لمن طلبها بإيمان وصدق وصبر ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾. روى الطبراني من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن مسروق أن تميماً الداري رضي الله عنه، قام ليلة حتى أصبح . يردد هذه الآية ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾.

إن من مشاهد القيامة في الآخرة، ما يكون في خاتمة المطاف من تميز بين الذين اجترحوا السيئات، عملوها وكسبوها، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأين هؤلاء من أولئك ؟ وهل يستقيم في ميزان العقل السليم أن يسوّى الخبيث بالطيب ؟ أفمن كان على بينة من ربه، وأخذ نفسه بالتزام الهداية، كمن عميت بصيرته وأسلم نفسه للهوى وللشيطان ؟ إن من عدل الله أن لا يساوي في الآخرة وكذلك في الدنيا، بين الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وسوف يشهد العباد يوم القيامة ذلك ــ وهذا ما استوقف تميماً رضي الله عنه، فقام ليلة يردد الآية في صلاته حتى أصبح، ويروى أنه كان يرددها ويبكي ! أرأيت إلى هذا التبدل الذي صنعه الإيمان باليوم الآخر في النفوس !! جاء في كتاب «الداء والدواء» لابن القيم رحمه الله « وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ جعل يرددها ويبكي حتى أصبح ».

ولعلي لا أعدو الحقيقة، إذا ذهبت إلى أن هذا التأثر بتلكم الكلمات الربانية الهادية، يشعر بأن المشهد ماثل أمام الصحابي الجليل ـ والله أعلم ــ كالذي رأينا عند عمر رضي الله عنهما، فهو يخاف على نفسه أن تزل به القدم، فيكون مثل

أولئك الفجار الذين تمرغوا في أوحال الضلالة في الدنيا ، وأين هم ـ وقد اجترحوا السيئات ـ من أولئك الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وعمر ـ رضي الله عن عمر ـ ألم يمرضه الروع حين قرأ أو حين سمع تالياً يتلو في صلاته ﴿ **إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع** ﴾ وكأنه قد أحيط به يوم القيامة فهو خائف أن يكون من أهل الجحيم؟ .

والحق أن من أعظم نعم الله على العبد ، أن يكون التفاعل قائماً بينه وبين آي الكتاب وأحاديث النبي ﷺ التي أوفت على الغاية في تبيان ما تحفل به مشاهد القيامة من نُذُر ، وما يؤول إليه أمر العباد ؛ فهؤلاء زُمر إلى جنة لهم فيها نعيم مقيم، وأولئك زمر إلى جهنم وبئس المهاد . من أجل هذا كان الواحد من أصحاب رسول الله ﷺ يخاف على نفسه أن تكون بينه، وبين ما جاء من أخبار المساءلة يوم القيامة ، جفوة تباعد بينه وبين العمل بما علم ، والاستعداد ليوم الحساب ، قبل أن يدعوه داعي ربه الموت . روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : « إنما أخشى على نفسي أن يقال لي يوم القيامة : ياعويمر هل علمت؟ فأقول : نعم ، فيقال: ماذا عملت فيما علمت ؟» وفي رواية أخرى : «أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة : أعلمت أم جهلت ؟ فإن قلت: علمت، لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها : الآمرة هل ائتمرت ، والزاجرة هل ازدجرت ، فأعوذ بالله من علم لا ينفع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع » .

وهذا الذي أخذ به نفسه رضي الله عنه من الحرص على العمل بما تهدي إليه الآية الكريمة في كل ما هو من أمرها ، أوزجرها ، ومن الحزم في كل ما يتعلق بأمور الآخرة بخاصة ، وأن يكون ما ينتظر العباد يوم الفصل منه بحسبان . قد كان أميناً في جعل النصح به إلى الآخرين وإيصائهم به ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فقد روى الإمام أحمد عن حبيب بن عبيد أن رجلاً أتى أبا الدرداء فقال : أوصني فقال له : « اذكر الله عز وجل في السراء يذكرك في الضراء . فإذا أشرفت على شيء من

الدنيـا فانظر إلى ماذا يصير » إنـه يصير إلى فناء ، والذي يحتسب في ميـزان العبد ثقلاً يوم القيـامة ، ما أعدّ لـذلك اليوم ﴿ وإن الدار الآخـرة لهي الحيوان لوكـانوا يعلمون ﴾.

وفي وصية من وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه لأهل دمشق يقول : « مالي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون !! وأراكم أقبلتم على ما تكفل لكم به ، وتركتم ما أمرتم به . ألا إن قوماً بنوا شديداً ، وجمعوا كثيراً ، وأملوا بعيداً . فأصبح بنياهـم قبوراً ، وأملهـم غروراً ، وجمعهـم بوراً . ألا فتعلمـوا وعلّموا ، فـإن العالم والمتعلم في الأجر سواء » .

وتذكيراً بما لابد من مداومة التذكير بـه ، وهو ما يكون بعد الموت ، ويوم تقوم الساعة ويحشر الناس على هيئاتهم يوم ولدوا حفاة غرلاً ، كان رضي الله عنه يقول: « لو تعلمـون ما أنتم لاقون بعـد الموت ، لما أكلتم طعاماً على شهـوة ، ولا شربتم شراباً على شهـوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلـون فيه ، ولخرجتم إلى الصعـد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضدثم تؤكل» .

والذي ينبغي التنبه إليه ، ووضعه موضعه من بناء الحياة الإسلامية المتكاملة وفق المنهـج الرباني ؛ أن هـذا التفاعل مـع دلالات النصوص المشرقة بكليـات ما يحصل يوم القيـامة وجزئياته ، والإحـاطة بتلك المشاهد العظـام ، ما كان ليصرف الصحابة ـ وهم يحملون دين الله إلى الناس كما شاء الرسول عليه الصلاة والسلام ـ عن ممـارسة شؤون الحيـاة على الوجه الأكمـل ، وخوض معارك التحـدي لتكون كلمة الله هي العليا ، ولكنه وقفهم على الجادة في أن يأخذوا بالأسباب المستطاعة في عمارة الأرض وبناء الحضـارة ، وأن يكون وجوب التطلـع إلى المصير في الآخرة، والانتفاع بما تعطي مشاهد القيامة من عبر ودروس: بحسبان ، فلا يتقاصرون عن الأخذ بـأسباب الحيـاة وإعداد القوة ، وفي الـوقت نفسه لا تلهيهـم العاجلـة عن الآجلة ، ولا يغفلـون عما يلزم العمـل الأخروي مـن صبر وإخلاص . بـل تراهـم

يديمون الاجتهاد في تـزكية نفوسهم ، وجلاء قلوبهم، كيما يكون ذلـك كله ـ بعون الله ـ سبيلاً إلى النجاة يوم لا يجد العباد من دون الله من ولي ولا نصير .

وما أحوج المسلمين اليـوم إلى هذا المنهج القويم ، يترسمون خطـا أصحابه ، ويعملون به جادين على صعيد الفرد والأسرة والجماعة .

والعاملون بذلـك لهم بشارة الفوز المبين ، مصداقاً للحقيقة القـرآنية التي لا معدى عنها ﴿ لا يستـوي أصحاب النـار وأصحاب الجنـة أصحـاب الجنة هـم الفائزون ﴾ .

# أبناء الآخرة.. وعلو الهمة

وقائع السلوك عند الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان ، كانت ضياء في جبين السلف الصالح ، وقد أظهرت هذه الوقائع مقدار تفاعلهم القلبي والعقلي مع ما أبرزته آي الكتاب العزيز ، وبيانها من حديث سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام : من سمات يوم القيامة وأخبار مشاهده الناطقة بحقيقة الوعد والوعيد ، والبشارات والنذر ؛ وما كان من انعكاس ذلك على سلوكهم المتميّز بإدارة شؤون الحياة ، والسير على الطريق التي لا تشغلهم فيها عمارة الأرض ومطالبها، عن أن يكونوا من أبناء الآخرة، يتطلعون إلى النجاة من عذاب السعير ، والفوز بالنعيم الخالد الذي لا يزول ، في جنة الخلد التي وعد المتقون .

وفي حديث موصول بهذه الحقيقة ، نتابع اصطحاب بعض النصوص التي تقرر ذلك وتؤكده ، وتكشف عن التبدّل العظيم الذي كان يحدثه الهدي الرباني ـ آيةً كان أو حديثاً ـ في النفوس والقيم ، حتى باتوا ـ عليه الرحمة والرضوان ـ في خشية دائمة لله ، يرهبون المصير في يوم كان شره مستطيراً .

أخرج أبو نعيم في الحلية: « أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر ، يبكي حتى يبلَّ لحيته ، وقال : لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي ، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير . وفي « صفة الصفوة » للإمام ابن الجوزي : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يشتد خوفه من اثنين : طولِ الأمل واتباع الهوى . قال رضي الله عنه : « فأما طول الأمل : فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى : فيصد عن الحق . ألا وإن الدنيا قد ولَّت مدبرة ، والآخرة مقبلة ، ولكل واحدة بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ؛ فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ».

والخوف الحقيقي من تلكم الساعات في عرصات القيامة، وما يمكن أن يؤول إليه الأمر بعدها، هو الذي يبعث على مضاعفةِ الجهد في مرضاة الله تعالى ﴿فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب﴾ وأخذِ النفس بالعزيمة التي ترتفع بصاحبها إلى مدارج الأبرار أهل القرب، الذين ينيلهم الله الدرجات العلى في دار البقاء . ولا يعدم المؤمن أن يجد في الهدي النبوي دائماً ما ينير الطريق إلى ذلك ؛ ترغيباً وترهيباً . من ذلك ما نجد على طريق النهج التربوي الذي كان يسلكه عليه الصلاة والسلام، في الترغيب بالجنة وشدِّ المسلمين إلى التطلع إليها، من خلال السلوك المنضبط بضوابط التقوى، ما بيَّن عليه الصلاة والسلام من أنها سلعة الله الغالية التي كفاء دخولها والحظوة بنعيمها الخالد : همة عالية، وعزيمة راشدة في طاعة الكبير المتعال، وتخطٍ لما يقع في الطريق إليها من عقبات الشهوة، وحب العافية، والاغترار بدار الفناء التي أوضح الكتاب الكريم أنها متاع الغرور . فعن أبي هريرة رضي الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث أبي النضر .

وأنت ترى أنه صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو سيد البلغاء ـ استعان بالواقع الذي يتفاعل الناس معه يومذاك، من حيث الحرص على علو الهمة في طلب النجاة، عندما تذرُّ ملامح الخطر بقرونها . فالإدلاج : السير من أول الليل، وهذا ما كانت تفعله العرب إذا حزب الأمر وعلا صوت النذير ؛ فإذا توانى متوان، وقع على أم رأسه وحلت به الندامة .

وعلى طريق استخدام ذلك في أسلوبه عليه الصلاة والسلام : من خاف الله ورغب في جنة عدن التي وعد بها عباده الأبرار، شمَّر عن ساعد الجد في الطاعة والإنابة والصبر على ما يقتضيه ذلك، وسارع إلى مولاه عجلاً مع السابقين السالكين . فإذا مضى ليل المجاهدة، وطلع فجر الآخرة، وشاهد قرب منزلته يوم القيامة، وانقطاع من أقعده الكسل، وغرّه بالله الغرور، شكر الله على توفيقه بعد

النصَب إلى الفوز بتلكم السلعة الغالية جنـة الخلد ، التي وفق لنقد ثمن الفوز بها راضياً مطمئناً ، مستشعراً نعمـة الله وفضله أن وفقه لذلك وأعانـه عليه . فالسلعة الغالية عند الله تعالى : مطلب سامٍ لا بد له ـ مع العمل ـ من التوفيق ، وأصحاب العزائم الذين سلكـوا ـ بتوفيق الله تعالى ـ المسلـك المؤدي إلى الفوز بتلك السلعة الغالية دار الأبرار المتقين ، التي هي خير نـزل وخير مستقر ، حري بمشهدهم يوم القيامة أن يذكّر ـ كما قال بعض العلماء ـ بقول الشاعر :

عند الصباح يحمد القوم السرُّى .

ولكم يشعر المؤمن المشوق إلى رضوان الله في نعيم الجنة المقيم ، بعظيم منة الله تبارك وتعالى ، عندما يبصر تعدد طرائق الحصول على تلكم السلعة الغالية ؛ فهي كثيرة وفيرة ، ومـا عليه إلا أن يصـدق الله في طلبهـا ، ويكـون عند الـذي يقتضيـه الإيمان بالغيب ، وبأن موعود الله حق لا ريب فيه .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبدالعزيز ـ يعني ابن أبي داود ـ قال : «بلغني أن رسول الله ﷺ تـلا هذه الآيـة ﴿ **يا أيها الذيـن آمنوا قوا أنفسكم وأهليكـم ناراً وقـودها النـاس والحجارة عليهـا ملائكـة غلاظ شـداد لا يعصون الله مـا أمرهـم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ وعنده بعـض أصحابه وفيهم شيـخ ـ رجل مُسن ـــ فقال الشيخ : يا رسـول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقـال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لصخـرة من صخر جهنم أعظـم من جبال الـدنيا كلها ، قال : فـوقع الشيخ مغشياً عليـه ، فوضع النبي ﷺ يـده على فؤاده فإذا هو حـي ، فناداه قال : ياشيخ قل لا إلـه إلا الله فقالها : فبشره بالجنة ، قال : فقال أصحـابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : نعم يقول الله تعالى : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث مرسل غريب .

وروى ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال : « وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ؛ إذا خافني

في الدنيا آمنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ».

إنه لمشهد مؤثر حقاً تطير له قلوب المؤمنين فرحاً يوم القيامة ، مشهد أولئك الذين أحسنوا العمل في الدنيا فجيء بهم إلى الجنة ، وفتحت لهم أبوابها وقال لهم خزنتها : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُري كساه الله من خُضْر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم» رواه أبو داود. كما رواه من طريق عطية العوفي باختلاف يسير .

وأخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : «أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عُري كساه الله من خُضْر الجنة ». قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوفاً وهو أصح عندنا وأشبه .

وما من ريب في أن من كان من أبناء الآخرة ـ تهفو نفسه بصدق إلى أن يكون من الناجين يوم الدين ، الفائزين برضوان من الله أكبر ـ يسارع في الخيرات التي هدى إليها النبي عليه الصلاة والسلام ، وما أكثر الموائد المباركة التي رغب ﷺ في ارتيادها لمبتغي دار المقامة جنة النعيم . أخرج النسائي عن شرحبيل بن السِّمط رضي الله عنه أنه قال لكعب بن مرة : يا كعب حدثنا حديثاً عن رسول الله ﷺ واحذر ، قال: سمعته يقول : «من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة» فقال له : حدثنا عن النبي ﷺ واحذر ، قال : سمعته يقول : « ارموا من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة » فقال ابن النَّحَام : يا رسول الله وما الدرجة ؟ قال : أما إنها ليست بعتبة أمك ، ولكن ما بين الدرجتين مائة عام » .

إنها المدارج المضيئة إلى الغاية العظمى ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

# جزاءً بما كانوا يعملون

مشهد المتقين الأبرار ، الذين غمرتهم أنوار الكرامة من ذي الجلال والإكرام ، وراحوا يرفلون بسعـادة الفوز العظيم ، حيث المنتهى إلى دار المقامـة جنة النعيم.. هـذا المشهد المنير الـرائع الـذي يعز على الـوصـف ، والذي تبصره الخلائق يـوم القيامة ــ وقد فُصل بين العباد ..ــ إنما يظهـر جلاله للمؤمن أكثـر وأكثر ، وتبدو دلالته على عظيم فضل الله وكـرمه أوسع وأوسع ، إذا كان هذا المؤمـن على ذُكرٍ مما وُعد به هـؤلاء الأبرار المتقون ، الذيـن أحسنوا العمل في دار العمل ، وصـدقوا في طلـب جنة المأوى ؛ فلقـد أَعَدَّ الله لهم في دار البقـاء مـن جزيـل العطاء والنعيـم المقيم، ما لم تبلغ العين أن تـراه ، ولا الأذن أن تسمعه ، بل إنه ـ من ارتفـاعه فوق المعلوم مـن زهرة الدنيـا ـ لم يخطر على قلـب إنسـان .. إنه الإنعام الـذي لا يخضع لمقاييس البشر في الـدنيا ؛ فالله تبارك وتعـالى لا رادّ لفضله ، وعطاؤه غير مجذوذ ، فهو المعطي ، وهو المانع، وخزائنه جل شأنه لا تنفد .. وهو سبحانه يجزي كلاًّ بما قدّم لغـده ، فلا يضيع عنـده مثقال ذرة مـن عمل .. ولا تسل عما وراء ذلـك من واسع الفضل وجزيل الإحسان !.

والنصوص الدالـة على ذلك كثيرة وفيرة ؛ منها قوله تعـالى في سورة السجدة إيـذاناً بما أعـدّ لمن تتجافى جنـوبهم عن المضـاجـع ، فيقفون بين يـديه خـاشعين متبتلين ، ثم لا يدعـون أن يتقربوا إليه سبحانه بـالإنفاق في سبيل الله : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجـع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهـم ينفقون . فلا تعلم نفـس ما أخفـي لهم من قـرة أعين جزاءً بما كـانوا يعملـون** ﴾ وجاء في الحديـث القدسي ، ما زاد المعنى المراد في الآية تجلية تزيد من فرح المؤمنين بفضل الله وكرمه، في ذلك اليوم العصيـب، يوم الفصل ، حيث لا يسأل مـن شدة الهول حميم حميماً ، ودعـاء الرسـل على الصراط : اللهم سلّـم سلّـم: عقد الإمـام البخاري في كتـاب

التفسير من الجامع الصحيح باباً جعل ترجمته الآية الكريمة المومى إليها فقال : باب ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ ثم روى بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**قال الله تبارك وتعالى : أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** » قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ كما أسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : «**يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر دُخراً من بلْه ما أُطلعتم عليه ثم قرأ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾**».

دُخراً : مدخوراً .من بَلْه ما أطلعتم عليه : من غير ما أطلعتم عليه. أي جعلت ذلك لهم مدخوراً من غير ما أُطلعتم عليه ـ كما يرى بعض العلماء ـ لأن الرواية جاءت عند مسلم بدون « من » قال الإمام النووي : ومعناها دع عنك ما أطلعكم عليه ، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم . وكأنه أضرب عنه استقلالاً في جنب مالم يُطلع عليه . وقيل : معناها غير . وقيل : كيف .

وهكذا لا يعلم أحد مقدار ما أخفى الله لهؤلاء البررة الأطهار في الجنات، من النعيم الخالد الذي لا ينفد، واللذات والخيرات التي لم يطّلع على مثلها أحد ؛ فهم ـ كما يرى الحسن البصري ـ لما أخفوا أعمالهم ، كذلك أخفى الله لهم من الثواب جزاءً وفاقاً ، فإن الجزاء من جنس العمل . قال رحمه الله : « أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر » رواه ابن أبي حاتم .

وأخرج مسلم بسنده عن أبي صخر حميد بن زياد أن أبا حازم حدثه قال : سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول : «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ولا أذن

سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم اقترأ هذه الآية ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ... إلى قوله : **يعملون** ﴾. زاد الحاكم في « المستدرك » : فذكرته للقرظي ـ وهو محمد بن كعب ـ فقال : « إنهم أخفوا الله عملاً ، وأخفى لهم ثواباً ، فقدموا على الله ، فقرّت تلك الأعين » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبي : صحيح .

هذا : ونفي خطور هذا المتفضّل به على قلب بشر من لدن رب العالمين سبحانه في الحديث : حمل البعض على القول : إنما قيل « بشر » ، لأنه يخطر بقلوب الملائكة . واتجه الحافظ في « فتح الباري » إلى أن الأولى حمل النفي في عبارة « ولا خطر على قلب بشر » على عمومه فإنه أعظم في النفس ؛ بمعنى أن النفي عن البشر هنا ، لا يعني إثباته للملائكة . ويؤيد ذلك ما روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « إنه مكتوب في التوراة : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب . قال : ونحن نقرأ : ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون**﴾ أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ـ يعني البخاري ومسلماً ـ وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » . حديث صحيح .

وفي رواية أخرى لأبي جعفر الطبري : قال عبدالله : «إن في التوراة مكتوباً : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر ولم تسمع أذن ، وما لم يسمعه ملك مقرَّب ».

وهذه رواية ، تكشف عن لون من ألوان العلاقة بين فضل الله الذي تنص عليه الآية التي ورد في شأنها الحديث القدسي ، وبين دلالة قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون** ﴾[١٦] أسند الطبري شيخ المفسرين في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » . عن جابر بن زيد عن ابن

عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال: « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتصُّ بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة واحدة وسَّع الله له في الجنة، قال: فدخلت على يزداد ــ أو أزداد ـ فحدّث بمثل هذا. قال: قلت: فأين ذهبت السيئة؟ قال: ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون ﴾ قلت: قوله: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ قال: العبد يعمل سراً أسرّه إلى الله لم يعلم به الناس، فأسرّ الله له يوم القيامة قرة عين. وروى الطبري بسنده عن مجاهد قال: دعا أبوبكر عمر رضي الله عنهما فقال: «إني أوصيك بوصية أن تحفظها؛ إن لله في الليل حقاً لا يقبله بالنهار، وبالنهار حقاً لا يقبله بالليل، إنه ليس لأحد نافلة حتى يؤدي الفريضة، إنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقل ذلك عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل. وخفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة لاتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم. وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف!! ألم تر أن ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم؛ فيقول قائل: أين يبلغ عملي من عمل هؤلاء؛ وذلك أن الله عز وجل تجاوز عن أسوأ أعمالهم فلم يبده!! ألم تر أن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم حتى يقول قائل: أنا خير عملاً من هؤلاء؛ وذلك بأن الله رد عليهم أحسن أعمالهم!! ألم تر أن الله عز وجل أنزل آية الشدة عند آية الرخاء، وآية الرخاء عند آية الشدة، ليكون المؤمن راغباً راهباً لئلا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يتمنى على الله أمنية يتمنى على الله فيها غير الحق» وروى الوصيةَ أبو نعيم بزيادة: «فإن أنت حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبَّ إليك من الموت ـ وهو آتيك ـ وإن أنت ضيعتَ وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ـ ولست بمعجزه».

إنها للنعمة العظمى أن يوفق العبد لعمل الصالحات، وبذل الوسع في مرضاة الله والجهاد في سبيله ـ شأن أهل العزائم والصدق ـ ويفوز يوم التناد بما هم فائزون به من قرة أعين، جزاءً بما كانوا يعملون.

## اقتحام المكاره.. لا ارتكاب الشهوات

من خلال منهج نبوي متميّز ، آيةٍ في حسن تربية الأمة على ما بلّغ عليه الصلاةوالسلام وعلّم ، كان ـ آتاه الله الوسيلة والفضيلة ـ حريصاً على أن لا تكون البشارة بالجنة، وما يفوز به الأبرار من رضوان الله وعطائه الكريم ـ كما سلف غير مرة ـ مدعاة للتهاون في جنب الله ، والتقصير فيما ينبغي أخذ النفس فيه بالجد من العمل بطاعته تعالى في السر والعلن ، وعدم الركون إلى زخرف الغفلة ، والمزالق الماكرة في دار الغرور ؛ فكشف ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ عن حقيقةٍ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطريق جنة الخلد ، وأخرى ترتبط الارتباط نفسه بطريق نار السعير، وعنوان ذلك في هديه صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو لا ينطق عن الهوى ، وترى في الواقع تأييداً لما يقول ـ أن الجنة محفوفة محجوبة بالمكاره ، فطريقها شاقة، لا بد لها من الهمم العالية والعزائم الراشدة ، وأن النار محفوفة محجوبة بالشهوات، فطريقها مذلّلة ميسّرة لمن رضي بالدنية ، وأطاع شيطانه وهواه .

وهكذا ، فالصادق في طلب دار النعيم ، والفوز بالموعود فيها من رضوان الله مطلوب منه ـ على وجه اليقين ـ أن يعد نفسه لاقتحام المكاره وتجاوز ما يكون من شديد المصاعب والمعوقات، من داخل النفس ومن خارجها ؛ وذلك بسلوك الطريق التي رضيها الأبرار الذين قال الله فيهم : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم. على الأرائك ينظرون** ﴾ أولئك الذين عزّ عندهم المطلوب ، فصدقوا في الطلب. والمعرض عن هذا الخيْر ــ أعاذنا الله من ذلك ــ يتجاوز ساحة الخير إلى الشر ، ويغرق في حمأة الشهوات التي تصرفه ـ بزينتها وزخرفها ـ عن الله واليوم الآخر ؛ شأن الفجار الذين قال الله فيهم: ﴿ **وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين وماهم عنها بغائبين** ﴾ فتراه يسَوِّف ويلهيه الأمل ، ويبذل نفسه رخيصة في سبيل الضلال والعتوِّ عن أمر الله ، ويكون ذلك طريقه إلى جهنم وبئس المهاد .

عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً ترجم له بهذه الحقيقة التي حولها ندندن فقال : «باب حجبت النار بالشهوات» ثم قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال : « حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » وقد أوردت هذا الحديث في مناسبة سابقة . وفي كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » كان أول حديث أورده الإمام مسلم هذا الحديث ولكن بلفظ « حفّت » لا بلفظ «حجبت » فقد أخرج بسنده هناك عن حماد بن سلمة وحُميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ».

وكما وقع في رواية البخاري « حجبت » وقع عنده في رواية أخرى « حفّت» وكلاهما صحيح ؛ فقد اجتمع كلام العلماء ـ كما يقول الإمام النووي ـ على أن هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن . والمعنى: لا يوصَل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره والصبر عليها ، ولا يوصَل إلى النار إلا بالشهوات ، والشهوات هنا ، تؤخذ بأوسع معنىً متصوَّر .

وكذلك هما ــ أي الجنة والنار ـ محجوبتان بهما ـ يعني بالمكاره والشهوات ـ فمن هتك الحجاب ، وصل إلى المحجوب ؛ فَهَتْكُ حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهَتْكُ حجاب النار بارتكاب الشهوات . قالوا : فأما المكاره : فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها , والجهاد في سبيل الله ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والعدل في الرضى والغضب ، والصدقة ، والإحسان إلى المسيء وأما الشهوات التي النارُ محفوفة بها : فالظاهر ـ كما يقول النووي ـ أنها الشهوات المحرمة ؛ كالخمر ، والزنا ، وأكل الربا ، والظلم ، وترك الجهاد ، والنظر إلى الأجنبية والاعتداء على الحرمات والحقوق ، والغيبة ، والنميمة ، واستعمال الملاهي ونحو ذلك . قال رحمه الله : وأما الشهوات المباحة : فلا تدخل في هذه ، ولكن يكره الإكثار منها ، مخافة أن يجرَّ إلى المحرّمة ، ويقسِّي القلب، أو يشغَلَ عن الطاعات،

أو يحوج إلى الاعتناء بالدنيا للصرف فيها ، ونحو ذلك .

وهكذا يقرر النبي صلوات الله وسلامه عليه في هديه ـ وهو خير الهدي لما أنه بيان كتاب الله ـ أنـه ما بدٌ لطالب الآخرة ، وأن يكون ممـن تشرق بهم مشاهد أهل الجنة يوم القيـامة : من العمل الصـالح، على سعة مدلـوله وما يزينـه من شمول؛ وفضل الله ـ فيما وراء ذلك ـ لا يحد .

كان لا بد من التذكير بهذه الحقيقة ، بين يدي متابعة الرحلة مع روايات أخر للحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » الذي جاء مقرراً ومؤكداً لما جاء في قول الله جل ثناؤه: ﴿ فلا تعلم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كـانوا يعملون ﴾ كما أسلفت من قبل . ذلك بأن الآية الكريمة تقرر الأمرين جميعاً ؛ فما أخفي من قرة أعين لأولئك الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يـدعون ربهم خوفاً ووطمعاً ، ومما رزقهم الله ينفقون ، كان جـزاءً ـ والفضل لله وحده ـ بما قـدموا من العمل في الدنيـا ، وكانوا بعيديـن عن الـرياء محبين للستر في ذلك ، ليكـونوا أقـرب إلى الإخلاص وتـوحيد الوجهـة . والعهد قريـب بكلمة واحد من سـادات التابعين، أعني الإمـام الحسن البصري رحمه الله ، وهي قوله في بيان لهذه المنقبة عندهم ، والتلمس الذوقي لحكمة الله فيما أسبغ عليهم في الآخـرة من هذا العطاء الكبير على هـذه الصورة : « أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم ما لم ترَ عين ولم يخطر على قلب بشر ».

ولعل مما يسعف في زيـادة الوضوح، لهذه المسألة التي يحتـاج استشعارها إلى صفاء في النفـس وجلاء في القلب : ما روى الإمـام أحمد في المسند عن أبي هـريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال : « دعا الله جبريل ، فأرسله إلى الجنـة فقال: انظر إليها وما أعددت لأهلها فيهـا ، فرجع إليه ـ جل ثناؤه ـ فقـال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلهـا ؛ فحجبت با لمكـاره . فقال : ارجع إليهـا ، فرجع إليهـا فقال: وعزتـك خشيت أن لا يدخلهـا أحد . ثم أرسله إلى النـار ، فقال : اذهب فـانظر

إليها وما أعددت لأهلها ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يدخلها أحد يسمع بها ؛ فحجبت بالشهوات . ثم قال : عد إليها فانظر إليها . فرجع إليه ـ سبحانه ـ فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها ».

وفي استئناف للرحلة مع النصوص الهادية في روايات الحديث القدسي السابق : نقع على بعض الروايات التي يميزها اختلاف يسير ، يعين في مزيد من توكيد العلاقة البيانية بين الآية والحديث ، وإثارة الحوافز الباعثة على سلوك الطريق الأمثل الذي سلكه أولئك البررة المكرمون . أخرج الإمام مسلم ـ بعد الرواية السابقة « حفت الجنة ... » الحديث، بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : قال الله عز وجل: « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ وله عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: « من يدخل الجنة ينعَم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» وأخرجه ابن جرير الطبري. زاد الحافظ ابن كثير «في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ومعنى « لا يبأس» : لا تصيبه الشدة وتغير الحال . والفعل : بئس يبأس ، وِزان سمع يسمع .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى: « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر دُخراً بلْهَ ما أطلعكم الله عليه » وقد رأيناها من قبل عند الإمام البخاري. «دُخراً » بالدال بمعنى مدخوراً من بلْهِ . والمعنى هنا : دع عنك ما أطلعكم الله عليه ، فالذي لم يطلعكم الله عليه أعظم .

وهذه رواية ثالثة تجمع بين ما جاء في الروايتين السابقتين . يقول الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ... إلى أن يقول : دخراً بله ما أطلعكم الله عليه ، ثم قرأ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ .

وقد أوردت ـ من قـريب ـ رواية سهل بن سعد السـاعدي رضي الله عنه عند مسلم أيضاً وفيها شيء من التفصيل .

وقد أخـرج الترمذي الحديـث في الجامع الصحيـح ـ سنـن الترمذي ــ بلفظ «وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ **فلا تعلم نفس** ... ﴾ الآية . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

والرواية عند ابن ماجة في « السنن » مطابقة لرواية البخاري . وجاء في آخرها قال : وكان أبو هريرة يقرؤها : « من قُرات أعين ».

اللهـم وفقنا للعمـل بما يـرضيك ، واجعلنـا من عبـادك الصـالحين ، الذيـن يغمرهم فضلك ، ويعُّمهم عطاؤك ، إنك أنت الوهاب ذو الفضل العظيم .

# أرفع أهل الجنة منزلة

كلما صدقت الوجهة في طلب الآخرة، والفوز بنعيم الأبرار في دار المقامة، كان المؤمن أسعدَ بتلكم المبشرات التي تزدان بها آي الكتاب الكريم، وأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأقدرَ على تحويل التطلعات والأماني، إلى عمل لا يضعف مع المكاره والمعوقات ، ذلك بأن كلاً من البشارة والنذارة بالنسبة للمؤمن : حقيقة مؤكدة ،لا تقبل الاحتمال ، لما أنها جاءت من طريق الخبر الصادق وحياً متلوّاً أو وحياً غير متلو ؛ فهي بلا ريب حق اليقين . واذا كان الأمر كذلك فلا بِدع أن يجعل المؤمن هجيراه ـ بجانب العمل المرضي عند الله ورسوله ـ وقفاتٍ متدبرةً عند تلكم الأخبار التي حملت البشارة بالجنة أو النذارة بالجحيم .

ولقد وقفتنا رحلة قريبة مع بعض النصوص ، على ما جاء في الحديث القدسي الصحيح « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » من تلكم البشرى العظيمة لأولئك المتقين الأبرار من المؤمنين ،بما تقصر عقول البشر عن الإحاطة به وهي بشرى وثيقة الصلة بقوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ وقد أوردت عدداً من النصوص في ذلك. منها ما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً ــ أو دخراً ـ بله ما أطلعكم الله عليه ثم قرأ ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ وعند البخاري من بله .

هذا : ولما لسبب ورود الحديث ـ إن وجد ـ من أهمية في تبيُّن المعنى المراد ، وتجلية نافعة لأبعاد النص ، اهتم الحافظ ابن حجر ببيان أن سبب الحديث

القدسي الذي نسعد باصطحابه ، ما جاء في رواية أخرى من أن موسى عليه السلام سأل ربه عن أدنى أهل الجنة منزلةً ، وأرفع أهل الجنة منزلة؟ فكان الجواب عن أرفعهم ما ينطق به هذا الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ....» فتحت باب « أدنى أهل الجنة منزلة فيها » من كتاب الإيمان . قال الإمام البخاري رحمه الله :

حدثنا سعيد بن عمرو الأشعثيُّ قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن مطرّفٍ وابن أبجر عن الشعبي أنه قال : سمعت المغيرة بن شعبة رواية إن شاء الله وحدثنا ابن أبي عمر قال : حدثنا سفيان قال حدثنا مطرِّف بن طريف وعبدالملك ابن سعيد سمعا الشعبيَّ يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر ، يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : وحدثني بشر بن الحكم ـ واللفظ له ـ قال : حدثنا سفيان ابن عيينة قال : حدثنا مطرِّف وابن أبجرَ سمعا الشعبيَّ يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يخبر به الناس على المنبر ، قال سفيان : رفعه أحدهما ( أُراه ابنَ أبجرَ ) قال : «سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيىء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي ربِّ ! كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ربّ ، فيقول : لك ذلك ومثلُه ومثلُه ومثلُه ، فقال في الخامسة : رضيت ربِّ : فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك ، فيقول : رضيت ربّ ».

قال : ربّ فأعلاهم منزلةً ؟ قال : أولئك الذين أردتُ ، غرستُ كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذنٌ ، ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ .

المراد بقوله : ما أدنى أهل الجنة ؟ ما صفة أو ما علامة أدنى أهل الجنة .

ومعنى « وأخذوا أَخَذَاتهم » أي : ما أخذوه من كرامة مولاهم وحصّلوه ـ كما يقول القاضي عياض ـ أو يكون معناه : قصدوا منازلهم .

ومعنى « أردت » في هذا المقام : اخترت واصطفيت . وأما « غرست كرامتهم بيدي » إلى آخره فمعناه : اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير . قال علماؤنا : وفي آخر الكلام حذف، اختصر للعلم به تقديره : ولم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعددته. ومصداقه هو بكسر الميم ومعناه : دليله وما يصدقه.

ألا ليت أنا بقدر ما يخالط قلوبَنا من الفرح بهذا الفضل، الذي تعجز عقول البشر عن إدراك قدره ، نشمر عن ساعد الجد ، مسابقين إلى كل ما فيه إخزاء الشيطان ، ورضوان الله تبارك وتعالى ، مستعلين على سلطان الشهوة والهوى ، شأن أولئك السالكين الذين اتجهت قلوبهم إلى بارئها بالإيمان ، وصالح العمل، والشوق إلى لقاء الله .

وإذا كانت جنة الخلد ، التي هي موعود للبررة الأتقياء من عباده ، لا عوض لها ولا مثل ؛ فما قولك بما أخفي للبررة المجدّين من قرة أعين . والعهد قريب بالحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه وابن ماجة في « السنن » « ألا مشمِّرٌ ـ أو ألاهل مشمرٌـ إلى الجنة فإن الجنة لا خطر لها » أي لا عوض لها ولا مثل. قال ابن الأثير: والخطر: مثل الشيء وعِدْ له، ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدْر ومزية.

هذا : وغير خافٍ أن في هذا الحديث ما يدل على أدنى أهل الجنة منزلةً ، كما يدل على أن تلك الكرامة التي أخبر ربنا تبارك وتعالى عنها ، وهي ذلك النعيم الذي لم تعلمه نفس بشر ولا ملك ، ولا يحيط بقدره عقل ، إنما هو لأعلى أهل الجنة منزلاً ، وقد ذهب إلى ذلك القرطبي في « الجامع » ؛ فقد عمد إلى بيان معنى قوله تعالى: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ من خلال الحديث القدسي الذي نحن بصدده وما ورد في ذلك ، وأتى على قول ابن مسعود رضي الله عنه : « في التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم

عن المضاجع مالا عين رأت ولا أذن سمعـت ولا خطر على قلب بشر » ونقل عن ابـن عبـاس رضي الله عنهما قولـه: « الأمـر في هـذا أجـل وأعظم مـن أن يُعـرف تفسيره». ولا ريب في أن هـذا من فقهـه ـ أجـزل الله مثوبتـه ـ في الـدين ،وعلمـه بالتأويل.

ثم قال القرطبي: قلت : وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً كما جاء مبيناً في صحيح مسلـم عن المغيرة بن شعبة يرفعـه إلى رسول الله ﷺ . وأورد رواية مسلم التي مرّ ذكرها آنفاً .

هذا : وقد أخرج الترمذي هذا الحديث عـن المغيرة بن شعبة أيضاً من طريق ابن أبي عمـر ، ولكن دون قـوله: «فـأعلاهـم منزلـة قال : أولئـك الذيـن أردت ، غرست كرامتهم بيدي، وختمـت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال: ومصداقه من كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كـانوا يعملـون ﴾ هذا في النسـخ التي اطلعـتُ عليها ... ثـم قال الترمذي: قال أبـو عيسى هذا حسن صحيح . وروى بعضهم هـذا الحديث عن الشعبي عن المغيرة ولم يـرفعه والمرفوع أصح . ولكن الحافـظ ابن كثير رحمه الله بعد أن أورد رواية مسلم بـالسند بتمامها قال : ورواه الترمذي عن ابـن أبي عمر وقال : حسن صحيح... إلى آخر كلامه . وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ولكن بلفظ «فقال موسى: أي رب ، وأيُّ أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : إياها أردت وسأحدثك عنهم؛ غرست لهم كرامتي بيدي وختمت عليها ... » إلى آخر الحديث .

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا ورحمتك أرجـى عندنا من أعمالنا ، فاغفر لنا وارحمنا واكتب لنا الفوز بالجنة والنجاة من النار إنك أنت الغفور الرحيم .

## اليوم المضمار.. وغداً السباق

ليس من مكرور القول، التذكير بأن خوض معركة الحياة على نهج ، عمادُه تقوى الله ومراقبته في السر والعلن ، والجهاد بشتى ميادينه ، وغير ذلك من أعمال البر التي تتحقق معها العبودية لله ، علماً وعملاً وسلوكاً ؟ كل أولئك طريق الفلاح الذي يعطي ثمراته الخيِّرة يوم يحشر الله العباد للمساءلة والحساب ، ويكون صاحبه ـ بفضل الله ـ ممن تصرف وجوههم عن النار ، ويفوزون بدخول الجنة دار النعيم .

والحقائق التي لابد أن تأخذ مكانها عند التذكير بهذا : ما دل عليه قول النبي ﷺ في حديث أسعدنا اصطحابه من قريب : « حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » كما هي رواية البخاري . أو « حفَّت الجنة بالمكاره وحفَّت النار بالشهوات » كما هي رواية مسلم .

ووعي هذه الحقيقة ، وتوظيفها على سلّم الأولويات والاهتمامات في حياة المسلم : أمر على غاية الأهمية ؛ وقد كان ذلك واضحاً عند السلف الصالح، بدءاً من الصحابة عليهم الرضوان ، أولئك الذين ما فتؤوا ــ وهم يحملون تبعات الرسالة في أنفسهم وفي ذويهم ، ويبلغونها الآخرين ــ يسارعون إلى عمل الصالحات ، راجين مغفرة الله ورضوانه ، وأن يكتبهم في زمرة من يقال لهم يوم الدين : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ زادُهم على هذه الرحلة المباركة في خضم الحياة، سلوك السبيل الموصلة إلى المقصد ، دونما إبطاء أو ركون إلى طريق الغافلين ، أو ما هو من هذه الطريق بسبب ؛ فالدار الدنيا في نظرهم ـ وذلك هو الحق ـ مضمار للعاملين الصادقين ، والسابق من سبق إلى جنة الخلد فكان ـ برحمة الله ـ من الفائزين . ولا تسل عن وافر العطاء الذي يتفضل الله به

على البررة الصالحين من عباده، والمجاهدين في سبيله، حيث أعد لهم من النعيم الذي لا يزول ما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولا خطر على قلب بشر مقدارُ ما أعدَّ منه. أخرج الحاكم في المستدرك عن عطاء بن السائب عن أبي عبدالرحمن **السُّلَمي** أنه قال: نزلنا من المدائن على فرسخ، فلما جاءت الجمعة حضرت، فخطبنا حذيفة رضي الله عنه فقال: «إن الله عز وجل يقول: ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت. ألا وإن القمر قد انشق. ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق. فقلت لأبي: أيستبق الناس غداً؟ قال: يا بني إنك لجاهل، إنما يعني أن العمل اليوم، والجزاء غداً. فلما جاءت الجمعة الأخرى، حضرنا، فخطبنا حذيفة فقال: «إن الله عز وجل يقول: ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة» قال أبو عبدالله: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في «التلخيص»: صحيح.

أبو عبدالرحمن السُّلَمي: هو عبدالله بن حبيب بن رُبَيِّعة الكوفيُّ المقرىء، مشهور بكنيته، ولأبيه صحبة. ثقة ثبت مات بعد السبعين.

هكذا يوضح صاحب رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أن اليوم العمل في الدنيا للاستباق في الجنة، ويكرر ذلك في خطبه عندما يخطب الجمعة في الناس، حرصاً على أن تأخذ هذه الحقيقة مكانها في النفوس، فتتحول المعرفة إلى ما يبرهن على القناعة بها، من عمل واجتهاد في طاعة الله بغية الفوز يوم السباق في دار البقاء. قال ابن الأثير في «النهاية»: وفي حديث حذيفة: «اليوم المضمار وغداً السباق» أي اليوم العمل في الدنيا للاستباق في الجنة. والمِضمار يطلق على الموضع الذي تضمَّر فيه الخيل، كما يطلق على المدة التي فيها التضمير. وفي الحديث الذي رواه النسائي وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» إلى أبي يعلى والطبراني «من صام يوماً في سبيل الله باعده الله من النار سبعين خريفاً للمضمِّر

المجيد ». والمضمَّر هو الـذي يضمِّر خيلـه إذا أعدهـا لغزو أو سبـاق . وتضمير الخيل : أن يظـاهر عليهـا بالعلـف حتى تسمـن وتقوى ، ثـم لا تُعلف إلا قـوتاً ، ليكون أنجى لها وأخف ؛ لأنها بقلة العلف ـ على هذه الصورة ـ تخف . وقيل: تشد عليها سروجها ، وتجلَّل بـالأجلة حتى تعرق تحتها ، فيذهـب رهَلُها ويشتد لحمها. والمجُيد: صـاحب الجيـاد من الخيـل . قال الإمـام أبو سليمان الخطـابي : «ومعنى الحديث أن الصائم يباعده الله من النار مسافة سبعين سنة تقطعها الخيل المضمَّرة الجياد ركضاً ».

مـرة أخرى : رضي الله عـن حـذيفـة بن اليمان ، الصحـابي الأمين على تبليـغ حقائق الدين الحنيف إلى الناس ، وأعلى مقامه في جنات عدن ، بما أوضح ـ بهذه الصورة الرائعة ـ أن العاجلة: دارُ العمل والإعداد من أجل الفوز بالسباق غداً يوم الدين . وما على المؤمن إلا أن يبذل الوسـع في هذا الإعداد لليوم الموعود ، ولا يدَعَ أن يكون عالي الهمـة ، قويَّ العزيمة ، يغالب المعـوقات ، ويصبر على الشدائد في سبيل الله ، يدين نفسه ويحاسبها ، ويتخذ من الشيطان عدواً كما أمر الله ... إنه إن فعل ذلك ، حاز بعون الله قصب السبق في السباق الآتي لا محالة ، يوم لا يفوز إلا من أحسنوا السير على السنن الذي هدى إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

فكما يضمِّر الخيلَ صـاحبُها إذا أعدَّها لغزو أو سباق ؛ على المؤمـن أن يرتفع بـإيمانه وجهـاده على الشهوات والمعـوقات ، ويحسـن سلوك ذلـك السَنن الـذي يصل، إلى الجنة مع الأبرار أهل الإنابـة والخشية الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ويباعد بينه وبين النار ، التي لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذّب وتولى .

وأنت واجـد أن حذيفـة رضي الله عنه ، قد وفّـق التوفيـق كلّه في إبـلاغ تلك الحقيقة للناس ، وحثهم على أن يأخذوا بأسباب النجاة والفوز ، بما أفاد من الواقع الذي هم مخالطوه وعارفوه ، أعني السباق ، والتضمير للفوز به وما إلى ذلك .

وتحسن الإشارة إلى أن الناظر في دواوين السنـة المطهرة ، يقع على العديد من

النصوص التي تتحدث عن السبق بين الخيل ، وإضمار الخيل للسبق وما يتعلق بذلك . وقد عقد الإمام البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح ثلاثة أبواب هي :

«باب السبق بين الخيل » «باب إضمار الخيل للسبق » «باب غاية السباق للخيل المضمّرة» . وتحت هذا الباب روى بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « سابق رسول الله بين الخيل التي ضُمِّرت ، وأرسلها من الحفياء، وكان أمدُها ثنيّة الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك ؟ فقال : ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التي لم تضمَّر ، فأرسلها من ثنية الوداع ، وكان أمَدُها مسجدَ بني زُريق . قلت : فكم بين ذلك ؟ قال : ميلٌ أو نحوُه ، وكان ابن عمر ممن سابق فيها ».

وإذا كان الأمر كذلك ـ في الإعداد هنا والسباق هناك ، ويومُ الوعيد واقع لا محالة ـ فالعاقل كل العاقل من يعطي المضمار ، حقه ليفوز يوم السباق بالسبق إن شاء الله .

وكم يحسن المسؤولون عن تربية الأجيال المسلمة ؛ ذكوراً وإناثاً في خضم الصراع الفكري في العالم ، وما يُرى من اضطراب القيم والمعايير !! إذا وضعوا هذه الحقيقة وأمثالها في الحسبان ، تزدان بها مناهج التربية والتعليم والإعلام ـ في كل مرحلة بحسبها ـ ويربى عليها الفرد والجماعة ! إذاً لجَنَت الأمة من وراء ذلك أطيب الثمرات في الدنيا ، وكان الفوز بجنات تجري من تحتها الأنهار في دار القرار، يتوّج ذلك برضوان من الله أكبر والله ذو الفضل العظيم .

وغنيٌّ عن البيان، أن رجال أمتنا الذين إذا ذُكروا ، ذُكرت المكارم والفضائل في شتى الميادين ، والذين أضاء بهم تاريخ الإنسانية ، لم يبلغوا ذلك ـ على صعيد أنفسهم وأمتهم ـ إلا بالتزامهم هذا المنهج القويم . أخرج البخاري بسنده عن ابن شهاب عن حُميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال : «من أنفـق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة يـا عبدالله هذا خير . فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كـان من أهل الصيام دعي من باب الريَّـان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، ما على من دعي من تلك الأبـواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم» .

إن الصدِّيق أبا بكـر خليفة رسول الله وصاحبه في الغار ، وقـاهر المرتدين في حرب الردة ، قد أحسن التزوَّد للدار الآخرة ، فهو يريد أن يدعى من تلك الأبواب كلها ، وبشره رسـول الله ﷺ بما تطمح إليه نفسه الـراضية المرضية ، ولا بـدع فهو الصدّيق الذي لم يبارح مسار الصدق في إيمانه وعمله وحبه الفريد لرسول الله ﷺ قِيد أنملة ؛ فرضي الله عنه وعن الصحابـة أجمعين ، والموفق من احتذى حذو أهل الفضل والتمكين .

## الفردوس.. أوسط الجنة وأعلى الجنة

كلما ذكر المؤمن مشاهد القيامة بما تحمل من أثقال المكلفين ، وبما تزخر به من النذر الشداد ، يوم ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودَّة ، ولا يفوز بالنجاة إلا الصادقون ..

كلما ذكر المؤمن ذلك: تضاعفت تطلعاته إلى النجاة، وكان عليه أن يجدَّ في طلبها ـ وهي من معالي ما يطلب ـ صابراً على المكاره مهما تكن ، وأن يشمر بهمة عالية تسمو به إلى الآفاق المشرقة بمرضاة الله تعالى . وتجعله ـ بفضل الله سبحانه ـ من أهل القرب، الذين بتقواهم يسمون عن طاعة الهوى والشيطان مهما تنوعت الأساليب والزخارف ، ويفلحون بتزكية أنفسهم ـ كما أمر الله ـ وذلك طريق الحظوة يوم الدين ، والانسلاك في زمرة الأبرار المفلحين .

وليس عجباً من العجب، أن يضع المؤمن نُصب عينيه التشمير الذي رغب به الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أجل الفوز بنعيم أبدي لا مثل له ولا نظير ، وهو مظهر من مظاهر رضا الله تعالى ؛ فالذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، والذين يحبهم جل شأنه ويحبونه ، يتجلى عليهم بفضله وإحسانه فيُحلُّهم دار كرامته ، مقولاً لهم : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾. ويعطيهم ما به تقرُّ أعينهم، ثم يزيدهم من فضله ، فيرضى عنهم رضاءً لا يسخط بعده أبداً .

ومن نعم الله العظمى ومنته الكبرى: أنه جل شأنه، هدى في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ إلى هذه الغاية، والنبي ﷺ ـ وحديثه بيان القرآن ـ لم يدع أن ينوّع أساليب الترغيب العظيم في الجنة والصدق في طلبها . وهنيئاً لمن ينتفع بالهداية ويسعد بها وينتظمه يوم القيامة ذلك المشهدُ الفياض بالنور والعطاء الإلهي ، مشهدُ البررة أهل التقوى، وهم على باب الجنة التي يورثها العاملون المخلصون .

ولقد كان لترغيبه ﷺ بأسلوبه الحكيم ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ كبير الأثر في نفوس أصحابه، حتى كأن الآخرةَ شغلُ أحدهم الشاغل، وحتى كأن مشاهد القيامة تصحبهم على المدى ، وتحكم سلوكهم والقيم التي تحركهم، ويظل ذلك فيمن سار على هديهم بإحسان ، فترى الواحد منهم في صلته بالناس وعمله وسلوكه، صورة متحركة للإسلام ، لما أن مبتغاه مرضاة الله عز وجل، وأن يلقى ربه وهو عنه راض . وعندما يدعو داعي الجهاد ، يقبل على الموت باسم الثغر منشرح الصدر ، ولسان حاله ينادي : يارياح الجنة هبي . وبعد أن يُستشهد يتمنى أن يعود إلى الدنيا مرة بعد مرة ، ليفوز بالشهادة ذلك الفوز المتجدد . عقد البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله : «باب درجات المجاهدين في سبيل الله» ثم روى بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أُراه قال: وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تفجرّ أنهار الجنة » ثم قال البخاري قال محمد بن فليح عن أبيه « وفوقه عرش الرحمن» .

أرأيت إلى هذا الترغيب العظيم ، الذي كان يقع في نفوس المؤمنين موقع الماء البارد الزلال من الصديان ، وكم صنع الأسلوب النبوي ـ بعون الله ـ من رجال ، وكم استثارت حكمته ﷺ من قُدَر وطاقات ومواهب . وكلما تراءت لنا مواكب الشهداء يوم المعاد ، ومشاهد من زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة ، لابد أن نذكر هديه ﷺ على هذه الساحة ـ وهو يبين كتاب الله العزيز ـ وكم أفاض على الدنيا من بصائر . ونمضي مع هذا الهدي الكريم، لنشهد أي أثر عظيم صنعه في بنية المسلم وتطلعاته إلى جنة الفردوس ؛ من ذلك كشفه عن مظاهر العطاء الإلهي يوم

القيامة للمجاهد في سبيل الله ! ذلكم فيما روى البخاري عن أبي هريرة عنه صلوات الله وسلامة عليه أنه قال : « لَقابُ قوسٍ في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب» و أنه قال : « لغَدْوة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب » .

القاب : القَدْر . فمعنى « قاب قوسٍ » أي قدرُ قوسٍ . وكذلك القِيد بكسر القاف بعدها ياء ساكنة ثم دال معناه : القَدر .

ولقد جاءت الرواية الأخرى عند البخاري بلفظ «لقابُ قوسٍ أحدكم » فقد روى بسنده عن حميد قال: وسمعت أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لَرَوْحةٌ في سبيل الله أو غَدْوَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولَقَابُ قوسٍ أحدكم من الجنة أو موضع قِيدِ ــ يعني سوَط ـ أحدكم خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأةً من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما أو لملأته ريحاً ، ولَنصيفُها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » .

يلاحظ هنا : أن القِيدَ فُسِّر بالسوط . ويرى الحافظ ابن حجر أنه تفسير غير معروف ، إذ القِيدُ ـ كما سبق ـ بمعنى القاب وهو القَدر . قال رحمه الله : ولهذا جزم بعضهم بأنه تصحيف وأن الصواب قِدٍّ بكسر القاف وتشديد الدال وهو السوط المتخذ من الجلد . ثم كان من تحقيقه أن دعوى الوهَم في التفسير أسهل من دعوى التصحيف في الأصل. والقِيد بمعنى القاب كما بين من قبل ، والمقصود من ذلك لهذه الترجمة : الأخير ، والنصيف من قوله « ولنصيفها » بفتح النون وكسر الصاد بعدها ياء ساكنة ثم فاء : الخمار بكسر الخاء وتخفيف الميم .

وفي توكيدِ لحقيقةِ ما يُعطى الشهيدُ يومَ القيامة ـ وهو ما يُفهم من خلال ترغيب النبي ﷺ ــ نقل صاحب الفتح عن المهلّب قولَه : «إنما أورد ــ يعني البخاري ــ حديث أنس هذا ـ يعني الذي جاء فيه قوله ﷺ : « وَلَقابُ قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها » ـ ليبين المعنى الذي من أجله يتمنى

الشهيد أن يرجع إلى الدنيا ،ليقتل مرة أخرى في سبيل الله ، لكونه يرى من الكرامة بالشهادة فوق ما في نفسه ؛ إذ كل واحـدة يعطاها من الحور العين لو اطلعت على الدنيا لأضاءت كلُّها ». وروى ابن ماجة من طريق شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : ذكر الشهيد عند النبي ﷺ فقال : «لا تجف الأرض من دم الشهيد حتـى تبتدره زوجاته مـن الحور العين، وفي كل يد واحدة منهـن حلةٌ خير من الدنيا وما فيها ». ولأحمد والطبراني من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً « إن للشهيد عند الله سبع خصال » فذكـر الحديث وفيه : ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة مـن الحور العين » قال الحافـظ : إسناده حسـن . وأخرجـه الترمذي مـن حديـث المقدام بن معديكرب وصححه .

وأكرم بهذا العطاء الذي تشهده الخلائق يوم القيامة مصداقاً لألوان الترغيب في حديث الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام . وكم تُغني ترغيباته ﷺ تلك المشاهد المضيئة من أهل الجنة التي وُعد المتقون، وللشهداء فيها النصيب الأوفى .

# المشمرون للجنة.. مشاهد!!

مشاهد عباد الرحمن الذين أخلصوا دينهم في الدنيا ، وصدقوا الوجهة في فرارهم إليه سبحانه .. مشاهد هؤلاء المرضيين له سبحانه ، الذين تفتح لهم أبواب الجنة يوم الجمع الذي لا ريب فيه ، ويفوزون بالنعيم المقيم السرمدي في دار الكرامة ، ما كانت لتعلن إعلانها على رؤوس الأشهاد ، وتزدان بها ازدانت به من النور الذي يسعى بين أيدي أصحابها وبأيمانهم ، لولا فضل الله العلي الكبير ، ثم الاستجابة العملية الصادقة لترغيب الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام أمته ـ وهو يبين عن الله ما أراد ـ بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ووافتهم المنية وهم على ذلك .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ـ في ترغيبه ـ حريصاً على أن يطبع سلوكَ المسلم ـ وهو يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي ـ تكاملٌ واعٍ بين حرارة الشوق إلى ذلك المستقر المبارك الذي هو خير كله ، وبين ما يجب من العمل ، وإقامة الدليل على صدق الاشتياق، والتطلع إلى ذلك الفضل العظيم الذي يمنُّ الله به على من أحبوا لقاءه ، فهانت عليهم الملذات والشهوات، واستعلوا على معوقات الدنيا وهو يمارسون شؤون الحياة وفق معايير الإسلام ، ويعملون لإعلاء كلمة الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو قال : حدثنا هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن ابن أبي ذباب عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مرَّ بشِعب فيه عيينة ماء عذبٍ فأعجبه طيبه فقال : لو أقمت في هذا الشِعب ، فاعتزلت الناس ، ولا أفعل حتى أستأمر رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاة ستين عاماً خالياً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم

الجنة ، اغـزوا في سبيل الله ، مـن قاتل في سبيـل الله فواق ناقـة وجبت لـه الجنة ».
الفُواق والفَواق : بضم الفاء وفتحها : ما بين الحلبتين من الوقت .

هذا بيان واضـح جليٌّ من خير الخلق عليه الصلاة والسلام لـذلك الصحابي الذي لم يُقدم على اتخاذ قـرار ، فيما اشتهت نفسه من العزلة وتـرك الجماعة، إلا بعد استئذان رسول الله ﷺ ، فكان هذا البيان للمستشير المستأذِن، ولمن وراءه من أبناء الأمة ، الـذي قام على أن طـريق جنة الخلـد ، سلعة الله الغاليـة ، طريـق الجهاد، والإسهـام في بناء الفـرد المسلم والمجتمـع المسلم ، مـن طريـق الجهاد ، والعمـل المشترك، والصبر على ما يعترض ذلـك من المشـاق والنصَب، لا العـزلة في ذلـك الشِعب، ولو مع التعبد عند تلك العيينة التي عذُب ماؤها وطاب ، مع ما للعبادة من قيمة جُلّى، ويُحمد له ـ رضي الله عنه ــ بما أعطى لمن بعده درساً في التعامل مع الإسلام ، وأن على المسلم أن لا تحكمه الرغبات الفردية، دون الرجوع إلى حكم الله ورسوله في كل شأن من الشؤون .

وتطالعنا رواية الترمذي للحديث، بما يزيد هذه القضية وضوحاً وتجلية ؛ فقد أخرج بسنده عن أبي هـريرة رضي الله عنه أنه قال : «مرّ رجـل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعب فيـه عيينةٌ من مـاء عذبةٌ ، فـأعجبته لطيبهـا ، فقال : لو اعتـزلت الناس ، فأقمت في هـذا الشِعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسـول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : لا تفعل : فإن مقـام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً . ألا تحبون أن ينظر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله . من قـاتل في سبيل الله فَواق ناقـة وجبت له الجنة » قـال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

ذلكم هو المنهج النبوي في بناء حياة الأمة على الإسلام ، بناءً متكاملاً ، يشيع الحياة الحقيقية في كـل جانب ، ويقيم الـواقع الإسلامي في تـوجه صادق إلى الله ، وإخـلاص في الجهـاد في سبيلـه ، وتطلُّع إيماني عملي إلى عطـاء الـرحمن الـرحيـم

سبحانه وتعالى، في جنة لا يزول نعيمها ، وأصحابها في هذا النعيم المقيم خالدون ؛ لأنهم عبدوا الله حق العبادة ــ بمفهومها العميق الشامل ــ وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ولم يبخلوا بمستطاع .

وأكرم به مشهداً ، مشهد هؤلاء الأبرار المجاهدين في سبيل الله ، وهم ينقلون خطاهم يوم القيامة ، إلى دار العطاء الرباني الذي لايُحَدُّ ، في سلعته الغالية التي وُعدوها ، واشتد شوقهم إليها.. مشهدهم والنور بين أيديهم وبأيمانهم إليها ، بما كان من سعيهم الحثيث المخلص، وبما شمرّوا إليها ــ عملاً بترغيب رسول الله الصادق الأمين ـ فكان لهم بفضل الله ما أرادوا ، وصدق فيهم قول الله جلّ شأنه: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ ولم لا يكونون كذلك، وهم في رضوان الله يرفلون في نعيمها ، وتراهم ﴿على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أخرج ابن ماجة بسند في بعض رجاله مقال عن كُريب مولى ابن عباس أنه قال : حدثني أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه : « ألا مشمِّر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطّرد ، وفاكهة كثيرة نضِجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحُلَلٌ كثيرة في مقام أبداً . في حبْرة ونضْرَة ، في دور عالية سليمة بهية . قالوا: نحن المشرون لها يا رسول الله ! قال : قولوا إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحضّ عليه » .

معنى ألا مشمِّر للجنة : ألا ساع لها غاية السعي جادٌ فيها أكمل الجد ، لأن التشمير في الأمر والتشمُّر : الهُّم وهو الجد فيه والاجتهاد قال ابن الأثير : وفي حديث ابن عباس «فلم يقرب الكعبة ولكن شمَّر إلى ذي المجاز » أي قصد وصمّم وأرسل إبله نحوها . وحضُّ النبي ﷺ من خلال هذا التعبير « ألا مشمّرٌ » على التشمير في طلب الجنة ، واضح كل الوضوح ، والخطر هنا : المِثل ـ كما أشرت في مناسبة أخرى ــ فالجنة لا مثل لها ، ولا يقال هذا إلا في الشيء الذي له قدر

ومزية قال السندي : وعلى هذا : هو من قولهم : هذا خطر لهذا : أي مِثل له في القدر . ونَهر مطّرد : أي جار عليها من اطّردَ الشيءُ أي تبع بعضه بعضاً وجرى . وجاء في النهاية: وفي حديث الإسراء « فإذا نهران يطّردان » أي يجريان وهما يفتعلان من الطّرد . والحَبْرة : النعمة وسعة العيش . أما النّضرة : فهي حسن الوجه ورونقه .

وأخرج الحديث ابن حبان في صحيحه بلفظ « ألا هل مشمّرٌ للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها .. الحديث ».

وكم في تاريخنا من الوقائع التي تثبت جِدِّيَّة وصدقَ ما قال أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد رغبهم رسول الله في الجنة وندبهم إلى العمل لها ،عندما قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله ونبَّههم على أن يقرنوا هذه الدعوى بالمشيئة فيقولوا إن شاء الله . وقصة استشهاد عمير بن الحُمام ، بضم الحاء وتخفيف الميم ، السُّلَمي الأنصاري، وهي القصة القريبة من نفس كل مؤمن، غُرّة في جبين تلك الوقائع لما أنها ـ والله أعلم ـ صورة صادقة تعبر عن سرعة الاستجابة العملية لما رغب فيه رسول الله ﷺ يوم بدر ، من أن الفوز بالجنة ، عاقبة من قتل وهو يقاتل المشركين محتسباً مقبلاً غير مدبر ، فقد جاء عند ابن اسحاق «أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» ، وسارع عُمير إلى الموت في سبيل الله ملقياً تمرات كانت في يده لأنه استبطأ أن ينتظر ساعة لقاء الأحبة في الجنة حتى يأكلها . وعند مسلم عن أنس رضي الله عنه «أنه لما دنا المشركون يوم بدر قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض . قال : يقول عمير بن الحُمام الأنصاري : يارسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم قال : بخٍ . بخٍ . فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخٍ . بخٍ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال : «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قَرَنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بما كان معه من

التمر ثم قاتلهم حتى قتل ».

لقد كانت الجنـة التي عرضها السماوات والأرض، والتي آمن بـوجودها حتى كأنه يراها رأي عين ، أغلى عنده من الحياة في هذه الدار الفانية ، فكانت المسارعة بعد التصديق الجازم ، وكان الاستشهاد ...

إن مواكب أهل الجنـة يوم القيامة ، برهان على أن التفـاعل الإيماني الصادق، مع دعـوة الخير يُعطي عطـاءه في بناء المجتمع الإسـلامي المنشـود، ويثمر ثمـراته الطيبة يوم الفصل في الآخرة ، ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾.

# الفردوس الأعلى.. والشهادة

نتابع اليوم مـا سبق من الكلام، حول الاستجابة الصـادقة لترغيب النبي ﷺ في الجنة، وما أعـد الله لأهل الجهاد والتقوى وصـالح العمل ، من النعيـم الذي لا ينفد والخلـود الذي شاءه الله لأهـل القرب الذين لم يضنُّوا ببذل الوسـع مهما غلا الثمن ، لأنهم علمـوا أن الجنة ـ وهـي سلعة الله ــ غالية ،لا تنـال إلا بالصبر على المكاره واقتحام عقباتها بعزيمة ، وصدق معـه سبحانه . ولقد أوردت ـ فيما سبق ـ عدداً من الوقائع، كان آخرها واقعة الاستجابة الرائعة من عُمير بن الحُمام السَّلَمي الأنصاري يوم بدر حيـث الأمور على أشدها ، والفئة القليلة العـدد والعدة تقاتل الفئة الكـافرة كبيرة العـدة والعدد . ومـا أكثر أولئـك الذيـن صدقـوا ما عـاهدوا الله عليه ، وسـوف تشهد الخلائق ، كيف تزدان بـدمائهم الـزكية مشاهد القيـامة ، لأنهم كـانوا على يقين ــ تتزعـزع الجبال ولا يتـزعزع ــ بأن الله اشترى مـن المؤمنين أنفسهم وأمـوالهم بأن لهم الجنة يقاتلـون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعـداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ولا أحد أوفى ببيعه من الله ..

وهذا واقعةٌ تذكر ـ من جهة أخرى ـ بإسهام المؤمنات مع المؤمنين ، على هذه الساحة الميمـونة بنورها وعطر دمائهـا ، أجل تذكِّر بما كان عليـه النساء المؤمنات أمهـات الشهداء، مـن صبر واحتسـاب ، وشعـور بفضل الله عليهـن ، أن قسـم لأولادهن أن يكـونوا جُنْـد الحق بقيادة النبـي عليه الصـلاة والسلام ، وأن تكـون عاقبتهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأنهم بعد استشهادهم . أحياءٌ عند ربهم يرزقون .

وما أعظم أن يكون من وراء العاملين المجـاهدين . أمهات على هذا المستوى من الإيمان بـالغيب والتصديق بما بشر بـه رسول الله عليه الصلاة والسـلام ، ففي

باب « من أتاه سهم غَرْب فقتله » من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح قال الإمام البخاري : حدثنا محمد بن عبدالله قال : حدثنا حسين بن محمد أبو أحمد قال: حدثنا شيبان عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبيَّ ﷺ فقالت : يا نبي الله تحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غَرْب أو غَرَبٌ ـ فإن كان في الجنة صبرت ، و إن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . قال : يا أم حارثة إنها جنان في الجنة ، و إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » وفي رواية أخرى للبخاري ما يدل على صغر سن حارثة يومذاك ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد الحكماء ـ وجّه الأمّ ونبّهها بأسلوبه الحكيم على كليمة بدرت منها ، وقد جاءت في باب « فضل من شهد بدراً» من كتاب المغازي إذ روى رحمه الله بسنده عن حُميد أنه قال : سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : « أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام ، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله قد عرفتَ منزلةَ حارثة مني ، فإن يكن في الجنة أصبرْ وأحتسبْ ، و إن تكن الأخرى ترَ ما أصنع فقال : ويحك ـ أَوَ هبلتِ ـ أَوَ جنةٌ واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة و إنه في جنة الفردوس » .

وهنيئاً لحارثة ، البشارة بجنة الفردوس ! إنها البشارة التي تتألق سمواً ويتضوّع شذاها بالنفحات الإلهية من الكريم المنان . وقد صحّ عن النبي ﷺ بيان للفردوس ، بأنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، بين ذلك عليه الصلاة والسلام ـ كما سبق من قبل ـ في معرض الترغيب بصدق الإيمان ، والعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، والقيام بالعبادة على الوجه المطلوب ، وأن من سلك هذه السبيل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ؛ ففتحت باب « درجات المجاهدين في سبيل الله » من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح روى البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : إن في

الجنة مـائة درجة أعدّها الله للمجـاهدين في سبيل الله ، مـا بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ـ أراه قال : وفوق عـرش الرحمن ـ ومنه تفجّر أنهار الجنة » قال محمـد بن فُليح عن أبيه : « وفوقه عرش الرحمن » .

ولا بد مـن ملاحظة أن الزكـاة والحج وهما من أركان الإسلام الخمسـة ، لم يرد ذكرهما في هذه الروايـة ، فهل كان ذلك لأنهما لم يكونا فُرضا ؟ ذلـك ما ذهب اليه ابن بطال ، وقال الحافظ ابن حجر : بـل سقط ذكره ـ أي الحج ـ على أحد الرواة ، فقد ثبـت الحج في الترمذي في حديث معـاذ بن جبل وقال فيـه : « لا أدري أذكر الزكاة أم لا » ؟ وأيضاً فإن الحديث لم يذكر لبيان الأركان ، فكان الاقتصار على ما ذكر إن كان محفـوظاً لأنه هو المتكرر غـالباً ، وأما الزكاة : فـلا تجب إلا على من له مال بشرطه ، والحج فلا يجب إلا مرة على التراخي .

وجميل ما ذهب إليـه صاحب « فتح الباري » من أن قـوله ﷺ : « وجلس في بيته أو وجلـس في أرضه التـي ولد فيها » فيـه تأنيس لمن حُـرم الجهاد ، وأنـه ليس محروماً من الأجر ، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة وإن قصَّر عن درجة المجاهدين .

هذا : وروايات الحديث يـوضح بعضها بعضاً ؛ ففي قول أبي هـريرة في رواية البخاري هنا : « فقالوا : يا رسول الله » الذي خـاطبه بذلك، هو معاذ بن جبل كما في روايـة الترمذي ــ التي سترد قـريباً إن شـاء الله ــ أو أبو الـدرداء كما وقع عنـد الطبراني ، وأصله في النسائي ، لكن قال فيه : « فقلنا ».

وتحسن الإشارة إلى أنـه كانت للعلماء وقفة عنـد قوله عليه الصـلاة والسلام: «وإن في الجنة ما ئة درجـة » فقد نقل الشراح عن الطِّيبي قولـه : «هذا الجواب من أسلوب الحكيـم ، أي بشِّرهم ــ والخطاب لحذيفـة ـ بـدخولهم الجنـة بما ذكر مـن الأعمال ، ولا تكتف بذلك ، بل بشِّرهم بالـدرجات . ولا تقتنع بذلك ، بل بشرهم

بالفردوس الذي هو أعلاها » . واتجه ابن حجر إلى أنه لو لم يرد الحديث إلا كما وقع هنا ـ أي في رواية أبي هريرة عند البخاري ـ لكان ما قال ـ يعني الطيبي ـ متجهاً ، لكن وردت في الحديث زيادة دلت على أن قوله : « في الجنة مائة درجة » تعليل لترك البشارة المذكورة . فعند الترمذي من رواية معاذ المذكورة « قلت : يا رسول الله ألا أخبر الناس ؟ فقال ﷺ : ذر الناس يعملون ، فإن في الجنة مائة درجة » فظهر أن المراد : لا تُبشِر الناسَ بما ذكرته من دخول الجنة لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه، فيقفوا عند ذلك ، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد ، وهذه هي النكتة في قوله : « أعدها الله للمجاهدين » به. وإذا تقرر هذا، كان فيه تعقب على قول بعض شرّاح المصابيح ـ ويعني الطيبي ـ: سوّى النبيُّ ﷺ بين الجهاد وعدمه، وهو الجلوس في الأرض التي ولد فيها ؛ ووجه التعقب: أن التسوية ليست على عمومها ، وإنما هي في أصل دخول الجنة ،لا في تفاوت الدرجات كما قررته والله أعلم . وليس في هذا السياق ما ينفي أن يكون في الجنة درجات أخرى أعدت لغير المجاهدين دون درجة المجاهدين .

ويرى العينيُّ أن استدلال الحافظ ابن حجر بالزيادة التي وردت في حديث معاذ غير مسلّم ؛ لأن الزيادة المذكورة: في حديث معاذ بن جبل ،وكلام الطيبي وغيره : في حديث أبي هريرة ؛ فكيف يكون ما في حديث معاذ، تقليلاً لما في حديث أبي هريرة ... إلى آخر كلامه . وذهب القسطلاني إلى القول بأن ما قاله العيني ليس مانعاً مما ذكره الحافظ ابن حجر ؛ فالحديث يبين بعضه بعضاً ، وإن تباينت طرقه واختلفت مخارجه ورواته، على ما لا يخفى .

وصلى الله وسلم وبارك على البشير النذير الذي علّم أمته الكتاب والحكمة ، ووضع الأمور مواضعها ، فجعل من الخبر عما أعدّ الله لعباده الصالحين ــ على درجاتهم مجاهدين وغير مجاهدين ــ حافزاً أيَّ حافز على تجويد العمل في الدنيا والإخلاص فيه ، وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين ..

الرحلة مع مشاهد القيامة، كما حملت أخبارها الكلمات الهاديات في كتاب الله وفي بيانه من حديث خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، مذكرة ـ أبداً ـ بما ورد في دواوين السنة من الترغيب النبوي الكريم في سلعة الله الغالية ، جنة الخلد التي جعلها نُزُلاً لأهل التقوى من عباده ، وأودعها من الكرامة لهم ، مالا يعلم علمه إلا هو سبحانه ! فمن خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل .

وكما تذكِّر الرحلة بتلك السلعة العظيمة المباركة ، تذكِّر بما بيَّن عليه الصلاة والسلام ، من الطرائق التي لابد من سلوكها من أجل الفوز بها ، وهي طرائق تتناسب مع عظمتها ورفعة منزلتها . وهل ينسى المؤمن ما حملت نصوص السنة إلى الأمة من ترهيبه عليه الصلاة والسلام ــ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ــ من نار الجحيم، مصير من طغى وآثر الحياة الدنيا ، وبيان المنهج الذي لابد من أخذ النفس به على صعيد التصور والسلوك ، كيما يزحزح المرء ـ برحمة الله ــ عن النار ، ولا يكون في عداد من يصلونها ويدعون هنالك ثبوراً ، ويقال لهم : لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً .

ومن دلائل نبوة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، ما جاء في هديه ـ وهو يثير كوامن الإيمان في نفوس أهل الإيمان شوقاً إلى الجنة ــ كما سلف في رواية البخاري وغيره ـ بالفردوس ، وأنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ودعوته المسلمين أن يسألوا الله الفردوس ــ إذا سألوه ــ أن يجعلهم من أهلها خالدين فيها أبداً لا يصيبهم فيها ظمأ ولاهم عنها ينزفون .

وعلى سنن العناية بما يزيد الدلالة وضوعاً في الكشف عن الغرض الهادي في النصوص ، يبدو لزاماً ، إيراد الحديث على ما هو في رواية الترمذي عن معاذ رضي

الله عنه ، لما في تلك الروايـة من البيان لأمر أُجمل في رواية البخاري عـن أبي هريرة رضي الله عنـه ، واستشهد بـذلك الحافـظ ابن حجـر وهو يتنـاول النص بـالشرح والتحليل . ذلك ما أخرج رحمه الله في باب «ما جاء في صفات درجات الجنة » من سنن الترمذي « الجامع الصحيح » عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مـن صام رمضـان ، وصلّى الصلوات ، وحـج البيت ــ لا أدري أذكر الزكاة أم لا ــ كان حقاً على الله أن يغفر له ، إن هاجـر في سبيل الله أو مكث بأرضه التـي ولد فيها . قال معاذ : ألا أخبر بها النـاس ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذر النـاس يعملون ، فـإن في الجنة مـائة درجـة ، ما بين كـل درجتين ، كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وفوق ذلك عرش الرحمن ، ومنها تفجرّ أنهار الجنة ، فإذا سألتم الله ، فـاسألوه الفردوس » والحديث حسن تشهـد له رواية النسائي في باب « درجة المجاهد في سبيل الله » من « السنن ». فقد أخرج النسائي رحمه الله في هذا الباب عـن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « من أقام الصلاة وآتى الزكاة ومات لا يشرك بالله شيئاً ، كان حقاً على الله أن يغفر له، هاجر، أو مات في مولده . فقلنا : يارسول الله ألا نخبر بها الناس فيستبشروا بها ؟ قال : إن في الجنـة مـائة درجـة ، مـا بين كـل درجتين كما بين السماء والأرض ، أعـدّهـا الله للمجاهدين في سبيله ، ولولا أن أشقَّ على المؤمنين ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ولا تطيب أنفسهم أن يتخلفـوا بعدي ، ما قعدت خلاف سريـة ، ولوددت أني أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » إسناده حسـن .

والحق أن النبي عليـه الصلاة والسلام ــ كما يبدو من هـديه الحكيم ومنـه ما نرى في هذه النصوص ـ كان حريصاً ـ وهذه حقيقة سبقت الإشارة إليها غير مرة ـ على التكامـل في التوجيه الهادف إلى بناء الإنسـان المسلم ، بحيث يرغِّـب في جنة عدن وما تزدان به من إكرام الله للبررة أهل التقوى من عباده ، ولا يدع أن يجمع إلى ذلك، إرشاده المؤكد إلى أخذ الأسباب الموصلة ـ بفضل الله ـ إلى المقصود ، وذلك بانتهاج سبيل المنيبين ، عملاً للصالحات ، وإكثاراً من القربات وفعل الطاعات،

وجهاداً في سبيل الله .. كـل أولئك مع استيفاء شريطين أسـاسيتين هما : أن يكون العمل وفق هديه عليه الصلاة والسلام ، وأن يكـون خالصاً لله عز وجل لا تشوبه شائبـة رياء أو غـرض دنيوي قريـب؛ فسلعة الله الغـالية ـ وهـي الجنة ـــ لا تنال بالإهمال والقعـود مع القـاعدين ، ولكـن تنال بالنصَـب في طاعـة الله على النهج المرضيِّ لله ولرسوله ، وذلكم هو التوفيق للفوز برحمة الله تعالى ، التي تجعل من يفوز بها ، أن يكون في مثوى المتقين يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ولقد يكـون من الخير التـذكير بأن منهجه عليـه الصلاة والسـلام ، فيما نحن بسبيل إيضاحه ، يؤول بالمسلم والمسلمة إلى أن لا يتخذ المرء من البشارة العظيمة في الآخرة ، وسيلة إلى الكسـل أو التقاصر عن أي عملٍ أُخروي في طـاعة الله ، بل يتخذ من البشريات ، حافزاً يصل به إلى أطيب الثمرات بعون الله .

أخرج النسائي تحت عنوان « ما لمن أسلم وهاجـر وجاهد » من كتاب الجهاد في السنن الصغرى « المجتبـى » عن عمرو بن مالـك الجنْبي أنه سمع فَضَـالة بن عُبيد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا زعيـم ـ والزعيم الحميل ـ لمن آمن بي وأسلم، وهـاجر ، ببيت في ربض الجنـة ، وبيت في وسط الجنة ، وأنـا زعيم لمن آمن بي وأسلم وجـاهد في سبيل الله ببيت في ربض الجنة ، وببيـت في وسط الجنة ، وببيت في أعلى غرف الجنـة ؛ من فعل ذلك ، فلم يـدع للخير مطلباً ولا من الشرّ مهرباً ، يموت حيث شاء أن يموت ».

الزعيم : الكفيل وكذلك الحميل . ربـض الجنة : أدناها ، وربَض المدينة : ما حولها . جاء في النهـاية : ربض الجنة : بفتح البـاء : ما حولها خارجـاً عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدينة وتحت القلاع .

وليس هذا ـ ومثله كثير ـ فحسب ، بل وردت بعض الأحاديث التي تكشف عما يحصل بين المؤمن والشيطان من الصراع ؛ لما أن الشيطان يريد أن يصدَّ المؤمن عن سبيل الله وطرائق الخير ، وكيف أن المؤمن ـ بصـدقه ، وعزمه في طلب مرضاة

الله ، ومتابعته طريق الجنة المحفوف بالمكاره والصعاب ـ فاز بأن يكون حقاً على الله ـ وهو المنعم المتفضل سبحانه ـ أن يُحلَّه دار المقامة خالداً فيها ونعمت دار المتقين .

روى النسائي في الباب السابق ذكره من « المجتبى » عن سبرة بن الفاكه أو ابن أبي الفاكه رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، قعد في طريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه وأسلم، وقعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وانما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل ، فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : تجاهد ؟ فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل ، فتُنكَح المرأة ويقسم المال ، فعصاه فجاهد . قال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » قال الحافظ في « التهذيب » وهو يترجم لسَبُرة . وفي إسناد حديثه اختلاف ، وقال وهو يترجم له في « الإصابة » : صحابي نزل الكوفة له حديث عند النسائي بإسناد حسن إلا أن في إسناده اختلافاً ، وجاء بالحديث الذي نحن بصدده ثم قال : وقد صححه ابن حبان .

الطِّوَل : بكسر الطاء وفتح الواو : الحبل الذي يشد أحد طرفيه في وتد والطرف الآخر في يد الفرس ، وهذا من كلام الشيطان ومقصوده ـ كما يقول العلماء ـ أن المهاجر يصير كالمقيّد في بلاد الغربة لا يدور إلا في بيته ولا يخالطه إلا بعض معارفه ، فهو كالفرس في طِوَل لا يدور ولا يرعى إلا بقدره ، بخلاف أهل البلاد في بلادهم ؛ فانهم مبسوطون لا ضيق عليهم ، فأحدهم كالفرس المرسل .

وما من ريب في أنه بقدر ما يكون المرء صادق الشوق إلى الجنة ، والفوز بما يكون من كرم الله في أرجائها بعد الأهوال الشداد التي تضرب على الناس بالأسداد في عرصات القيامة ، يكون جدَّ حريص على عمل الصالحات ، والإكثار من

الطاعات والبعد عن المخالفات ، والبذل في سبيل الله أكثر وأكثر ، بدءاً بالأعمال المفروضة التي افترضها الله على عباده واجتناب المحرمات .

وهنيئاً لأهل الاستقامة وصلاح القول والعمل ، ما بشَّر به رسول الله ﷺ .

والسعيد السعيد من انتفع بهديه عليه الصلاة والسلام انتفاعاً ينعكس على أعمال الجوارح والقلب .

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريـرة رضي الله عنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « والذي نفسي بيده ـ ثلاث مرات ـ ثم أكبّ ، فأكبّ كل رجلٍ منا يبكي ، لا يدري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشرى ، فكانت أحبّ الينا من حُمْر النعَم ، قال : ما من عبـد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت لـه أبواب الجنة وقيل : ادخل بسلام » أخرجه النسائي في « باب وجوب الزكاة » وهو حديث حسن .

# حُزمت عليه الجنة

لا يخفى أنه لا يبلغ المرء ما يبلغ أهل الرضى ، من دخول الجنة يوم الدين والفوز برضوان من الله أكبر ، إلا بأن ينسج على منوالهم ، ويأخذ نفسه بما أخذوا به أنفسهم من الطاعة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام ، طاعة قائمة على العلم بالدين ، خالصةً لا تشوبها الأهواء، ولا نزوات النفس وزخرف الشيطان ؛ فسلعة الله الغالية : ثمنُها متسق مع سموِّها ، ورضوان الله لا ينال بالعبث والانحدار إلى سلوك الغافلين ، ولكن ينال بالجد والاجتهاد في العمل للآخرة ، والتعرض لنفحات الله ، على ساحة العبودية الخالصة له سبحانه . ومن عقل عن الله ورسوله ذلك، كان حريّاً أن لا يحيد عن الصراط السوي ، وأن ينعم بالنفحات الربانية ، ويحظى برحمة المولى جل وعلا التي لاغناء لمخلوق عنها . وإن رحمة الله قريب من المحسنين .

ولما كانت الأعمال بالخواتيم ـ كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كان مطلوباً من المؤمن ــ وهو يطمح إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، لا يمسُّ أهلها نَصَبٌ ولا يمسُّهم فيها لغوب ــ أن يكون حريصاً الحرص كلَّه على أن يكون على المحجة البيضاء ، يخاف أن تزلَّ به القدم ، فلا يصبر على طريق النجاة صبر المجدّين ، ولا يقف من الشهوات والفتن الموقعات موقف الذين يرجون رحمة الله ، ويخافون من عذابه يوم الدين ، فيختم له بمصير الغافلين .

وفي حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ما يُبين عما يؤول إليه أمر بعض الناس من الخسران المبين ، بالحرمان من دار المقامة جنة النعيم ، بسبب انقلاب حالهم ، وتغيُّر ما بأنفسهم؛ الأمر الذي يدخل الرعب الشديد إلى النفس، من أن تتقاعس في الخير ، أو تتهاون في عمل صالح ، طمعاً بطول السلامة وبعد الأجل،

ويحرك القلب إلى مزيد من اليقظة الإيمانية ، خشيـة أن ينال المؤمن ما نال هؤلاء ـ والمُعاذ الله ـ يـوم زاغوا عن الطريق الآمنـة ، طريق العبودية وحسـن الإنابة إلى الله والتوجه إليه وحده بالاستعانة على لأواء الطريق ، والعمل الصالح والجهاد .

هنا مَثَلٌ ممن كـان قبلنا ـ والتذكير يدعو للاعتبار ـ نراه في رجل أخبر رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصـدوق ـ أنه بادر بقتل نفسه ضجراً ممـا هو فيه من ضرٍ أصابه ، ونزوعـاً إلى عدم الرضى بقضاء الله ؛ فقد نكأ جُـرحَه ، لا للتداوي ، ولكن ليتحر ، فحرّم الله عليه الجنة . ذلكم ما أخـرج الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء من الجامع الصحيح « باب ما ذكر عن بني إسرائيل » حيث قال رحمه الله : حدثنا محمد قال : حدثنا حجاج قال : حدثنا جرير عن الحسن ـ يعني البصريَّ ـ قال : حـدثنا جنـدب بن عبـدالله رضي الله عنه في هـذا المسجد ، ومـا نسينا منـذ حدثنـا ، وما نخشى أن يكون جنـدب كذب على النبي ﷺ قال : قـال رسول الله ﷺ : « كان فيمن كان قبلكم رجل به جُرح ، فجزع ، فأخذ سكينا ، فحَزَّ بها يده ، فمارقأ الدم حتى مات . قال الله تعالى : بـادرني عبدي بنفسه حرَّمت عليه الجنة ». قال العلماء : المسجد المذكور هنا : مسجد البصرة .

والملاحظ أن الحسـن البصري رحمه الله ـ حرصاً منـه على الإفادة من حـديث رسول الله ﷺ ، والاتعاظ بالواقعة المخبر عنها ـ عمد إلى إدخال المزيد من القناعة إلى نفوس السامعين ، والوثوق بما يقال ؛ فهو يشير بقوله : « وما نسينا منذ حدثنا » ـ كما يقول الحافظ ـ إلى تحققه لما حدّث به ، وقرب عهده ، واستمرار ذكره له .

أما قوله : « وما نخشى أن يكـون جندب كذب على النبي ﷺ » : ففيه إشارة إلى أن الصحـابـة عدول ، وأن الكـذب مـأمـون من قبلهـم ، ولا سيما على النبـي صلوات الله وسلامـه عليه . وعلى هذا تقع الطمـأنينة الكاملة ، ولا عـذر في عدم الاعتبار .

وقال الإمام مسلم : حـدثني محمد رافع قال : حدثنا الزبير ـ وهو محمد ابن

عبدالله بن الزبير ـ قال : حدثنا شيبان قال : سمعت الحسن يقول : « إن رجلاً ممن كان قبلكم خرجت به قُرحةٌ ، فلما آذته انتزع سهماً من كنانته ، فنكأها فلم يرقأ الدم حتى مات . قال ربكم : قد حرّمت عليه الجنة . ثم مدّيده ـ أي الحسن البصري ـ إلى المسجد فقال : إي والله لقد حدثني بهذا الحديث جندب عن رسول الله ﷺ في هذا المسجد ».

وله من رواية أخرى عن وهب بن جرير قال : حدثني أبي قال : سمعت الحسن يقول : حدثنا جندب بن عبدالله البجليُّ في هذا المسجد ، فما نسينا ، وما نخشى أن يكون جندب كذب على رسول الله ﷺ . « خرج برجل فيمن كان قبلكم خُراج » فذكر نحوه .

وأنت ترى أن ما جاء في الحديث من قول النبي ﷺ : « قال الله : بارزني عبدي بنفسه » هو كناية عن استعجال الرجل المذكور الموت ، فكان ذلك طريقه إلى أن يُحرِّم الله عليه الجنة التي أعدّها المولى لعباده الطائعين الراضين بقضائه ، المسلمين وجوههم إليه في السراء والضراء ، والتي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وهذا الحرمان دلّ عليه قوله جل ثناؤه ـ كما جاء في هذا الحديث القدسي ـ: « بارزني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة » لأن ذلك جارٍ مجرى التعليل للعقوبة . وهو ما ما أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر به المسلمين فينتفعوا به ، ويعتبروا الاعتبار الذي يحول دونهم ودون أن يقعوا ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فيما وقع فيه ذلك الرجل ـ ممن كان قبلنا ـ الذي كشف صلوات الله وسلامه عليه عن صنيعه في مواجهة الابتلاء ؛ فبدلاً من أن يحمد الله ويرضى بقضائه فيما قضى ، ويأخذ بالأسباب ، ضاق ذرعاً بالقدر ، فضجر واستعجل الموت، تخلصاً مما هو واقع به، ناسياً ما هو مسبغ عليه من نعم الله الظاهرة والباطنة ، فكان أن استحق هذا النكال الشديد « بارزني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة » .

لقد استعجل الموت بتعاطـي سببه من إنفاذ مقاتله ، فجعـل له فيه اختياراً . عصى الله فناسب أن يعاقبه . ودلّ ذلك على أنـه فعل ما فعل استعجالاً للموت ، لا قصداً للمداواة التـي يغلب على الظن الانتفاع بها . قال الإمـام النووي : ثم إن هذا محمول على أنـه نكأها ـ أي خـرقها وقسرها وفتحها ـ استعجالاً للموت ، أو لغير مصلحة ، فـإنه لو كـان على طريـق المداواة التي يغلب على الظـن نفعها ، لم يكن حراماً ـ والله أعلم ـ وما من ريب ـ كما ذكرت آنفاً ـ في أن العبرة بهذه الواقعة، تكمن في أن لا يقع المؤمـن فيما يعكر صفو الطريق الموصلة ـ بفضل الله ورحمته ـ إلى جنة الخلد يوم القيامة، يوم ترى أهل التقوى الذين وجهوا وجوههم في العقيدة والعمل ، إلى الذي فطر السماوات والأرض حنفاء مسلمين له سبحانه ، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وسبيل الجنـة : عماده التوحيد الخالص ، وصـدق التوجه إلى مقلـب القلوب جل شـأنه ، في العبادة والعمل ، والـرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ... وكـل ما هو من ذلك كله بسبب .

فالجنة ـ سلعة الله الغالية ـ دار الكرامة والرضـوان التي يتحرق شوقـاً إليها المتقون الذين صفت عن الأكدار قلوبهم،وأخلصت التوجه إلى الكريم نفوسهم.. هذه الـدار الكريمـة المبتغاة ، تنتظر راغبيهـا الذيـن يخلصون القصـد ، ويحسنون التزود على طريق الرحلة إليه ، بل تشتاق إليهم كما يشتاقون إليها .

وفي ظل الحقيقـة التي هـدى إليها الإرشاد النبـوي للأمـة ، تطالعنـا الأخبار الموثقة ،أن ما حدث لذلك الرجل من بنـي إسرائيل ، حدث ما يشبهه لرجل كان في ساحة الجهـاد مع المسلمين في حنين ، ودلّ ما حدث على أنه ليـس بذاك ؛ فقد قاتل هذا الرجل قتالاً شديداً ، ولكن زَيْغَ القلب جرّه إلى التي ينأى عنها المؤمنون، فحُرم الجنـة وكان مـن أهل الجحيـم . أخرج الإمـام مسلم في صحيحـه عن ابـن المسيَّب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « شهدنا مع رسول الله ﷺ حنيناً ، فقال

لرجل ممن يُدعى بالإسلام : هذا مـن أهل النار . فلما حضرنا القتال ، قاتل الرجل قتالاً شديداً ، فأصابته جراحة ، فقيل : يا رسول الله ، الرجل الذي قلت آنفاً . إنه من أهـل النار ، قاتل اليـوم قتالاً شديـداً وقد مات . فقال النبـي ﷺ : إلى النار ، فكـاد بعض المسلمين أن يـرتاب .. فبينما هـم على ذلك ، إذ قيـل : إنه لم يمـت، ولكن بـه جراحـاً شديـداً ، فلما كان مـن الليل لم يصبر على الجراح ، فقتـل نفسه. وأُخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال : الله أكبر ، أشهد أني عبدالله ورسوله ، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس : أنه لا يدخل الجنة إلا نفـس مسلمة ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ».

هذا : وفي قول أبي هريرة : « فكـاد بعض المسلمين أن يرتاب » أثبتت ( أن ) مع ( كاد ) وهو جائز ولكنه قليل .

وصلى الله وسلـم وبـارك على مـن لا ينطق عـن الهوى، فقـد أطلعـه الله على حقيقة ذلك الرجـل ومصيره . وأنى لمن هو على هذه الشاكلة ، أن يكـون من أهل الجنة وقـد حاد عـن سبيلها ، لـذا كان يوم القيـامة الحرمـان منها ــ كما أخبر إمام الصـادقين ــ وسبحـان مقلِّـب القلـوب ، ونسألـه تعـالى أن يثبتنـا ، فضـلاً منـه وإحساناً، بقـوله الثابت ويجعلنا يـوم الآزفة مع الذين أنعـم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

# الصدق في طلاب الجنة.. نوره وثمرته

من جميل ما أكرم الله به أمتنا التي أعزها الله بالإسلام ، ما زخرت به دواوين السنة المطهرة ، من الدلالة على أبواب الخير التي إن أحسن المؤمن ولوجها، وصلت به إلى منازل الأبرار في جنة الفردوس مثوى عباد الله الصالحين .

وهذه الحقيقة هي في أحد وجهيها : حافز من أعظم الحوافز على تلبية النداء، والصبر على ما يوجبه سلوك الطريق الصاعدة إلى تلك المنازل ، وذلك بنقد الثمن الذي لابد من نقده ؛ إيماناً وجهاداً في سبيل الله وصبراً على المكاره . وهي في وجهها الآخر : فيض من فيض الكرم الإلهي من لدن رب كريم ، خزائنه ملأى لا ينقصها عطاء ، ويده سحاء بالجود الذي لا ينقطع ، وهو الغني الحميد .

ومما يشهد لهذا من الكتاب العزيز : تلك الآية الكريمة التي عبّرت عن عقد التبايع بين الخالق سبحانه وتعالى وبين المؤمنين على السلعة الغالية، ذات القدر العظيم ، ذلكم قول الله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ..** ﴾.

فالمؤمنون عقدوا مع مولاهم تبارك وتعالى هذه البيعة؛ رضىً واختياراً من غير ثبوت خيار ، موقنين بأن السلعة التي هي محور المقصد؛ من الخسران البيّن والغبن الفاحش: أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة ، تذهب لذتها وشهوتها ، وتبقى لوعتها وحسرتها ، ولذلك رضوا ببذل الأنفس والأموال ثمناً لها . غير أن المولى الكريم جلّ ثناؤه لم يبتغْ منهم نفوسهم وأموالهم طلباً للربح عليهم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المبيع مع عيبه، والإعطاء عليه أجلّ الأثمان ، ثم جمع لهم بين الثمن والمثمن . ولمتأمل أن يتأمل قصة جابر بن عبدالله ـ وقد اشترى منه ﷺ

بعيره ، ثم وفّاه الثمن وزاده ، وردّ عليه البعير ـ وكان أبوه عبدالله رضي الله عنه قد قاتل مع النبي عليه الصلاة والسلام في وقعة أحد ، فذكّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله ، وأخبره « أن الله أحياه وكلّمه كفاحاً وقال : يا عبدي تمنَّ علي ». قال الإمام ابن القيم رحمه الله : فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق ، فقد أعطى السلعة ، وأعطى الثمن ، ووفق لتكميل العقد ، وقبل المبيع على عيبه ، وأعاض عليه أجلَّ الأثمان ، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن ، وأثنى عليه ، ومدحه بهذا العقد ، وهو سبحانه الذي وفقه له وشاءه منه .

وهنا تتجلى للمؤمن تلك الثمرات الطيبة ، التي يجنيها من وراء الصدق في طلاب الجنة، مستشعراً أنها تستحق أكثر وأكثر ، وأن التهاون في شأنها، سفه لا ينزل إلى دركه سفه ؛ لذا ، فهو يخاف على نفسه تسويلات الهوى وشياطين الإنس والجن، ويحاذر أن يقع ـ في شأن الآخرة ـ بما لا تحمد عقباه .

وهو إن وُفق للصدق في طلب السلعة الغالية ، وسعى لذلك سعيه وهو مؤمن، فاز بعطاء أوفر وأعظم ، كما سلفت الإشارة إلى ما كان من إكرام الله جل وعلا أولئك الذين عقدوا معه ـ تباركت أسماؤه ـ عقد المبايعة التي عبر عنها قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... ﴾ الآية.

وقد أسعدتنا من قريب وقفة مع قوله عليه الصلاة والسلام : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . واقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ .

والمؤمن الموفق لاستشعار هذه الحقيقة في المعتقد والسلوك ، تقتضيه النظرة المحيطة المتكاملة ، أن يخشى أشد الخشية مما توعّد الله به من سقطوا في مهواة الضلال، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا مع الغافلين، أولئك الذين تهبط بهم الغفلة إلى أن يبارحوا طريق الجنة إلى طريق غيرها ، وهي طريق لاحبة مظلمة ، لا تلبث

أن تقـذف بهم إلى نار الجحيـم ، مـع أن ظاهـر الحال ـ فيما يبـدو للناس ـ أنهم يعملون بعمل أهل الجنة ، لأن الأعمال بالخواتيم ، وله سبحانه عاقبة الأمور .

ومن هذا المنطلق ، يبدو لزاماً إعطاء مـزيد من العناية ، لتجلية هذه الحقيقة التي صحبنا لها رواية الإمام مسلم في شأن الـرجل الذي كان يبدو للناس أنه على طريق الجنـة ، ولكن النبي محمداً ﷺ أبان للنـاس أنه من أهل النـار ، وليس من الجنة وأهلها في شيء ، ثم جاءت الواقعة التي أكدت صحة وصدق ما أبان رسول الله ﷺ وهو المبلغ عن ربه ولا ينطق عـن الهوى . فتحت باب « الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها » مـن كتاب الرقاق في الجامع الصحيح روى الإمـام البخاري عن سهل بن سعد السـاعدي رضي الله عنه أنه قال : « نظر النبـي ﷺ إلى رجل يقاتل المشركين ـ وكـان من أعظم المسلمين غناءً عنهـم ـ فقال : من أحـب أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فلينظر إلى هذا . فتبعه رجل ، فلم يزل على ذلك حتى جُرح ، فاستعجل الموت ، فقـال بذبابة سيفه ، فـوضعه بين ثدييه ، فتحامـل عليه ، حتى خرج من بين كتفيـه . فقال النبي ﷺ : إن العبد ليعمـل ـ فيما يرى الناس ـ عمل أهل الجنة ، وهو من أهل النار ، ويعمل ـ فيما يرى الناس ـ عمل أهل النار ، وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بخواتيمها » .

معنى « وكان مـن أعظم المسلمين غناءً عنهم » أي كفاية . وذبـابة السيف : حده وطرفه .

هكذا يدل الحديث ـ بـرواياته المختلفة ـ أن مطلوباً من المسلـم ـ وهو يطمع أن يدخله المولى في أهل الجنة الذين هم فيها خالدون ـ أن يأخذ حذره من نزغات الشياطين ، وتسـويلات النفس والهوى ؛ وإذا مسّه طـائف من الشيطان تـذكّر ، فتاب وأناب فكان من المبصرين ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون ﴾ وكما يرجو المسلم رحمة الله ومغفرته، يخشى عذابه إن هو حاد عن الجادة ، وتمرّغ في حمأة الزيغ الصارف عـن موائد الخير ، فالله غفور رحيم، والله شديـد العقاب . قال ابـن بطال : في تغييب خـاتمة العمل عن العبـد حكمة

بالغـة ، وتدبير لطيـف ؛ لأنه لـو علم ــ وكان ناجياًــ أُعجب وكسِـل ، وإن كان هالكاً ازداد عتواً . فحجب عنه ذلـك ليكون بين الخوف والرجاء . وقد روى الإمام الطبري عن حفص بن حميد أنه قال : قلت لابن المبارك : «رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً ، فقلت في نفسي : أنـا أفضل مـن هذا ، فقـال: أَمْنُكَ على نفسـك أشد مـن ذنبه». قال الطبري : «لأنه لا يدري ما يؤول إليـه الأمر ؛ لعل القاتل يتوب فتقبل توبته ، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء» .

وهنـا لابد مـن الإشارة إلى أن كـلام كلٍ مـن عبدالله بـن المبارك وأبي جعفـر الطبري لا يقتضي التقليل مـن شأن جـريمة القتـل ظلماً ، فقاتـل العمد المسلـمَ: ظلمُه ظلم شديد ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾ سورة النساء : آية ٩٣ . ولكن الأمر يدور حول العلاقـة القلبية بين هـذا القاتـل وبين مولاه ؛ إذ الأعمال بـالخواتيم ، فلعلـه تاب وأناب ، علماً بأن التوبـة لاتستوفي شرائطها كاملة إلا بأداء حقـوق العباد والتحلل من المظالم ، مع استيفاء شرائطها الأخرى . والمؤمن في الحالات كلها ،لا يأمن مكر الله ويخاف من الحور بعـد الكور ، لأن الأعمال بـالخواتيم، كما بين رسـول الله عليه الصلاة والسلام .

هذا ولعل واقعة الرجل الذي عمد إلى إزهـاق روحه بيده : قد كانت في غزوة حنين، كما سبـق فيما روى الإمـام مسلم، أو في غـزوة خيبر ، كما سنـرى في بعـض روايات البخاري ، وليس ما يمنع أن تكـون قد تكررت ؛ فقد أورد الإمام البخاري القصة أيضـاً في « باب غزو خيبر » مـن كتاب المغازي في الجامـع الصحيح ، كما أوردها في كتاب القـدر تحت باب ترجم له بقـوله : «باب العمل بـالخواتيم » قال رحمه الله : حدثنـا حبّان بـن موسى قـال : أخبرنا عبدالله قـال : أخبرنا معمـرٌ عن الزهري عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :« شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر ، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن يدّعي الإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال ، قاتل الرجل من أشد القتال ، وكثرت به الجراح ، فأثْبَتَتْه، فجاء

رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، أرأيت الذي تحدثت عنه أنه من أهل النار ! قاتل في سبيل الله من أشد القتال ، فكثرت به الجراح ، فقال النبي ﷺ: أما إنه من أهل النار ، فكاد بعض المسلمين يرتاب ، فبينما هو على ذلك ، إذ وجد الرجل ألم الجراح فأهوى بيده إلى كنانته ، فانتزع منها سهماً فانتحر بها ، فاشتدَّ رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يارسول الله صدّق الله حديثك ، قد انتحر فلان فقتل نفسه ، فقال رسول صلى الله عليه وآله وسلم: يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ».

ولابد من ملاحظة ما جاء في هذه الرواية من قول أبي هريرة في شأن الرجل المنتحر : «فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدّعي الإسلام ». وجاء في رواية سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عند مسلم : « فجرح الرجل جُرحاً شديداً ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه ، فقتل نفسه ؛ فخرج الرجل ـ يعني الذي قال : أنا صاحبه ـ يقف معه إذا وقف ويسرع إذا أسرع ـ إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله . قال : وما ذاك ؟ قال : الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، فخرجت في طلبه حتى جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه في الأرض، وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل فقتل نفسه ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » .

ألا ما أعظم أن يكون المؤمن ـ وهو يعمل الصالحات ويجاهد في سبيل الله ـ شديد اليقظة، متوكلاً حق التوكل على مولاه عز وجل، يخاف على نفسه أن تزل به القدم، فتكون عاقبته السوأى يوم الحساب ، وأن يدأب على سلوك الطريق التي يسلكها الصالحون وهم يعبدون ربهم حق العبادة مخلصين، فتحسن العاقبة ـ بعون الله وفضله ـ وينعم هناك، بما أعدّ الله لهؤلاء الأبرار من صنوف الخير والعطاء.

# الجنة برحمة الله.. والنجاة بعفوه

كثيرة هي الطرائق التي دلّ الشارع الحكيم المسلم عليها ، ودعاه إلى تحمل تبعاتها وأعبائها ـ وإن كان يجمعها الصراط المستقيم ـ إذا كان صادق الرغبة في أن يكون نزله يوم الحسرة نُزُلَ السعداء الموفقين ، حيث العطاء الرباني ، والفضل الذي لايدانيه فضل ، وذلك هو الفوز الكبير .

وقد سبقت الإشارة غير مرة من ذي قبل ، إلى العديد من تلك الطرائق المباركة، كما ورد ذكرها في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، بياناً لما دلت عليه آيات الكتاب الكريم .

والسعيد الموفق : من يقبل عن الله ورسوله، فيأتي يوم القيامة ـ وقد بلغت الشدة الشادَّة منتهاها ـ زادُه على عتبة المساءلة: أعمالٌ صالحة خالصة ، عملها في الدنيا، راجياً رحمة مولاه وإحسانه ، فإذا بالعاقبة تكون خير عاقبة ، وإذا بالجنة التي تُزلف للمتقين ، تكون مأواه ومستقره خالداً فيها ، ولا تسل عما يكون من الفرح بفضل الله ، ورحمته حينذاك .

غير أن العلماء ـ وهم يواجهون النصوص في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وما دلّت عليه من ترتُّب دخول الجنة على العمل ، ثم من الكشف عن أن هذه العاقبة المبتغاة لكل مؤمن إنما تكون برحمة الله تعالى ولطفه بعباده المؤمنين ـ نبّهوا إلى أن الجنة ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ إنما تُدخَل برحمة الله تعالى ، وليس عمل العبد مستقلاً بدخولها وإن كان سبباً ، ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ ونفى رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال بقوله : « لن يدخُلَ أحدُكم الجنةَ بعمله ..... » الحديث قال رحمه الله موضحاً ذلك في كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » . ولاتنافي بين الأمرين لوجهين : أحدهما ـ ما

ذكره سفيان وغيره قال : كانوا يقولون : النجاة من النار بعفو الله ، ودخول الجنة برحمته ، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال . ويدل على هذا حديث أبي هريرة الذي يبين أن أهل الجنة إذا دخلوها ، نزلوا فيها بفضل أعمالهم. والثاني ـ أن الباء التي نفت الدخول في قوله ﷺ : « لن يدخلَ أحدُكم الجنةَ بعمله » هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر ، والباء التي أثبتت الدخول في قوله تعالى : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ هي باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره ، وإن لم يكن مستقلاً بحصوله . وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله : «سددوا وقاربوا وأبشروا ، واعلموا أن أحداً منكم لن ينجوَ بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ». ومنْ عَرف الله تعالى وشهد مشْهدَ حقه عليه ومشهدَ تقصيره وذنوبه ، وأبصر هذين المشهدين بقلبه ، عرف ذلك وجزم به والله سبحانه وتعالى المستعان .

ولكم يكون العبد على الجادة ، إذا وعى هذه الحقيقة، وأعطاها حقها على ساحة المعاملة مع رب العالمين ، فلا يدع أن يعمل ويجدَّ في طلب دار المتقين ، آخذاً نفسه بما يقتضيه طلبها والشوق إليها ـ وقد حفت بالمكاره ـ والرغبةُ في الزحزحة عن النار ـ وقد حفت بالشهوات ـ من صبر ومصابرة وبعد عن سبل الغافلين . وفي الوقت نفسه يُحاذر أن يُنسيه العمل ، والمسارعة إلى الأخذ بأسباب النجاة ، والفوز يوم الدين ، أن الأمر أولاً وآخراً بيد الخالق الحكيم جلّ وعلا ؛ أكانت العاقبة المرتقبة ، أعلى عليين ، أو كانت سواء الجحيم ، وطوبى لمن أدركته العناية الربانية فكان من الناجين ، وفاز فوز من يدخلون الجنة برحمة مولاهم الكريم المنان ، ويقال لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾.

هذا : والحديث الذي أشار إليه ابن القيم والذي ينصُّ على أن أهل الجنة إذا دخلوها ، نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، هو ما أخرجه الترمذي في جامعه ـ سنن الترمذي ـ بالسند إلى سعيد بن المسيّب « أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه ، فقال له أبو هريرة : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أفيها

سوق ؟ قال : نعم أخبرني رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم، ويبرز لهم عرشه ، ويتبدّى لهم في روضة من رياض الجنة ، فتوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم ـ وما فيهم دنيّ ـ على كثبان المسك والكافور ، وما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً . قال أبوهريرة قلت: يارسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال : نعم هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا: لا ، قال : كذلك لا تمارَوْن في رؤية ربكم . ولا يبقى في ذلك المجلس رجلٌ إلا حاصره الله محاصرة حتى يقولَ للرجل منهم : يا فلان بنَ فلان أتذكر يوم كذا وكذا ؟ فيذكِّر ببعض غدراته في الدنيا ، فيقول : يارب أفلم تغفر لي ؟ فيقول : بلى ، فَسَعَةُ مغفرتي بلغت بك منزلتك هذه ؟ فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم ، فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط ، ويقول ربنا تبارك وتعالى : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة ، فخذوا ما اشتهيتم ؛ فنأتي سوقاً قد حفّت به الملائكة ، فيه مالم تنظر العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، فيحْمل لنا ما اشتهينا ، ليس يباع فيها ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضُهم بعضاً قال : فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيلقى من هو دونه ـ وما فيهم دنيٌّ ـ فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخر حديثه ، حتى يتخيَّلَ إليه ما هو أحسن منه ، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزنَ فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا ، فيتلقانا أزواجنا ، فيقلن : مرحباً وأهلاً ، لقد جئت وإن بك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا ». قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روى سويد بن عمرو بن الأوزاعي شيئاً من هذا الحديث.

وعند المنذري في « الترغيب والترهيب» : ( وقد رواه ابن أبي الدنيا عن هِقْلِ ابن زياد كاتب الأوزاعي أيضاً واسمه محمد وقيل : عبدالله وهو ثقة ثبت احتج به مسلم وغيره عن الأوزاعي قال : نبئت أن سعيد بن المسيب لقي أبا هريرة فذكر

الحديث ).

وما من ريب في أن من يهمه أمر العقبى، ويكون مطمح بصره وبصيرته أبداً، ما يمكن أن يناله، يوم يقف الناس للمساءلة بين يدي جبار السماوات والأرض رب العالمين .. ما من ريب في أن من يهمه ذلك ويأخذ عليه مجامع قلبه، يتخذ مما ورد في شأن الجنة ونعيمها عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، حافزاً على العمل والإكثار من الطاعات والقربات مع صدق التوكل على مولاه جل وعلا الذي بيده الخلق والأمر وكل شيء عنده بمقدار .

والمؤمن حين تزين أعمالَه هذه الإشراقةُ المباركةُ، يكون عند الله بالمنزلة الرفيعة، فهو سبحانه لا يضيع عنده عمل عامل، ولكم كان رسول الله ﷺ وهو إمام المربين الناصحين على غاية السمو في المنهج والأسلوب عندما كان يوجه أصحابه ــ ومن ورائهم الأمة ــ إلى أن الارتباط قائم بين الحال التي يكون عليها المؤمن في الدنيا، وبين ما يناله من الكرامة في دار المقامة جنة النعيم . أخرج الترمذي بسنده عن محمد بن عبدالله بن مسلم عن أبيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « سئل رسول الله ﷺ : ما الكوثر ؟ قال : ذاك نهر أعطانيه الله ـ يعني في الجنة ـ أشدُ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيها ـ أي الجنة ـ طيْر أعناقها الجُزُر، قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول ﷺ :« أكَلَتُها أحسُن منها ». قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ومحمد بن عبدالله بن مسلم هو ابن أخي ابن شهاب الزهري، وعبدالله بن مسلم قد روى عن ابن عمر وأنس بن مالك.

أرأيت : يقول البشير النذير لعمر : «أكَلَتُها أحسن منها» ! اللهم اجعلنا من أهل كرامتك في الدنيا ويوم الدين، وهب لنا من لدنك رحمة تدخلنا بها ـ يا الله ـ دار كرامتك في عبادك الصالحين .

# الشوق إلى الجنة.. والخوف من النار

ليس عجباً من العجب، أن يأخذ التطلـع إلى العاقبة يوم القيامة ،على المؤمن مجامع قلبه ونفســه، فيقدُر هذا الأمر الخطير قدره ، لأن ذلـك عنوان العمل العقليّ للمعاد ، ووضع الأمور مواضعها دون وكـس أو شطط ؛ فالناظر فيما ورد في كتاب الله وما فصّله النبي ﷺ من أخبار يوم الفصل، وكان على بينة من ربه ، واستنارة في بصيرته ، لايملـك إلا أن يحسب لتلكم السـاعات العصيبات حسـابها ، ويعمل جاهداً دونها توانٍ أو كسل، في سبيل أن يرضى الله عنه ، فيزحزح عن الجحيم التي تسعَّر لأهل الضلالـة الذين يصدون عن سبيل الله ، ويُدْخَـل الجنة التي كتب الله أن تكون هي المأوى لعباد الرحمن المتقين ، الذين عقلوا عنه جل شأنه وعن رسوله عليـه الصلاة والسـلام ، ما ورد في شـأن اليوم الآخـر من حقـائق لاريب فيهـا ، فتفتحت قلوبهم رجاءً وخوفاً ، وسمت هممهم على طريق السالكين الذين ناصبوا الغفلة العداء ، فانتصروا على أنفسهم ، ولم تحل المكاره دونهم ،ودون أن يكونوا من أهل القرب في جنات النعيم .

والحق أن عباد الرحمن هؤلاء ـ الذين نـرجو أن يكتبنا الله برحمته في زمرتهم ـ بما عقلوا عـن الله ورسوله ، وصـدقوا بما جاء غـاية التصـديق ، قد سلمـت لهم نقطة البدء على طريق الاستقامة والعمل الذي يقرب إلى الله ، وأنعم بذلك حافزاً يرتفع بصاحبه فوق الشهوات والمثبطات ويمكِّنه ــ بعون الله وفضله ـ من الانتصار على عدو المؤمنين الشيطـان وعلى نفسه الأمارة بالسـوء . ولنا بأصحـاب رسول الله ﷺ ومن تبعهـم بإحسـان الأسوة الطيبـة النافعة ، على طـريق التصـديق الـذي يثمر العمل، ويعلي همة السـالكين إلى كل مـا فيه مـرضاة الله ورسـوله ، والفـوز بعقبى الدار في جنة الخلـد التي وُعد المتقون . فـأين من ذاك النعيم المقيـم في دار المقامة التي فيهامن المكارم مالا يحصى ، ومن العطاء الجزيل مالا يستقصى ، نعيم زائل

في الـدنيـا الفانيـة لايخلـو ـ مهما طال أمـده واتسعـت مسـالكـه وشعبه ـ مـن المنغِّصات، ناهيك عما يمكن أن يُعقبه من المسؤولية بين يدي رب العالمين .

لقـد انتفع أصحـاب النبي ﷺ ، ومـن سار على نهجهـم عبر التاريـخ، بهذا التصديـق ، الذي بعث في عقـولهم وقلوبهم الطمأنينـة، وشدَّ عزائمهـم إلى عمل الصالحات ، بأوسع معاني العمل الصالـح في الدنيا . والإكثار من القربات؛ علماً وعملاً وعبـادة وجهاداً وتـزكية للنفـس، وحملاً لها على الجادة ، حتى غـدا الواحـد منهم ـ وهو يسعى ويسهـم في بناء الحياة الإسـلامية ـ كـأنه يتحرك في عـرصات القيامة؛ فهو يروح ويغدو ، وقلبه مفعم بالشوق إلى الجنة ، والإحساس بشدة الهول يوم القيامـة وترقب المصير ، وهكذا يتحرك على حـال كأنه يرى معهـا الجنة والنار في عالم الشهود .

وما أشد حاجة الأجيال المسلمة التي تواجه التحديات الفكرية والعملية، إلى التزام هـذا المنهج الـذي هو عنـوان التكامـل والعقلانيـة الحقيقية، التـي تنشىء الحضارة السليمة من العِـوَج ، وتسعد الإنسان في الدنيا ويوم الـدين . قال الإمام البخاري في كتاب المناقـب من الجامع الصحيح : حدثني محمـد بن الحكم قال : أخبرنا النضر قال : أخبرنا إسرائيل قال : أخبرنا سعد الطائي قال : أخبرنا مُحِلُّ بن خليفة عن عـدي بن حاتم قال : « بينـا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجـل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطـع السبيل ، فقال : ياعديُّ ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد أنبئتُ عنها . قال : لئن طالت بك حياة لترينَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ـ قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دُعَّـار طيء الذين قد سَعَّروا البـلاد؟ ـ ولئن طالت بك حيـاة لتفتحنَّ كنوز كسرى ! قلت: كسرى بن هُرمُـز ؟ قال : كسرى بن هُرمُز ! ولئن طـالت بك حياة لترينَّ الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضـة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منـه . وليلقينَّ الله أحدُكـم يوم القيـامة وليـس بين وبينه تـرجمان يترجم لـه ، فيقولـنّ : ألم أبعث إليـك رسولاً فيبلغَك ؟ فيقـول: بلى . فيقول : ألم أعطـك مالاً وأُفضلْ عليـك ؟ فيقول : بلى، فينظرُ عـن يمينه فـلا يرى إلا جهنم ، وينظـر عن

يساره فلا يرى إلا جهنم . قال عدي : سمعت النبي ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شِقَّ تمرة ، فبكلمة طيبة . قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هُرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال أبو القاسم ﷺ : يُخرج ملء كفه» .

الظعينة : المرأة في الهودج وهي في الأصل اسم للهودج . والحيرة : بكسر الحاء وفتح الراء : كانت بلد ملوك العرب الذين تحت حكم آل فارس ، وكان مليكَهم يومئذ إياسُ بن قبيصة الطائي، وليها من تحت يد كسرى بعد قتل النعمان بن المنذر ، ولهذا قال عدي بن حاتم : فأين دُعار طيِّء ؟ والدعَّار : جمع داعر وهو الشاطر الخبيث المفسد ؛ والمراد : قُطَّاع الطريق. وطيِّء على وزن سَيِّد : قبيلة مشهورة منها عدي بن حاتم راوي الحديث، وبلادهم ما بين العراق والحجاز ، وكانوا يقطعون الطريق على من مرّ عليهم بغير جِوار يجمعه معهم ، ولذلك تعجب عديٌّ رضي الله عنه ، كيف تمر المرأة عليهم وهي غير خائفة . وسعّروا البلاد : أي أوقدوا نار الفتنة . والمعنى أنهم ملؤوا الأرض شراً وفساداً وهو مستعارٌ من استِعار النار وهو توقُّدُها .

والحديث رواه أحمد في المسند والترمذي في الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ وعرضت رواية الترمذي لإسلام عدي ،وجاء فيها من تذكير النبي ﷺ وإخباره عما العبد ملاقيه في الآخرة « فإن أحدكم ملاقي الله ، وقائلٌ له ما أقول لكم : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ؟ فيقول : بلى، فيقول: ألم أجعل لك مالاً وولداً ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أين ما قدمت لنفسك ؟ فينظر قُدّامه ، وبَعْدَه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ثم لا يجد شيئاً يقي به وجهه حرَّ جهنم، لِيَقِ أحدكم وجهَه النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد ، فبكلمة طيبة ، فإني لا أخاف عليكم الفاقة فإن الله ناصركم ومعطيكم ، حتى تسير الظعينة فيما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السَّرَق، قال: فجعلت أقول في نفسي : فأين لصوص طيِّء» . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب . وروى شعبة عن سماك بن حرب عن عبّاد بن حُبَيْش عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ الحديث

بطولـه . وفي رواية أحمد شيء من الاختلاف اليسير مـع تفصيل يؤكـد عمق إيمان عدي بكل ما أخبر بـه الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد جـاء في تلك الرواية : «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسـلام تقول : اتَّبَعَه ضعفة الناس ومن لا قوة لـه وقد رَمَتهـم العـرب . أتعرف الحيرة؟ قلـت: لم أرهـا وقـد سمعت بها ، قـال : فوالذي نفسي بيده، ليتمنّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحنَّ كنوز كسرى بن هُرمُز . قال : قلت كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم كسرى بن هرمز ، ولَيُبذَلنّ المال حتى لا يقبله أحد . قال عدي ابن حاتم : فهـذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت مـن غير جوار ، وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بـن هرمز . والذي نفسي بيده لتكون الثـالثة لأن رسول الله ﷺ قالها » .

وقسم عدي هذا له دلالته اليقينية على صدق إيمانه ، إنه يقسم على أن الثالثة كائنة لا محالة لأن من لا ينطق عن الهوى قالها .

ولكم يقوي هـذا اليقين من العزائم ، ويشحذ من الهمم ، ويـدفع إلى المزيد من عمل الصالحات ، وتجاوز المكاره والصعاب في سبيل الوصول إلى جنة المأوى، دار الكرامـة التي أُكُلها دائم وظلهـا ، وفيها مـا تشتهي الأنفس وتلـذ الأعين، بله رضوان الله ورؤية وجهه الكريم .

وقد روى البيهقي هـذا الحديث بطوله وجاء فيه : « وليلقينّ الله أحـدُكم يوم يلقاه ليـس بينه وبينـه ترجمان يترجم لـه فيقول : ألم أبعـث إليك رسـولاً يبلغك ؟ فيقول : بلى فينظر يمنة فلا يرى إلا جهنم ، وينظـر عن شماله فلا يرى إلا جهنم . قال عـدي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اتقـوا النار ولو بشـق تمرة ، فإن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة » .

اللهم آمنا وصدقنـا بما جاء به نبيك محمد عليه الصـلاة والسلام . ونسألك ـ وأنت الجواد الكريم ـ أن تنجينا من النار وتدخلنا الجنة مع أحبائك المحسنين .

## تمام النعمة.. والخواتيم

الإيمان العميق بما أخبر بـه النبي عليه الصلاة والسلام من الغيـب بـعامة ، وعما هو كائن يـوم القيامة وعن الجنة وأهلهـا والنار وأهلها بخاصـة ، كان منطلق الجيل المبارك جيل الصحـابة رضي الله عنهم، ثم من تبعهم بـإحسان ، إلى صالح العمل ، مصحوباً ذلك بالتفاعل الصادق مع الترغيب بالجنة والترهيب من النار . كل أولئك مع الإمسـاك بعاتق الميزان ، الذي يقفهم على أن العمـل لدخول الجنة ليس هو الأمر كلَّه ـ كما أسلفنا ـ ولكـن لابد من رحمة الله وفضله . وليس بدعاً أن يكون هـمُّ المؤمن دخول الجنـة والنجاة من النـار ! لأن ذلك عنوان رضـى الله عن العبد وقـرب العبد مـن مولاه سبحـانه ، وإنما يكـون تمام النعمة بـذلك ، كما بين الرسـول عليه الصـلاة والسلام؛ أخـرج الترمذي بسنـده في كتاب الـدعوات مـن الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ عن معـاذ بن جبل أنه قال : « سمع النبي ﷺ رجلاً يدعـو يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمـة ، فقال : أيُّ شيء تمام النعمة ؟ قال : دعـوةٌ دعوت بها أرجـو بها الخير . قال : فـإن من تمام النعمـة دخولَ الجنـة والفـوزَ مـن النار ». «وسمـع رجـلاً وهـو يقـول : ياذا الجلال والإكـرام ، قـال : استُجيب لـك فسل ». «وسمـع النبي ﷺ رجـلاً وهو يقـول : اللهم إني أسـألك الصبر ، فقال : سألـت الله البلاء ، فسله العافيـة » قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن .

ألا وإن هـذا البيان مـن النبي ﷺ الـذي أوضـح بدقـة وجلاء ، أن مـن تمام النعمة دخـول الجنة والفوز من النـار ـ وإن كان سببـه دعاء هذا الرجـل ـ إلا أن الكلام يحمل طابع العموم من المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وهو المبين عن الله ما أراد ، وخصوص السبـب لا يمنع عموم اللفظ ، فهي حقيقة ؛ مـن الواجب أن تكون في حسبان المسلم وهو يكدح في هذه الـدار الفانية ،عالماً أن الآخرة هي دار

القرار . وأنه إذا كان حريصاً على تمام النعمة بدخول جنة الخلد دار النعيم، والفوز بالزحزحة عن النار التي لا يصلاها إلا الأشقى ، فليسلك الطريق إلى ذلك ، عملاً وصدق تـوجه إلى الله عـز وجل . وذلك مـا نجده في سير الأبـرار من هـذه الأمة ، الذين استقاموا على الطريقة، فكانت لهم بشرى الخير في الدنيا، والخلود في جنات عدن في الآخـرة . وقد سبقت الإشـارة إلى ما كان عليـه أبو بكر رضي الله عنـه من صدق الإيمان ،وعلـو الهمة في الله تعالى ، ونصرة دينه ، وحـرصه ـ وهو في مقـدمة الرعيل الأول من الصحابة ـ أن يكون له نصيب في كل باب من أبواب الخير التي تنهض بأصحابها إلى دار الرضوان يوم القيامة ، حيث يفوز المتقون بما أعد لهم من جنات وعيون .

عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الصوم من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله باب : « الريان للصائمين » ثـم روى بسنده عن ابن شهاب عن حميد بن عبدالرحمن عـن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة ياعبدالله هذا خير ؛ فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان ، ومـن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقـة . فقال أبوبكـر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمـي يارسول الله ، مـا على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعـم وأرجو أن تكـون منهـم ». وبهذا اللفـظ رواه الترمذي مـن طـريـق حُميد بـن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

وكان من فقـه البخاري للنصوص ومدلولاتها ، أنـه رأى في الحديث المذكور واحدة من مناقب أبي بكر رضي الله عنه وهي سعيه الحثيث ـ كما أسلفنا ـ إلى أن لا يدع طريقاً يوصل ـ بعون الله ـ إلى دار المقامة إلا سلكه ، وأنه يتطلع ـ بصدق ـ إلى أن يدعى إلى الجنة مـن الأبواب التي ذكرها رسول الله ﷺ كلهـا . فهو مسارع أبداً إلى مغفرة من الله وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

وهكذا نقع على هذا النص في كتاب فضائل الصحابة من الجامع الصحيح وقد أورده البخاري من طريق أخرى عن ابن شهاب ، كما هي عادته في الأعم الأغلب أنه يعدد مواطن إيراد الحديث بكامله أو يقطعه تبعاً لما يحمل من المعاني بطرق أخرى ، تضمن فوائد في السند مع الفوائد المستوفاة من المتن . وجاءت هذه الرواية بنحو تلك مع شيء من الاختلاف . قال رحمه الله : حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرنا حميد بن عبدالرحمن بن عوف أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب ـ يعني الجنةً ـ يا عبدالله هذا خير . فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان . فقال أبوبكر : ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة. وقال: هل يدعى منها كلِّها أحد يارسول الله ؟ قال: نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبابكر » . وقول النبي ﷺ : «وأرجو أن تكون منهم يا أبابكر » هو للتحقق فقد قرر العلماء أن الرجاء من الله تعالى ومن نبيه ﷺ واقع . وبهذا التقرير يدخل الحديث ــ كما قال الحافظ ـ في فضائل أبي بكر . ووقع في حديث ابن عباس عند ابن حبان في نحو هذا الحديث التصريح بالوقوع له رضي الله عنه . ولفظه قال : « أجل وأنت هو يا أبابكر ».

قال صاحب الفتح: وفي الحديث من الفوائد: أن من أكثر من شيء عرف به، وأن أعمال البر قلّ أن تجتمع جميعها لشخص واحد على السواء ، وأن الملائكة يحبون صالحي بني آدم ويفرحون بهم.. إلى أن قال : وأن تمني الخير في الدنيا والآخرة مطلوب.

وهذا الإشراق المثمر في سلوك عقلاء الأمة ونابهيها ، يذكِّر بما سبقت الإشارة إليه أن الأعمال بالخواتيم، كما أوضح ذلك النبي عليه الصلاة والسلام ، وهي حقيقة لابد أن تأخذ مكانها في نهج المسلم وهو يكدح في هذه الحياة ومرمى بصره

ما يؤول إليه الأمر بعد أن ينقضي أجله فيها كما يكشف عن أن الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا على يقظة تامة تجعلهم على ذكر من الحقيقة التي تباعد بينهم وبين الغفلة والغرور ، حتى وجدنا صحابياً كأبي هريرة رضي الله عنه يستعين بذلك على تأويل ما ورد في أخبار من قبلنا من سوء عاقبة أناس كانوا ـ فيما يرى الناس ـ على الطريق السوي ، وساءت حالهم في خاتمة المطاف ، فأصبحوا من أهل النار، بعد أن كانوا ـ فيما يبدو ـ من سالكي طريق الجنة مع السالكين .

أخرج أبو داود في كتاب الأدب من السنن عن عكرمة بن عمار قال : حدثني ضمضم بن جوْس قال : قال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين ؛ فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب، فقال له : أقصر ، فقال : خلِّني وربي ، أبُعثتَ عليَّ رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، أوقال : لايدخلك الله الجنة . فقبض الله أرواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال الرب تعالى للمجتهد : أكنت عالماً ، أو أكنت على ما في يدي قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار ». قال أبوهريرة : « والذي نفسي بيده لتكلَّم والله بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند بإسناد حسن .

أوبقتْ : أهلكتْ . وأراد أبو هريرة بالكلمة ، قول أحد الرجلين لصاحبه : «والله لا يغفر الله لك ، أو والله لايدخلك الله الجنة ». ومما يؤيد هذا ما روى مسلم عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ حدَّث أن رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وأن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألّى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ فإني قد غفرت له وأحبطت عملك » .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا ، وارزقنا حسن الأدب معك ومع خلقك والبعد عن مزالق النفس والهوى ، وأن نعي بقلوبنا وعقولنا الدلالة العميقة لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالخواتيم ».

# أهل الجنة.. والرضوان

كلما طالت رحلة المؤمن مع حديث رسول الله ﷺ في شأن يوم الدين ومشاهده العظام وما يتبع ذلك من دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار، تجلّى له فضل الله الذي لاينفد ، ورحمته التي ينشرها على عباده المخلصين ، فيما يضاعف لهم من العطاء ، ويعظم لهم من المثوبة .

ولا يخفى أنه ـ جل شأنه ـ قد فتح لعباده أبواب الرحمات في الدنيا ، بما يسّر من سبل الخير ودلّ عليها ؛ وجماع ذلك: طاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ فمن أطاع الله ورسوله على ما يرضى الله ورسوله ، فقد سلك الطريق إلى دار الخلود ، ومن فعل غير ذلك ، انقلب على عقبيه وكان من الخاسرين . أخرج البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى . قالوا : يارسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى ».

وعن أبي هريرة أيضاً روى الإمام أحمد في المسند بلفظ « كل أمتي يدخل الجنة يوم القيامة قالوا : ومن يأبى يارسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » .

وما من ريب في أن طاعة رسول الله من طاعة الله ، ذلكم قول الله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره: «من أطاعني فقد أطاع الله » وما يقال في الطاعة ، يقال في المعصية أعاذنا الله من ذلك . فمن قام بتلك الطاعة حق القيام فعمل بسنة النبي ﷺ أدخله الله جنته وأفاض عليه من النعيم الخالد مالا يحيط به إلا هو جل وعلا ، ومن عصى رسول الله بإعراضه عن سنته واتباع غير هديه ، فقد أبى ، أي امتنع بذلك العصيان

الذي هو عصيان الله عز وجل ، عن دخول الجنة .

وما أشد احتياج العبد ، إلى فهم هـذه الحقيقة التي لا يتمارى بها عاقل ، كيما يكون الأخذ بتكاليفهـا ، بريده إلى دار المقامة التي يفـوز بها السعداء الأبرار . قال الحافظ رحمه الله : أبـى بفتح الموحدة . أي امتنـع . وظاهره أن العمـوم مستمر لأن كلاً منهم لا يمتنع من دخول الجنة ، ولذلك قالوا : ومن يأبى ؟ فبين لهم أن إسناد الامتناع إليهم عن الدخول مجاز عن الامتناع عن سنته، وهو عصيان الرسول عليه الصلاة والسلام . وهـذا ـ كما سبق ـ معصية لله تبارك وتعـالى ،لأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى وهو المبلغ عن الله ما أراد ؛ فعصيـان المبلِّغ عنه سبحانه عصيان له لأن الأمر ــ أولاً وآخراً ـ مردُّه إليـه جل وعلا . وقال العلماء في قـوله ﷺ : « من أطاعنـي فقد أطـاع الله » بأن هـذه الجملة منتـزعة مـن قولـه تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ أي لأني لا آمر إلا بما أمر الله به ، فمن فعل ما آمره به فإنما أطاع مـن آمرني أن آمـره . قال صـاحب الفتـح عند الكـلام على هذا الحديـث : ويحتمل أن يكون المعنـى :لأن الله أمر بطاعتي؛ فمـن أطاعني ، فقد أطـاع أمر الله بطاعتـي ، وفي المعصية كذلـك . والطاعة هـي الإتيان بـا لمأمور به والانتهـاء عن المنهي عنه ، والعصيان بخلافه .

فليشهد أهل الشوق إلى جنة الخلد هـذا المشهد ، وليعقلوا عن رسول الله ﷺ هذه القـاعدة النورانيـة التي هي حـق اليقين ، والساعـي إلى الفوز يوم القيـامة لا كفران لسعيه ، والله شاكر له سعيـه المضموم ـ في رحاب الإيمان ـ إلى الإرادة الحقة والعزيمة الصادقة ﴿ ومن أراد الآخـرة وسعى لها سعيها وهو مـؤمن فأولئـك كان سعيهم مشكوراً ﴾.

هذا : وقد أخرج أحمد والحاكم من طريق صـالح بن كيسان عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه الى رسول الله ﷺ : « لتَدخُلُنَّ الجنة إلا من أبى وشرد على الله شِراد البعير » وسنده على شرط الشيخين ولـه شاهـد عن أبي أمـامة عنـد

الطبراني ، وسنده جيد .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الموصوف بالإباء ـ وهو الامتناع ـ إن كان كافراً ، فهو لا يدخل الجنة أصلاً ، وإن كان مسلماً فالمراد ـ كما تدل النصوص ـ منعه من دخولها مع أول داخل إلا من شاء الله تعالى . وشرد على الله شِراد البعير : أي نفر وأدبر عن طريق الحق الذي يصل به إلى دار الخلد بفضل الله ورحمته . قال ابن الأثير في النهاية : فيه « لتدخلن الجنة أجمعين إلا من شرد على الله » أي خرج عن طاعته وفارق الجماعة . يقال : شرد البعير يشرد شُروداً وشِراداً : إذا نفر وذهب في الأرض .

ولكم يحسن المؤمن صنعاً حين يحرص مخلصاً أن يكون من أهل الطاعة لله ولرسوله ، ولا يشرُدَ عنها ـ بالمخالفة والإعراض ـ شِراد البعير الذي نفر وضلّ السبيل فأحدقت به المخاطر من هنا وهناك !!

وبعد : فمن ذا الذي يتمارى، بأنه مهما عمل العبد، فنِعَم الله عليه أوفر وأوفر، ومننه أكثر أكثر ، وما يتفضل عليه مولاه ـ بعد أن يدخله الجنة وينعم بها تزدان به من الخيرات الحسان ـ أمر أعظم من أن ندركه نحن العبيد الضعفاء ، بعلمنا القليل القليلُ ووسائلنا المحدودة ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ عقد الإمام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله : « بابُ كلام الرب مع أهل الجنة » وقال هناك : حدثنا يحيى بن سليمان قال : حدثني ابن وهب قال : حدثني مالك عن زيد بن أسلمَ عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ! فيقول : ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » ورواه مسلم بهذا اللفظ عن أبي سعيد وقد

جاء تحت باب ترجم له الإمام النووي في شرحه للصحيح بقوله :« باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً ». وقد أخرجه البخاري من قبل في الرقاق من طريق معاذ بن أسد ولكن بلفظ « أنا أعطيكم أفضل من ذلك » بدل «ألا أعطيكم أفضل من ذلك »؟ وبهذا اللفظ أخرجه الترمذي في كتاب الجنة من « الجامع الصحيح » سنن الترمذي بسنده عن زيد بن أسلم وقال : هذا حديث حسن صحيح .

«رضواني » بكسر الراء وضمها . وفي حديث جابر ـ كما يقول الحافظ ـ «قال: رضواني أكبر ». وفيه تلميح بقوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ لأن رضاه سبحانه وتعالى ، سبب كل فوز وسعادة ، وكل من علم أن سيده راضٍ عنه، كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم . وواضح ما يدل عليه هذا الحديث من أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة : لامزيد عليه ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾

وجميل ما ذهب إليه الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة في كتاب « بهجة النفوس » من أن في هذا الحديث، جواز إضافة المنزل لساكنه ، وإن لم يكن في الأصل له، فإن الجنة ملك لله عز وجل ، وقد أضافها لساكنها بقوله : يا أهل الجنة . والحكمة ـ كما يرى ـ في ذكر دوام رضاه بعد الاستقرار : أنه لو أخبر به قبل الاستقرار ، لكان خبَراً من باب علم اليقين ، فأخبر به بعد الاستقرار ليكون من باب عين اليقين . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ قال : وفيه الأدب في السؤال ، لقولهم : وأي شيء أفضل من ذلك لأنهم لم يعلموا شيئاً أفضل مما هم فيه ، فاستفهموا عما لا علم لهم به. وفيه أن الخير كله والفضل والاغتباط إنما هو في رضا الله سبحانه وتعالى . وكل شيء ما عداه ـ وان اختلفت أنواعه ـ فهو من أثر ذلك الخير ، وهو النعيم الحقيقي . وفيه دليل على رضا كلٍ من أهل الجنة بحاله، مع اختلاف منازلهم وتنويع درجاتهم،لأن الكل أجابوا بلفظ واحد وهو «أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك » . والله المحمود على كل حال .

# ثابت بن قيس.. الأدب والخوف من النار

المؤمن ــ وهو على بصيرة من ربـه ـ لا يفتأ ينظـر في هدي نبيه عليـه الصلاة والسلام ، ليعلم ماذا عليـه أن يعمل لإصلاح دينه الذي هو عصمـة أمره ، ودنياه التي فيها معاشـه ، وآخرته التي إليها معاده . ويدعو ربـه بتحقيق ذلك كما علمه الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهو واجد ـ بتوفيق الله تعالى ـ أن المصطفى محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، لم يدع أن يأخذ بالأيدي إلى كل ما هو فلاح في المعاش والمعاد ، وأن يحذر الأمة من كل ما يمت إلى الخسران الحقيقي بصلة أو نسـب . وذلك كله متسق تمام الاتساق مع عظمة الإسلام ، في شموله لأمور الدين والدنيا . والعاجلة والآجلة ... وهنا ما يذكرنا بواحدة من إشراقات الهداية في سلوكه عليه الصلاة والسلام ،حيث كان لا يدع ذكر الجنة والنار ، وأن الجنة حق ، وأن النـار حق، في أسمى لحظات العبودية لله عز وجل ـ وهو يتهجد في الليل يصليّ خاشعاً ، ويناجي ربه جل جلاله ضارعاً متقـرباً ــ وفي ذلك مـا فيه مـن تأكيـد العلاقـة بين الإيمان بالله وأسمائه الحسنـى وصفاتـه العلى ، وبين الإيمان بالجنـة والنار ، لما أن هـذه العلاقـة بريـد العبوديـة الخالصة لله تبـارك وتعالى ، وإحسان العمـل في دار الدنيا استعـداداً لدار الجزاء، حيث لا دار بعد هذه الدار إلا الجنة أو النار .

أخرج البخـاري بسنده في كتاب التوحيـد من الجامع الصحيـح عن سليمان الأحول ، أن طاووساً أخبره أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: « كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال : اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنـة حق ، والنـار حق، والنبيـون حق ، والسـاعة حـق ،

اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك تـوكلت ، وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا إنت» .

وله من روايـة أخرى في كتاب التهجد من الجامع الصحيـح « كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيِّم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمـد ، لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولـك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولـك الحمد أنت مَلِك السماوات والأرض ، ولـك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقـاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حـق، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حـق ، والساعة حق اللهم لك أسلمـت ، وبك آمنت، وعليك توكلت ، وإليـك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمـت فاغفر لي ما قدمت وما أخـرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنـت المؤخر لا إله إلا أنت ـ أو ـ لا إله غيرك » قال سفيان : وزاد عبـدالكريم أبو أميـة « ولا حول ولا قوة إلا بالله » قال سفيـان : قال سليمان بن أبي مسلم سمعه من طـاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ . ورواه مسلم بنحـو هذا وأخصر منه، ولكن بلفظ « أنت قيّام السماوات والأرض » .

هكذا كانت حال النبي ﷺ في صلته بربه سبحانه وتعالى . وفي الحديث ـ كما يلاحظ ـ زيادة معرفته صلوات الله وسلامه عليه بعظمة مولاه جل وعلا ، ومواظبته على الذكـر والدعـاء والثناء عليه سبحـانه ، مـع التضرع والإعلان الصـادق عن التوكل والإنـابة ، والاعتراف بالحقوق، والإقـرار بصدق الوعد والـوعيد، وأن الجنة حق ،وأن النار حـق ؛ وفي هذا الاقتران ـ كما أسلفت ـ ما فيـه من ضرورة أن يكون المؤمن على ذكر أبداً من أحقية وجود الجنة والنـار ، وما لذلك من الأثر البالغ على العمل في هـذه الدار استعداداً لما بعـد الموت ، وصدق التوجـه إلى قيوم السماوات والأرض وحسن الإنابة إليه والتوكل عليه .

ولقد انتفع الصحابة أيّما انتفاع بهذا السلوك المشرق المتميز من النبي ﷺ ـ وهم خير من تأسّى بمن أوجب الله التأسي به ـ فأحسنوا العمل مخلصين دينهم لله، وكانوا أهلاً لأن يتحقق لهم موعود الله من الفضل الكبير يوم المعاد ، بل فاز بعضهم بالبشرى الخاصة بجنة الله ، التي جُعلت نزل الأبرار المحسنين .

كان ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار ومن أرفع الصحابة صوتاً ، فلما نزل قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾. بلغ من تقواه وحرصه على كمال الأدب مع النبي عليه الصلاة والسلام أن انحاز إلى بيته خوفاً من معاودة ما رآه سوء أدب معه ، وأن يكون قد حبط عمله بسبب ارتفاع صوته فوق صوت النبي ﷺ ، فبشره صلوات الله وسلامه بالجنة .

أخرج الإمام البخاري في المناقب وكتاب أعلام النبوة وفي التفسير من الجامع الصحيح بسنده عن موسى بن أنس بن مالك عن أنس رضي الله عنه « **أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل : يارسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكّساً رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌ . كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة** ».

والمعتمد أن الرجل الذي علم عِلمَ ثابت لرسول الله ﷺ هو سعد بن معاذ رضي الله عنه : قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا الحسن ابن موسى قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البُناني عن أنس بن مالك أنه قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت**

النبي﴾ إلى آخر الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار . واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ ، فقال : يا أبا عمر : ما شأن ثابت ؟ أشتكى ؟ قال سعد : إنه لجاري ، وما علمت له بشكوى . قال: فأتاه سعد فذكر له قول الرسول ﷺ : فقال ثابت : أُنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ ، فأنا من أهل النار ؛ فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : بل هو من أهل الجنة » وقال مسلم : حدثنا قُطن بن نُسير ... حدثنا هُرَيم بن عبدالأعلى الأسديُّ قال : حدثنا المعتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يذكر عن ثابت عن أنس أنه قال : لما نزلت هذه الآية واقتص الحديث ولم يذكر سعد بن معاذ وزاد : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ، رجل من أهل الجنة .

هذا : وقد أشار البخاري في بعض الروايات ـ على عادته في التقصّي ـ إلى نزول آية الحجرات المذكورة وذلك فيما رواه ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت قال . قال ثابت بن قيس بن شماس : «يارسول الله إني أخشى أن أكون قد هلكت، فقال: وما ذاك ؟ قال: نهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا جهير » الحديث وفيه : فقال له عليه الصلاة والسلام « أما ترضى أن تعيش سعيداً وتموت شهيداً وتدخل الجنة ».

وكان من دلائل نبوته ﷺ ، أن ثابتاً رضي الله عنه قتل شهيداً في حروب الردة يوم مسيلمة، كما جاء في عدد من الروايات ؛ من ذلك ما جاء في «الطبقات» عند ابن سعد في آخر الرواية : « بل هو من أهل الجنة ». « فلما كان يوم اليمامة انهزم المسلمون فقال ثابت: أف لهؤلاء ولما يعبدون ، وأف لهؤلاء ولما يصنعون ، قال: ورجل قائم على ثلمة فقتله وقتل» : وروى البخاري «أنه قد تحنَّط يومها استعداداً للموت في سبيل الله» . وروى ابن أبي حاتم في تفسيره قصة ثابت وجاء في آخرها: قال أنس : «فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة ، كان في بعضنا بعض الانكشاف ، فأقبل وقد تكفن وتحنَّط فقاتل حتى قتل».

وجاء في رواية ابن المنذر في تفسيره ، ذكر القصة مطولة وفيها قول النبي ﷺ : «تعيش حميداً وتموت شهيداً » وفيها : « فلما كان يوم اليمامة ثبت حتى قتل ».

صلى الله على رسول الله وهنيئاً للصحابي أدبه وورعه ، ثم الشهادة في سبيل الله ـ كما بشره سيد العالمين ـ والفوز بالجنة مع إخوان له أحياءٍ عند ربهم يرزقون .

## رسول الله ﷺ.. وقصر عمر في الجنة

مهما بدأ المؤمن المصدق النظر وأعاد، فيما حملت الأخبار الصادقة عما يكون يوم القيامة، من سعة رحمة الله تعالى ، وبالغ فضله على من يدخلهم جنته التي يُزلفها لأحبائه المخلَصين ، فلن يبلغ شيئاً يذكر من مدى تلك الرحمة ، وما يكون من سابغ النعمة وبالغ الفضل .

والخير كل الخير ، في أن يتخذ المؤمن من تلك الأخبار التي هي حق اليقين، باعثاً كريماً قوياً على العمل الذي يسلك به ـ بعون الله وفضله ـ طريق أهل الفلاح الذين يسعدون بالعطاء الإلهي يوم الدين ، فينقلبون خير منقلب هناك ويتبوّؤون خير متبوّأ في نعيم لا ينفد ، ورضوان من الله أكبر .

هذه واحدة : وأما الثانية : فإنك كثيراً ما ترى أن الطريق المسلوكة إلى الجنة، تشمل فضيلة أخرى، وهي العمل نفسه الذي أخبر النبي ﷺ ، أنه طريق العبد إلى غرف الجنة التي تجري من تحتها الأنهار !! وما ظنك بتلك الموائد الربانية التي تدعو الصادقين الصالحين إليها ، كيما يكونوا في الآخرة من الفائزين ؛ وإنها لموائد كثيرة وفيرة غامرة بالخير ، كم تنفع المقبلين عليها ، أن لو استجاب المشوقون إلى الجنة وصدقوا في طلب أن يُدخَلوها ويزحزحوا عن النار . وعلى سبيل المثال لا الحصر : ها هي ذي دعوة النبي ﷺ إلى الاستغفار ، وهي دعوة يبين فيها عليه الصلاة والسلام سيد الاستغفار وثمرته ، فيحظى المستجيبُ ، بالاستنارة بالكلم الطيب توبة وإنابة ومناجاة لله تبارك وتعالى ، وفي الوقت نفسه ، يكون ذلك سبيله إلى ما هو مشوق إليه في يوم المعاد .

أخرج البخاري في كتاب الدعوات من الجامع الصحيح عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربي

لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». قال: «ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» وعند النسائي «فإن قالها حين يصبح موقناً بها فمات دخل الجنة، وإن قالها حين يمسي موقناً بها دخل الجنة».

وجاء الحديث عند الترمذي من رواية عثمان بن ربيعة عن شداد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «ألا أدلك على سيد الاستغفار؟: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء إليك بنعمتك عليَّ، وأعترف بذنوبي، فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، لا يقولها أحدكم حين يمسي فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يصبح إلا وجبت له الجنة، ولا يقولها حين يصبح فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يمسي إلا وجبت له الجنة».

هكذا يبشر النبي ﷺ من قال هذه الكلمات، التي يتضوَّع منها شذى العبودية الخالصة التي لا تبارح قلب صادق الإيمان وعقله، والإنابة الخاشعة والتذلُّل لله تبارك وتعالى ـ مخلصاً من قلبه موقناً بثوابها ـ يبشره بدار المقامة جنةِ النعيم التي تُزلف يوم القيامة للمتقين.

وفي الحديث ـ كما يبدو ـ إشارة إلى أن المراد بالسيادة في قوله: «سيد الاستغفار» الأفضلية، ومعناها الأكثر نفعاً لمستعمله.

وأي نفع يداني نفع أن يرضى الله عن العبد ويتفضلَ عليه بإدخاله جنته!! قال ابن أبي جمرة: (جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمى سيد الاستغفار؛ ففيه الإقرارُ لله وحده بالإلهية والعبودية، والاعترافُ بأنه الخالق، والإقرارُ بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاءُ بما وعده به،

والاستعـاذةُ من شر مـا جنـى العبد على نفســه ، وإضافـةُ النعماء إلى مـوجدهـا ، وإضافة الذنب إلى نفسه ، ورغبتهُ في المغفرة ، واعترافهُ بأن لا يقدر أحد على ذلك إلا هو ) .

وفى خطوة أخرى على هذه الساحة : نقع على ترغيب النبي ﷺ بالعلم النافع في الديـن والدنيـا ، ببيان أن سلـوك الطريق لطلـب هذا العلـم، مفتاح الطـريق الموصلة إلى الجنة ؛ ذلكم ما روى مسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفّس عن مؤمن كُربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسِر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ... إلى أن يقول : « ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سّهل الله له به طريقاً إلى الجنة» وهذا لفظ الترمذي دون لفظة « له » وفي رواية أبي داود « ما من رجل يسلك طريقاً يطلب فيه علماً إلا سهّل الله طريقاً إلى الجنة ، ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبُه ».

تُرى أيُّ مِنَّة هذه المنَّة الكريمة ، وأي إحسان هذا الإحسان العظيـم !! المؤمن الذي أضاء الإيمان بصيرتـه يسلك طريقاً يلتمـس فيه العلم النافـع ، فيعود ذلك بالخير عليه وعلى مجتمعه في الـدنيا ، وفي الوقت نفسه يكون سلـوك هذه الطريق ـ كما قرّر الصـادق الأمين الذي لا ينطـق عن الهوى ــ مدعـاة لأن يسّهل الله لـه به طريقاً إلى جنة الخلـد التي لا تعلم نفس ما أخفي لأصحـابها من قرة أعين ، جزاءً بما كانوا يعملون .

وما أكثر ما تفيض به أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، من الترغيب بدار المقامة ونعيمها الذي لا ينقطع ولا يزول .ويانعم ما يفعل المؤمن ، فيقبل عن رسول الله ﷺ ،لأن من قبل عن رسول الله فعن الله قبل ـ كما يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه ـ.. يانعم ما يفعل فعل أولي النهى الواضعين نصب أعينهم مصيرهم الأخروي ، فيسلُك ـ وهو يمضي العمر في هذه الـدنيا ـ مسلكهم وهم ماضون إلى ربهم كيما يكون في زمرتهم يوم اللقاء .

وحين نتجاوز مرحلة التقرير لهذه الحقيقة من خلال الهدي النبوي ، إلى واقع الناس ، لنرى مقدار التفـاعل معها ، وانعكاس هذا التفاعـل على السلوك ، نجد العجب العُجاب في حياة الجيل الذي اؤتمن على نقـل دين الإسلام إلى الأمة جيل الصحابة عليهم الرضوان ، ومن تبعهم بإحسان عبر التاريخ .

وإذا كان الأمر كذلك : فليس عجيباً أن يكون الارتباط جدَّ وثيق بين سلوك الفرد منهم ـ وهو يسهـم في بناء الوجود الإسلامي بشموله وعمقـه ـ وبين ما يناله من المبشرات على لسان من لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام .

وما أجد من بأس، في أن أصحب بعـض المؤيدات من فضائل أولئك البررة رضي الله عنهم وأجزل مثوبتهم ؛ روى أبـو داود في سننه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » وقـال الترمذي : حدثنا محمـد بن بشار قال: حـدثنا أبو عامـر العَقديّ قال: حدثنا خارجة بن عبدالله عـن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله جعل الحق على لسـان عمر وقلبه » وقـال ابن عمر : «ما نـزل بالناس أمـر قطُّ فقالوا فيه وقال فيه عمر أو قال ابن الخطاب فيه ـ شك خارجة ـ إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر ». قال أبو عيسـى : وفي الباب عن الفضل بن العباس وأبي ذر وأبي هريرة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وبلغ من صدقه مع الله ورسوله، مـا نجد فيما روى أبو داود عنه رضي الله عنـه أنه قال : «استأذنـت رسول الله ﷺ في العمرة ، فأذن لي ، وقال لي : لا تنسنا يا أخيَّ من دعائك، أو قال أشركنا يا أخـيَّ في دعائك» قـال عمر : « فقـال كلمة مـا يسرني أن لي بها الدنيـا ». وعند الترمذي : أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فقال : « أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا ».

وها نحـن أولاء نجد النصوص تنطـق بالارتبـاط الوثيق بين هـذه الفضائل ، وبين البشرى بدخول دار النعيم والخلـود فيها مع الخالدين . وهذا أمـر جدير بأن

يزيـد المؤمن يقينـاً بعدل الله و إحسـانه ، وأن يشـدَّ من أزره في التخلـق بأخـلاق الخيرين . أخرج البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قـال : « بينا أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر ، فذكرت غيرته فـوليت مدبراً ، فبكى عمر وقال : أعليـك أغار يا رسول الله ؟» وفي رواية «فذكرت غيرة عمر فوليت مدبراً » قـال أبو هريرة : فبكى عمر ونحن جميعاً في ذلك المجلس مـع رسول الله ﷺ ثم قال عمـر : بأبي أنت يا رسـول الله أعليك أغـــار ؟

صلى الله وسلـم وبارك على رسـول الله الذي كـان نعـم المعلم ونعـم المربي، وهنيئاً لعمر ـ رضوان الله عليه ـ مقامه في جنة الخلد يوم يبعثـون . ويانعم ما تفعل هـذه الموعظة في نفـوس المشوقين إلى جنـة الخلـد ، فيغذُّون السير للّحـاق بركـب السالكين الصادقين ويتبوؤن يوم القيامة من دار الكرامة حيث يشاؤون .

المؤمنون الذيـن رزقوا حسن التبصر والاهتمام بوسـائل النجـاة ، يوم يجمع الله الأولين والآخرين للمساءلة والحساب.. هؤلاء المؤمنـون، عندما يذكرون الجنة وما تزدان به من مظاهر الإكرام الإلهي والعطاء الذي يجلُّ عن الإحاطة ولا ينفد ، لابد أن يذكروا ـ بجانـب ذلك ـ سنة الله جل شأنه في العطاء والمنـع ، وهي السنة التي تؤكـد ما يجب أن يكون عليـه المؤمن، من إرادة صـادقة في طلب الآخـرة ، وسعي حثيث لها ، بما يلزم لذلك من العمل بصبر وإخلاص دائبين ، كيما يفوز بما يفوز به السعداء من تلكم الجنات التي يرزقون فيها رزقاً حسناً بغير حساب . وأين هذا مما يؤول إليه أمر الضـالين المكذبين الصادِّين عن سبيل الله، من نار جهنـم خالدين فيها وبئس المصير ﴿ **بل كذبـوا بالساعة وأعتـدنا لمن كذّب بالسـاعة سعيراً. إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً. وإذا ألقـوا منها مكاناً ضيقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً . قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً . لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً** ﴾ الفرقان: ١١ـ١٦ .

فطالب الآخـرة الذي يسير وفق سنة الله في ذلـك ، سوف يؤتيه الله مـا سأل، ويجعل الجنة مأواه عنده سبحانـه وتعالى ، لأنه أراد الآخرة، وصدق في أن سعى لها سعيها وهو مـؤمن ﴿**ومن أراد الآخـرة وسعى لها سعيهـا وهو مؤمـن فأولئـك كان سعيهم مشكوراً** ﴾. أما المخالفة عن سنن الله تبارك وتعـالى : فهي نذير حرمان في الدنيا والآخرة ، وعنوان عبث من العبث لا يكون من ورائه إلا سوء العاقبة والعياذ بـالله ؛فعن أبي بـن كعب رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : « بشر هذه الأمـة بـالسناء والنصر والتمكين ، ومـن عمل منهـم عمل الآخـرة للدنيـا لم يكن لـه في الآخرة من نصيـب » حديث صحيح أخرجـه رزين ـ كما في جامـع الأصول لابن

الأثير ـ ورواه أحمد في المسند، وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك .

هكذا يدل النص بوضوح على أن من عمل على هدي السنن الإلهية، وسار معها في عبادته وعمله ـ كما أمر الله وبيّن رسوله عليه الصلاة والسلام ـ كان التوفيق حليفه ، فنال سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة . وأخرج الترمذي بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استحيوا من الله حق الحياء . قلنا : إنا لنستحيي من الله يا رسول الله والحمد الله . قال: ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى؛ فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء ». وللعلماء في أحد رواته مقال. ولكن صححه الحاكم ووافقه الذهبي في « التلخيص » لأن له شواهد يرتقي بها إلى هذه الدرجة . وقال الحافظ المنذري : رواه الطبراني مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها .

ولكم حملت إلينا نصوص الحديث ـ وهي كلام المبيّن ﷺ عن الله تعالى ـ من البشائر لأهل الاستقامة، وما يفيض عليهم المولى جل جلاله من الرحمة والفضل والإحسان ، مما يثير الأمر الذي يوقظ الهمم بالإيمان ، ويشُدُّ على يد المشوق إلى دار السلام نُزُلِ الأبرار الصادقين ، بخالص العمل وصادق العزيمة . قال الإمام البخاري : حدثنا إبراهيم بن المنذر قال : حدثنا محمد بن فليح قال : حدثنا أبي عن هلال عن عبدالرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا تباغض بينهم ولا تحاسد ، لكل امريء زوجتان من الحور العين يُرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم ».

ولا يداخلنّك ـ يا أخي ـ شيء من العجب والاستغراب ؛ فالإكرام ـ كما هو

معلوم ـ إكرام من لا تنفد خزائنه ، ويجلُّ عطاؤه عن الإحاطة ، وفضله هو الفضل العظيم . وماذا عن ترائي أهل الجنة ، والمنازل التي يبلغونها في دار الكرامة ؟ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن أهل الجنة يتراءون أو يتراءَيون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم . قالوا : يارسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ورواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر » الحديث. والذي عند الترمذي من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون في الغرفة كما تتراءون الكوكب الشرقي أو الكوكب الغربي الغارب في الأفق والطالع ، في تفاضل الدرجات ، فقالوا : يارسول الله أولئك النبيون ؟ قال: بلى والذي نفسي بيده ، وأقوام آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين » قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

والذي لابد من استذكاره على أرض الواقع ، كيما تفيد الأمة من صنيع أولئك الذين سبقوا ، فتأخذ بأسباب النصر والتمكين في الدنيا ، والفوز بتلكم المكرمات في الآخرة ، ما كان من التفاعل مع الهدي النبوي ، والتأثر الصادق الذي أورث صدق العزيمة وخالص العمل بفضل الله عز وجل ؛والحديث موصول بما قد أشرت إليه من قبل في معرض الحديث عن التفاعل مع الهدي النبوي ، من بعض النماذج في سيرة عمر رضي الله عنه وما بشره به رسول الله ﷺ من تلك المكانة العظيمة في الجنة . وعلى هذا السنن نذكر ما روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لرجل من قريش فما مَنَعني أن أدخله يا ابن الخطاب إلا ما أعلم من غيرتك . قال : وعليك أغار يار سول الله ؟» و بنحو ذلك رواه الترمذي ولكن بشيء من الاختلاف إذ أخرج بسنده عن حميد عن أنس رضي الله عنه أن

النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب ، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لشاب من قريش ، فظننت أني أنا هو ، فقلت : ومن هو ؟ فقالوا : عمر بن الخطاب » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ، وابن حبان في صحيحه . ومعلوم أن رؤيا الأنبياء الصادقة وحي ، فما بالك بخاتمهم وإمامهم عليه وعليهم الصلاة والسلام !!

وأنت ترى أنه قد اجتمع لعمر رضي الله عنه توفيقه لما كان عليه من الصدق في نصرة الإسلام ومحبة الرسول عليه الصلاة والسلام والشدة في دين الله ، وبشرى النبي صلوات الله وسلامه عليه بأنه من أهل الجنة ؛ إذ أنه رأى قصره فيها كما جاء في تلكم الأحاديث الصحيحة . والحق أن بشارة أبي حفص بدار المقامة، لم يقتصر ورودها على نصوص الرؤيا هذه، ولكنها جاءت في مناسبات أخرى ؛ إذ أنه من العشرة المبشرين بالجنة ــ كما هو معلوم ـ وهنالك من الأحاديث ما يحمل له البشرى بدار المقامة مع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، ذلكم ما روى البخاري وغيره ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال : «كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة ، فجاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ: افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو أبو بكر ، فبشرته بما قال رسول الله فحمد الله ، ثم جاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو عمر ، فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله ، ثم استفتح رجل، فقال لي : افتح وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فإذا عثمان ، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، ثم قال : الله المستعان » . الحائط : هو البستان .

ولا يخفى أن الحديث يجمع بين ثنتين من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام، وبين هذه البشائر الكريمة بجنة الخلد لهؤلاء البررة أبي بكر وعمر وعثمان ـ على بلوى تكون لعثمان ــ جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير ، وأسكنهم الفردوس الأعلى بما بُشروا به . وقد جاءت الرواية عند مسلم بنحو هذا عن أبي موسى أيضاً ، على شيء من التفصيل في بعض الأمور واختصار في بعضها.

ولفظها « بينما رسـول الله ﷺ في حائط من حائط المدينـة ،وهو متكىء يركُـز بعود معـه بين الماء والطين، إذ استفتح رجـل ، فقـال : افتح وبشره بـالجنـة قال : فـإذا أبوبكـر ، ففتحتُ له وبشرته بـالجنة ، قال: ثـم استفتح رجل آخر ، فقـال : افتح وبشره بالجنة، وذهبت فإذا هو عمر . ففتحت له وبشرته بالجنة . ثم استفتح رجل آخر . قـال : فجلس النبي ﷺ فقال: افتـح وبشره بالجنة على بلوى تكـون . قال: فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان. قال . ففتحت وبشرته بالجنة. قال : وقلت الذي قال . فقال: اللهم صبراً والله المستعان » .

يركزُ بعود : أي يضرب بأسفله ليثبته في الأرض .

هنيئاً لهؤلاء الأجلة الكـرام ما بشروا به وما يكـون لهم يوم ﴿ **لايجزي والد عن ولده، ولا مـولود هو جـاز عن والـده شيئاً** ﴾. هنيئاً لهم ولـلأمة هـذا المشهد النيِّر المثقل بالعطاء ، الشاهد على إخلاصهم في الدين ، وصدق نبوة سيد المرسلين .

# بشريات الجنة.. والرميصاء

حين يكون الحديث عن المصير في الآخرة ، وما يرجوه المؤمن وما يخافه من خلال ما ورد من الخبر الصادق ، عن مشاهد يوم القيامة وعظاته، وترقب الناس لما يؤول إليه أمرهم ، بعد الشدة التي تبلغ من ثقلها على النفوس، المبلغ الذي لا ينفضُّ العباد معه إلى فصل القضاء، إلا بالشفاعة العظمى التي أذن الله تعالى بها لنبينا عليه الصلاة والسلام ..حين يكون الحديث عن ذلك الأمر الجلل ، ويحفز المؤمن ما يحفزه على المبادرة والعمل ،لا بدع في أن يداخل النفس الكثير من الغبطة بما تحمل من تخصيص النبي ﷺ نفراً من أصحابه ـ وكل أصحابه على خير ـ بأن بشرهم بالجنة والفوز الكبير ، لما أن الصحابة رضوان الله عليهم، هم الذين آمنوا به صلوات الله وسلامه عليه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وحملوا الرسالة ـ علماً وعملاً وجهاداً ــ إلى من وراءهم من المسلمين، فلا يكابر في عظيم فضلهم ـ على تفاوت درجاتهم ـ إلا جاهل أو زائغ ، وحسبك في الدلالة على ذلك الفضل ، ما جاء في كتاب الله وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وهو كافٍ شاف .

وددت التقديم بهذه الكلمات ، وأنا بسبيلٍ من النظر في بعض من مشاهد القيامة، والانتفاع بعظاتها، والتذكير بما ورد في شأن أولئك الذين بُشروا بإكرام الله لهم بالجنة على لسان من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، كيما نكون ـ جميعاً ـ على ذكر من أن المؤمن إذا أراد أن يلحق بركب الأبرار .ويفوز بما فازوا به من سعادة الدارين ، فيحشرَ في زمرة من تُزلف لهم الجنة يوم الدين ، فما عليه إلا أن يسير على نهجهم ، ويتأسى بصنيعهم، في أن تكون عمارة الأرض، مصحوبة بإخلاص النية ،وصلاح العمل ، في توجه صادق إلى الآخرة ، وعدم الركون إلى الدنيا متاعِ الغرور . وقد أوردت من قريب حديثاً بروايتين للبخاري ومسلم تحمل

كل منهما بشارة ثلاثة من الخلفاء الراشدين بالجنة .

ولعل من الخير إيراد رواية أخرى عند البخاري تحمل فوائد أخر ، وتفصيلاً يعين على مزيد من فقه ذلك الحديث . قال رحمه الله : حدثنا محمد بن مسكين أبو الحسن قال : حدثنا يحيى بن حسّان قال : حدثنا سليمان عن شريك بن أبي نَمِرٍ عن سعيد بن المسيَّب أنه قال : « أخبرني أبو موسى الأشعريُّ أنه توضأ في بيته ثم خرج فقلت : لألزمن رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومي هذا . قال : فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا : خرج ووجَّه هاهنا ، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس ، فجلست عند الباب - وبابها من جريد - حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته ، فتوضأ فقمت إليه ، فإذا هو جالس على بئر أريس ، وتوسّط قُفّها وكشف عن ساقيه ودلاّهما في البئر فسلمت عليه ، ثم انصرفت فجلست عند الباب ، فقلت : لأكوننّ بَوّاب رسول الله ﷺ اليوم، فجاء أبوبكر ، فدفع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال أبوبكر . فقلت : على رِسلك ، ثم ذهبت فقلت : يارسول الله هذا أبوبكر يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة . فأقبلت حتى قلت لأبي بكر : ادخل ورسول الله يبشرك بالجنة ، فدخل أبوبكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفّ ودلّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه . ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحَقني ، فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً - يريد أخاه - يأت به . فإذا إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عمر بن الخطاب ، فقلت : على رِسلك ، ثم جئت إلى رسول ﷺ ، فسلمت عليه فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فقلت : ادخل وبشَّرك رسول الله ﷺ بالجنة ، فدخل ، فجلس مع رسول الله ﷺ في القُفّ عن يساره ودلّى رجليه في البئر . ثم رجعت فجلست : فقلت : إن يرد الله خيراً بفلان يأت به ، فجاء إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عثمان بن عفان ، فقلت : على رِسلك . فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال : ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فجئته فقلت له : ادخل ، وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك . فدخل فوجد القُفّ قد ملىء ، فجلس وجاهه

من الشق الآخر . قال شريك بن عبدالله : قال : سعيد بن المسَّيب: « فأولتها قبورهم». قُفُّ البئر : الدَّكَّه التي تجعل حولها ، وأصل القُف ما غلظ من الأرض وارتفع أو هو من القَف اليابس . ومعنى «على رِسلك» أي اثبت ولا تتعجل، يقال ـ كما جاء في « لسان العرب » ـ لمن يتأنى ويعمل الشيء على هينته .

هذا : ولما كان الأمر ، أمرَ فرح بفضل الله ومنته على هؤلاء البررة الذين من أحبهم فبحب رسول الله أحبهم ، وأمرَ تعرُّف على المعالم المضيئة التي تقود ـ بعون الله ورحمته ـ إلى الجنة ، كان من الواجب تجاوزُ هذا اللون من البشائر ، إلى أخرى غيرها تكشف عن صلة العقبى المباركة، بالإيمان والإخلاص والصبر ، وبما قدّم المؤمن في الدنيا من صالح العمل في ذكر لله تعالى ، وخوف يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار . وفي ذلك ما فيه ـ والله أعلم ـ من شحذ الهمم ، وتحريك العزائم، والارتفاع عن كل ما يقعد بالمؤمن ، عن أن يكون في ركب من أراد الله بهم الخير ، فبوَّأهم يوم القيامة خير متبوَّأ ، ﴿ونودوا أن تكلم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾.

هذا بلال رضي الله عنه ـ وهو ذو السابقة في الإسلام والصبر على المحنة في سبيل الله والثبات على الحق حتى اخترمته المنون ـ يراه رسول الله في الرؤيا بين يديه في الجنة ، فيسأله عن أرجى عمل عمله في الإسلام . روى البخاري بسنده عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يابلال حدثني بأرجى عمل عملتَه في الإسلام ، فإني سمعت دفّ نعليك بين يديَّ في الجنة. قال : ماعملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهّر طُهوراً في ساعة ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي» .

قال أبو عبدالله : «دفَّ نعليك» يعني تحريكهما ، وقال الحميدي : الدف: الحركة الخفيفة والسير اللين. وجاءت الرواية عند مسلم بلفظ « فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يديَّ في الجنة » والخشف : الحركة الخفيفة .

وهنالك رواية أخرى للبخاري، يجتمع فيها الحديث عن بلال وعمر والرميصاء زوجة أبي طلحة؛ وذلك ما جاء عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه

قال : قال النبي ﷺ : « رأيتني دخلت الجنة ، فإذا بالرميصاء امرأة أبي طلحة ، وسمعت خَشْفة فقلت : من هذا ؟ فقال : هـذا بلال . ورأيت قصراً بفنائه جارية فقلت: لمن هذا ؟ فقال : لعمر ، فأردت أن أدخلَه فأنظرَ إليه ، فذكرت غيرتك ، فقال عمر : بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار ..؟ » .

ولعل من الوفاء للحقيقة أن لا نتجاوز هـذا الحديث ـ الذي شمل فيما شمل من البشريات والمكارم ـ أن الرميصاء امرأة أبي طلحة ـ وتُدعى أمَّ سليم ـ كانت أول من رأى النبي ﷺ في الجنة في تلك الرؤيا ـ دون أن نذكر واحدة من فضائل هذه الصحابية الجليلة وهي أنها كانت أقدَرَ من زوجها ـ وفي كلِ خير ـ على مواجهة مصابٍ أليم؛ هو فقدُ ولدهما ، وأنها كانت في غاية الاتزان والحصافة عندما أرادت إقناعه بصنيعها . ذلك ما روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سُليم فقالت لأهلها : لاتحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه ، قال : فجاء ، فقرّبت إليه عشاءً فأكل وشرب ، فقال : ثم تصنعت له أحسن ما كانت تَصَنَّعُ قبل ذلك ، فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب وقال : تركتِني حتى تلطختُ ثم أخبرتِني بابني؛ فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ ، فأخبره بما كان . فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في غابر ليلتكما ..» الحديث.

هذا جانب من الجوانب في شخصية من رآها النبي ﷺ في الجنة في رؤياه ورؤيا الأنبياء وحي .

ألاليت أنا بقدر ما ننادي بالمزيد من العناية بتثقيف المرأة، وبناء شخصيتها، نعنى بتوجيه الفتاة المسلمة، الى الدراسة المتبصرة لسيَر هؤلاء الفضليات في نساء العالمين ، النساء اللواتي أسهمن بإيمانهن ووعيهن وصدقهن إسهاماً ملحوظاً في بناء الحياة الإسلامية يومذاك ، كما أسهمن على مدى تاريخنا المجيد أيّما إسهام في بناء حضارة الإسلام .

# بشريات الجنة.. والعمل

من الإنصاف للحقيقة ، والدقة الأمينة في فهم الوقائع وسير الرجال ، أن يذكر المؤمن بكثير من التوقير ، والحب والتقدير ، أولئك الذين صدقوا في إيمانهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانوا يصدرون في تصرفاتهم عن هذا الإيمان المقترن بالحب ، وظلوا على العهد ـ إخلاصاً في الدين ، وصدقاً في المواطن ، وصبراً على المحن في سبيل الله ـ. وأن ما حصل من البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار أكُلُها دائم وظلُّها ، لم يزد أولئك الذين زفّت إليهم البشريات، إلا ثباتاً على الحق ، واستهانة بالصعاب ، ووقوفاً ـ على الدوام ـ عند حدود الله وما شرع، واستمساكاً على المدى بما هو سبيل النجاة يوم الدين ، والفوز بمرضاة رب العالمين.

أسوق هذه الحقيقة ـ والعهد قريب بالحديث عن بعض من تلكم البشريات ـ كيما يكون ذلك سبيلاً لإدراك أن ما تنقله الأخبار الصادقة عما أعدّ لأولئك الذين خصّهم النبي ﷺ بالبشارة ، مبيناً عما سيكون لهم من العطاء ﴿**يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار**﴾ جزاء ما كان من استقامة سلوكهم، وصبرهم على نصرة دين الله حتى وافتهم المنية ... لإدراك أن ما جاء عن خاتم النبيين ﷺ في شأنهم ، يقتضي المؤمن أن يزداد يقيناً بما لله من الحكمة البالغة في سننه التي لا يضلُّ السالك على هديها ، وأن يجمع إلى الفرح بما تفضّل الله به على أولئك الذين كانوا ـ وهم مع النبي ﷺ ـ أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ... أن يجمع إلى هذا الفرح الخوف من سوء العاقبة ، وما تحمل مشاهد القيامة من العظائم التي يشيب لهولها الوليد ، والرجاء بفضل الله ورحمته وإحسانه : فالمآب إليه سبحانه ، وهو الجواد الغفور الرحيم ، وعذابه هو العذاب الأليم .

وهذا أمر ، إن أحسن توظيفه على سلم الأولويات والاهتمامات ، يبعث ـ بلا ريب ـ على تجويد العمل في عمارة الأرض وحسن التزود ليوم المعاد ـ دون تسويف أو إهمال ـ بخير زاد .

من أجل هذا ، لم يدع الصحابة رضوان الله عليهم ـ مع كل البشريات المعهودة ـ أن يأخذوا أنفسهم بما يضيء طريق الآخرة ، داعين الله أن يثبتهم بقوله الثابت ، كيما يكون الواحد منهم في عداد من يبدّل الله سيئاتهم حسنات ، وتكون لهم يوم الحسرة عقبى الدار . وإلى جانب ذلك كانوا لا يدعون أن يتناصحوا فيما بينهم على هذه الساحة ، وأن يذكّر بعضهم بعضاً الآخرة وأهوالها ، والقيامة وما يكون فيها ، فيزداد المحسن إحساناً ، ويتذكّر المقصر ، فيسارع إلى اللحاق بركب السالكين السابقين، الذين لا يعدلون بطريق الجنة ـ مهما اشتدت فيه المكاره ـ طريقاً ، أولئك الذين يجعل الله لهم لسان صدق في الآخرين ، ويبوئهم خير مبوّأ في دار النعيم .

روى الطبراني عن نُعيم بن نَمْحةَ قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه : «أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ! فمن استطاع أن يُقضى الأجلُ وهو في عمل الله عز وجل فليفعل . ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدَّموا في أيام سلفهم ، وحلوا بالشقوة والسعادة . أين الجبارون الأولون الذين بَنَوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تَفْنى عجائبُه فاستضيئوا منه ليومِ ظلمة ، واستنصحوا كتابه وتبيانه ، إن الله قد أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ لاخير في قول لايراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهلُه حلمَه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومةَ لائم » قال الحافظ ابن كثير في شأن إسناد هذه الخطبة : هذا إسناد جيد

ورجاله كلهم ثقات ، وشيخ حَرِيز بن ـ عثمان وهو نُعيم بن نَمحة ـ لا أعرفه بنفي ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستاني قد حكم بأن شيوخ حريز كلهم ثقات ، وقد روي لهذه الخطبة شواهد من وجوه أخر والله أعلم . وأوردها السيوطي في « الدر المنثور » .

وهذه الموعظة التي تثير مشاعر اليقين وتذكّر الله واليوم الآخر ، وتدعو إلى عدم الاغترار بما يكون للمرء في الحياة الدنيا ، كانت تلقى هي وأمثالها، ما تستحق من التفاعل والاتعاظ الذي يبعث على العمل، والاستعداد لدار الخلود. ويا نعم ما ينتظر العاملين الذي لا يغرُّهم الزخرف ولا يلهيهم الأمل ونسيان الأجل ، من الخير العميم ، والكرم الإلهي المتجدد في جنات النعيم؛ فما من عمل صالح يعمله المرء في الدنيا، إلا وقد تفضل الله بإكرام صاحبه في الآخرة ، وما أكثر الأمثلة وأوفرها على ذلك . روى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول : أين العافون عن الناس ؟ هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم ، وحق لكل امرىء مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة» . ولا تسل عن واسع رحمة الله وكريم إحسانه فيما وراء ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا : حدثنا زهير قال : حدثنا سعد الطائي قال : حدثنا أبو مُدِلَّة مولى أم المؤمنين عائشة أنه سمع أبا هريرة يقول: «قلنا يا رسول الله ، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد ! فقال : لو تكونون ، أو قال : لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يَغفر لهم . قال : قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبنة ذهب ولبنة فضة ، ومِلاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلْها ينعم ولا يَبْأسْ ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى

شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم؛ تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل : وعزتي لأنصرنَّك ولو بعد حين ». ورواه الترمذي وابن حبان وابن ماجة والطبراني في الأوسط والدارمي . وهو حسن بشواهده، ولفظه عند الترمذي : قال أبو هريرة رضي الله عنه : «قلنا : يارسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقّت قلوبنا وزهدنا في الدنيا، وكانت الآخرة كأنها رأيُ عين ؟ فإذا خرجنا من عندك فأنسنا في أهالينا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟ قال : لو أنكم إذا خرجتم تكونون على حالكم عندي، لزارتكم الملائكة في بيوتكم ولصافحتكم في طرقكم، ولو لم تذنبوا لذهب بكم ..» إلى أن يقول : قلت: يارسول الله، الجنةُ ما بناؤها ؟ قال : لبنة من فضة ولبنة من ذهب .. » الحديث.

والذي عند ابن ماجة « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول : بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » وجاءت الرواية عند الدارمي مقصورة على السؤال عن الجنة ما بناؤها ؟ ولفظها : « قلنا : يارسول الله : الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر ،وحصباؤها الياقوت واللؤلؤ، وترابها الزعفران، من يدخلْها يخلُدْ فيها، ينعم لا يبأس، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم » وهكذا كان جوابُ النبي ﷺ أوسعَ مما يقتضيه السؤال، إذ رأى ــ وهو سيد الحكماء ـ أن يزِفَّ البشرى للسائلين ـ ومن ورائهم الأمة ـ بقبضة من مكارم ذي الجلال والإكرام على أهل الجنة ؛ فالذي يدخلها ينعَم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت . وهؤلاء الذي كانوا لله في كل الشؤون، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم، ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

وهذه البشرى العظيمة نجدها أيضاً فيما روى الإمام مسلم عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من يدخل الجنة ينعَمُ لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » وله في رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة

رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « ينادي منادٍ إن لكم أن تصِحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيَوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشِبّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعَموا فلا تبتئسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ » .

البأس والبأساء : شدة الحال ، فهي لا تصيبهم . ينعم : يدوم نعيمه .

جعلنا الله ـ بمنه كرمه ـ ممن ينادون هذا النداء العلويَّ المبارك ، إنه المتفضل الجواد الكريم .

# طريق الجنة.. وإجابة الداعي إليها

﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ هذه حقيقة لا يماري فيها مؤمن ، ولكن وراء الإيمان ، أن تكون أنباء يوم الفصل ؛ بشاراتها ونذرها ، باعثاً على تقوى الله ، واتباع صراطه المستقيم ؛ فالذين يحدوهم الإيمان إلى الإقبال على تلك الأنباء وما تحمل من الحديث الصادق عن مشاهد القيامة وأهوالها العظام الجسام ، تلك الأهوال التي ترى الناس معها ــ وقد غمرتهم شدتها ـ سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله ، شديد ... الذين يحدوهم الإيمان إلى الإقبال على ذلك خائفين من عذاب الله ، راجين رحمته وجنته ، فيتدبرون بكليتهم معاني النصوص ومدلولاتها ، ويتبينون ما تقوم عليه مشاهد القيامة وما تزخر به من بشارة أو نذارة .. فيتذكرون ويتفكرون ؛ من علامات الصدق في إيمانهم ، وحسن استجابتهم لدعوة الخير ، أن يتلمسوا الطريق إلى حسن العاقبة ، كيما يحشروا ــ برحمة الله وعونه ـ في زمرة من تكلؤهم عناية الله ، فينجون مع الناجين ، وتهب عليهم نفحات الرحمة والإحسان ، فيكونون في روح وريحان وجنة نعيم .

وإنها لطريق، لا يصبر على سلوكها إلا أصحاب الهمم الصادقون ، الذين يعلمون حق العلم أن النار ـ كما أخبر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ـ حفّت أو حجبت بالشهوات ، وأن الجنة حفّت أو حجبت بالمكاره .

ولم لا يصبر طلاب الجنة المشوقين إليها على متاعب طريقها ، ويتلذذون بما يبتلون ؛ وهم يرتادونها بصدق وعزيمة ، وهي سلعة الله الغالية التي ينشدون ، والتي لا تنال بالقعود عن معالي الأمور ، والتهاون في الاستمساك بشرع الله ، وأخذ ما جاء عن الله ورسوله بقوة !! لم لا يصبرون وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وأصبح ما طالعتهم به النصوص من أخبار الآخرة ، كأنه رأي عين في عالم

الشهادة!! وقد مر بنا في مناسبة أخرى ما رواه الترمذي وحسّنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ».

ومما اتفقت عليه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أولهم إلى خاتمهم - كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله - أن الجنة ليس لها إلا طريق واحد ، وأما طرق الجحيم : فأكثر من أن تحصى ؛ ولذا يوحِّد سبحانه سبيله ، ويجمع سبل النار ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر** ﴾ أي ومن السبيل جائر عن القصد وهي سبيل الغَي .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر قال : حدثنا أبوبكر عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «خطّ رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، قال : ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ...** ﴾ » الآية وأخرجه الحاكم في « المستدرك » وقال : صحيح ولم يخرجاه - يعني البخاري ومسلماً -.

وفي رواية أخرى لأحمد قال : هذه سبل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً ...** ﴾ الآية .

وللحديث شاهد أشار إليه الحاكم في « المستدرك » ، وهو ما روى الإمام أحمد في المسند بسنده أيضاً عن الشعبي عن جابر قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ ، فخط خطاً هكذا أمامه فقال : هذه سبيل الله ، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله ، وقال : هذه سبل الشيطان ، ثم وضع يده في الخط الأوسط ، ثم تلا هذه الآية ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ ».

ولقد يرد على هذا قول الله جل ثناؤه : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ إذ جمع سبل السلام التي قال العلماء : إنها طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة . والجواب عن ذلك ــ على ما يرى ابن القيم ـ أنها سبل تجمع في سبيل واحدة ، وهي بمنزلة الجوادِّ والطرق في الطريق الأعظم ؛ فهذه هي شعب الإيمان ، يجمعها الإيمان وهو شعبة ، كما يجمع ساقُ الشجرة أغصانها وشُعَبها ؛ وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره ، وطاعة أمره ، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا .

أخرج البخاري في كتاب الاعتصام من الجامع الصحيح عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم وقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً . فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مائدة ـ وفي رواية مأدبة ـ وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار ، وأكل من المائدة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة . فقالوا : أوِّلوها يفقهْها . فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان ؛ فالدار الجنة ، والداعي محمد ﷺ ؛ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله . ومحمد فَرْقٌ بين الناس ».

معنى « ومحمد فرق بين الناس » أي أنه ﷺ يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه ؛ فمصدقوه المستجيبون لدعوته مؤمنون . ومكذبوه الجاحدون للحق كافرون . وفي رواية « فرّق بين الناس » والمآل من حيث المعنى واحد .

هكذا مُثل للجنة بالدار ، ومُثِّل له صلى الله وسلم وبارك عليه بالداعي إليها؛ وفي ذلك تقريب للمعنى ، وإثارة لهمم أهل الإيمان من أجل الاستجابة الصادقة للداعي ـ وهو الرسول الكريم محمد ﷺ ـ لما يثمر ذلك على أصحابه، بل والأمة

من الخير العظيم، دخولاً للجنة التي لا ينقطع مـا فيها من النعيم ولا يزول ، وفوزاً برضوان الله الأكبر الذي لا يسخط بعده على أهل تلك الجنة أبداً .

قال الحافظ ابن حجـر عند شرحه لهذا النص الكريم: في الحديـث « فقالوا: الدار الجنة » : أي الممثَّل بها . زاد في رواية سعيد بن أبي هلال : « فالله هو الملك، والدار الإسلام والبيـت الجنة ، وأنت يا محمـد رسول الله» وفي حديث ابـن مسعود عند أحمد « أمـا السيد : فهو رب العالمين . وأمـا البنيان : فهو الإسـلام ، والطعام الجنة ، ومحمد الداعي » فمن اتبعه كان في الجنة .

وانظر إلى هذا الارتباط الـوثيق مرة أخرى، بين طاعة الله وطاعـة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وكيف تكون ثمرة طاعة رسول الله ﷺ دخول دار النعيم والتنعُّم بعطاء الله فيها ؛ فأهلها ينعمون ولا يبأسون « فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله » أي لأنه رسول صـاحب المأدبة ؛ فمن أجابـه ودخل في دعوته أكل مـن المأدبة ، وهو كناية عن الفـوز بدخول الجنة التي أعدت لمن آمنوا وعملـوا الصالحات ، وموعود ربنا الكريم المنان عباده الأبرار المتقين .

قال الحافـظ رحمه الله : ووقع بيـان ذلك في رواية سعيـد . ولفظه : «وأنـت يا محمد رسـول الله ، فمن أجابـك دخل الإسلام . ومـن دخل الإسلام دخـل الجنة . ومن دخل الجنة أكل ما فيها ».

ولا ريب في أن المراد بدخول الإسلام : دخوله بصدق إيماني يحمل على العمل بحق الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله ».

ولهذا الحديث الذي هو مأدبة من مآدب الخير صلة إن شاء الله .

# الجنة والنار.. ومثل النذير العريان

ما يزال الحديث موصولاً بما كنا ـ من قبل ـ بصدده ، من حقيقة: أن طريق دارالسلام التي هي دار المفلحين عند ربهم ، إذ هم في روضة يحبرون : عنوانه المشرق المتلألىء الواضحة معالمه ، السديدة خطاه ؛ استجابةٌ ملؤها الصدق والإخلاص لدعوة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، المبلغ عن الله ما أراد ، وأن من أطاعه إيماناً واستقامة على سواء الصراط ، فقد أطاع الله عز وجل، لأن الله فرض طاعته ، وجعلها من طاعته سبحانه، وفرض العمل بسنته كما فرض العمل بكتابه .

وهذا الذي لا خلاف عليه عند المؤمنين ، وعلماء الأمة وصالحيها ، قد رأينا من قريب مصداقه وتقريبه إلى الأذهان من طريق المثل الذي ضربته الملائكة ؛ وذلك فيما روى البخاري من حديث الملائكة الذين تحدثوا ـ عليهم السلام ـ عند رسول الله ﷺ وهو نائم ، ولكن العين نائمة والقلب يقظان .

وعندما يقدُر المؤمن ، ما يكون يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويُبلس المجرمون ، وتراهم يومئذ مقرنين في الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، ويتمنى الناس فصل القضاء والانفضاض، ولو إلى النار ، لكثرة ما يهولهم الأمر وتشتد عليهم الصعاب .. عندما يقدر المؤمن ذلك اليوم الموعود حق قدره ، بقلب وعقل حاضرين ، تستوقفه ـ على ساحة الرغبة العميقة في النجاة من عذاب الله الأليم، والفوز بعطائه الكبير في جنة عرضها السماوات والأرض ـ تلك الحقيقة التي أوضحها أولئك النفر من الملائكة عليهم السلام بالمثل كما أسلفت ، ويحاذر نسيانها ، بله الغفلة عنها .

وهذه رواية أخرى ، تصرح برؤيا لرسول الله ﷺ في هـذا الشأن ، وأن جبريل وميكال عليهما السلام هما اللـذان أدارا الحديث وضربا المثل . أخـرج الترمذي في جامعه الصحيح ـ سنـن الترمذي ـ عن سعيد بن أبي هلال عن جـابر بن عبدالله الأنصـاري رضي الله عنهما قال : « خـرج علينا رسـول الله ﷺ يـوماً ، فقـال : إني رأيـت في المنـام كأن جبريـل عنـد رأسي وميكـائيـل عند رجليَّ ، يقـول أحـدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك . إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنـى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مائدة ، ثم بعث رسـولاً يدعو الناس إلى طعامـه ، فمنهـم من أجاب الرسـول ، ومنهم من تركه فالله هو الملك ، والدار الإسلام . والبيت الجنة. ومن دخل الجنة أكل ما فيها» قال أبو عيسـى : هذا حديث مرسل . سعيـد بن هلال لم يدرك جابـر بن عبدالله وفي الباب عن ابن مسعود .

ولا يخفى أن مـدار الأمر ـ بسعتـه وعمقه ـ على طـاعة النبي المصطفـى عليه الصلاة والسـلام فيما دعا إليه العباد ، وهـو لا يدعو إلا إلى خير يبلغه عـن الله عز وجل ، ويفوز العامل به بسعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة . وأنعِم بمن جعل الآخرة همّه ، فتخذ مـن الشيطان عدواً ، وسارع إلى تلكم الطاعـة المثلى ، وفاز يوم تجيء الصاخة مع الفائزين ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه. لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾. ويا شقوة من أدبر وتولى ناسياً ذلك اليوم ، لاهياً عنه قد زلّت به القدم ، فكان في طاعة الهوى والشيطان .

ومما هو جميـل بالغ النفع : أن يكون المؤمـن ـ وهو يرجو أن يقسـم له حظ في مواكب الأبـرارالذين يدخلون جنة عـدن متفضلاً عليهم بالخلود فيهـا ـ أن يكون على ذُكر من أن الـرسول عليه الصلاة والسلام ــ كما سبق ـ سمى عصيـانه إباءً ـ والمعاذ بـالله ـ وقد كشف بـذلك عما يصحب التـولي عن الحق والداعي إليـه، من الحركة النفسيـة المتمردة داخل الإنسان المعـرض عن ذكر الله وكلمته ، كـي يعرف العاقل الداء ، ويختار له أفضل الدواء . أخرج البخاري وغيره ـ واللفظ للبخاري ـ

عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتي يـدخلون الجنة إلا من أبى . قـالوا : يارسول الله ، ومن يأبـى ؟ قال : من أطاعني دخـل الجنة ، ومن عصاني دخل النار » وقد كنت أوردت ـ فيما سلف ـ أكثر من رواية لهذا الحديث، وأحسن البخاري رحمه الله صنعاً حين أخرجه في كتـاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجامع الصحيح ، مع المثل الموضح الذي تقدم الإيماء إليه .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن أهمية هذه الحقيقـة ، مضافاً ذلك إلى حرصه ﷺ على صالـح المآل لأمته يوم المعـاد ، مما جعله كثير العنايـة بها ، كَلِفاً بتنويـع الأسلوب والصورة عند عرضها في هديه الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجامع الصحيح أيضاً : حدثنـا أبو كريب قـال : حدثنا أبو أسامـة عن بُريد عـن أبي بُرْدة عن أبي موسى عن النبـي ﷺ أنه قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله بـه ، كمثل رجل أتى قومـاً فقال : يا قـوم إني رأيت الجيش بعينـيَّ ، وإني أنا النذيـر العريان ، فـالنجاءَ النجاء . فأطاعه طـائفة من قومه فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلهـم فنجَوا . وكذَّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبّحهـم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطـاعني فاتبع ما جئت بـه ، ومثل من عصاني ، وكذّب بما جئـت به من الحق » .

ولسنا في مرية ـ والحمد لله ـ من أن نجاة من أطاع رسول الله ﷺ واتبع ما جاء به ، إنما هي بزحـزحته عن النار التي لا يصلاها إلا الأشقـى ، الذي كذب وتولى ، وفوزه بالجنة التـي يورثها الله ـ بمنه ورحمته ـ عباده المنيبين المتقين . وأن هلاك من عصاه وكـذَّب بما جاء بـه ، إنما هو بدخـوله يوم الحشر جهنـم التي تكـون مأواه ، حيث يضاعف له العذاب فيها ويخلد فيه مهاناً .

هذا : والمثـل الذي أوضح النبـي ﷺ من خلالـه ـ وهـو سيد البلغاء ـ أمر النجاة مـن نار السعير ، والفـوز بجنة الخلـد لمن أطاعـه واتبع هـداه ، وأمر الهلاك

والتردي في الجحيم لمن كـان منه التكذيـب والعصيان .. هذا المثـل الرائع المعبِّر : نموذج مشرق بـالغ الـرفعة في روعـة الأسلوب وإشراق البـلاغة الفـاذّة المتميزة في كلامه عليه الصلاة والسلام ـ وقد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ـ وكيـف لا وقد اؤتمن ـ فـداه أبي وأمي ـ على بيان الكتـاب المعجز الذي لا يـأتيه الباطـل من بين يـديه ولا مـن خلفه ، وعجـز العرب ،وهـم أرباب البيـان وأئمة البلاغـة والفصاحـة في الدنيا يـومذاك ،عـن أن يأتوا بشيء مـن مثله ؛ فكـان من حكمته سبحانه لله تعالى ، أنه كما أهّله واصطفاه لحمل الرسالة وتبليغها ، اصطفاه كذلك خِلقياً وموهبةً ـ مع جلال الوحي ونوره ـ لبيان الكتاب الكريم، بياناً يتسق مع كونه الكتاب المعجز ، وأدبَّه ربه فأحسن تأديبه صلوات الله وسلامه عليه .

وأنت ترى أنه عليه الصلاة والسلام ، شبه نفســه من طريق الاستعارة ـ وهو يدعـو إلى سلوك السبيل الموصلـة الى النجاة يوم الديـن ـ بالنـذير العريـان الذي يبصِّر قومـه بالخطر المحدق ، وكـل الدلائل تدل على صدقـه ؛ فالذين أطـاعوه، أدلجوا ـ ساروا أول الليـل أو ساروه كلّه ـ فنجـوا من أن يقعوا ضحية ذلـك الخطر مـن العدو ، والـذيـن كـذبوه ولم يلقـوا بـالاً لإنـذاره ، صبّحهم جيـش العـدو ، فاجتاحهم وأوقع فيهم الهلكة .

وللعلماء في المراد بـ « النذيـر العريـان » عـدة آراء . والأصل فيـه ـ كما يـرى البعض ـ أن رجلاً لقـي جيشاً فسلبوه وأسروه ، فانفلت إلى قومـه فقال : إني رأيت الجيش فسلبوني ، فرأوه عرياناً فتحققوا صدقه ، لأنهم كانوا يعرفونه ولا يتهمونه في النصيحـة ، ولا جرت عـادته بـالتعري ، فقطعـوا بصدقـه لهذه القرائن ، وعملـوا بنصحه ؛ فضرب النبي ﷺ لنفسه ولما جاء بـه من الهدى الذي يخرج من الظلمات إلى النـور ، وينجي يـوم القيامـة ـ بـإذن الله ـ مـن العذاب المهين ... ضرب مثـلاً بذلك لما أبداه من الخوارق والمعجزات الدالـة على القطع بصدقه ـ وفي مقدمتها القرآن الكريم ـ تقريباً لأفهام المخاطبين بما يألفـونه ويعرفونه . ويؤيده ـ كما يقول العلماء ـ مـا أخرجه الـرامهرمزي في كتاب « الأمثـال » وهو عند أحمد أيضـاً بسند

جيد من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال : «خرج النبي ﷺ ذات يوم ، فنادى ثلاث مرات : أيها الناس مثَلي ومثَلكم مثَل قوم خافوا عدواً أن يأتيهم، فبعثوا رجلاً يترايا لهم ؛ فبينما هو كذلك ، إذ أبصر العدو ، فأقبل لينذر قومه ، فخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس أُتيتم ـ ثلاث مرات ـ » وأحسن ما فسر به الحديث من الحديث .

وقد أبان ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » أنه عليه الصلاة والسلام خصَّ العُريان لأنه أبين للعين وأغرب عند المبصر ، وذلك أن ربيئة العرب وعينهم يكون على مكان عالٍ ؛ فإذا رأى العدو قد أقبل ، نزع ثوبه وألاح به .

وصلى الله وسلَّم وبارك على المبين عن ربه ما أراد ، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، ونفع المسلمين بهديه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فالسعيد الموفّق من فقه وعمل ، وسلك سواء الصراط ، ففاز بالجنة نُزُلِ الأبرار الصادقين.

# أهل الجنة وأهل النار.. في المثل النبوي

البيان النبوي آية من آيات الله الدالّة على بالغ حكمته، وعظيم قدرته، جل وعلا ، في تقليد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أمانة البيان للقرآن المجيد المعجز الذي لم يستقم للعرب ـ وهم أهل الفصاحة والبلاغة واللسَن ـ أن يأتوا ولو بسورة من مثله ، وثبت عجزهم عن ذلك ، بعد أن خُوِّلوا هم أنفسهم الحكم في شأن الإتيان وعدمه ، وصدق فيهم وفي الناس كافة قول الله تبارك وتعالى : **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**.

ولقد تكون النظرة ـ من أهل النظر ـ إلى البيان النبوي أكثر استيفاءً ، إذا لوحظ ما كان من تمام الاتساق، شكلاً ومضموناً ، بين ما تضمنته الرسالة التي كان يؤديها عليه الصلاة والسلام ، ويخاطب بدعوتها ـ أول ما يخاطب ـ العرب، وفي مقدمتهم قريش ، وهم على ما هم عليه من الكلمة المنتقاة ، و الاختيار الموفق من لهجات العرب ، وجمال الأسلوب وبلاغة التعبير ، وبين الثوب الذي ألبسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تلك المضمونات ؛ تعبيراً وأسلوباً ، وقولاً بليغاً يأخذ بمجامع القلوب ، هي الغاية بعد كتاب الله عز وجل . كل هذا وميزان البلاغة من بدء البعثة إلى لحوقه بالرفيق الأعلى لا يعول ، وسحر البيان الصادق المؤثر لا يريم ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، لا تنفك تعلن عن نفسها في كل حال ؛ من أول يوم خوطب فيه بالتبليغ ،وحتى وافته المنية عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ولا تسل عما خُصَّ به من جوامع الكلم التي تزين العلاقة بين الأسلوب في التعبير وبين المعاني العظيمة ، التي يطلب الوفاء بتحقيقها، على ساحة الهداية والبلاغ المبين.

أقول هذا ، ولم يمـض إلا اليسير على إيراد واحد من النماذج الـوفيرة في هديه عليه الصـلاة والسلام ، حيـث استخدم بعنـاية فـائقة غير متكلفـة، ضرْب المثل لإيضاح مـا يريـد ، وهو يعـظ الناس ويقـول لهم في أنفسهم قـولاً بليغاً كما أمـره مولاه، ويدلهم على ما فيه عتق رقابهم من النار ، وأن يكونوا ممن يتحقق لهم في يوم لا ريب فيه، موعود الله بنعيم لا يبلى في دار المقامة .

لقد أفـاد ـ ﷺ ـ من البيئـة العربيـة، حيث العيـون تستطلع أخبـار العدو، فضرب لنفسه المثـل بالنذيـر العريان، الذي يبصِّر بقـوله وبحالـه، قومه بـالخطر، ليقيهم غائلة مـداهمة العدو ؛ فمن صدّق هذا النذير ، أخذ بـالأسباب، ونجا مع النـاجين، ومن كـذّب واتخذ الحقيقـة النـاصعة وراءه ظهـريـاً ، قعـد عن الأخـذ بالأسبـاب ،وهلك مع الهالكين . وكذلـك حال المصدقين الطـائعين ، والضالين المكذبين .

فطريق البعد عن نـار السعير ، وأن يكون المرء في عداد أهل الجنة المفلحين : التصديق بما جـاء به الداعي محمد عليـه الصلاة والسلام واتباعه . أمـا التكذيب والإعراض عن الحق الذي جاء به من عند ربه : فذلك عنوان الضلال ، والطريق المؤدية إلى شر مأوى ، جهنم وبئس المصير .

والنموذج الذي هـو موطن الإيماء والتذكير ، والـذي قرر الحقيقة من طـريق ضرب المثل المشرب بواقع البيئة العربية يومذاك ، رأيناه فيما روى البخاري عن أبي موسـى الأشعري رضي الله عنه عن النبـي ﷺ أنه قال : « إنما مثلي ومثل مـا بعثني الله به كمثل رجـل أتى قوماً فقـال : يا قوم إني رأيت الجيـش بعينيَّ ... » الحديث وجاءت الرواية عند البخاري أيضاً في كتاب الرقاق ولكن بأخصر مما سبق ، حيث روى بسنده هناك عن أبي بردة عن أبي موسى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنـي الله كمثل رجل أتى قـوماً فقال : رأيـت الجيش بعيني ، وإني أنا النـذير العُريان ، فـالنجاءَ النجاء ، فأطاعتـه طائفة فأدلجوا على مهَلهم فنجـوا ، وكذبته

طائفة فصبّحهم الجيش فا جتاحهم ».

وقـد أشرت من قبـل إلى بعض المعـاني . وأود التنبيه هنـا على أن الحافظ ابـن حجر ذكر أن محمد بن خالد روى الحديث بلفظ « النذير العربان » بالباء ، وقال : فإن كـان هذا محفوظـاً : فمعناه « الفصيح بـالإنذار » لا يكني ولا يـورّي ، يقال : رجل عـربان ، أي فصيح اللسـان ، وكأن الحافظ لم يـرتض ذلك . والنـذير يحض القوم على طلب النجـاة بقوله : « فالنجـاء النجاء » أي اطلبوا النجاء بـأن تسرعوا الهرب ، إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذلك الجيش .

صلى الله وسلم وبارك على سيد الأنبياء ، كيف قرّب الحقيقة إلى الأذهان بهذه الصورة المعبرة المؤثرة التي ليست غريبة عن العربي في بيئته يومئذ ، وأراها تصلح في كل عصر ـ دون ريب ـ للإنذار بالخطر المحدق يتهدد المسلمين ، وإن اختلفت أسباب الخطر ومظاهره .

وقد أشار المصطفى صلوات الله وأزكى تسليماتـه عليه، إلى أن النذير العريان جاء بما يؤكد صدقه على وجـه اليقين ، كيما يمتثل القوم ، ويبادروا الهلاك المرتقب والاجتياح ، بتفـويت الفرصة على العـدو . قال الطِيبي رحمه الله : ( في كـلامه ﷺ أنواع من التأكيدات: أحدها ـ « بعينيَّ » ثانيها ـ قوله: « وإني أنا » . ثالثها ـ قوله: « العُريان » لأنـه الغاية في قرب العـدو ، ولأنه الذي يختص في إنـذاره بالصدق، وكان الناس طائفتين ؛ طائفة أطاعوا ، فـأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وطائفة كذّبوا وعصوا ، فبـاؤوا بالهلاك ، إذ صبّحهـم الجيش فاجتـاحهم )؛ فـالداعـي الصادق الناصح الـذي يحمل مؤيدات صدقـه ونصحه كلّها ، محمد ﷺ ، والطـائفة التي أطاعت فكانت عاقبتها النجاة ، هم المؤمنـون المصدقون العاملون وفق ما يقتضيه الإيمان وحسن الاتبـاع ؛ وتلك سبيلهـم ـ بفضل الله ـــ إلى جنات الفـردوس التي جعلها الله نزلاً لعباده الصالحين . أما الذين كذبوا وتولّوا : فهم الكافرون المعرضون وهلاكهم ما يترصـدهم من المصير المحتوم في نار وقودهـا الناس والحجارة أعدت

للكافرين . قال الطيبي : ( عبر في الفرقة الأولى بـالطاعة ، وفي الثانية بالتكذيب، ليؤذن بأن الطاعة مسبوقة بالتصديق ، ويُشعر بأن التكذيب مستتبع للعصيان )».

وبعد : فما أحسبه مكروراً من القول أن أعود إلى تقرير أن الرسول ﷺ أوضح الحقيقة ـ كما سلف ـ بضرب المثل أوفى مـا يكون الإيضاح وأجمله . ها هو ذا ﷺ : يشبه نفسه بالرجل مدار الحديث، وإنذاره بالعذاب القريب ، بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبِّح ، وشبه من أطاعه من أمة الدعوة ومن عصاه ، بمن كذب الرجل النذير ومن صدقه !!.

ومن حـق هذا البيـان النبوي الكـريم، التـذكير بما هو معلـوم من أنـه عليه الصلاة والسـلام ، كان حفِيّـاً ، شديـد الاهتمام ببيان السبيـل الموصلة ــ برحمة الله وفضله ــ إلى دار النعيم ، والترغيب في سلوكهـا بدءاً من داخـل النفس ، والحض على ما من شأنه سلامة المستقر في الآخـرة دار الخلود ؛ فالدار الآخرة، هي الحيوان لو كـانوا يعلمون . ولم يدع ــ صلوات الله وسلامـه عليه ـ أن يكشف عـن السبل التي تنتهـي بالهلاك الأبـدي، حيث الانسـلاك في زمر أهـل النار الخالـدين فيهـا والمعاذ الله ، وأن يرهِّب من ذلك، ترهيباً بالـغ الشدة والتأثير . وكان هذا من كريم نصحه ، وكمال شفقته على أمته صلوات الله وسلامه عليه ، حتى إنك لتجده عليه الصلاة والسلام ، يقـرب إلى الأذهان في بعض كلامـه، صورة من صور المعـاناة ، بحرصه على إبعـاد الناس عن النار ، كيما يـزحزحوا عنها وينقلبـوا إلى جنة الخلد، وكيـف يُصمُّ بعـض النـاس أسماعهـم، ويتقحمون ــ طـاعـةً للهوى والشيطـان وخضـوعـاً للشهـوات ــ يتقحمون في جهنـم، وَمَثَلُهـم في ذلـك كمثـل الفـراش والدوابّ التي تتهافت على النار ، فتقع فيها بلا عقل ولا إدراك .

أخـرج البخاري وغيره ــ واللفـظ للبخاري ــ في كتاب الـرقـاق من الجامـع الصحيح بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنـه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نـاراً ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفراش

وهذه الـدوابُّ التي تقـع في النار يقعـن فيها ، فجعـل الرجـل يَزَعُهُـنَّ ، ويغلبنه فيتقحَّمن فيها ؛ فأنا آخذ بحجزكم من النار وأنتم تقحَّمون فيها ».

الحُجزَ : جمع حُجْـزة وهي معقد الإزار والسراويـل . تقحَّمون : مـن التقحُّم وهو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت . يزَعُهُنَّ : يدفعهن .

أرأيت إلى هـذه البلاغة النبـوية في استخدام هذا المثـل المنتزع من الـواقع !! حقـاً إنه عليـه الصلاة والسـلام ـ كما وصفـه ربه عـز وجل ـ ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾. وما على الذين يتطلعون صادقين إلى إنقـاذ أنفسهم من النار ، والخلوص يـوم المساءلـة والحسـاب إلى الجنة يتبـوؤون منهـا حيـث يشاؤون، إلا أن يسمعـوا ويطيعـوا أمره عليـه الصلاة والسـلام فيما أمـر ، ويجتنبوا نهيـه فيما نهى ، وبذلـك ينجون ممـا وقع فيه مـن ذكروا في المثل، ويكـونون ـ بفضل الله ـ في عـداد الأتقياء الأنقياء المفلحين، الذين رُزقوا أن يكونوا يوم الحسرة ، في جنة الفردوس خالدين .

## دار المقامة.. والصبر على طريقها

وقفنا الكلام على طريق الجنة وأن عنوانهَ المشرقَ المتلألئ طاعةُ رسول الله ﷺ التي هي من طاعة الله ، على حديث يبرز حِرْصَ النبي ﷺ على أن يباعد الأمة عن الوقوع في الجحيم ، ويسلكَ بها سبيل الوصول إلى الجنة ، وكان من بلاغته وسمو أسلوبه عليه الصلاة والسلام ، أن استخدم المثل الواقعي لإيضاح هذه الحقيقة، وتقريبها إلى الأذهان ، كيما تكون حافزاً إيمانياً يدفع إلى العمل، والانعتاق من سلطان الهوى والشيطان ، لأن الذي يعرض عن ذكر الله، ويقع في حبائل الهوى والشيطان ، متولياً عن هدي النبي عليه الصلاة والسلام ،لا يُمْترى في أنه يعرّض نفسه للوقوع في جهنم وبئس المهاد ، مثله في ذلك: مثل الفراش والدواب التي تتهافت على الوقوع في النار ، يذبُّها الذي استوقد النار بكلتا يديه ، وهي تصر على التقحّم فيها ، وقد رأينا في هذا رواية للحديث عند الإمام البخاري .

وفي حديث موصول بهذه النقطة، يحسن إيراد رواية الإمام مسلم التي جاءت في الصحيح تحت باب «شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم». قال رحمه الله : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمرٌ عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : «مثَلي كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدوابُّ التي في النار يقعن فيها ، وجعل يَحْجُزهنّ ويغلبْنَه فيتقحّمن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلُكم. أنا آخذ بحُجزكم عن النار ، هلُمّ عن النار ، هلُمّ عن النار، فتغلبوني تقحّمون فيها » وله في رواية أخرى عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهنَّ عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلَّتون من يدي ». وقد رويت كلمة تفلّتون بوجهين . أحدهما : تفلَّتون وأصلها تتفلّتون،

والثاني : تُفلِتون ـ من أفلت ـ وكلاهما صحيح في العربية : تقول : أفلت مني وتفلَّت : إذا نازعك الغلبة والهرب ثم غلب وهرب .

هذا : وصورة الأخذ بالحُجز إبعاداً للناس عن النار ـ وهي صورة من عمل النبي ﷺ ـ توضح ما كان من حرصه على أن يبتعد الناس عن طريق جهنم، والتهافت الشديد عليها ، وأن يسلكوا طريق الجنة ـ وهم يصرُّون على ما يوقعهم فيها ـ هذه الصورة جاء التعبير عنها عند مسلم بصيغة اسم الفاعل للأخذ «فأنا آخذٌ بحجزكم » وبصيغة المضارع « فأنا آخُذُ بحجزكم » أما عند البخاري: فجاءت بصيغة اسم الفاعل فقط . والفاء هنا استوقفت العلماء من حيث موقعها البلاغي؛ قال الطيبي رحمه الله : الفاء فيه: فصيحة ، كأنه لما قال : « مثلي ومثل الناس » أتى بما هو أهم وهو قوله : « فأنا آخِذٌ بحجزكم».

ومن هذه الدقيقة التفتَ من الغيبة في قوله : « مثل الناس » إلى الخطاب في قوله: « بحجزكم » كما أن من أخذ في حديث من له بشأنه عناية، وهو مشتغل بشيء يورطه في الهلاك ، يجد لشدة حرصه على نجاته أنه حاضر عنده؛ وفيه إشارة إلى أن الإنسان ، إلى النذير أحوج منه ـ كما يقول هذا العلاّمة ـ إلى البشير ، لأن جبلته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل .

وواضح أن في الحديث: ما كان فيه ﷺ من الرأفة والرحمة والحرص على نجاة الأمة ،وأن تتجه وجهة العاقبة المباركة في دار الأبرار ، دار النعيم كما قال تعالى : ﴿**حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ ، لقد بلغ رسول ﷺ الغاية بهذا المثل المؤثر الذي يلامس بنوره وواقعيته شغاف القلب ، وينبه الغافلين الذين يغترون بزخرف الدنيا ، ويتبعون الشهوات ، ناسين دار القرار .. ينبههم على محاسبة أنفسهم وأنهم ، وهم في طاعة الشهوة والهوى والشيطان ، يلقون بأنفسهم في جهنم التي قال الله فيها : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ وهل من العقل في شيء: أن يوبقَ المرء نفسه راضياً مختاراً ، فيكون من

أهل الجحيم ، وأمامه طريق الجنة مفتَّح الأبواب! ؟ إنه إن فعل ذلك ـ وهو المخلوق الذي كرمه الله بالعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ـ كان مثله في هذه الجهالة المطبقة ، والعناد المفرط ، كمثل تلكم الدواب والفراش والجنادب التي تلقي بنفسها في النار ، وهي لا عقل لها ولا إدراك ؛ يحجزها الذي استوقد النار عنها وهي تتقحّم فيها ؛ أفيرضى عاقل لنفسه أن يكون كهذه المخلوقات عديمة الإدراك ، يدفعه النبي ﷺ بهديه الكريم، وشفقته العظيمة عن طريق جهنم ، ويوجهه إلى طريق النعيم المقيم، ويأبى هو إلا العصيان والحرص على نار السعير؟.

أما بعد : فإن هذا الذي رأينا في هذا الحديث، وحديث «النذير العريان» من قبله : يشدنا إلى الفهم العميق لمدى الارتباط بينهما ــ ومثلهما كثير في الهدي النبوي ـ وبين الحديث الذي رأينا من قبل بعض رواياته عند البخاري والترمذي وأحمد والذي يحدد بضرب المثل ــ كما ذكر الملائكة عليهم السلام ، أو جبريل وميكائيل فقط ـ طريق الجنة المبارك النيرّ وهو إجابة الداعي محمد عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

وكم في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ــ وهو المبلغ عن الله ما أراد ـ من توجيهات تسمو بالعاقل ـ أن لو امتثل وأطاع ، وصبر على ما يكتنف طريق الجنة من مكاره ـ إلى أن يكون في منازل أولئك الأبرار فيها ، ونعمت دار المقامة، نزلاً للأبرار المقربين . أخرج الإمام أحمد بسنده عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أُراه قد رفعه إلى النبي ﷺ قال : « أيُّما مؤمن سقى مؤمناً شَربةً على ظمأ ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيُّما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع ، أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيُّما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُريٍ ، كساه الله من خُضْرِ الجنة ».

والنسب متصل ــ كما ـ ترى بين هذه الكلمات النورانية، وبين قوله تعالى في سورة المطفّفين: ﴿ إن الأبرار لفي نعيم. على الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم

نَضْرة النعيم . يسقون مـن رحيق مختوم ...﴾ ولفظ الحديث عنـد أبي داود عن أبي سعيد أيضاً عـن النبي ﷺ قال : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوبـاً على عُري كساه الله من خُضْر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم ».

وأخرجه الترمذي بلفظ « أيُّما مؤمـن » كما هو عند أحمد ، وأشار إلى رواية وقفه على أبي سعيد ، وأنها عنده أصح وأشبه .

وتجدر الإشـارة إلى أن الحديـث الموقـوف مـا وقـف بـه على الصحـابي ، أمـا الحديث المرفوع : فهو ما رفع إلى النبي ﷺ . غير أن الحديث الموقوف إذا كان مما لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد : فله حكم المرفوع . وحديث أبي سعيد هنا من هذا القبيل .

اللهـم اجعلنا مـن الذيـن يستمعون القـول فيتبعون أحسنـه ، واحشرنا يـوم القيامة في زمرة عبادك المتقين الذين يسقون في دار كرامتك من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

## العمل والجزاء.. الترابط والصلة

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرمي ـ وهو يكشف عن الصلة بين الجزاء الذي يُكـرم به المؤمنـون العاملـون للصالحات يـوم القيامـة، وبين العمل وتحمـل المسؤولية في الـدنيا ـ إلى أن يكون المؤمنـون على ذكر أبداً من أن طـريق الجنة، على نسب متصل بالاستجـابة الصادقة لله وللرسول عليه الصـلاة والسـلام . ولما كانت طاعته ﷺ ـ كما هو معلوم ـ من طـاعة الله ، دارت الأحاديث على أن الطريق التي تبـدأ بالإيمان والعمـل الصـالح ، في إخـلاص وصدق تـوجـه الى الله عز وجـل ـ وصفوتها: إجابة الداعي محمد عليه الصلاة والسلام ـ تنتهي بالمؤمن إلى أن يدخل ـ بفضل الله ـــ جنة النعيم التي فيها مـالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ ومما أوردت في ذلك من قبـل: ما روى أحمد والبخاري والترمـذي من حديـث الملائكة الـذين أوضحوا هـذه الحقيقة بضرب المثـل للنبي عليـه الصلاة والسلام ؛ فهو الداعي إلى الجنة ، ومن أجابه إلى دعوته، كان من أهلها .

وتدعو الرغبة في المزيد من الوضوح، إلى إيراد رواية أخرى للترمذي ، حرص الإمام ابن القيـم على ذكرها ،والدلالـة على مواطن الهداية للعمـل الأخروي فيها ، كما حرص عدد مـن الشراح وفي مقدمتهم الحافظ ابن حجـر ،على الإفادة منها في شرح الحديث، وبيان أحكامه ، وقد أخرجها أبو عيسى في باب « مثل الله لعباده » من كتاب الأمثال في الجامع ـ سنن الترمذي ـ قال رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار قال: حـدثنا ابن أبي عـدي عن جعفر بن ميمـون عن أبي تميمة الهجيمـيِّ عن أبي عثمانَ عن ابن مسعـود رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ العشـاء ثم انصرف فأخذ بيد عبدالله بن مسعود حتى خرج به إلى بطحاء مكة ، فأجلسه ثم خطّ عليه خطّاً ، ثم قال : « لا تبرحنّ خطّك ، فإنه سينتهي إليك رجال ، فلا تكلمهم فإنهم لا يكلمونك، أو لن يكلموك ، قال: ثـم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد ، فبينا أنا

جالس في خطي، إذ أتاني رجال كأنهم الزُّطُّ ـ جيلٌ من السودان ـ أشعارهم وأجسامهم ، لا أرى عورةً ، ولا أرى قشراً ، وينتهون إليَّ لا يجاوزون الخطَّ ، ثم يصدرون إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان من آخر الليل ، لكن رسول الله ﷺ قد جاءني رسول الله ﷺ وأنا جالس فقال : لقد أراني منذ الليلة ، ثم دخل عليَّ في خطيّ ، فتوسّد فخذي فرقد ، وكان رسول الله ﷺ إذا رقد ، نفخ ، فبينا أنا قاعد، ورسول الله ﷺ متوسّد فخذي ، إذا أنا برجال عليهم ثياب بيض ، الله أعلم مابهم من الجمال ، فانتهوا إليَّ ، فجلس طائفة منهم عند رأس رسول الله ﷺ ، وطائفة منهم عند رجليه ، ثم قالوا بينهم : ما رأينا عبداً قطُ أوتي مثلَ ما أوتي هذا النبي ، إن عينيه تنامان ، وقلبُه يقظان ، فاضربوا له مَثلاً : مَثَلَ سيدٍ بنى قصراً ، ثم جعل مأدبةً ، فدعا الناس إلى طعامه وشرابه ، فمن أجابه ، أكل من طعامه وشربَ من شرابه ، ومن لم يُجبْه عاقبه ـ أو قال : عذّبه ـ ثم ارتفعوا ، واستيقظ رسول الله ﷺ عند ذلك ، فقال : سمعتَ ما قال هؤلاء ؟ وهل تدري من هؤلاء ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : هم الملائكة ، فتدري ما المثل الذي ضربوا ؟ـ أوضربوه ـ قلت: الله ورسوله أعلم. قال : المثل الذي ضربوا : الرحمن تبارك وتعالى بنى الجنة ودعا إليها عباده ، فمن أجابه دخل الجنة ، ومن لم يجبه عاقبه ـ أو عذبه ـ ». قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

ومعلومٌ أن نبينا محمداً صلى الله وسلّم عليه، هو المبلغ عن الله عز وجل ما أراد؛ فمن أطاعه، فقد أطاع الله ودخل الجنة ، ومن عصاه ، فقد عصى الله وكانت عاقبتُه جهنَم وساءت مصيراً . وأخرج الحديث الإمام أحمد في المسند: وفيه أن عبدالله بن مسعود أرعب مما رأى رُعباً شديداً ... وجاء في تلك الرواية .... « قال بعضهم ـ أي الملائكة ـ لبعض : اضربوا له مثلاً ونؤول نحن ، أو نضرب نحن وتؤولون أنتم، فقال بعضهم لبعض : كمثل سيّد ابتنى بيتاً حصيناً ، ثم أرسل إلى الناس بطعام ـ أو كما قال ـ فمن لم يأت طعامَه ، أو قال : لم يتبّعه ،عذبه عذاباً شديداً ـ أو كما قالوا ـ قال الآخرون : أما السيد : فهو رب العالمين ، وأما البنيان :

فهو الإسلام، والطعام الجنة ، وهو الداعي ، فمن اتبعه كان في الجنة ... ومن لم يتبعه عُذّب. ثم إن رسول الله ﷺ استيقظ فقال : ما رأيت يا ابنَ أمِ عبد ؟ فقال عبدالله : رأيت كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ : ماخفي عليَّ مما قالوا شيء ، قال نبي الله ﷺ : نفر من الملائكة أو قال : هم من الملائكة أو كما شاء الله » .

هكذا يجري الترغيب بالجنة والدلالة على طريقها ،كما يجري الترهيب من النار والتنبيه على كل سبيل توصل إليها ، الأمر الذي يدل على العناية الفائقة بالمؤمن، وسمو المنهج الموضوع لتربيته و إعداده ، ليكون في نفسه، وفي أسرته ومجتمه، قادراً على تحقيق العبودية لله تعالى، في تناسق كامل، بين عمارة الأرض في الدنيا وفق شريعة الله، وبين التزوّد الصالح لدار الخلود ؛ فهو يسعى ويكدح هنا، غير ناسٍ أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ، ونصب عينيه الأجل المحتوم ، وما بكون بعد الموت ،وما تحمل مشاهد القيامة من الهول الهائل ، **﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾**. أخرج الترمذي بسنده عن النوّاس بن سمعانَ الكِلابيِّ أنه قال: قال رسول الله ﷺ :« إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً ، على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتّحة ، على الأبواب ستورٌ ، وداعٍ يدعو على رأس الصراط ، وداعٍ يدعو فوقه **﴿ والله يدعو إلى دار السّلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** والأبواب التي على كنفي الصراط : حدود الله ، فلا يقع أحد في حدود الله حتى يُكشَفَ السِّتر ، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه » قال أبو عيسى : **هذا** حديث غريب .

فهنيئاً للذين تستنير بصائرهم، ويكون مطمح أنفسهم المطمئنة، ما يهنأ به أحباب الله المتقون ، الوقّافون عند حدود الله لا يزيغون، والذين يبلغ الانفعال الصادق بهم المدى، وهم يستمعون لواعظ ربهم ، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وكأن الجنة والنار عندهم كأن كلاً منهما رأي عين .

اللهم إنا ندعوك كما أمرتنا فاستجب لنا بفضلك وجودك كما وعدتنا . اللهم

اغفر لنـا وارحمنا وأعتق رقـابنا من النار ، وخـذ بأيدينـا إلى حيث أحبابـك المتقون الأبرار .

وصلى الله وسلم على الـرحمة المهداة سيدنا محمـد ، وعلى آله وصحابته الـذين عقلوا عنـه صلى الله عليه وسلـم ما أراد فـانتفعوا ونفعـوا ، وعلى من اهتـدى بهذا الهدي الميمون ، فسار في طريق البررة المفلحين .

كثيرة هي الدلائل التي تحمل على الجزم بأن من سمات جنة الخلد وخصائصها: أنها سليمة كلّ السلامة من الآفات والمنغصات ،وكلِ ما يمت إلى ذلك بصلة. وهذا كله من فضل الله تبارك وتعالى، على من رضي عنهم ورضوا عنه، من عباده الذين غادروا هذه الدار ، وهم من خشيته جل شأنه مشفقون ؛ ولذلك سماها ربّنا «دار السلام» ؛ ففي سورة الأنعام : نقرأ في معرض البيان لما أعد الله لعباده الصالحين في الآخرة قوله سبحانه : ﴿ **لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون** ﴾ ونقرأ في سورة يونس قوله تباركت أسماؤه : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

فالجنة ـ وهي دار السلام ـ أعدَّها الله ـ فضلاً منه وإحساناً ـ لأولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وهو سبحانه يدعو إليها بلسان رسله عليهم الصلاة والسلام . أخرج الطبري عن قتادة قال : « الله السلام وداره الجنة» وله من رواية أخرى عن قتادة في قوله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام﴾ قال : « الله هو السلام وداره الجنة». وقد جاء الترغيب في الجنة هنا ، بكونها دار السلام في سورة يونس بعد أن ذكر الله تعالى الدنيا ونبّه على سرعة زوالها، وأن ما فيها إلى فناء . أما الجنة : فهي مبرَّأة من هذا كله ، وأنها نُزُلٌ من عند الله ، وما عند الله خير للأبرار .

قال الحافظ ابن كثير : وسماها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات . وقد مر بنا من قريب ما روى الترمذي من قوله ﷺ : « **إن الله ضرب** مثلاً صراطاً مستقيماً ، على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتّحة ، على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوقه» ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ والأبواب التي على كنفي الصراط

حدود الله، فلا يقع أحد في حدود الله، حتى يكشف السِّتر ، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه». وتوجيه النبي ﷺ إلى الاستماع، وحسن الامتثال لواعظ ربنا الرحيم الرحمن من طريق الربط بين المثل، وحقيقة أن المدعُوَّ إليها : دار السلام ، واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان ، وطريق دار السلام : إنما يكون بالتوجه الصادق إلى الآخرة، حتى خلال العمل في الدنيا الفانية ؛ وذلك يحصل بحسن النية ،وعدم الركون إلى متاع الغرور ، وأن يكون المؤمن ـ وهو يسهم في إعمار الأرض ـ خاضعاً للمنهج الرباني ، لا يزيغ عنه ولا يحيد .

فالرسول ﷺ يريد للمسلمين أن لا يضعفوا ، فتُوجهَهم الدنيا وزينتُها ، لأن مصيرها إلى فناء وزوال . ولكن يريد لهم أن يطلبوا الآخرة الباقية ، وأن يلتمسوا ما عند الله بطاعته ، فإن الله يدعوهم إلى داره ، وهي جنّاته التي أعدّها لأوليائه؛ وإنهم إن فعلوا ذلك، سلموا من الهموم والأحزان فيها ،لأنها دار السلام ، وأمنوا من فناء ما فيها من النعيم والكرامة التي أعدّها لمن دخلها .

وأَعظم بالمثل الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد البلغاء وإمام المربين الأمناء ـ تبياناً لهذه الحقيقة، وحرصاً على أن يكون المسلمون عند الذي هداهم إليه ربهم تبارك وتعالى ، وتولى بيانه ـ هو ـ عليه الصلاة والسلام. أخرج الطبري بسنده عن معمر عن أيوبَ عن أبي قلابة عن النبي ﷺ أنه قال: «قيل لي : لتنم عينُك ، ولْيعقلْ قلبُك ولتسمَعْ أذنك . فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني ، ثم قيل : سيد بنى داراً ثم صنع مأدبة ، ثم أرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي، دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد . ومن لم يجب الداعي ، لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد ، فالله السيّد ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنة ، والداعي محمد ﷺ ».

والحق أن مسؤولية الفهم عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، في أمر الإجابة المومى إليها ، وما يتعلق بذلك من التماس الوصول إلى ماوُعد به المؤمن في

دار البقاء ، بطاعة الله وطاعة رسولـه ... هذه المسؤولية ، قد أعين أهل الإيمان على تحملها من وجوه شتى ؛ ولكن الهمم تتفاوت ، والسعيد من وفق للعمل ، وكان في كدحه إلى ربه من أهل الآخرة . أخرج الإمام أحمد في المسند عن زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود أنـه قال : «إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجـد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فـاصطفاه لنفسه ، فابتعثه بـرسالته ، ثم نظـر في قلوب العباد بعد قلب محمـد ، فوجد قلوب أصحـابه خير قلوب العباد ، فجعلهـم وزراء نبيه يقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء » .

هذا : والحديـث السابـق الذي نصّ على أن الـدار الإسلام ، والمأدبـة المدعو إليها الجنة ، والـداعي محمد ﷺ رواه عن رسول الله ﷺ أبـو قِلابة وهو تـابعي ثقة فاضل ولكن الحديث إذا سقط من سنده اسم الصحابي ، يكون « مرسلاً » لعلماء الحديـث منه مـوقـف ، غير أن هذا الحديـث جـاء متصـلاً عند البخـاري وأحمد والترمذي وغيرهـم كما مرّ مـن قبل ، حيث رفعـه إلى النبي ﷺ الصحـابي الجليل جابر بـن عبدالله رضي الله عنهما ، وما دام الحديث المرسل قد أخـرجه الطبري فلا بأس من الإشارة إلى أنه هـو نفسه يرحمه الله ، أخرجه أيضاً متصلاً بروايـة جابر بن عبدالله الـذي رفعه إلى الـرسول عليه الصـلاة والسلام . قال أبـو جعفر : حـدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثني حجـاج عن ليث بن سعد ، عن خالد ابن يـزيدَ ، عن سعيـد بن أبي هلال عن جـابر بن عبـدالله أنه قال : «خـرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأنّ جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجليّ ، يقول أحـدهما لصاحبه : اضرب له مثـلاً ! فقال : اسمع سَمِعَـت أذُنُك ، واعقِلْ عقَلَ قَلبُـك ، إنما مَثَلك ومثَل أمتك ، كمثل ملك اتخذ داراً ، ثـم بنى فيها بيتاً ، ثم جعـل فيها مأدبةً ، ثم بعث رسـولاً يدعو الناس إلى طعامـه ، فمنهم من أجاب الـرسول ، ومنهـم من تركـه، فالله الملك ، والـدار الإسلام ، والبيـت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة،

ومن دخل الجنـة أكل ما فيها ». وقـد روى الطبري ما روى: عند كلامـه على قوله تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ .

وأنت واجـد في العديد مـن النصوص، مـا يدل على الدعـوة إلى الإقبال على الله، وعدم الركون إلى ما يلهي عن ذلك من أمـور الدنيا، كيما تكون العاقبة ـ بإذن الله ـ دخول الجنة دار السلام ، فتلكم هي الطريق .

روى أبو جعفر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ذكر لنا أن في التـوراة مكتوباً « يا بـاغي الخير هلُمَّ، ويـا باغـي الشر انته » كما روى بسنـده عـن أبي الدرداء رضي الله عنـه قال : قـال رسول ﷺ : «ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجنبَتَيْها ملكان يناديان، يسمعان خلق الله إلا الثقلين : يا أيها النـاس هلموا إلى ربكم ، إن ماقل وكفـى خير مما كثر وألهى » قال : وأنزل ذلك في القرآن في قوله : ﴿والله يدعو إلى دار السلام ﴾ الآية. ورواه أحمد في مسنده مطوّلاً بهذه الزيادة : «ولاآبـت شمس قط إلا بُعث بجَنَبتَيْها ملكان يناديـان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللهـم أعط منفقـاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً » والله ولي التوفيق .

المؤمـن ـ في نظـرته المتـدبرة إلى تلكـم البصائر ، التـي تبرز ما يحفـل به يـوم الفصل من الأمور العظام، والشدائد التي يبلغ من هوها، أن يقول الكافر : ياليتني كنت تراباً ....ـ حريٌ أن لا تعزب عنه لحظة واحدة، حقيقة أنه لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ؛ فالموقنـون الذين استجابوا لله وللرسول ، فأطـاعوا واطمأنوا بالهدى فكان حظُهم الفوزَ بالنعيم المقيم !! أين منهم أولئك الذين أصمُّوا آذانهم عـن دعوة الحق ، وصـدُّوا عـن السبيل، فبـاءوا بـالخسران المبين ، جهنم يصلـونها وبئس المهـاد ﴿لا يستـوي أصحاب النـار وأصحاب الجنـة أصحـاب الجنة هـم الفائزون﴾ إنهم لا يستـوون عقيدة، ولا عمـلاً ، ولا سلوكـاً في الدنيـا ، كما أنهم ـ وهـذا من سنـن الله التي لا تتبـدل ـ لايستـوون عـاقبة .. المؤمنـون الصادقـون في روضات الجنات يحبرون ، والكافرون الجاحدون في نار جهنم خالدون .

وإذا كان الأمر كـذلك : فمقتضى النظرة المتدبرة في تلكـم البصائر الهادية ، واستذكار هذه الحقيقة الناصعة ، أن يُخضـع المؤمن نفسه لمنهج الله في هذه الدار ، فيجعلَ من عمـره فُرصاً جدَّ مـواتية للإقبال على الله ، ومـلء الوقت بالـزاد النافع ليوم المعاد ، وبـذلك يكون ـ بفضل الله وبإحسـانه ـ من أهل الفـوز برضوان الله، وعطائه الـذي لا يُجَدُّ ، في جنات النعيم . وإذا كان الخير يـدل على الخير ويجلبه ؛ فهنا حقيقة أخرى جاءت على لسان المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهي ارتباط الخيرية بطول العمـر وحسن العمل ، والعكس بـالعكس والعياذ بالله . ذلكـم ما روى الترمذي بسنده عن عبدالله بن بُسْرٍ : «أن أعـرابياً قال : يارسول الله من خيرُ الناس؟ قال: من طال عُمرُه وحسن عملُه » قـال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريـب من هذا الـوجه . كما روى بسنده أيضاً عـن أبي بكرة: « أن رجلاً قـال : يا رسول الله أيُّ الناس خيرٌ ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله ، قال : فأيُّ الناس

شرٌّ ؟ قال من طال عُمرُه وساء عمله ». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

هذا التعريف الدقيق لخير الناس ولشر الناس من رسولنا الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، إيذان بأن من طال عمره وحسن عمله ، هو السالك طريق الجنة مع السالكين ، وعندما تعلِن عاقبة أهل التقوى إعلانها، يوم الحشر ، يكون في زمرة من تغشاهم رحمة الله ، وينادون بعد تلكم الساعات العصيبات ﴿ أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾. أما من طال عمره وساء عمله : فياله من سالك طريق أهل الشقوة ، كلما امتدَّ به الأجل أثقلته الأوزار، فكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ويوم القيامة تقذف به تلك الأوزار في عذاب بئيس ، ماله عنه من محيص .

وهكذا تكون الخيرية المنشودة ـ كما حدّدها الهدي المحمدّي ـ عنوان العاقبة المشرقة يوم اللقاء ، يوم تجد كل نفس ما عملت وتبلو ما قدَّمت. وما على المؤمن وهو يفتح قلبه للكلمة الهادية المضيئة، التي تحدّد معالم الطريق إلى جنة الخلد، إلا أن يبادر ويسارع ، وما أعزّ ما يؤول إليه الأمر في دار القرار ، وهنيئاً لمن يوفقون لصالح العمل في العاجلة ، فيظلهم الله بظله يوم القيامة وتسلمهم الرحمة الربانية إلى خير مستقر وأحسن مقيل . وما ظنك بإنعام ذي الفضل والإنعام وإكرام ذي الجلال والإكرام !! عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام» أخرجه الترمذي وهو حديث حسن. وجاء في رواية للبخاري عن أبي هريرة أيضاً قوله ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أُراه قال : وفوقه عرش الرحمن ــ ومنه تفجّر أنهار الجنة ». قال محمد بن فُلَيْح عن أبيه « وفوقه عرش الرحمن» وأخرج الترمذي بسنده عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: « في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها

درجة ، ومنها تفجَّر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس » وهو حديث صحيح . فكم يحسن المؤمن لنفسه ولمجتمعه بطاعة الله في الدنيا، وكم يمهِّد بالحفاظ على عقيدته أن ينقضها، أو يعكر صفوها شيء ، وبالجدِّ في طلب مرضاة الله، إخلاصاً وخشية منه سبحانه ومن اليوم الآخر .. كم يمهّد بذلك ليكون في زمرة الأبرار الذين ينشر الله عليهم رحمته يوم القيامة، فيحظى بدار الخلد ، ويفوز بما أفاض الله عليهم من رضوان ، ناهيك عن العطاء الذي لاتشوبه شائبة انقطاع أو زوال ؛ فمهما رأيت من العطاء ، فالحق أن وراءه ما هو أكثر وأوفر؛ وسبحان من لاتنفذ خزائنه، ولا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء.

أخرج البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قال رحمه الله : قال أبو حازم : فحدثت به النعمان ابن أبي عياش فقال : حدثني أبو سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجوادُ أو المضمّرُ السريعُ مائة عام وما يقطعها ». وجاء الحديث عند مسلم بلفظ الرواية الأولى ، كما جاءت الرواية الثانية عنده بدون أو في قوله «أو المضمّرُ» وبنصب كلمتي «الجواد والمضمّر » ؛لأن فعل «سار » يأتي لازماً ومتعدياً ، ذلك قوله ـ رحمه الله ـ بعد ذكر الرواية الأولى : قال أبو حازم : فحدثت به النعمان ابن أبي عياش الزُّرقيَّ فقال: حدثني أبو سعيد الخدريُّ عن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجوادَ المضمَّرَ السريعَ مائة عام ما يقطعها».

قال ابن الأثير في النهاية : عند شرح كلمة المضمّر : تضمير الخيل هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن ثم لا تعلف إلا قوتاً لتخف . وقيل : تشدُّ عليها سروجها وتجلّل بالأجلَّة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ويشتد لحمها ؛ وقد مر بنا شيء من ذلك فيما سبق .

ألا وإن المؤمن المصدّق بما جاء عن الله ورسوله ، يجد في هذه الأخبار الصادقة وأمثالها ، مزيداً من بواعث العمل للآخرة ، والسير في الطريق التي تنتهي بالمعافاة من النار والفوز بالجنة ...

اللهم آمنا وصدقنا فوفقنا لتقواك في الدنيا واكتبنا في زمرة من تنشر عليهم رحمتك يوم القيامة ، كيما نفوز بما يفوز به أحباؤك الموفقون .

مازلت أذكر ـ والحديث موصول بالكلام على الإكرام في جنة الخلد ـ ما سعدنا به ، ضمن رحلة مع واحد من تلكم النصوص المباركة، في حديث رسول الله ﷺ التي تكشف عن صورة من صور العطاء الإلهي هناك : وهو الظل الممدود للشجرة العظيمة . ولقد يقدر المرء ذلك أكثر وأكثر ، حين يضع في الحسبان أن دخول دار السلام ، والحظوة بموعود الله فيها من وافر الإكرام ، وما لا ينقطع من الإنعام .. يأتي وقد سبقته ساعات عصيبات وأهوال شداد ، تُثير في قلب المؤمن مزيداً من وجوب الشكر ، على نعم لا يقادر قدرها، ولا يحصيها إلا خالقها سبحانه وتعالى .

والصورة التي ألمح إليها ، جاءت فيما روى البخاري ومسلم وغيرهما من قوله ﷺ في رواية سهل بن سعد رضي الله عنه : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها » وفي رواية أبي سعيد رضي الله عنه « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمّر السريع مائة عام ما يقطعها ».

والذي أود الإشارة إليه، أن للحديث رواية ، تشعر بأن هذا الذي ورد في السنة المطهرة ، لون مبارك من ألوان البيان للظل الممدود الذي جاء ذكره في سورة الواقعة من قوله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود وطلح منضود . وظل ممدود ﴾ فالسدر يخضد الله شوكه، ويجعل مكان كل شوكة ثمرة شهية، كما جاء في الحديث . والظل الممدود يشير إلى مداه البعيد ، وفضل الله في مدّه ـ وهو الذي مدّ الظل في الدنيا ولو شاء لجعله ساكناً ـ يشير إلى ذلك هذا البيان النبوي في تلك الروايات التي نحن بصددها. قال الحافظ ابن كثير : حدثنا محمد بن محمد ، هو البغوي قال : حدثني حمزة بن عباس ، قال : حدثنا عبدالله بن

عثمان، قال: حدثنا عبدالله بن المبارك قال: أخبرنا صفوان بن عمر عن سليم بن عامر قال: « كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم؟ قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يارسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال: وما هي؟ قال: السدر؛ فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: « أليس الله يقول: في سدر مخضود؟ خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمراً تفتّق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ما فيها لون يشبه الآخر ».

وفي كتاب بدء الخلق من الجامع الصحيح روى البخاري عن عبدالرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة » واقرأوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾ وقد جعل رحمه الله من قوله تعالى: « وظل ممدود » ترجمة لباب وحيد لسورة الواقعة في كتاب التفسير من الجامع فقال: «باب ﴿وظل ممدود﴾» ثم قال: حدثنا علي بن عبدالله قال: حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها. واقرءوا إن شئتم ﴿وظل ممدود﴾» ولفظ الحديث عند ابن أبي حاتم « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها » اقرءوا إن شئتم ﴿وظل مدود﴾» وكذلك هو عند الحافظ أبي يعلى الموصلي. وعند الإمام أحمد يتردد اللفظ بين سبعين ومائة وتسمى شجرة الخلد؛ إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة هي شجرة الخلد » وعند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري: وقال: « ذلك الظل الممدود».

والظل - كما يقول العلماء - الراحة والنعيم والجهة كما يقال: عز ظليل، وأنا في ظلك.. أي كنفك، وهو ما نجده في مفردات الراغب الأصفهاني، حيث ذهب إلى أن الظل أعم من الفيء فإنه يقال: ظل الليل وظل الجنة، ولكل موضع لا

تصل إليه الشمس ، ولا يقال الفيء إلا لما زالت عنه الشمس. قال: ويعبر بالظل عن العز والمنعة والرفاهية والحراسة ، ويقال عن غضارة العيش : ظل ظليل .

وكانت للحافظ ابن حجر وقفة عند بعض الروايات تعين على نوع من التحديد . قال رحمه الله :( وقع التعبير في هذا الحديث بلفظ الفيء في حديث أسماء بنت يزيد عند الترمذي ولفظها : سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وذكر سدرة المنتهى ـ يسير الراكب في ظل الفيء منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها الراكب مائة سنة ، ويستفاد منه تعيين الشجرة المذكورة في حديث الباب . وأخرج أحمد وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد رفعه إلى رسول الله ﷺ «شجرة طوبى مائة سنة » وفي حديث عقبة بن عبدالسلمي في عظم أصل شجرة طوبى « لو ارتحلت جذعة ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً » أخرجه ابن حبان في صحيحه). والترقَوة . العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق والجمع تراقي .

وماذا أنت قائل، في شأن الإنعام الذي لايكاد يُبلغ مداه ، على من كتبت لهم السعادة، ففازوا بدار المقامة، وأنه إنعام في كل حالة وعلى كل صعيد ، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون ﴿لا يصدّعون عنها ولا يُنزِفون﴾.. وقد مر بنا فيما سبق ، ما روى البخاري في كتاب الرقاق من الجامع عن أنس أن أم حارثة أتت رسول الله ﷺ ـ وقد هلك حارثة يوم بدر ، أصابه سهم غَرْب ـ وهو الذي لا يدرى من رماه فقالت : يارسول الله قد علمتَ موقع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإلا سوف ترى ما أصنع . فقال لها : هبلتِ ؟ أجنة واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة ،وإنه في الفردوس الأعلى » . وعلى منهجه الكريم ﷺ ، خرج من واقعة حارثة إلى ما هو أعم: اذ تحدث عن عاقبة أولئك الصفوة الأخيار ، الذين يقدمون بين يديهم في دار البقاء ، جهاداً صادقاً في سبيل الله مهما قلّ أو كثر ، فقال عليه الصلاة والسلام بعد الحديث السابق : «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم ـ أو موضع قدم أحدكم ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل

الجنة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأت ما بينهما ريحاً ، ولنصيفها - يعني الخمار - خير من الدنيا وما فيها».

وما أعظم ما نجده - أبداً - في المنهج النبوي من تنمية للعلاقة بين ما يكون للعبد في الدار الآخرة ، وبين سلوكه في دار الدنيا ، كيما يتخذ المسلمون من تلكم الأخبار الصادقة ـــ وما أحوجهم اليوم إلى ذلك - باعثا متجدداً لا يقهر ، على الإكثار من عمل الصالحات، وجعل الاستقامة على دين الله - في الشؤون كلها - شعاراً حقيقياً ،لا يجفوهُ المؤمن ولا يحيد عنه ، مع ذلّة لله تعالى، وخشوع صادق بين يديه ، وشكر لأنعمه المتجددة التي أسبغها على العباد ظاهرة وباطنة . روى البخاري في كتاب الرقاق من الجامع عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ : « لا يَدْخل أحدٌ الجنة إلا أُرَي مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ، ولا يدخل النارَ أحدٌ إلا أُرِي مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة ».

وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ، والتابعين لهم بإحسان .

## أول زمرة تدخل الجنة

الوقافون عند حدود الله ، الخاشعون الخاضعون لذي الجبروت سبحانه ، المنيبون إليه ، القانتون بين يديه، يدعونه تضرعاً وخفية.. هؤلاء البررة الأتقياء الأنقياء الذين يسهمون بنصيب وافر في بناء الحياة الإسلامية، كما أمر الله ، ويُغِذُّون السير إلى ما وعد الله عباده المتقين في دار البقاء ... ذكرى مشاهد القيامة وما تحمله من العِبَر والحقائق التي لا مرية فيها ، هي منهم دائماً بحسبان ، فهم يطاردون الغفلة، وينأون بالطاعة عن طريق الغافلين ، وتراهم ـ على الحالات جميعها ـ ديدن أحدهم ـ أبداً ـ تزكية نفسه وحملها على الجادة ، ناهيك عن تذكير من ولاه الله أمرهم باليوم الآخر ،وما يكون فيه ، كيما يكونوا من أهل الاستقامة ؛ عدلاً ، وإقامة لشريعة الله في الدنيا ، والنجاة من عذاب الله المهين ، والنزول بخير المنازل يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وغير خاف على أولي النهى، أن التجافي عن دار الفناء والغرور ، والإنابة إلى دار البقاء والخلود : من علامات اليقظة، وعدم نسيان الموت وما يكون بعده ، والراغب في النجاة من العذاب الأليم يوم العرض على الله ، وأن يُسْلَكَ في زمرة الأبرار أهلِ النعيم : يأخذُ نفسه بهذا المنهج المبارك الذي لا يضل سالكه، ولا يُحرم العاملُ به منازل المقرّبين .

والحق أن العطاء الإلهي لأهل القرب في دار الخلد؛ إذ هم ﴿ على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نَضْرة النعيم ﴾ ، مهما عمل المرء في الدنيا ، ليكون من أهله في الآخرة ،لا يفي ولو بجزء يسير منه ،والفضل لله أولاً وآخراً ، ولكن من إكرام الله: أن المنازل تكون هناك بحسب الأعمال هنا .

ذلكم ما روى مسلم عن الأعمش عن صالح عن أبي هريرة أنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الـذين يلـونهم على أشـدِ نجم في السماء إضـاءة ، ثم هـم بعـد ذلك منـازل .. » الحديث . والسعيد السعيد من أخذ نفسه بمنهج أهل السعادة والقرب ، ليكون له ما لهم ويتبوأ من الجنة ما يتبوؤون ، ثم قـابل ذلك بزيادة الشكر للمنعم المتفضل سبحانه .

أما مـن غلبت عليه الشقـوة ، واستراح إلى ضلال سعيـه : فتراه هناك في شر المنازل ، ومـا أشد الحسرة التي تضرب على قلبـه ونفسه على ما فـرّط في جنب الله ، وباع نفسه في الدنيا للهوى والشيطان ..

وقد أراد النبـي ﷺ ـ وهو بـا لمؤمنين رؤوف رحيم ـ أن لا تغيـب عن المؤمنين هذه الحقيقة التـي هي من سنن الله التي لا تتحوّل ولا تتبـدل ، فبيّن عليه الصلاة والسلام ، كيف أنه لا يـدخل أحد الجنة إلا أُريَ مقعده من النـار لو أساء، ليزداد شكراً . أجل ليزداد شكراً لله تعالى أن نشر عليه رحمته وعمّه بلطفه، فكان من أهل الإحسان ، فلم يسـيء في الدنيا وسلـك طريق الأبرار إلى دار النعيم . كما بيَّن عليه الصلاة والسلام كيف أنه لا يدخل أحد النار إلا أُرِي مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليـه حسرة . إي والله إنها لأشد الحسرات ؛ فلو أحسـن في الدنيا ، بـاتباع الحق والعمل بما جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لكان في ذلك المقعد من الجنة، ولكنـه اتخذ إلهه هواه، واستبـدل الذي هو أدنـى بالـذي هو خير ... ألا إن المؤمن ـ وهـو يحسن في الدنيـا ـ واضعٌ قـدمه على الطريق الميمونة التـي تصل به ـ بفضل الله ـــ إلى حيث منزلتـه في جنة الخلد التـي وعد الله عباده الأبـرار ، وعكس ذلك صنيع أهل الجحيم ، تجدهم ـ ويابئست الحال ـ ساهين في الدنيا لاهين، إذا ذكّروا لا يـذكرون ، وفي طغيـانهم يعمهون ، فـلا بدع أن يكـونوا يـوم القيامـة بشر المنازل ، تغشى قلوبهم الحسرة ، لما أنهم قد انقلبوا على أعقابهم خاسرين .

واستـذكـار المؤمنين لهذه الحقيقـة ، ضرورة على صعيـد الاعتقـاد والعمـل

والسلوك...

وقد أوردت في مناسبة أخرى بيانها على لسان النبي عليه الصلاة والسلام وذلك فيما روى البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح حيث قال رحمه الله: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب قال: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة أحد إلا أرِي مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أرِي مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة » وقد وقع عند ابن ماجة بسند صحيح من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن ذلك يقع عند المساءلة في القبر. جاء عنده في كتاب الزهد من السنن ما روى بسنده عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميت يصير إلى القبر، فيُجلَس الرجل الصالح في قبره غيرَ فزع ولا مشعوف، ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام. فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصدّقناه. فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله - يعني في الدنيا - فيفرج له فرجة قِبلَ النار، فينظر إليها يحطِم بعضها بعضاً، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله. ثم يفرجُ له قِبلَ الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويقال له: على اليقين كنتَ وعليه مُتَّ وعليه تبعث إن شاء الله. ويُجلَسُ الرجلُ السوء في قبره فزِعاً مشْعوفاً. فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلتُه. فيُفرَجُ له قِبلَ الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يُفرج له فُرجةٌ قِبلَ النار، فينظرُ إليها، يحطِم بعضُها بعضاً، فيقال له: هذا مقعدك؛ على الشك كنت، وعليه مُتَّ، وعليه تُبعث إن شاء الله تعالى».

معنى «المشعوف»: الذي أصابته شدة الفزع الذي يذهب بالقلب. وعبارة «على اليقين كنت» تدل - كما يقول العلماء - على أن من كان على اليقين في الدنيا يموت عليه عادة. وكذا في جانب الشك.

هذا : وليس هنالك ما يمنع من فهمِ أن كلاً من مقعد المرء في الجنة، ومقعده في النار ، أن لو كان المحسن قد أساء ، ومقعده من النار ومقعده من الجنة، أن لو كـان المسيء قد أحســن ، يعرضــان ـ والله أعلــم ــ في القبر من أجـل ما يكـون ، ويعرضان يوم القيامة فيما هو كائن .

والعبرة كل العبرة ، في أن لا تشغل المسلم صوارفُ الحيـاة عن تذكر ما يجب تذكره من أمـور الآخرة ، وأن يجدَّ الجدَّ كلَّه في أن يكون يوم الحسرة مع الـذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـدِّيقين والشهداء والصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً ﴾ وإن رحمة الله قريب من المحسنين .

ما يطالع المسلم من أخبار اليوم الـذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليـم ، وما أفاض النبي ﷺ عما يكـون فيه لأهل السعـادة، وعما تحمل أهوالـه لأهل الشقـاوة .. كل أولئـك تجده مصحوبـاً بهدي النبّي صلى الله وسلـم وبارك عليه، في التـوجيه البيّن الواضح إلى طـريق السعادة هناك ، والكشـف عن معالمه وآياته والترغيب فيه ، وقل مثل ذلك في بيان معالم الطريق الآخر ، والتوجيه إلى معرفتـه والترهيب منه . وتـرى ذلك مبثوثـاً في شتى الأقوال والأفعـال المتعلقة بـالمكلف، رجـلاً كان أو امـرأة، وبسلوك كـلٍ منهما ، ومقدار انضبـاطه بمعـايير الإسلام أو عدم انضباطه . وكأنه عليه الصلاة والسلام يعلن للأمة : ذلكم طريق الجنة ، وذلكم طريـق النار ، وليختر عاقل لنفسه ، وسبحان الـرحيم الرحمن الذي بيده زحزحة من يزحزح عن النار ، ودخول من يدخل الجنة .

من أمثلة ذلك ما أخرج الترمذي بسنده عـن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظـاً وهو يقدر على أن ينفِّذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامـة حتى يخيِّره في أي الحور شاء » وهو حديـث حسن . وعن أبي بكر بن المنكدر عـن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثـلاث من كن فيه نشـر الله عليه كنفه ، وأدخله جنتـه ؛ رفقٌ بالضعيف ، وشفقة على الوالـدين ، وإحسـان إلى المملوك » رواه الترمذي وحسّنه . وفي ذلك ما فيه ـ كما نرى ـ من وضع الترغيب في الجنة على الطـريق المؤديـة إلى إصلاح السلـوك ، وذلك على صعيـد التعامـل بين المسلم وأخيه المسلـم، أياً كان ، فضلاً عـن أن يكون أماً أو أباً ، الأمـر الذي يعود على الفرد والجماعة بالخير ؛ فإذا صلح الفرد ، صلحـت الجماعة، وكان ذلك إيذاناً باستقامة خُطى الأمة على طريق التمكين في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة.

وهذه واحدة من شذرات الهدي النبوي، ترد في شأن الاهتمام بأن يعطي المسلمون أولوية لصلاة الفجر وصلاة الجماعة، نقرأ فيها ما صح عن رسول الله ﷺ من ترتيب دخول الجنة على ذلك، والفوز بتكرمة الله ومزيد فضله على أهلها، بتمكينهم من رؤيته جلّ شأنه وتباركت أسماؤه. ففي كتاب مواقيت الصلاة «باب فضل صلاة الفجر» من الجامع الصحيح روى البخاري بسنده عن جرير ابن عبدالله أنه قال: «كنا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون ــ أو لا تضاهون في رؤيته ـ فإن استطعتم أن لا تُغْلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قال: ﴿**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب**﴾. وهذا ترغيب من النبي ﷺ ليُشعر ـ مع ما سيأتي ـ أنه مهما اشتدت أهوال يوم القيامة، وحفلت مشاهده بالمفزع المرعب من الوقائع، فإن المؤمن الذي يأخذ نفسه بمنهج الحرص على طاعة الله، والعمل بهدي سيد الهداة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، يكون له حسن العاقبة. فلا ينجو من الأهوال فحسب، ولكن ينضم إلى النجاة، أن يكون في خير منزلة: يتمتع بنعيم الجنة، ويكرمه الله برؤيته، وتبارك الله رب العالمين.

والحديث أخرجه مسلم باختلاف يسير، إذ روى بسنده عن قيس بن أبي حازم أنه قال: سمعت جرير بن عبدالله وهو يقول: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامُّون، أو لا تضامون، في رؤيته فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» ــ يعني العصر والفجر ــ. ثم قرأ جرير: ﴿**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب**﴾. ويلاحظ هنا أن جريراً رضي الله عنه فسّر المراد بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: بالعصر والفجر.

وتحسن الإشارة إلى أن «تضامون» من قوله ﷺ: «لا تضامّون» أو «لا تضامون» حسب الروايات يجوز فيها ضم التاء وفتحها. و «تضامّون» بتشديد

الميم من الضم: أي لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا يقول :أرنيه ، بل كل ينفرد برؤيته سبحانه وتعالى . وتُضامون بتخفيف الميم من الضيم وهو الظلم يعني : لا ينالكم ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض ، بل تستوون كلكم في رؤيته جل شأنه.

وفي الباب نفسه روى البخارى بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من صلّى البَرْدين دخل الجنة » وقال ابن رجاء : حدثنا همّام عن أبي جمرة أن أبا بكر بن عبدالله بن قيس أخبره بهذا . حدثنا إسحق عن حبان قال : حدثنا همّامٌ قال : حدثنا أبو جمرة عن أبي بكر بن عبدالله عن النبي ﷺ مثلَه . ورواه مسلم وأبوداود وأحمد .

البَرْدان : بفتح الباء وسكون الراء تثنية بَرْد ، والمراد صلاة الفجر وصلاة العصر، دل على ذلك ما جاء في نص الحديث « فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » ثم إن جريراً رضي الله عنه كشف عن ذلك، كما جاء في رواية مسلم ـ بقوله : يعني العصر والفجر . وإنما سميتا بَرْدين لأنهما ــ كما يقول الإمام الخطابي ــ تصلَّيان في بَرْدي النهار ، وهما طرفاه ، حين يطيب الهواء وتذهب سَورة الحر . ونُقل عن أبي عبيد: أن صلاة المغرب تدخل في ذلك أيضاً .

وقد يُتساءل عن وجه التخصيص بالعصر والفجر ، مع عظم قدر الصلوات كلها ؟ وأجاب الكرماني : بأنه كان إظهاراً لزيادة شرفهما وترغيباً في حفظهما . ونقل الحافظ عن البزار توجيه اختصاص هاتين الصلاتين بدخول الجنة دون غيرهما من الصلوات ما محصّله : إن «من » موصولة لاشرطية ، والمراد الذين صلوهما أولَ ما فُرضت الصلاة ، ثم ماتوا قبل فرض الصلوات الخمس، لأنها فرضت أولاً ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، ثم فرضت الصلوات الخمس؛ فهو خبر عن ناس مخصوصين لا عموم فيه ، أي كأنه قال : الذي صلى البَردين دخل الجنة . وهذا تأويل بعيد ؛ ولذلك قال الحافظ رحمه الله :ولا يخفى ما فيه من التكلف : والأوجه

أن « من » شرطية ، وقوله : « دخل » جواب الشرط . وعلى هذا يكون الرسول عليه الصلاة رتب دخـول الجنة على القيام بهاتين الصلاتين . وعدل عـن الأصل وهو فعل المضارع كأن يقـول : من صلى البردين يدخل الجنة، إرادة للتـأكيد في وقوعه بجَعْل ما سيقع ــ وهو دخول الجنة يوم الفصل ـ كالـواقع . وهذا كثير في نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وصلّى الله وسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين بما رغّـب في الجنة دار المقامة ورسم لأمته طـريقها بياناً للكتاب العـزيز ، ونسأله تعالى أن يجعلنـا ممن إذا ذكِّروا ذكروا ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

# الجنة والنار تدعوان

جنة المأوى التي وُعد المتقون : مطلب كريم من فضل رب كريم ، لا يني المؤمنون وهم يخضعون لمولاهم ويضرعون إليه ، يسألونه ذلك المطلب ، وكما ثبت في النصوص : يسأله إياه لهم ملائكته الكرام ، بل إن دار السلام الجنة، تسأل ربها أهلَها البررة الكرام ؛ فأهلها يسألون الرحيم الرحمن إياها، والملائكة تسألها لهم، والرسل عليهم الصلاة والسلام، يسألونه إياها لهم ولأتباعهم . يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : «ويوم القيامة يقيمهم سبحانه بين يديه، يشفعون فيها لعباده المؤمنين ، وفي هذا من تمام ملكه، وإظهار رحمته وإحسانه وجوده وكرمه، وإعطائه ما سُئل : ما هو من لوازم أسمائه وصفاته واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها ، فلا يجوز تعطيلها عن آثارها وأحكامها ؛ فالرب تعالى : جواد له الجود كله يجب أن يسأل إياه، فهو خالق السائل وسؤاله ومسؤوله ؛ وذلك لمحبته سؤال عباده له ورغبتهَم إليه ، وطلبهم منه ، وهو يغضب إذا لم يُسأل :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وأحب خلقه إليه : أكثرهم وأفضلهم له سؤالاً ، وهو - سبحانه - يحب الملحين في الدعاء ، وكلما ألحّ العبد عليه في السؤال أحبَّه وقرَّبه وأعطاه . روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من لا يسألْه يغضب عليه » ورواه الترمذي بلفظ « من لم يسأل الله يغضب عليه » ولعل في هذا لوناً من ألوان البيان لقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

وكلما ربا الإيمان في القلب ، وحصّن بالطاعات ، والبعد عن المخالفات ، ازداد هذا القلب معرفة بربه وأسمائه، وصفات كماله ونعوت جلاله ، وكان الدعاء

أقرب إلى القبول والفوز بذلك المطلب العظيم ، جنـة الخلد التي أعدّها الله برحمته وكريم إحسـانه للأبرار الصادقين ، ومـا على المؤمن ـ وهو يـرجو رحمة الله ويخشى عذابه ويطمع بجنات عدن ـ إلا أن يخلـص العمل ويصدق في التوجه إلى مولاه ، بضراعة الخاشـع المنيب ، وهـو جل شـأنه يجيـب المضطر إذا دعـاه ، فهو قـريب مجيـب .

فما بالـك إذا كان سبحانه ـ بمنه وفضله ـ قد جعل الجنة نفسهـا تسأل ربها أهلها ؟ فعـن أنس رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « من سـأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالـت النار : اللهـم أجره مـن النار » رواه الترمـذي والنسائي وابـن ماجـة وقال الترمذي : وقـد روي عن أبي إسحاق عن بُـريد بن أبي مريـم عن أنس بن مـالك موقوفاً أيضاً . ويعني بالموقوف ـ كما هو معلوم ـ أنه روي على أنه من كلامه رضي الله عنه ، ولكـن له حكم المرفـوع إلى الرسول عليـه الصلاة والسلام لأن مثـل هذه الأخبار مما لا يقـال من قبلَ الرأي والاجتهاد . وتطـالعنا بعض الروايـات بالسؤال سبعاً بدل ثلاث . عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال : قال رسول الله : « ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار : إن عبدك فلاناً استجار مني فأجره ، ولا يسأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة : يارب إن عبدك فلاناً سألني فأدخله الجنة » يعني سألك إياي .

والنسب واضـح بين ما جـاء في هذه الأحـاديث ، وبين مـا جاء في الكتـاب الكريم، من أن الله تباركت أسماؤه يتفضـل على عباده المتقين بإدخالهم الجنة التي سألوها ووعدهم إياها ، مثوبة على طاعتهم في الدنيا ، وأكرم بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام بيانـاً لكتاب الله العزيز : هانحن أولاء نقرأ في سـورة الفرقان قول الله تعـالى : ﴿ قـل أذلك خير أم جنـة الخلد التـي وعـد المتقون كـانت لهم جـزاءً ومصيراً . لهم فيها ما يشـاؤون خالدين كان على ربـك وعداً مسؤولاً ﴾ جاء ذلك بعد الكـلام على جهنم أعاذنا الله منهـا ، وما يسمع لها من تغيـظ وزفير وكيف أن

الكافريـن إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً دعـوا هنالك ثبوراً ؛ فالله تبـارك وتعالى يقول لنبيه ﷺ : قـل يا محمـد لهؤلاء المكذبين بالسـاعة : أهذه النـار التي وصـف لكم ربكـم صفتها وصفة أهلها خيرٌ أم جنة الخلد ـ كما يقول الإمام الطبري ـ التي يدوم نعيمها ولا يبيد ، وقد وعِد بهذا النعيم من عمل الصالحات، ولم يفرط في جنب الله فكانت هذه الجنة ، جزاء أعمال المتقين في الدنيا ، ومصيراً يصيرون إليه في الآخرة ، لهم فيها مما يشاؤون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، خـالدين فيها لا يزولون عنها ولا يزول عنهـم نعيمها . والمؤمنون سـألوا ربهم ذلـك في الدنيا حين قـالوا : ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ وحين سألـوا الجنة واستعاذوا من النـار ، كما علمهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ، فكان إعطاء الله المؤمنين جنة الخلد التي يحظون فيها بالنعيـم المقيم، وفاءً بوعـده الذي وعدهـم ، ومن أوفى بعهده من الله ، واستجـابة لمسألتهم إياه ذلك ﴿ كان على ربـك وعداً مسـؤولاً ﴾ كما أن الاستجابـة لسؤال الملائكة الجنة للبررة المتقين بقولهم : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ـ كما جاء ذلك صريحاً في الكتاب الكـريم ـ لها مكانها ـ والله أعلم ــ في ساحة هذا الوعد، وعدِ ربنا العزيز الرحيم . أخرج الطبري عن ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ كان على ربك وعـداً مسؤولاً ﴾ قال : سـألوه إياهـا في الدنيا ، طلبـوا ذلك فأعطـاهم وعدهم؛ إذ سألـوه أن يعطيهم فأعطاهم فكان ذلك وعـداً مسؤولاً . والواقع أنهم تضرعوا إليه طـالبين ذلك ، والملائكة سألـوه ـ عليهم السلام ــ أن ينعم عليهم ـ أعني المؤمنين ـ بجنات عدن التي وعدهم إياها .

والمهم في الموضوع : أن أهـل القرب لا يقفون عند حدود السـؤال وكفى ، بل تجدهم على الحظ الوافر من الاجتهاد في الطاعة ، وسلوك سبيل الإنابة إلى مولاهم عز وجـل . ومن أراد الآخرة حقاً ، وصـدقاً ، ورجا أن يكون نـزله يوم القيامـة جنة المأوى ، فما أكثر ما يجد من الفرص المتاحة، والرياض النضرة التي يرتادها أحْباب الله المفلحون ، المخلصون أعمالهم له سبحانه ، الصـادقون في طلب الجنة والمعافاة من دخول النار . أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن

لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » وقال : وليس في هذا الحديث ذكر الأسماء » قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن صحيح . وعند البخاري ومسلم «لله تسعة وتسعون اسماً ـ مائة إلا واحدة ـ لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قلت يارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال: المساجد . قلت: وما الرتع ؟ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ». رواه الترمذي وحسّنه .

# كنز من كنوز الجنة!!

الحديث موصول بحقيقة، لا لبس فيها ولا غموض؛ هي ما هيّأ المولى تبارك وتعالى لعباده في الدنيا من طرائق الخيْر ، وما يسَّر لهم من وسائل النجاة يوم الدين ، والاستزادة من الصالحات كيما يكونوا يوم القيامة من الفائزين بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . آية ذلك ما نجد في كثير من آي الكتاب الكريم، وفي بيانه من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، مما يدل على ذلك ، وما يرغب فيه ، ويكشف عن معالمه والحمد لله .

فبمقدار ما ينتظر المرءُ من أهوال اليوم الموعود، ومشاهده التي تجعل الولدان شيباً ، قد فتحت للمؤمن في الدنيا ـ وهي مزرعة الآخرة وممرٌ لها ـ تلكم الأبواب المباركة التي تؤول به ، أن لو دخلها بإخلاص نية وصدق عزيمة ، إلى أن يكون من أهل النجاة ، يوم تغشى الحسرة الأليمة أولئك الذين لم يكونوا في العاجلة يرجون لله وقاراً ، فباتوا على نسيان لآيات الله و إعراض عن الهدي الذي جاءهم به رسول الله ﷺ ، فنسيهم الله يوم القيامة وكانوا من أهل الجحيم ..

هذا توجيه من النبي عليه الصلاة والسلام للمؤمن ـ وهو يسهم في إعمار الدنيا وفق منهج الله ، ويجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله ، فيناله ما يناله من أذى الظالمين، وقد يبتلى ببعض المصائب ـ أن يكون على ذكر من أن الحول والقوة بيد الله ؛ يعينه على ذلك أن يقول معتقداً : « لا حول ولا قوة إلا بالله » وبذلك تشرق على قلبه الطمأنينة ويزداد إيماناً وقدرة على الرضا بقضاء الله وقدره ، وتحمُّل ما يصيبه في سبيل الله . ووراء ذلك كله : تكون « لاحول ولا قوة إلا بالله » طريقه إلى خير المنازل يوم المعاد ، لما أنها كنز من كنوز الجنة . ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ . قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا يحيى بن سعيد قال:

حدثنا سفيان عـن الأعمش عن مجاهد عن ابن أبي ليلى عـن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « لا حـول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنـة » ونجد عند أحمد رحمه الله رواية أخـرى يقول فيها أبـو ذر : قال رسول الله ﷺ : « هـل لك في كنز مـن كنوز الجنة ؟ قـال : فقلت : نعـم ، قال : « لا حـول ولا قوة إلا بـالله » ورواه ابن مـاجة بإسناد صحيح ورجاله ثقات .

وهذا التعليـم من النبـي ﷺ لأبي ذر . وقع مثله ضمـن واقعة معينـة في غزوة خيبر ، لأبي موسى الأشعـري عبدالله بن قيس رضي الله عنه ؛ فقـد أخرج البخاري في « باب غزوة خيبر » من كتاب المغازي في الجامع الصحيح بسنده عن أبي عثمان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « لما غزا رسول الله ﷺ خيبر ـ أو قال : لما توجه رسول الله ﷺ ، أشرف الناس على وادٍ فـرفعوا أصواتهم بالتكبير ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنكـم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم وأنـا خلف دابة رسول الله ﷺ ـ فسمعني وأنـا أقول : لاحول ولا قوة إلا بـالله ، فقال لي : يا عبدالله بـنَ قيس قلت : لبيك يارسـول الله . قال ؛ ألا أدلُّك على كلمة كنز من كنـوز الجنة ؟ قلت: بلى يارسـول الله فداك أبي وأمي قال : لاحـول ولا قوة إلا بالله ». هكذا نجـد النبي عليه الصـلاة والسلام قـد دلّ كلاً من أبي ذر وأبي مـوسى الأشعـري على أن هذه الكلمة المبـاركة التـي تحمل الكثير الكثير مـن معاني التـوحيد والإيمان بـالقدر ، وصدق الاستسلام لله عز وجل « لاحول ولا قوة إلا بالله » كنز من كنوز الجنة . وفي ذلك مـا فيه مـن الترغيب بـذكر الله بها ، واستشعـار معانيهـا الجمة في كـل قول وعمل؛ ومن أبرزهـا التبرّي من الحول والقوة ، وأن ذلك كله بريـد المؤمن المصدق العامل ، إلى جنة الخلد إن شاء الله .

هـذا : وتحسن الإشـارة إلى أن هذا السيـاق في الحديث ـ كما يقول الحافـظ ـ يوهم أن ذلك وَقَـعَ وهُمْ ذاهبون إلى خيبر ، وليس كذلك ، بـل إنما وقع ذلك حال رجوعهم ، لأن أبا مـوسى إنما قدم بعد فتح خيبر مع جعفـر بن أبي طالب ، وعلى

هذا : ففي السياق حذف تقديره ؛ لما توجه النبي ﷺ إلى خيبر فحاصرها ، ففتحها، ففرغ ، فرجع ، أشرف الناسُ على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير .. الحديث. وقد أورد البخاري هنا الحديث غير مرة في كتاب الدعوات من «الجامع»، كما أورده في كتاب القدر ، ولفظه في «باب الدعاء إذا علا عقبة»: «كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فكنا إذا علونا كبرّنا فقال النبي ﷺ : أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصَّم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً . ثم أتى عليَّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال : يا عبدَالله بنَ قيس ، قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة . أو قال : ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » وله من رواية أخرى « ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة »؟ وفي رواية غيرها « ألا أعلمك كلمة هي من كنوز الجنة » ؟ الحديث. ورواه مسلم عن أبي موسى بلفظ « كنا مع النبي ﷺ في سفر » أيضاً . ورواه ابن ماجة مختصراً ؛ ففي «باب ما جاء في لا حول ولا قوة إلا بالله » من كتاب الأدب في السنن أخرج بسنده عن أبي موسى قال : «سمعني النبي ﷺ وأنا أقول : لاحول ولا قوة إلا بالله . قال : يا عبدالله بنَ قيس ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ؟ قلت: بلى يا رسول الله قال : قل : « لاحول ولا قوة إلا بالله » .

اربعوا على أنفسكم : ارفُقوا بها ولا تُجهدوها ..

ولا يخفى ما في الحديث ــ على تعدد رواياته ـ من ملامح تدل على حرص الرسول عليه الصلاة والسلام، على تعليم الأمة حقائق الدين ،وتربيتهم عليها، الأمر الذي يضمن ـ بإذن الله ـ سلامة السير الواعي في الدنيا ، وحسن العاقبة في الآخرة ، يقول ابن بطال ـ كما في فتح الباري ـ : (كان عليه الصلاة والسلام معلماً لأمته ، فلا يراهم على حالة من الخير إلا أحب لهم الزيادة ، فأحبَّ للذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير ، أن يضيفوا إليها التبريَ من الحول والقوة، فيجمعوا بين التوحيد والإيمان بالقدر ). وقد جاء في الحديث « إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله : أسلم عبدي واستسلم» قال الحافظ : أخرجه

الحاكم من حديث أبي هريرة بسند قوي ، وفي رواية قال لي : « يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : تقول : لاحول ولا قوة إلا بالله . فيقول الله : أسلم عبدي واستسلم» . وزاد في رواية « ولا منجا ولا ملجأ من الله إلا إليه ».

اللهم إنا قد تبرأنا من حولنا وقوتنا إلى حولك وقوتك ، فاغفر لنا وارحمنا واجعلنا ــ بفضلك و إحسانك ـ ممن يغمرهم نور فضلك يوم الحساب فإنه لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، يا مجيب الدعاء .

## البشرى.. رياض الجنة وغراس الجنة

ما كـان للناظـر في الأخبار المنثورة في دووايـن السنة عـن القيامـة ، أن يغادر القول في تلكم الكلمة المبـاركة التي بيّن الرسول ﷺ أنها كنز مـن كنوز الجنة « لا حول ولا قـوة إلا بالله » قبل التعـرف إلى شيء من مراميها، وعـلاقة ذلك بطـريق جنات النعيـم؛ فقد استـوقف ذلك علماءنـا يرحمهـم الله ، فعملوا على تبين المراد، وإيضاح ما له مـن أثر في شـحذ عزائم المؤمنين ، للعمل على أن يكونـوا ـ بفضل الله ـ في زمـرة المكرمين الخالديـن في دار المقامة عنـد رب العالمين . ومما جـاء عند الإمام النووي، في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على كون « لا حول ولا قوة إلا بالله » كنـزاً من كنوز الجنـة قوله : ( قـال العلماء : سبب ذلك أنها كلمـة استـسلام وتفويض إلى الله تعالى ، واعتراف بالإذعان له ، وأنه لا صانع غيره ، ولا رادّ لأمره ، وأن العبد بضعفـه لا يملك شيئاً مـن الأمر . ومعنى الكنـز : أنه ثواب مـدَّخر في الجنة ، وهو ثواب نفسي، كما أن الكنز أنفس أموالكم )

وحاصل المعنى عند الحافظ ابن حجر : أن هذه الكلمة الزاخرة بالعبودية لله من ذخائر الجنة ، أو من محصلات نفائس الجنة .

ولكم يفرح المؤمن بهذه البشارة العظيمة وأمثالها ؛ ومن الصدق في ذلك : أن يحفزه هذا التوجيه النبوي الكريم ، على مزيد من وعي هذا الكنز ، ودلالته العميقة الوثيقة الصلة بخالص العبودية لله ، وأبعاده الواجب أن تكون على صعيد العبادة والعمل ، والإكثـار من القربات التـي تضيء الطريق إلى دار الخلود . هـا هي ذي بعض المصادر تطـالعنا بتسمية الكلمة التـي نحوِّم حولها : « غراسَ الجنـة ». فقد أخرج أحمد والترمذي وصححـه ابن حبان عن أبي أيـوب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ليلة أسري بـه مر على إبراهيـم ـ على نبينا وعليه الصـلاة والسلام ـ فقـال : يا

محمـد مر أمتـك أن يكثروا مـن غراس الجنـة ، قـال : وما غـراس الجنة ، قـال : «لاحول ولا قوة إلا بالله ».

ويزيـد الأمر الذي نومـىء إليه تأكيداً ، مـا جاء من الترغيب بقـولها ، ضمن عدد من التوجيهات النبوية الكريمة، الأمر الذي يحكم العلاقة بين ما تدل عليه، وبين العبادة والعمل ؛ أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «كنت أمشي مع رسـول الله ﷺ في نخل لبعض أهل المدينـة فقال : يا أبا هـريرة هلك المكثرون ، إلا مـن قال هكذا وهكذا وهكـذا ـ ثلاث مرات حتـى بكفه عن يمينه وعن يساره وبين يديه ـ وقليل ما هم . ثم مشى ساعة فقال : يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ فقلت : بلى يا رسول الله قال : قل : لاحول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم مشى ساعة فقال : يا أبا هريرة وهل تدري ما حق الناس على الله وما حق الله على الناس ؟ قلـت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على الناس أن يعبـدوه ولا يشركوا به شيئاً . فإذا فعلوا ذلـك فحق عليه أن لايعذبهم».

هكـذا تجد أن المؤمن إذا صـدق مع الله ، يتقلـب أبداً في ألـوان من العطـاء الربـاني، طمأنينة في الـدنيا ،وعيشاً خـالداً في النعيم يـوم الدين ؛ ومـن آيات الله العظام أنك ترى الأمـور نفسها التي تبعث في قلب المؤمن الطمـأنينة ، وتشيع في علاقته بمولاه السكينـة ، هي نفسها تكون ـ بفضل الله ـ طـريقه إلى دار المقامة في الخالديـن . ولقد رأينـا من قبل مـا روى الترمذي عـن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « إذا مررتم بـرياض الجنة فارتعـوا . قلت : يارسـول الله وما رياض الجنة قـال : المساجد ، قلت : ومـا الرتع يا رسـول الله ؟ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » .

سبحان الله العظيـم، ما أكـرمه وأجـزل عطاءه ... المسـاجد ــ وهي بيـوته ـ رياض الجنة ، والـرتع فيها تسبيح وتحميـد وتهليل وتكبير . وما أعظم مـا أعد من

نفحات السعادة لمن يذكُر هذا الهدي النبوي الدالّ على موائد الخير الذي لا ينفد، ويأخذ نفسه بالعمل به ، والاستزادة من نوره الذي يشق الظلمات إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

ويزداد الأمر اتساعاً حين يجعل الرسول ﷺ ـ وهو يحرص على أن تشيع طمأنينة القلوب في النفوس ، ليكون أصحابها أقدر على أداء رسالتهم ـ حين يجعل وهو يحرص على ذلك ، من حِلق الذكر التي يذكر الله فيها وفق المنهج النبوي رياضاً للجنة أيضاً ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قال : وما رياض الجنة ؟ قال : حِلق الذكر » رواه الترمذي وحسّنه .

والحِلق : جمع حَلْقة . ورواه الإمام أحمد عن أنس أيضاً ولفظه «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حِلق الذكر ، كما رواه البيهقي في « شعب الإيمان » .

وهذه الثمرة الطيبة التي ينالها الذاكرون ، تأخذ بيدنا إلى نماذج كثيرة رتّب فيها النبي ﷺ دخول الجنة على لون من ألوان الذكر ، والموفّق من هُدي إلى حسن الاتباع ، فذكر الله بلسانه وهو على نور من ربه ، وعمل بما دلّ عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم ذكره ـ على حالاته كلها ـ ذِكراً عملياً يصحب الذكر القوليّ ، فأخذ نفسه بأحكام الدين : عبادة وعملاً وسلوكاً ؛ إقامةً لشرع الله ، ومراقبة يزينها صفاء التوحيد لمن لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية . والإحسان ـ كما جاء في الصحيح ـ « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهذه ثلة من النماذج التي يجري الإيماء إليها . قال الإمام أحمد : حدثنا علي ابن عاصم قال : أنبأنا حصين بن عبدالرحمن عن سعيد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا اضطجع الرجل فتوسد يمينه ثم قال : اللهم إليك أسلمت نفسي ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت إليك ظهري ، ووجهت

إليك وجهي رهبة منك ورغبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت؛ ومات على ذلك بني له بيت في الجنة أو بوىء له بيت في الجنة » .

ألا ما أكرم ما يفوز به يوم العرض الأكبر أهل الإنابة إلى الله ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وتسمو نفوسهم بكمال الرضا عما رزقهم الله من نعمة الإسلام والإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . روى ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبي سلاّم خادم النبي ﷺ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : «ما من مسلم أو إنسان أو عبد يقول حين يمسي وحين يصبح : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة » إنها الجنة التي وعد الله عباده الصالحين ، والله لا يخلف الميعاد . وفي حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي في السنن بسنده عن جابر رضي الله عنه نقرأ قول النبي ﷺ : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له نخلة في الجنة » .

وبعد : فغير خافٍ أن من علامات الصدق في ذكر الله عز وجل ، أن ينعكس ذلك على السلوك فيما بين العبد وبين الله ، وفيما بينه وبين عباد الله . فكلما كان حظه من الاستقامة على شرع الله والوقوف عند حدوده أوفر ، كان ذلك أدلَّ على صدقه في ذكر الله الذي رغّب فيه رسول الله ﷺ ، وكان حفياً ببيان ماله من آثار مباركة يوم يقوم الناس لرب العالمين . روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رجلاً قال : يارسول الله إن لفلان نخلةً ، وأنا أقيم حائطي ـ أي بستاني ـ بها، فمُره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها ، فقال له النبي ﷺ : أعطها إياه بنخلة في الجنة ، فأبى . فأتاه أبو الدحداح ، فقال : بعني نخلتك بحائطي؛ ففعل ، فأتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله إني قد ابتعت النخلة بحائطي ، قال : فاجعلها له فقد أعطيتكها ، فقال رسول الله ﷺ : كم من عِذق رداح لأبي الدحداح في الجنة ، قالها مراراً فأتى ـ أي أبو الدحداح ـ امرأته فقال : يا أم الدحداح اخرجي من الحائط ، فإني قد بعته بنخلة في الجنة ، فقالت : ربح البيع ـ

أو كلمة تشبهها ـ ».

هنيئاً لهذا الصحابي الجليل ما فعل ، وهنيئاً لـزوجته التي كانت معه في البذل على حد سواء ، هنيئاً لهما هذا الصدق الذي أعقبَهما نخلة في الجنة .وجل ذكر ربنا إذ يقول : ﴿ ومن أراد الآخـرة وسعى لها سعيها وهـو مؤمـن فأولئك كـان سعيهم مشكوراً ﴾.

# منازل الشهداء.. واشتياق الجنة إلى ذويها

موائد العطاء الإلهي منصوبة ، والجنة تشتاق إلى أهلها الصادقين في طلبها الذين يقيمون على دعواهم الدليل ، وما على من أراد أن يباعد بينه وبين النار ويوقى عذابها المهين ، ويُدخل الجنة يخلد فيها أبداً مع الخالدين .. ما عليه إلا أن يشمِّر عن ساعد الجد ، ويأتي من العمل في هذه الدنيا ، ما يكون له ـ بفضل الله ـ نوراً يهديه إلى منازل الأبرار الذين باعوا أنفسهم لله حقاً وصدقاً ، ولم تغرَّهم الأماني التي هي من تسويلات النفس والشيطان . قال الإمام مسلم : حدثنا حسن بن علي الحلوانيُّ قال : حدثنا أبو توبةَ الربيعُ بن نافع قال : حدثنا معاوية ـ يعني ابن سلاّم ـ عن زيدٍ أنه سمع أبا سلاّم يقول : حدثني عبدالله بن فَرّوخ أنه سمع عائشة رضي الله عنها تقول : « إن رسول الله ﷺ قال : إنه خُلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصِلٍ ؛ فمن كبّر الله ، وحمد الله ،وهلّل الله ، وسبّح الله واستغفر الله ، وعزل حجراً عن طريق الناس ، أو شوكة أوعظماً عن طريق الناس ، وأمر بمعروف ، أو نهى عن المنكر عدد تلك الستين والثلاثمائة السُّلامى ، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار » قال أبو توبة : وربما قال : « يُمسي » .

وليس من مكرور القول معاودة التذكير بما يُفرح قلب المؤمن، مما أعدّ الله لأهل القرب من هذه الأمة المحمدية ـ وفي ذؤابتهم الشهداء ـ من المكرمات العظام ؛ الأمر الذي يدلُّ على أحقية السبيل التي سلكوها إلى النعيم المقيم في دار المقامة والحمد لله . أقول : هذا ليس من مكرور القول لأن أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وخاضوا معركة الحياة في عبودية خالصة له عز وجل غير آبهين بزخرف الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ، هم النماذج الحية للقيم التي حُمِّلتها الأمة من رسالة الإسلام والمعالم المضيئة على طريقها إلى النصر والتمكين ، وهي شاهد صدق على كريم نعمة الإيمان وفضل الشهادة في سبيل الله ؛ فلا بدع ـ وحالهم

كذلك ـ أن يكونوا أحياءً عند ربهم يرزقـون ، وأن تكون الجنة مأواهم ، يرزقون فيها بغير حساب. أخرج أبـو داود في « السنن » بسنده عن ابـن عباس رضي الله عنهما قال : قـال رسول الله ﷺ : « لما أصيـب إخوانكـم بأحـد ، جعل الله أرواحهـم في جوف طيرٍ خُضْرٍ تـرد أنهار الجنة تأكـل من ثمارها ، وتـأوي إلى قناديلَ مـن ذهب معلقةٍ في ظـل العرش ، فلما وجدوا طيب مـأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالـوا : من يبلّغُ إخواننا عنا، أنّا أحياءٌ في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكُلوا عند الحرب ، فقال الله سبحانـه : أنا أبلغهم عنكـم ـ قال ـــ : فأنزل الله : ﴿ **ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيـل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقـون . فرحين بما آتاهم الله من فضلـه ويستبشرون بالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهـم ولاهم يحزنون** ﴾ ورواه الطبري .

وأخرج ابن ماجة في « الـسنن » عن مسروق بن الأجدع عن عبدالله بن مسعود في قوله: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتـاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون**﴾ قال : أما إنا سألنا عن ذلك . فقال: « أرواحهم كطير خضرٍ تسرح في الجنة في أيها شاءت ، ثم تأوي إلى قناديلِ معلقةٍ بالعرش فبينما هم كذلك إذ اطَّلع عليهم ربك اطّلاعة فيقول : سلـوني ما شئتم . قالوا : ربنا وماذا نسـألك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا ؟ فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يسألوا ، قالوا : نسألك أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا إلى الـدنيا ، حتى نقتل في سبيلك ، فلما رأى أنهم لا يسـألون إلا ذلك تُركوا ».

ومن البيِّن أن هذا الحديث وأمثاله ، مما ورد في بيان ما جاء في الكتاب العزيز عن منزلـة هؤلاء الذين وفوا ببيعتهـم مع الله ، واستبشروا ببيعهم الذي بـايعوا به ، وأكرمهم المولى بدخول جنة المأوى في خـاتمة المطاف في رحلتهم الى الآخرة ... من البيِّن أن هذه النصوص المبـاركة ، كما تدل على أن هؤلاء البررة لم يبخلـوا ببذل ما يجب على طريق جنـة الخلد ، وكانوا مستبشريـن ببيعهم الذي بايعـوا به ، تدل في الوقت نفسه على عمـق الصلة ، بين ما أكرموا به من الحسنـى وزيادة ، وبين تربية

أجيال الأمة ، على أن يـزين حياتها إيمان بالغيب ، و إقبـال على الشهادة في سبيل الله ، وسعي حثيث إلى توثيق العرى بين المشاعر والسلوك ، وبين ما يقتضيه صدق المشوقين إلى الجنة ، من استعـلاء على كل المعوقات التي تطرح على طـريق المؤمن وهو يفـرُّ إلى الله ، ويضطلع بما يكون من أعبـاء الترغيب والترهيب التـي تصحب المكاره التي حفت بها الجنة ، وأنعم بدار المقامة نُزلاً لأهل الجهاد المتقين .

هذا وقد روى أبو جعفر الطبري الحديث الـذي سبق عن ابن مسعود بلفظ : «أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنـا : إنه لما أصيب إخوانكم في أحد .. إلى أن يقول : فيطّلع الله إليهم اطّلاعة فيقول : ياعبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنـا ! الجنة نأكل منها حيث شئنـاً ـ ثلاث مرات ـ ثـم يطّلع فيقول : ياعبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ، الجنة نأكل منها حيث شئنا ! إلا أنا نحـب أن ترُدَّ أرواحنا في أجسادنا ، ثم ترَدَّنا إلى الـدنيا فنقاتل فيك حتى نقتل فيك مرة أخرى ».

إنها حوافز الخير يطرحها الترغيب بالجنة للعاملين ، و يربي بها رسول الله أمته جيـلاً بعد جيـل ، على أن يكون الشـوق إلى الجنة والتطلـع إلى ما فيهـا من إكـرام الله عباده المقربين ، طاقة فاعلة في تجويد حركة الحياة وفق المنهج الرباني ، وإعداد الإنسان المسلم للمـوقف الذي يأتسي بـه أبداً بسلف هذه الأمـة ، إنابة إلى الله ، وجهاداً في سبيله ، وتخشعاً بين يديه ....

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة الميمونـة ، تطالعنا بعض النصوص التي لا تقتصر على الكشف عن أن الجنة تشتاق إلى أحبائها ـ عموماً ـ بل تأتي على ذكر نفر منهـم. أخرج الترمذي في كتـاب المناقب مـن السنن عن أنـس بن مالـك أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمارٍ وسلمان » قال أبو عيسى : هذا حـديث حسن غريب لا نعرفـه إلا من حديث الحسن بـن صالح . ويابشرى من وعت قلوبهم حقيقة الإيمان بالغيب، فعقلوا عن الله ورسوله ، ولزموا ما أراد الله ورسوله ، فحصلوا على سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة .

# حولها ندندن

كم ذا يقع المتتبع لنصوص الحديث في هـدي النبي ﷺ قولاً وفعلاً وإقراراً ، على الكثير من شواهـد الصدق على حقيقة العبودية الخالصة عنـده عليه الصلاة والسلام ، وأنه ﷺ ـ على عظيم فضله وما خصّـه الله به من الخصائص ـ كان ـ كما أشرت غير مرة ـ يكثر أن يسأل الله الجنة ، ويستعيذ بـه من النار ـ وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ـ ويعلِّم أصحابه ذلك .

أخرج الإمام أحمد في المسند بسنـده عن معاذ بن رفاعة الأنصـاري عن رجل من بني سلمة يقال له : سليم « أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن معاذ بن جبل يأتينـا بعدما نام ، ونكـون بأعمالنا بالنهـار ، فينادي بالصلاة ، فنخـرج إليه فيطَوِّل علينا . فقال رسـول الله ﷺ : يا معاذ بن جبل لا تكن فتّـاناً ، إما أن تصلي معي ، وإما أن تخفف على قومك ، ثم قال : يا سليم ماذا معك من القرآن ؟ قال: إني أسأل الله الجنة ، وأعوذ بـه من النار ، والله ما أحسن دندنتـك ولا دندنة معاذ. فقال رسول الله ﷺ : وهل تصير دندنتي ودندنة معاذ إلا أن نسأل الله الجنة، ونعوذ بـه من النـار ؟» ثم قـال سليم : سترون غـداً إذا التقى القـوم إن شاء الله ، قـال : والناس يتجهزون إلى أحد ؛ فكان في الشهداء رحمة الله ورضوانه عليه .

تلكم هي الدعوة التي حولها يدنـدن أسوتنا الحسنة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وصاحبـه معاذ رضي الله عنه ( سؤال الله الجنة والاستعاذة بـه من النار ) وذلك إيـذان للأمة بـالأهمية البالغـة ،لما ينبغي أن ينطـوي عليه قلب المؤمـن من الخوف والرجاء . وأخـذاً بما تدل عليه عبارة النص ، ثم دلالـة الأولى ، ما أحسب أن مؤمناً يخامره شـك في أنه أولى بالأمة أن تكون على قدم رسـولها المصطفى عليه الصلاة والسـلام في سؤال الله الجنـة والاستعاذة به مـن النار . وصـدقُ اللهجة في

هذا: دليلُه أن لا يألو المؤمن جهداً في أخـذ النفس بطريق أهل الصدق في طلاب الجنة والحرص على النجاة مـن النار ، وأن يسعى للآخرة سعيها ، استجـابة لما دعا إليه الله جـل شأنه ورسـوله عليه الصـلاة والسلام ؛ وذلكـم طريق الفـوز بحسن العاقبة وسعادة الدارين .

هذا : والتعبير بالدندنة هنا ، له إيحاؤه النفسـي ودلالته على المناجاة الخافتة لله عز وجل . جاء في «النهاية» لابن الأثير : الدندنة أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته ولا يُفهـم ، وهو أرفـع من الهينمة قليـلاً . والحديث أخـرجه أبـو داود وابن ماجـة ، ولفظ ابـن ماجة بسنده عـن أبي هريرة رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « ما تقول في الصلاة ؟ قال : أتشهد ثم أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النـار ، أما والله لا أحسن دنـدنتك ، ولا دندنة معاذ . فقال ﷺ : حـولها ندندن » وفي روايـة « حولهما نـدنـدن » بالتثنيـة . قـال البـوصيري في « الزوائد » : إسنـاده صحيح ورجاله ثقات . والضمير في « حولهما » ـ كما يقول ابن الأثير ـ عائد للجنة والنار . فالدندنة حول الجنة: طلب لها ، والدندنة حول النار : استعاذة منها .

وكما أسلفت ــ وأسأل الله عفوه ومغفـرته ــ: إذا كان هذا مـن رسول الله ﷺ وواحد مـن صحابته الكـرام ؛ فما بالك بالآخـرين ـ وقـد حفت الجنة بـالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ـ !! على أن ذكر معاذ هنا ليس على سبيل الحصر في واقعة بعينها ، ولكن لأنه المذكور ـ رضي الله عنه ـ في هذه الواقعة ، وإلا فأصحاب النبي ﷺ الذين اختارهم ربنا جلت حكمته ، للأخذ عن رسوله ومصطفاه صلوات الله وسلامـه عليه ، وحملِ الـدين ؛ إيماناً وعلماً وعمـلاً وجهاداً إلى الأمـة ، كانـوا ومن تبعهم بإحسان ــ وأبواب الخير مشرعة على المدى ـ على هذه الدنـدنة المباركة لأن سؤال الله الجنة ، والاستعاذة بـه من النار بصدق من يؤمن بـأنهما حق ، يبلغ به أن يستشعر كـأنه يراهما أمام نـاظريه رأي عين ، يعنيـان مزيداً من الـرجاء والخوف ؛ الأمر الذي يشحذ العزائم لعمل الصالحات ، والإنابة إلى الله ، والإكثار من ذكره ـ جل وعـلا ـ وطلب مغفرتـه ورحمته ؛ يصحب ذلك ذكـر للموت والبلى ، وأن المرء

مهما زُيّن له في هذه الـدار الفانية ، لاحول له ولا طول يـوم الحشر ، ولا ولي له من دون الله ينصره من عذاب السعير إذا أوقعه ضلاله في الهلكة ، ومن وراء ذلك : أن تكون مشاهد القيامة وعظاتها منه بحسبان .

عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال : « لما طعن أبو عبيدة بن الجراح ـ أصابه الطاعـون ـ بالأردن وبها قبره ، دعا مـن حضره من المسلمين فقال : إني مـوصيكم بوصيـة إن قبلتموهـا لم تزالـوا بخير ؛ أقيموا الصلاة وآتـوا الزكـاة وصومـوا شهر رمضـان ، وتصـدقوا وحجـوا واعتمـروا ، وتـواصـوا ، وانصحوا لأمـرائكـم ، ولا تغُشّوهم ولا تلهينكـم الدنيا ، فإن امـرءاً لو عمِّر ألف حـول ما كان له بـد من أن يصير إلى مصرعي هذا الـذي ترون ، إن الله كتب الموت على بني آدم فهـم ميتون ، وأكْيَسُهُمْ أطوعهم لربه ، وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله . ثم قال: يا معاذ بن جبـل صلِّ بالناس . ومات رضي الله عنه . فقـام معاذ في الناس فقال : أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحاً ، فإن عبداً لا يلقى الله إلا تائباً من ذنبه كان حقا على الله أن يغفـر له إلا من كان عليه دين ، فإن العبـد مرتهن بدينه، ومن أصبـح منكم مهاجـراً أخاه ، فليلقه فليصـافحه ، ولا ينبغي لمسلـم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث فهو الذنب العظيم » رواه ابن عساكر .

ولا يخفى أن المؤمن عندما يكون على هـذه الحال؛ من البعد عن الغفلة وذكر يوم المعـاد ، تكون الرغبـة في دار النعيم ، والرهبـة من أن تكون الجحيـم في الآخرة مأواه ، من الأمـور التي تأخذ عليـه نفسه ، فيزداد دعاؤه وتضرعـه كيما يبلغه الله ما يريد من الوقاية من النـار والانسلاك في زمرة أهل الجنة . غير أن بعض الناس قد يغالون في التفصيلات عند سؤال الجنة والاستعـاذة من النار ، حتى يخشى عليهم أن يكونوا ممن يعتَدونَ في الدعاء ، ولذلك لم يدع الرسول ﷺ ـ وهو سيِّد النَصَحة المربين ـ أن ينبـه على هذا الأمر ، ويوجـه إلى عدم الاعتداء في الـدعاء. لأن الله لا يحب المعتدين . والمؤمن يحسن صنعاً عندما يدعو ربه مخلصاً بهذا الدعاء الجامع : «اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما

قرب إليها من قول أو عمل ».

أخرج أبـو داود في كتاب الصلاة من «السنـن» بسنده عن ابن سعـد بن أبي وقـاص أنه قـال : ( سمعنـي أبي وأنا أقـول : اللهم إني أسـألـك الجنة ونعيمهـا وبهجتها وكذا وكذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، وكذا وكذا ، فقال : «يابني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون أقوام يعتدون في الدعاء » فإياك أن تكون منهم ، إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير ، وان أعذت من النار أعـذت منها وما فيهـا من الشر » هذا هـو الأدب النبوي الذي يشمـل ـ فيما يشمل ـ أن يكـون المؤمن على أدب مع ربه في الـدعاء، وذلكم هو السمـو في بناء الإنسان ــ وقد امتدت إلى هذا البنـاء يد محمد ﷺ الصناع ــ والخير كل الخير في حسن الاتباع وكمال التأسي والعمل بهديه صلوات الله وسلامه عليه .

وجاءت روايـة الحديث عنـد أحمد بشيء من التفصيـل، يعين على مزيـد من الفقه لما حصـل التنبيه عليه . فقـد أخرج رحمه الله بسنـده عن مولى لسعـد بن أبي وقاص عن ابـن سعد «أنه كان يصلي ، فكـان يقول في دعائه : اللهـم إني أسـألك الجنة وأسألك من نعيمها وبهجتها ،ومن كـذا ومن كذا ومن كذا ومن كذا ، وأعوذ بك من النار وسـلاسلها وأغلالها ،ومن كذا ومن كذا . قـال : فسكت عنه سعد، فلماصلى ، قال لـه سعد : تعـوذت من شر عظيـم وسألـت نعيماً عظيماً ـ أو قـال: طويلاً ـ قـال رسول الله ﷺ : « إنه سيكون قوم يعتدون في الـدعاء » وقرأ ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ قال شعبة : لا أدري قـوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية﴾ ـ يعني تـلاوة الآية ـ هذا من قول سعـد أو قول النبي ﷺ، وقال له سعد : «قل : اللهم أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل » .

ألا ما أعظـم هذا التكـامل : تُسأل الجنـة ، ويسأل التوفيـق لسلوك الطـريق إليها في الأقـوال والأفعال . ويستعاذ مـن النار ، ويسأل العـوذ من كل مـا يقرب

إليها من قول أو عمـل ، ويتضمن ذلك سؤال التوفيق للابتعاد عـن كل ما يقرب إليها أو يمت إليها بصلة .

وعلى طريقـة السلف الصالح ، مـن الحرص على النصح وهداية الآخـرين ، يبدو أن هذا التوجيه كان ديدن أهـل التقوى والصلاح ، عملا بالهدي المحمدي في ذلك . روى ابـن ماجة بسنـده عن أبي نعامة « أن عبـدالله بن مغفّل سمـع ابنه يقول : اللهم إني أسـألك القصر الأبيض عن يمين الجنـة إذا دخلتُها ، فقال : أي بنيّ ، سل الله الجنة وعُذْ به من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون قوم يعتدون في الدعاء » .

اللهم إني داع بدعاء نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام : فأسألك يارحمن الدنيا والآخرة الجنة ، وأعوذ بك من النار .

# الآخرة خير.. ومناديل سعد في الجنة

إنه مهما مسَّ الإنسان من الضر في هذه الدار ، وناله من المتاعب والمصاعب في سبيل الله ، ومهما فاته من أمور الدنيا وشهواتها ، فما أعدّ الله له في الآخرة من النعيم المقيم في جنات عدْن خير وأبقى ، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ؛ فقد جاء بها القرآن الكريم وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام.

لذا كان مما يهوّن أمر المصائب في الحياة الدنيا ، وما يحسُّ به المرء من نقص في مطلب من مطالبها : أن يكون على ذكر من جود رب العالمين في دار البقاء على عباده الذين أحسنوا في دار الفناء ، بعد أن يشتد الكرب يوم الحشر الأعظم ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويتمنى الناس ـ من ثقل ما يضرب قلوبهم من الهول ـ أن لو يخُلص بهم ولو إلى النار .

من هنا كان اصطحاب هذه الحقيقة وما جاء من الأخبار الصادقة حولها : عاملاً على غاية الأهمية، في بعث السكينة والطمأنينة على طريق العمل لإعلاء كلمة الله ، والإفادة من الطاقات التي أعطيها المرء من أجل التزود بتقوى الله تعالى ـ وهي خير زاد ـ ليوم الحساب . إنه إن سلك هذه السبيل بإخلاص وصدق عزيمة كان ـ بفضل الله ورحمته ـ في زمرة الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون . وما أعظم ما تزدان به دار المقامة مما أخفي لأصحابها من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون . أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه ـ وهو أبو موسى الأشعري ـ أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من فضة آنيتُها وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتُها وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنات عدن » وأخرجه الترمذي ورزين ـ كما في

جامع الأصول لابن الأثير . ولفظ الترمذي « إن في الجنة جنتين » وهو عنده حديث حسن صحيح .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل للمؤمن ، لا يراهم الآخرون » ولفظ البخاري « درة مجوفة » ، وفي رواية أخرى للبخاري « إن في الجنة خيمةً من لؤلؤة مجوفةٍ عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون » ولمسلم رواية أخرى بلفظ « إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوّفة ، طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » والترمذي بعد أن روى حديث الجنتين السابق قال : وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة لخيمةً من درة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ولعل من الخير أن نشير إلى أن بعض الأحاديث قد كشفت عن حظ أناس بأعيانهم يكون في الآخرة كفاء عمل عملوه في الدنيا ، وأن مثوبتهم الجنةُ - بما جاهدوا أو بما أنفقوا - إلى غير ذلك مما يوفّق فيه المؤمن من القربات ؛ ففي حديث طويل رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن ، جاء قول عثمان رضي الله عنه : «.. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماءٌ يستعذب إلا بئر رُومة، فقال رسول الله ﷺ : «من يشتريها ويجعلُ دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة ، فاشتريتها من صلب مالي ..» كما جاء قوله رضي الله عنه: «.. هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله ، فقال رسول الله ﷺ : من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي » وجاء في بعض الروايات ذكر المغفرة بدلاً من الجنة ، كما جاء عن رسول الله ﷺ فيما يكون لعثمان رضي الله عنه يوم الفصل جزاء تجهيزه جيش العسرة، ما يشملهما جميعاً ؛ فعن عبدالرحمن بن خباب رضي الله عنه قال: «شهدت

رسول الله ﷺ وهو يحثُّ على تجهيز جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفـان ، فقال: يارسول الله عليَّ مـائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثـم حضّ على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنـا رأيت رسول الله ﷺ ينـزل عن المنبر وهو يقـول : ما على عثمان ما عمـل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه » أخرجه الترمذي وهو حديث حسن .

جيش العسرة هـو جيش غزوة تبـوك . والأحلاس : الأكسية التـي تكون على ظهور الإبل تحت الرحال والأقتاب ، واحدها حِلس .

وفي صورة غايـة في الإشراق والوضوح أيضاً ، نقـرأ في مناقب سعد بـن معاذ رضي الله عنه وكريم ما يعطاه في الجنة : ما ورد في الصحيح من أن مناديل سعد في الجنة أحسـن من ثـوب حريـر ، أو جبة سنـدس أهديـت إلى النبي عليـه الصلاة والسلام ؛ ففـي « باب مسِّ الحريـر من غير لبـس » من كتاب اللبـاس في الجامع الصحيح، روى البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه أنه قال : أهدي للنبي ﷺ ثوب حرير ، فجعلنا نلمسه ونتعجب منـه ، فقال النبي ﷺ « أتعجبون من هذا ؟ قلنا : نعم . قال : مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا ». وأين المناديل من الثـوب الجميل المُهـدى ؟ ولكنها منـاديـل سعد في الجنـة . وقال بعـض العلماء: خصّ المناديل بالذكر لكونها تُمتَهن، فيكون ما فوقها أعلى منها بطريق الأولى.

والمناديل : جمع مِنديـل وهذا هو الذي يحمل باليد ، قـال ابن الأعرابي وابن فارس وغيرهما : هو مشتـق من الندل وهو النقـل لأنه ينقل من هنـا إلى هنا . وفي رواية أخرى للبخـاري عن أنس رضي الله عنه : « أهدي للنبـي ﷺ جبة سندس ـ وكان ينهى عن الحرير ـ فعجب الناس منها فقال : والذي نفـس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذٍ في الجنة أحسن من هذا ».

أرأيت إلى هذا التأكيد بالقسم من الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام!! وجاءت رواية لمسلم بلفظ الحلة وعرضت لِلينها ؛ فقد روى بسنده عن أبي إسحاق

قال: سمعت البراء يقول : أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير ، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها ، فقال : «أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ منها وألين » وأورد مسلم رحمه الله رواية أنس رضي الله عنه والتي جاء فيها : ـ وكان ينهى عن الحرير ـ وأخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وهذا الذي أنبأ به عليه الصلاة والسلام ـ كما يدُلُّ بلا ريبٍ على فضل سعد رضي الله عنه الذي أصيب يوم الأحزاب ، ومات متأثراً بتلك الإصابة ، بعد أن أحسن في الحكم بين المسلمين وبين بني قريظة ـ يضع أيدينا على واحدة من سمات المنهج النبوي الكريم في التربية والإعداد ؛ انظر كيف كان نقل الصحابة من الإعجاب بلين السندس في ثوب الحرير ـ وهو من زخرف الدنيا ـ إلى ما هو أعظم وأغلى للمؤمن في الجنة ، وذلك بذكر ما لشخص معيّن ـ بالتحديد ـ كان له من البلاء الحسن ما له رضي الله عنه ، الأمر الذين يعين أكثر وأكثر على إدراك ما أراده النبي ﷺ . إنها نقلة عريضة بين ذلك الثوب الحريري في الدنيا ، وبين مناديل سعد في الجنة في عالم الآخرة ، وهي في الوقت نفسه عميقة بما أحدثت في نفوس أولئك الرجال البررة ، وما يمكن أن تحدثه في نفوس من يتبعونهم بإحسان ، واثقين الوثوق كله بقول الله جل وعلا : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنينَ أنفُسَهُم وأموالَهم بأن لهم الجنة.. ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ فأين هذا من ذاك ؟.

# رجل من أهل الجنة

أهوال يوم القيامة ـ وهو يوم مجموع له الناس ويوم مشهود ـ لا تصرف المؤمن عن الرجاء الكبير بفضل الله ورحمته ، وما تشرق به ساحة الرضوان الأكبر التي تضيىء للسالكين ـ على تعدد النماذج والألوان ـ طريق الجنة ؛ فلا تكاد تنتهي من خبر في السنة عن واحد من البررة ، وما له في دار القرار ، حتى يطالعنا خبر مبارك آخر عن غيره ؛ الأمر الذي يثير في النفس كوامن الإيمان ، ويقف المؤمن على حقيقة أن رحمةالله قريب من المحسنين ؛ فما عليه إلا أن يسلك سبيل أولئك الذين غمرهم نوال الرحيم الرحمن ، ففازوا بما وعد المتقون . وحسنُ المآب في الآخرة ، وأن تكون الجنة هي المأوى ؛ لا يخفى على مؤمن أنه مبتغىً كريم، يسأله عباد الله الصالحون ، وفي مقدمتهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث طويل دعاءً للنبي ﷺ يقول فيه : « .. اللهم ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، الركّع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد ... » ومثل ذلك كثير في أدعيته عليه الصلاة والسلام ، مما دعا به أو علّم أصحابه أن يدعوا به . قال الإمام عبدالرزاق الصنعاني صاحب « المصنف » والمتوفى سنة عشر ومائتين للهجرة : أخبرنا معمر عن الزهري قال : أخبرني أنس بن مالك قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : «يطلع عليكم الآن من هذا الفَج رجل من أهل الجنة . قال : فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علَّق نعليه في يده الشمال، فسلّم. فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك : فطلع الرجل على مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً : فطلع ذلك الرجل على مثله حاله الأول. فلما قام النبي ﷺ تبعه ـ أي تبع الرجل ـ عبدالله بن عمروبن العاص

فقال : إني لاحيتُ أبي فـأقسمت أن لا أدخل عليه ثـلاثاً ؛ فإن رأيت أن تـؤويني إليك حتى تمضي الثلاث ، فعلت . قال : نعم ، قال أنس : كان عبدالله يحدث أنه بات معه ثلاث ليالٍ ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعارَّ ، انقلب على فراشـه وذكر الله وكبر حتـى يقوم لصلاة الفجـر ، قال عبـدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضـت الثلاث ، كـدت أحتقر عملـه ، قلت : يـا عبدالله ، لم يكن بينـي وبين والدي هجر ولا غضب ، ولكنـي سمعت رسول الله ﷺ يقـول ـ ثلاث مرات ـ يطلع عليكم رجل من أهـل الجنة ، فاطلعت ثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر مـا عملك ، فأقتدي بـك ، قال : ما هو إلا مـا رأيت . قال : فانصرفـت عنه، فلما وليت دعاني فقـال ، ما هو إلا ما رأيـت ، غير أني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسده على مـا أعطاه الله إياه البتة ، فقال عبدالله : هذه التي بلغت بك ، هي التي لا نطيق » .

تنطف : تقطر . والتعارُّ : السهر والتقلُّب على الفراش ليلاً مع كلام .

سبحان الله الجواد الكريـم ، وصلى الله وسلم على رسول الله المبلّغ عـن الله ما أراد، المؤتمن على بيان كتاب الله العـزيز ؛ومن هذا البيان تفصيل مـا أعدّ الله لأهل التقوى والصـلاح ـ على تنّـوع ميادين العمـل التي هيئت لهم في الـدنيا وخـاضوا غمارها ــ من جـزاء سخيٍ في الآخرة ، وحسبـك أن يكون الواحـد منهم مـن أهل الرضى ، الذيـن يحلُّهم الله دار المقامة من فضله ، والذين لا تعلـم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون .

هذا وإخبار النبي ﷺ ــ ثلاث مرات ـ عن هذا الـرجل ـ كما ورد في الحديث الذي نحن بصدده ـ أنه من أهل الجنة ، يدخل في معجزاته عليه الصلاة والسلام ودلائل نبوتـه ، كما أن حال الـرجل ، في نقاء صـدره من الحسـد والغش لأحـد من المسلمين وأنه لا يقـول إلا خيراً ، يعطي أهمية بـالغة لهذا الخلق العظيـم ، ويبعث على التخلق به ، لما أن ذلك يرقى بصاحبه إلى دار الخلود بإذن الله ، وكم لذلك من أثر بالـغ في بناء المجتمع الاسلامـي ، الذي يقوم أول ما يقـوم على صفاء النفوس

ونقائها في ظل أخوة الإسلام .

هـذا : وقد أخـرج الحديـث الإمـام أحمد في المسند مـن طـريـق عبدالـرزاق باختلاف في بعض الألفاظ ،وهو اختلاف يسعـف في مزيد من التصور للواقعة ، قال رحمه الله: حـدثنا عبدالـرزاق قال : حدثنا معمـر عن الزهـري قال : أخبرني أنس بن مالك قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطـف لحيته من وضوئه ، قد تعلق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد قـال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الـرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالـث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضـاً . فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثـاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضيَ فعلت . قـال : نعم . قـال أنس : وكـان عبدالله يحدث أنـه بات معـه تلك الليالي الثلاث فلـم يره يقوم من الليـل شيئاً غير أنه إذا تعارَّ وتقلـب على فراشه ذكر الله عز وجـل وكبرّ حتى يقوم لصلاة الفجر ، قـال عبدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث، وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبدالله إني لم يكن بيني وبين أبي غضـب ولا هجر ، ولكن سمعت رسول الله يقـول ـ ثلاث مرات ـ يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آويَ إليك لأنظر مـا عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمـل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : فما هو إلا ما رأيت . قال : فلما وليت دعاني، فقال : ما هـو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي لأحـد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبـدالله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق » ورواه ابن المبارك في « كتاب الزهد ».

اللهم خلقنا بأخلاق عبادك الصالحين ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، وباعـدنا عن الحسـد لأحد من أوليائك المسلمين . حتـى نلقاك راضياً عنـا يارب العالمين .

# فضل الله.. والبشارة بالجنة

كان من إكرام الله لهذه الأمة، أن رسول الله ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى ملبياً نداء ربه إلا وقد بيّن للأمة كل ما يجب بيانه ، وترك الناس على بيضاء نقية ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . ولكن الغشاوة والتخبط في الظلام مع الغافلين، إنما يكونان من طاعة الهوى والشيطان ، والانصياع لما توحي به النفس الأمارة بالسوء .

ومن بيان النبي ﷺ على صعيد ما يجب سلوكه في الدنيا، ليحظى المؤمن بأفضل المنازل، حيث الجنة ونعيمها ،والنوال الذي لا ينفد من الله الرحيم الرحمن، وما يجب الابتعاد عنه ، لكيلا تسوء العاقبة ، ويكون الهبوط ـ في الآخرة ـ بأخبث المنازل ، حيث نار السعير سلاسلها وأغلالها ، وشجرة الزقوم طعام الأثيم ؛ من هذا البيان ما أخرج الترمذي بسنده عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه . قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظُلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ـ أو كلمةً نحوها ـ وأحدثكم حديثاً فاحفظوه قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبدٍ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربّه ويصلُ فيه رحمه ، ويعلمُ لله فيه حقاً ؛ فهذا بأفضل المنازل . وعبدٍ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو نيته فأجرهما سواء . وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل . وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو نيته ، فوزرهما سواء ».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه أحمد في المسند بإسناد صحيح وهو عند البغوي في « شرح السنة ».

وفي رواية لأحمد : « مثل هـذه الأمة مثل أربعة نفر ؛ رجـل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمـل به في مـاله فينفقه في حقـه ، ورجلٍ آتاه الله علماً ، ولم يـؤته مـالاً ، فهو يقول : لو كان لي مثل ما لهذا عملت فيـه مثل الذي يعمل ، قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الأجر سواء ، ورجـلٍ آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبـط فيه ، ينفقه في غير حقه، ورجلٍ لم يـؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقـول : لو كان لي مال مثـلَ هذا عملت فيه مثلَ الذي يعمل قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الوزر سواء ».

وهذا الجانـب من هـدي النبي ﷺ في إضاءة الطـريق لمن أراد الآخـرة بحق، ورغب في الجنـة والزحزحـة عن النار بصـدق ، يؤذن بعمـوم هديه ﷺ الـذي أنار السبيل وأوضـح المنهج ، والسعيـدُ السعيد مـن انتفع بهذا الهدي المبـارك وحظي بحسن العـاقبة ؛ فكـان بفضل الله ورحمته ، ممـن تزلف لهم الجنـة ، ويغمرهـم نور العطاء الإلهي فيها . وأين هـذا من عاقبة من يخالفون عن أمـر رسول الله الذي هو من أمر الله ، فيبوؤون بأخبث المنازل ، جهنم وبئس المهاد .

وإذا كان الشيء بالشيء يـذكر ، والهدي النبوي تتكامل فيه منـابع الضياء ؛ فإني مذكّر بما سبق أن أوردته من إخبار النبي ﷺ عن رجل ـ يطلع على القوم ـ أنه من أهـل الجنة ، وتبيّن أن ما عنده ـ بعد الإيمان ـ سـلامة صـدره لكل أحـد من المسلمين، وكونُه لا يقـول إلا خيراً . وكم في ذلك من عظيم توجيهـه عليه الصلاة والسلام إلى هذا الخلق الـذي هو من أعمال القلوب التي لا غنى ـ لسلامة عمل الجوارح وأن تكون مقبولة ـ عنها . وكم في ذلك أيضاً من إيضاح أن هذا السلوك النقي عن الشوائب شِعـب مبارك من شِعاب الخير ـ وما أكثرهـا في هدي النبوة ـ يرتبط بسبيل الجنة دار الخلود .

وإذا كان المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام ، قد أخبر

عن ذاك الرجل بأنه من أهل الجنة ، ورأى أحد الصحابة أن يتعرف على صنيعه الذي كان به من أهلها . فقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن رجالٍ آخرين ، لم يكن أمرهم بحاجة إلى التبيُّن والتعرف على صنيعهم المتميِّز الذي جعلهم ـ بفضل الله ـ من أهل دار الرضوان . ذلكم ما أخرج الترمذي بسنده في باب مناقب عمر ابن الخطاب رضي الله من السنن ـ جامع الترمذي ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يطّلع عليكم أو ـ يطلع عليكم ـ رجل من أهل الجنة ، فاطّلع أبو بكر ، ثم قال يطّلع عليكم رجل من أهل الجنة فاطّلع عمر » ورواه الحاكم في المسند في المستدرك مقتصراً على ذكر أبي بكر وصححه ووافقه الذهبي في كتابه «التلخيص» كما رواه أحمد في المسند من حديث جابر رضي الله عنه وفيه ذكر أبي بكر وعمر وعلي ، وكذا رواه الطبراني في الأوسط والبزار وهو حديث حسن .

ورواية أحمد فيها شيء من التفصيل . قال رحمه الله حدثنا إبراهيم بن أبي العباس قال : حدثنا أبو المليح قال : حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب عن جابر قال : «يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة، قال : فطلع عليهم أبو بكر رضوان الله عليه ، فهنأناه بما قال رسول الله ﷺ ، ثم لبث هنيهة ، ثم قال : يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة قال : فطلع عمر . قال : فهنأناه بما قال رسول الله ﷺ . قال : ثم قال : يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة اللهم إن شئت جعلته علياً ـ ثلاث مرات ـ فطلع علي رضي الله عنه» قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » إسناده حسن .

وإذا استذكرنا ما يلقى الناس يوم الفصل من الأهوال التي تزخر بها مشاهده وساعاته ، أمكننا أن نقدر إكرام الله بالجنة لمن جاءت الأحاديث النبوية على ذكرهم ـ وهو سبحانه الجواد الكريم ــ . وهذا لا يتنافى مع الثابت أيضاً من سعة الجود من ذي الجلال والإكرام للمؤمنين، على ساحة أكثر عدداً من أمته عليه الصلاة والسلام ؛ كالذي أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله

عنه أنـه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : « يدخل الجنـة من أمتي زمرةٌ ــ هم سبعون ألفـاً ـ تضيء وجـوههم إضـاءة القمر ليلة البـدر ، قال أبـو هريـرة : فقام عكّاشة بن محصن ـ أو عكاشة ـ الأسـدي فرفع نمرة عليه فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقـال : رسول الله ﷺ : « اللهم اجعله منهم » ثـم قام رجل مـن الأنصار ، فقـال : يارسـول الله ادع الله أن يجعلني منهـم فقال : « سبقـك بها عكاشـة ».

وبعد : فسبحان من قال في كتابه الكريم : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

# العشرة المبشرون بالجنة

من عيون الموكب العظيم يوم التناد، موكب الأبرار الذين أشرقت بهم أرض الإسلام في الدنيا، ويطلعون على الناس - وهم في طريقهم إلى جنة الخلد يوم الفصل الذي لا مرية فيه - أكثر إنارة وإشراقاً: أولئك العشرة المبشرون بالجنة من أصحاب المصطفى عليه الصلاة والسلام رضي الله عنهم وأرضاهم. فإنك تراهم بعد أن أخذت مشاهد الهول ما أخذت من الناس؛ صورة ناطقة عن كرم الله وفضله، والإعلان عن توفيتهم جزاءهم غير منقوص، بما صدقوا ما عاهدوا الله عليه في دار العمل، وما قدموا من عمل صالح، وحب لله ولرسوله. وجهاد في سبيل الله.

فليهنأ أولئك العاملون المخلصون هنا في هذه الدار، بما ينالهم في ذلك اليوم العظيم - يوم الفصل - من توفيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وانتظامهم - بفضل الله - في زمرة من تزلف لهم جنة الخلد التي ﴿ **لا يمسُّنا فيها نصَب ولا يمسُّنا فيها لغوب** ﴾ وسبحان من اختصَّ من شاء بما شاء.

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وسعدُ في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبوعبيدة بين الجراح في الجنة». أخرجه الترمذي في كتاب المناقب من جامعه «السنن». وسعدٌ: هو سعد بن أبي وقاص، أما سعيد: فهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل. وفي رواية أخرى للترمذي عن سعيد عن النبي ﷺ قال: «عشرة في الجنة».. وعدَّ سعيد التسعة وسكت عن العاشر. فقال القوم: ننشدك الله يا أبا الأعور من العاشر؟ قال: نشدتموني بالله: أبو الأعور في الجنة. قال أبو عيسى:

أبو الأعور هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. وسمعت محمد بن اسماعيل يقول: هذا الحديث أصح من الأول . وفي رواية أخرى : « ولو شئت لسميت العاشر فقالوا : من هو ؟ فسكت ، فقالوا : من هو ؟ قال : سعيد بن زيد ».

ولا نعدم في بعض الروايات ، إشارة إلى وثوق سعيد الشديد مما يقول ، وإلى شيء من فضلهم رضي الله عنهم، وما كان من ثباتهم على الحق ونصرة الدين؛ ففي حديث رواه أبو داود والترمذي يقول سعيد رضي الله عنه : «أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : ــ وإني لغنيٌّ أن أقول عليه ما لم يقل ، فيسألني عنه غداً إذا لقيته ـ أبوبكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وسعد بن مالك ـ هو سعد بن أبي وقاص ــ في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وأبوعبيدة بن الجراح في الجنة ،وسكت عن العاشر ، قالوا : من هو العاشر؟ فقال: سعيد بن زيد ـ يعني نفسه ـ ثم قال : والله لمشهدُ رجلٍ منهم مع رسول الله ﷺ يغبَرُّ فيه وجهه ، خيرٌ من عملِ أحدكم ولو عمِّر عُمُر نوح ». قال ابن الأثير في جامع الأصول : زاد رزين ، ثم قال : «لا جرم لما انقطعت أعمارهم أراد الله أن لا يقطع الأجر عنهم إلى يوم القيامة، والشقي من أبغضهم والسعيد من أحبهم». وما من ريب في أن حبّهم مفضٍ بصاحبه ـ مع العمل ـ إلى دخول الجنة التي بشروا بها عليهم الرحمة والرضوان . ومن أحبهم فبحب رسول الله ﷺ أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضه ـ والعياذ بالله ـ أبغضهم ، ولذلك رأينا الإنكار يشتد على من يبدو منه ـ ولو شيء من سوء الأدب معهم ــ ويا ويح أولئك الذين يعبثون بتاريخ الأمة ، وتتعمد قلوبهم ــ ببُغضِ أصحاب رسول الله ـ وجهة تباعدهم عن طريق الجنة وتسلك بهم طريق جهنم وبئس المصير .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن العلاء عن ابن إدريس ، أخبرنا حصين عن هلال بن يَساف ، عن عبدالله بن ظالم ، وسفيانُ عن منصور عن هلال بن يساف ، عن عبدالله بن ظالم المازني ، ذكر سفيان رجلاً فيما بينه وبين عبدالله المازني قال : سمعت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قال : « لما قدم فلان إلى الكوفة قام فلان

خطيباً ، فأخذ بِيَدي سعيدُ بن زيد فقال : ألا ترى إلى هذا الظالم ، فأشهد على التسعة إنهم في الجنة ولو شهدت على العاشر لم إيثم ـ قال ابن إدريس : والعرب تقول: إيثم وآثم ـ وقلت : ومن التسعة ؟ قال : قال رسول الله ﷺ وهو على حِراء : « اثبت حراء إنه ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد . قلت : ومن التسعة ؟ قال: رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، وقال: وعبدالرحمن بن عوف ، قلت: ومن العاشر ؟ فتلكأ هنيهة ثم قال: أنا».

هكذا تُزلف الجنة لأحباب الله البررة الذين آمنوا برسول الله ﷺ وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ـ وفي مقدمتهم العشرة المبشرون بالجنة ـ وكان المآل الذي ينشدون في الآخرة ، أغلى وأعز عندهم من كل ما في الدنيا من زخرف ومتاع. وكان ذلك ـ بحكمة الله ـ متسقاً تمام الاتساق بما اختارهم ـ سبحانه ـ له من حمل الأمانة في نقل ما أخذوا عن المصطفى سيد العالمين ـ الذي أحبوه أكثر مما أحبوا أموالهم وأولادهم وأنفسهم ـ من الدين: عقيدةً وشريعة وسلوكاً إلى الأمة. وكان أداؤهم لتلك الأمانة خير أداء ؛ فهم ـ كما اقتضت مشيئة الله وحكمته ـ أنقى الناس قلوباً ، وأصفاهم نفوساً ، والجيل الفريد الذي يجب أن يحظى من أجيال الأمة المتعاقبة ، بالحب والتقدير البالغين ، وأن يكون ذلك مدعاة لأخذ النفوس بالمنهج الوضاء الذي سلكوه ـ وهم يرتادون الطريق لمن بعدهم ـ فحازوا بذلك قصب السبق ، وحضّ عليه الصلاة والسلام على التأسي بهم ، وأخبر بما يكون لهم من المكرمات ، يوم لا يجد العبد إلا ما قدّم ، وما يفوزون به من رضوان الله في جنة الفردوس . « .. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ». من حديث العرباض بن سارية الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والدارمي وأحمد .

وليس بدعاً بعد هذا ـ وهم على نور من ربهم في الدنيا ، تغمرهم رحماته ، وينزل بهم فضله في دار القرار ـ أن يدعو رسول الله ﷺ الأمة، وهي أمة الشهادة

على الناس والمنوط بها بناء حضارة مباركة، يسعد معها الإنسان في الدنيا ويوم الدين .. أن يدعو صلوات الله وسلامه عليه إلى الأدب الجم معهم ، والموقف الإيماني الصادق منهم ، وينذر من خالفوا عن ذلك بطشة الله وعقابه . أخرج الترمذي بسنده عن عبدالرحمن بن زياد عن عبدالله بن مغفّل قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهَ الله في أصحابي ، اللهَ اللهَ في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي ؛ فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله . ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » ورواه أحمد . وفي رواية « من يأخذه الله فيوشك أن لا يفلته » .

اللهم لا تجعل في قلوبنا أثارة من سوء الأدب مع أحد من أصحاب نبيك عليه الصلاة والسلام ، واحشرنا يوم الحساب في زمرة الوقافين عند حدودك ، إنك ولي ذلك والقادر عليه .

## جنة الخلد.. وبيعة الرضوان

من مظاهر الترابط في المنهج النبوي بين الدنيا والآخرة ، ما جرت الإشارة إليه غير مرة ، من كشفه ﷺ ـ وهو يؤدي أمانـة البيان لكتاب الله تعالى ـ عن الارتباط الوثيق بين المسؤولية في الدنيا والجزاء يوم يعيد الله الخلق كما بدأهم ، وتقريره ـ وهو يقارع بأصحـابه الباطل في كل ميدان ــ ما يكون من البشارة بخصـوصية الفضل الإلهي في ذلك اليوم الـزاخر بالشدائد على أناس بـأعيانهم ، بزحزحتهـم عن النار وإدخالهم الجنـة ؛ بما عملوا مـن الصالحات ، وجـاهدوا في الله حـق جهاده ، وبما استقاموا على الطريقة وصبروا وصابروا حتى أتاهم اليقين .

أقول ذلك ـ وبين يديَّ العديد مـن الأمثلة على ذلك ؛ في هديه عليه الصلاة والسلام مضافـة إلى ما سبق ـ مـن أبرزها ما جاء في شـأن الصحابة الذيـن بايعوا تحت الشجرة ، قبيل صلـح الحديبية في السنة السادسة للهجـرة ، وجاء الثناء على بيعتهم وصنيعهم في الكتاب العزيز ، رضي الله عنهم وأرضاهم .

والبيعة المشار إليها ، هـي بيعة الرضوان التي أخذهـا النبي ﷺ على من كان معه من الصحـابة يومذاك ، بعـد أن أشيع أن عثمان رضي الله عنه قد قتـل ، وكان رسول الله قد أوفده إلى مكة ليُعلم زعماء قريش بمقصده ﷺ من التوجه إلى البيت العتيق في البلد الحرام . وكانت تلك البيعة ـ كما عند البخاري وغيره ـ على الموت . وفي بعض الـروايات ــ كما عند مسلـم ـ أنها كـانت على عـدم الفرار . وثبـت في الصحيحين أن المبايعين رضي الله عنهم كانوا بضع عشرة مائة .

وفي اصطحاب لما نحن بسبيلـه ، نذكر ما روى جابر رضي الله عنـه عن النبي ﷺ أنه قال : « ليدخلنّ الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر » أخرجه الترمذي وحسَّنه . وأنت ترى في حديث النبي ﷺ ما يشعر بالقسم على أن

الجنة هي المأوى يوم القيامة ، لأولئك الذين سُعدوا في ساعة من ساعات الشدة على المسلمين، في مواجهة الشرك وأهله ، فبايعوه عليه الصلاة والسلام على الموت في سبيل الله ، على أن لا يفروا من الموت ، فهم يصدقون في موطن اللقاء مع العدو، ولو كلفَهم ذلك أرواحهم، ولم لا ؟ وهذه صورة مشرقة من الوفاء بالبيع ، تضاف إلى حقيقة أن بين المؤمنين وبين الله جل شأنه مبايعة على القتال في سبيل الله ، وأن لهم بذلك الجنة ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن...** ﴾. وقوله ﷺ : « ليدخلنَّ » مشعر بالقسم ، لأن اللام موطئة للقسم، فكأنه ﷺ قال : « والله ليدخلنّ الجنة من بايع تحت الشجرة » ثم إن هذه النون في « ليدخلنّ » هي نون التوكيد الثقيلة ، فهي مؤكدة بعد القسم . وأعظم بها بشارة من إمام المجاهدين عليه الصلاة والسلام يقترن فيها التوكيد بالقسم .

وياخسارة صاحب الجمل الأحمر ، الذي شغله البحث عن جمله إلى الحد الذي جعله يعرض عن المبايعة حرصاً على أن يصيب ذلك الجمل الأحمر فلا يفقده ، لأن ذلك خير له ــ كما يزعم ـ وفي مثل هذه الأحوال فتش عن الإيمان !! قد يكون وجد طلبته التي حرص عليها ، ولكنه باء بالخسران المبين لجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت لعباد الله الصالحين المجاهدين . روى ابن أبي حاتم بسنده عن جابر رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : «يدخل من بايع تحت الشجرة كلُهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر ، إلا صاحب الجمل الأحمر » قال : فانطلقنا نبتدره ؛ فإذا رجل قد أضل بعيره ، فقلنا : تعال فبايع . فقال : أصيبُ بعيري أحبُّ إلي من أن أبايع .

هذا : وقد حملت إلينا بعض الروايات صورة أخرى للبشرى العظيمة، ألا وهي المغفرة ، وأن الرجل المومى إليه ، لم يستجب لمن دعوه إلى رسول الله ﷺ ليستغفر له الله ؛ والمآل واحد في الأمرين جميعاً ، فالمغفرة بريد الجنة ، وإعراض هذا الرجل المحروم عن المبايعة ، واستهانته بالمجيء إلى رسول الله ليستغفر له،

مردُّها إلى علة واحدة وهي مرض القلب ـ والعياذ بالله ـ قال الإمام مسلم : حدثنا عُبَيْد الله بـنُ معاذٍ العنبريُّ قال : حـدثنا أبي قال : حـدثنا قُـرَّة بن خالـد عن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من يصعدُ الثنية ثنيـة المُرار ، فإنه يُحَطُّ عنـه ما حُطّ عن بنـي إسرائيل » قال : فكـان أولَ من صعدها خيلُنـا خيلُ بني الخزرج . ثم تتامَّ الناس ، فقـال رسول الله ﷺ : « كلكم مغفور له إلا صاحبَ الجمل الأحمر » فأتيناه فقلنا له : تعالَ يستغفر لك رسول الله ﷺ ، فقال : والله لأن أجـدَ ضالتـي أحبُّ إلي مـن أن يستغفر صـاحبُكم . قـال : وكان رجلٌ ينشد ضالة له. وفي رواية أخرى : فإذا هو أعرابي جاء ينشد ضالة له . وفي رواية للإمام أحمد : « فاذا هو رجل ينشد ضالة ».

أما عن هذا الأعرابي صاحـب الجمل الأحمر : فقد أورد الحافظ في شأن اسمه ما روى الحافظ ابن عساكر أنه الجدُّ بن قيس المنافق . ورجح ذلك القاضي عياض ـ كما قال النووي ـ . ومما يؤيد ذلك ما روى أبوبكر الحميدي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قوله : « لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلاً منا يقال له : الجدُّ بـن قيس مختبئاً تحت إبط بعيره ». وقـال الحافظ ابن عبدالبر : قيـل : إنه تاب .

المرار : شجر مـر . وأصل الثنية ــ كما يقول العلماء ـ الطـريق بين جبلين ، و الثنية المذكورة هنـا في الحديث هي عند الحديبية . والمنقول عـن ابن إسحاق : أن ثنية المُرار ـ أو ــ المَرار بضم الميم وفتحها : مهبـط الحديبية ، الأمر الذي يـؤكد أن الواقعة هي واقعة بيعة الرضوان والله أعلم .

أما قوله ﷺ : « فـإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فهـو إشارة إلى قوله تعالى : في سورة البقرة : ﴿.. وقولوا حِطةٌ نغفرْ لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ إذ أُمروا أن يقولوا : حِطَّـة ، أي ربنا اغفر لنا وحُط عنا خطايانـا ، ولو صدقوا لحُطَّ عنهم ، ولكنهم غيّروا ، وبدّلوا ، ومكروا .

وهنيئاً لأولئك الغرّ الميامين الأماجد، ما ينتظرهم من حسن المآب وهم راضون مرضيّون، يتبوؤون من جنة الخلد غرفاً على سرر متقابلين. ﴿**يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾. لقد كان معنى مبايعتهم رسول الله على الموت، أنهم صادقون في شوقهم إلى الجنة التي تشتاق إلى أصحابها، وما أكرم هذا الاشتياق المتبادل! لقد أقبلوا على الفداء مستبشرين بالبيعة الكريمة التي كان لها ما كان من أثر في تاريخ الإسلام، ولم يترددوا في أن يقفوا الوقفة التي لا أصدق منها في التعبير عن محبتهم للرسول ﷺ، والاندفاع الرائع في نصرته.

ويبدو أن رسول الله لم يقتصر ـ وهو سيد الدعاة ـ فيما زف إليهم من البشرى العظيمة على صورة واحدة وكفى!!. فقد طالعتنا الروايات التي تقدمت بموعدة المبايعين بدخول الجنة، وبالمغفرة، وتطالعنا روايات أخر بنفي دخول النار عن كل من بايع يومذاك، ذلكم ما روى جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» أخرجه بهذا اللفظ أحمد وأبو داود والترمذي. وأخرج مسلم بسنده عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: أخبرتني أم مبشرٍ أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد. الذين بايعوا تحتها قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها. فقالت حفصة: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾. فقال النبي ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿**ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثياً**﴾».

وفي خاتمة المطاف: تجدر الإشارة إلى أن ما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن هؤلاء الذين تزدان بهم مواكب الخالدين في جنة الخلد يوم القيامة، هو لون من ألوان البيان الكريمة لما أشرقت به الكلمات الهاديات في الكتاب العزيز، ثناءً عليهم وبياناً خالداً لقيمة تلك البيعة، قال تعالى: ﴿**إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكثُ على نفسه ومن أوفى بما عاهد**

**عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾** وقال سبحانه : **﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾** .

فإذا كانوا ـ وهم يبايعون رسول الله ـ إنما يبايعون الله ، وإذا كان الله قد رضي عنهم بصنيعهم هذا ، فليس بدعاً أن تكون لهم تلك الكرامة المشهودة في اليوم المشهود يوم يقف الناس لرب العالمين ، وأن يكون صنيعهم الذي أشرق به تاريخ الدعوة المحمدية والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله .. معلماً من معالم التضحية والبذل على طريق الأمة التي تداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، وأمانة في الأعناق ، يسهم أداؤها في الانعتاق ـ بإذن الله ـ من الواقع الأليم الذي يغمر بظلامه المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الاستزادة من القراءة المتدبرة لما ورد في الأحاديث الصحيحة، من الجزاء الأوفى الذي يكرم الله به عباده الصالحين يوم القيامة، وما يفيض عليهم من إحسانه وينشر من رحمته... هذه الاستزادة المباركة، تنمي في حسّ المؤمن الرغبة الصادقة في الثبات على الطريق التي أشرقت نصوص الكتاب والسنة بالترغيب بسلوكها والترهيب من مجافاتها، بل يفترض أن تكون مُخالَطةُ ما ورد في شأن ذلك الإكرام الإلهي لأولي النُّهى المنيبين الخاشعين المجاهدين، بمثابة الحافز الحقيقي على الاستزادة من كل ما من شأنه أن يسلم صاحبه ـ برحمة الله ورضوانه ـ إلى أن يكون من الأبرار ورثة جنة النعيم، الذين يقال لهم يوم التغابن: ﴿ **ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود** ﴾.

ومما يزيد المؤمن يقيناً بحكمة الجبار المتكبر سبحانه وتعالى؛ ما يُرى من أن الإيذان بالفضل الإلهي، على أهل القرب وما يُفيض عليهم ـ سبحانه ـ من جزيل الإنعام ـ وتلك حقيقة لا ريب فيها ـ تصحبه النصوص الهادية إلى ما به تحصيل ذلك بإذن الله، تلك النصوص ـ وما أوفرها في الكتاب والسنة ـ التي تنادي المؤمنين: أن هذه طريق الجنة إن كنتم صادقين. أخرج الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على إثرهم كأشدِ كوكب إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرىء منهم زوجتان، كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن، يسبحون الله بكرة وعشياً ... » الحديث. وقال الإمام مسلم: حدثني عمر والناقد ويعقوب بن إبراهيم الدورقيُّ جميعاً عن ابن عُلَيَّةَ ( واللفظ ليعقوب ) قالا: حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّةَ قال: أخبرنا أيوبُ عن محمدٍ قال: «إما تفاخروا، وإما تذاكروا: الرجال في الجنة أكثر

أم النساء ؟ فقال أبـو هريرة : ألم يقل أبـو القاسم ﷺ : إن أول زمرة تـدخل الجنة على صورة القمر ليلـة البدر ، والتي تليها على أضوأ كـوكب دري في السماء ، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة عزَب»!! وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح « وفي رواية أخرى للبخاري » ... لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بُكرة وعشياً ».

ويانعمّا تفعل هذه النعماء في النفوس ، فيتجه المؤمنون إلى أن يكونوا من أبناء الآخرة ؛ أجـل يكونـون من أبنـاء الآخرة وهـم يعمرون الأرض ، ويبنـون الحضارة المتكاملة المتـوازنة على علم وهدى ؛ فإذا هـم يوم القيامة : والمثـوى مثوى الأبرار المتقين ، والمآب مآب أحباب الله المحسنين .

وإذا استنطقت الـواقع في ظل حـركة الحياة التـي لا تتوقف حتـى يأذن الله ، ألفيت انعكـاس الإيمان بما يكون لأهـل القرب عنـد الله يوم الـدين ؛ مـزيداً مـن الاستمساك الـواعي بكتـاب الله ؛ والعمل الدائب بسنـة المصطفى عليـه الصلاة والسلام في السراء والضراء ، وكـم لذلك من آثـار طيبة في حياة الفـرد والمجتمع ، وتنقية طريق الأمة من الشوائب ؛ لما أن أبناء الآخرة يزودونها بالكفايات المخلصة في كل مجال ؛ فهم مصـابيح الهدى والبناء القويـم ، مهما ادلهمـت الخُطوب واشتد الظلام ، وسبحان من لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

أخرج النسائي عن شُرحبيل بن السِّمط رضي الله عنه أنه قال لكعب بن مرة : يا كعب حدثنا عن رسول الله ﷺ واحـذر ، قال : سمعته يقول : «من شاب شيبة في سبيل الله كانـت له نوراً يومِ القيامـة ، فقال له : حدِثنا عـن النبي ﷺ واحذر ، قال : سمعتـه يقول : ارمـوا ، من بلغ العـدو بسهم رفعه الله بـه درجة ، فقـال ابن النحّام : يا رسول الله ، وما الدرجة ؟ قـال : أما إنها ليست بعتبة أمك ، ولكن بين الدرجتين مائة عام » وهو حديث صحيـح . وعن شرحبيل رضي الله عنه أيضاً أنه قال لعمرو بـن عَبَسَةَ : حدثني حـديثاً سمعتَه من رسـول الله ﷺ ، قال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « من شاب شيبة في الاسلام كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدوَ أو لم يبلغ ، كان له كعتق رقبة مؤمنة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار عضواً عضواً ». أخرجه النسائي ، وأخرج الترمذي ذكر الشيب وحده ، وأخرج أبو داود ذكر العتق وحده .

هكذا يربي سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه الأمة ،على أن يكون حسن العاقبة والفوز بما أعد الله لعباده المتقين ، قوة دافعة إلى صلاح العمل وانتظام السلوك ، في تواؤم كامل بين الأمرين جميعاً ، مهما اتسعت دائرة العمل في الدنيا وتنوعت ميادينه . أخرج ابن ماجة بسنده عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أتى أخاه المسلم عائداً ، مشى في خرافة الجنة حتى يجلس فإذا جلس غمرته الرحمة فإن كان غُدوةً صلى سبعون ألف ملك حتى يمسي ، وان كان مساءً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح » ورواه أبو داود موقوفاً على علي رضي الله عنه ولفظه « ما من رجل يعود مريضاً محسياً إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة ، ومن أتاه مصبحاً خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي ، وكان له خريف في الجنة » .

وقال أبو داود : وأسند هذا عن علي رضي الله عنه من غير وجه صحيح عن النبي ﷺ ولعله يعني رواية الترمذي عن ثوير بن أبي فاختة وهو ضعيف رمي بالرفض .

وقوله ﷺ « وكان له خريف في الجنة» الخريف : الثمر الذي يُخترف أي يجنى ويقطف ، فعيل بمعنى مفعول . فهو خريف أي مخروف .

وروى مسلم والترمذي عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «عائد المريض في مخرفة الجنة » .

والمخرفة ــ كما يقول ابن الأثير ـ سكة بين صفين من نخيل ، يجتني من ثمار

أيهما أراد . وفي رواية لمسلم « لم يزل في خُرفة الجنة ، قيل: يارسول الله وما خُرفة الجنة قال : جناها ».

وإذا كان الأمر كذلك : فالغبطة كل الغبطة لمن يعقلون عن الله ورسوله ، ويحدوهم الشوق إلى الجنة ، إلى المسارعة في الخيرات واجتناب المهلكات ، فيمضون في الحياة يعمرون الأرض ويبنون قوة الإسلام موجهين وجوههم للذي فطر السماوات والأرض ، مستمسكين بالحق الذي نزل به الكتاب لا يبارحون سبيل المتقين ، ولا ينقضون الميثاق مع رب العالمين .

وقد مر بنا ـ من قبل ـ ما يؤكد التواؤم المومى إليه بين العمل في الدنيا ، والمثوبة في الآخرة بشتى الميادين ، ويكشف عن واحدة من مناقب أبي بكر رضي الله عنه في نظرته الشاملة وسلوكه المتكامل . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة يا عبدالله هذا خير ؛ فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله ما على أحد يدعى من تلك الأبواب كلها ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر ». أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي والنسائي .

والله نسأل أن يمنَّ علينا بمغفرته ورحمته فيجعلنا ــ ونحن نمارس شؤون الحياة ـ من أبناء الآخرة ، الذين لا ينسون الله واليوم الآخر ، ويفوزون برضوان من الله أكبر يوم الوعيد .

## تفرحهم البشرى.. ويحبون لقاء الله

ما أعظم أن يحرص المؤمن على اجتناب المسالك التي تسلم إلى الغفلة، وتصل حبله بالغافلين، وأن يستذكر ـ على الدوام ـ ما للمؤمن الذي يعمل الصالحات، ويشغل نفسه بالإكثار من القربات، من منزلة رفيعة عند الله رب العالمين؛ فهذه جنات الفردوس التي تجري تحتها الأنهار، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، جعلها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلاً، فتراهم فيها على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين، لا يمسُّهم فيها نصب ولا يمسُّهم فيها لغوب. وهذه موائد الخير في الدنيا، مفتحة أبوابها، لأهل الاستقامة الذين أخلصوا لله دينهم، ووجهّوا لفاطر السماوات والأرض وجوههم؛ فكانوا المنيبين حقاً، والأوابين صدقاً، كيما تكون تلك الأبواب حين يدخلونها سبيلهم لدخول تلكم الجنات، والفوز بمتبوّأ واسع كريم، خالدين فيه أبداً، ﴿**نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار**﴾.

إن المؤمن إذا انتهج هذه الطريق المزدانة بنور الهدى والتوفيق، كان على الجادة المأمونة العواقب في الدنيا، ثم كان ـ بفضل الله ـ ممن ينشر عليهم الله رحمته في دار البقاء، وينيلهم رضوانه في خير مستقر وأحسن مقيل.

أقول هذا، وأمام ناظريَّ شذرات مما دلّ عليه الهدي النبوي من ملامح لبعض الأبواب الخيّرة التي تسلم صاحبها ــ إن وفى بالميثاق ــ إلى خير عقبى في نعيم لا يشوب صفاءه كدر، ولا يعكر وجوده انقطاع، ولله الحمد في الأولى وفي الآخرة، وهو ــ سبحانه ـ ذو الفضل العظيم. هذه بعض النصوص التي تزجي كريم البشرى للمؤمن ـ لا بسبب عمل عمله، ولكن بسبب فقد ولدٍ له وصبره على ذلك ـ بأن فلذة كبده هذا سوف يسبقه إلى باب الجنة، ويفتحه له بيده. فعن

معاوية بن قـرة رضي الله عنه «أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ ومعه ابن لـه ، فقال له عليه الصلاة والسـلام : أتحبه ؟ فقال : أحبك الله كما أحبـه ، فمات ـ أي الولد ـــ ففقده النبي ﷺ ـ يعني الأبَ ـــ فسأله عنه ، فقال : أما يسُرك أن لا تأتيَ بـاباً من أبواب الجنة ، إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك ؟»

سبحان الله !! ما هـذه الصورة الآسرة الندية بعطـاء ذي الجلال والإكرام ... إن هذا الأب لا يكون مـن أهل الجنة فحسب ، ولكن الله يتفضل عليـه بأن يكون ولده الذي فقده في الدنيا ـ وهو يحبه الحب الكبير ، حب الوالد لولده ، وهو حبٌّ من وضع الله وفطرته ، غنيٌّ عن التفسير والبيان ـ تفضل عليه جل شأنه بأن يكون ولده هذا ، هو الذي يسعى بين يديه ، فيسبقه إلى باب الجنة فيفتحه له .

وهذه رواية أخرى يقـول فيها معاوية بن قرة رضي الله عنـه : « كان النبي ﷺ إذا جلس ، يجلس إليه نفر من أصحابه ، فيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه ، فهلـك ـ أي الولد ـ فامتنع الرجـل أن يحضر الحلقة لذِكر ابنه ، ففقده النبي ﷺ ، فقـال : مالي لا أرى فلاناً ؟ قالوا : يـارسول الله بُنَيُّه الذي رأيته ، هلك ؛ فلقيه النبـي ﷺ ، فسأله عن بُنَيه ، فأخبره أنـه هلك ، فعزاه عليه ، ثم قال : يافلان ، أيما كان أحبَّ إليك ، أن تتمتع به عمرك ، أولا تأتيَ إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدتـه قد سبقك إليه يفتحه لك ؟ قال : يـانبي الله ، بل يسبقني إلى باب الجنـة يفتحها لي ، لهو أحـب إلي . قال : فذاك لـك » أخرجـه النسائي في سننه الصغرى « المجتبى » باب الأمر بالاحتساب والصبر على المصيبة ، وباب في التعزية من كتاب الجنائز . وإسناده صحيح .

ومما يؤكد هذه البشارة العظيمة التي تـزيد من رضى المؤمن بقضاء الله وقدره والصبر على المصاب ـــ مهما بلغت فداحتـه ـ واحتسـاب الأجر عند الله سبحـانه وتعالى ، مـا روى ابن عباس رضي الله عنهما أنـه سمع رسول الله ﷺ يقـول : « من كان لـه فَرَطان مـن أمتي دخل الجنـة بهما . قالـت عائشة : فمـن كان له فـرط من

أمتك؟ قال : ومن كان له فرط يا موفقة . قالت : فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال : أنا فرط أمتي لم يصابوا بمثلي » أخرجه الترمذي في الجنائز باب « ما جاء في ثواب من قدّم ولداً » وإسناده حسن .

الفَرط : السابق المقدم على القوم في طلب الماء والمنزل . وإذا مات للإنسان ولدٌ فهو فرَطٌ له .

ويانعم ما بشَّر به النبي ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ من دار الخلد التي لا يفنى نعيمها ولا يبيد ؛ إنها البشرى التي يفرح بها قلب المؤمن ، فيهشّ لها ويبشّ ، ويزداد يقيناً بأن ما عند الله خير وأبقى . وكم لذلك من أثر على السلوك في الثبات على الحق ، والصبر عند الصدمة الأولى ، والاستعلاء على ما يعرض للعاملين في خدمة الحق الذي نزل به الكتاب والدعوة إليه ، من صوارف الرغب والرهب ، ومعوقات المتاع الزائل ، وما يغترُّ به الغافلون .

والذين يقدُرون البشارة بالجنة حق قدرها ، تجدهم ـ قبل ذلك وبعده ـ يحبون لقاء الله ، فلا يرهبون الموت ، ولا يأسون على ما يفوتهم في العاجلة ، إلا أن يكون تقصيراً في طاعة ، أو تهاوناً في اغتنام الوقت للعمل المجدي يوم الحساب . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقلت : يا نبي الله أكراهية الموت ، فكلنا نكره الموت ، قال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله ، فأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا بُشِّر بعذاب الله وسخطه ، كره لقاء الله ، فكره الله لقاءه » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وفي رواية لمسلم قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، والموت قبل لقاء الله » .

وعن شريح بن هانىء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ». قال:

«فأتيت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين ، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ حديثاً ، إن كان كذلك فقد هلكنا . فقالت : إن الهالك من هلك بقول رسول الله ﷺ ، وما ذاك ؟ قلت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » وليس منا أحد إلا ويكره الموت ، فقالت رضي الله عنها : قد قاله رسول الله ﷺ ، وليس بالذي تذهب إليه ، ولكن إذا شخص البصر ، وحشرج الصدر ، واقشعرّ الجلد ، وتشنجت الأصابع ؛ فعند ذلك من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ....» الحديث.

رضي الله عن أم المؤمنين الصديقة فيما أبانت لشريح بن هانىء ، وفيما أفادت الأمة بهذه الإبانة ، وهل يستوي من بُشر برحمة الله وجنته التي يُزلفها ـ برحمته ـ لعباده الصالحين ، ومن بُشر بسخط الله وعذابه في نار تلظى ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى ﴾!! لا يستويان مثلاً . وأنَّى لمن أعرض عن ذكر الله وأسلم نفسه لطاعة الهوى والشيطان ، أن يكون كمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه العزيز الغفار !!

وهذه الجنة الموعودة المبشَّر بها ـ في كتاب الله ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ـ من يسعى للآخرة سعيها وهو مؤمن .. هذه النعمة العظمى ، والمنة الكبرى والجزاء الأوفى للموفقين المفلحين .. لا يحرمها إلا محروم ، تخذ المبشرات وراءه ظهرياً ، وراح يعمل بعمل أهل الجحيم .

أما المؤمن الذي أخلص لله دينه وعمله ، وصدق في طاعته ـ جلّ ذكره ـ والعبودية له ، والتذلل بخضوع بين يديه : فلا تزيده البشريات إلا دأباً على عمل الصالحات، والإقبال على الله في الإكثار من الطاعات ، وتجنب المخالفات، وكيف لا يكون من ذاق حلاوة الإيمان على هذه الحال من الصفاء والنقاء مع الله، والشوق إلى دار المتقين !وساحةُ البشارة : هذه الحال التي يغبط الغبطة كلها من رزقها وأكرم بها ، والمبشر بجنة المأوى : الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه

عليه بياناً لما جاءت به آي الكتاب الكريم !!.

ومن الخير أن نذكر ما أخرج الترمذي وغيره عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة جنتين : آنيتُهما وما فيهما من فضة . وجنتين : آنيتُهما وما فيهما من ذهب ، وما بين القوم ، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ولكم يحسن المسلمون صنعاً حين يخوضون معارك تحقيق الذات بالإسلام ، بأن يشتد حرصهم على بناء الفرد هذا البناء المتكامل ، الذي يضع الأمور مواضعها، فلا تشغل عمارة الأرض الإنسان ، عن أن يحب لقاء الله ؛ فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

رزقنا الله حسن الانتفاع بنور الهداية النبوية ، وأخذ بأيدينا إلى ما فيه النجاة عند أحكم الحاكمين ..

## إلى الجنة.. وأول من يقرع بابها

المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان وأصبح إيمانه بالمغيَّبات التي وردت أخبارها في القرآن وفي حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، يقيناً لا يكاد يفترق مطلقاً عما هو ثابت في عالم الشهادة ومنها ، ما جاء في شأن مشاهد القيامة وما ادخر الله لعباده المؤمنين إلى يوم الجزاء من المثوبة ، حيث يتفضل عليهم بإدخالهم المقام الأمين جنات تجري من تحتها الأنهار ، يغمرهم فيها الرضى ويسعدهم النظر إلى وجهه الكريم سبحانه ... هذا المؤمن ليس شيء أحبَ إلى نفسه من أن يكون يومَ الجزاء المثقل بالمخاوف والأهوال ، من أولئك الذين سبقت لهم من الله الحُسنى، وأسعدهم أن تشرق عليهم نفحات الجنة في صحبة من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً ﴾؛ فإذا ذكر المؤمن ذلك ، وذكر معه أن محمداً ﷺ أول من يقرع باب الجنة ، ازداد يقينه بما هو كائن ، وتضاعفت محبتُه لقاءَ الله، كيما يكون من أهل الرضا في دار الكرامة والنعيم .

أخرج الترمذي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه ، قال : فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فيُسمَعُ حديثهم ، فقال بعضهم : عجباً إن لله من خلقه خليلاً : اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر : ما ذاك بأعجب من كليمه موسى ، كلّمه تكليماً ، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم، فسلّم فقال: سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك. ألا و أنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفَّع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر . وأنا أول من يحرك حَلْقة الجنة فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولافخر » وأخرجه

الدارمي في السنن. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف لا يزداد شوق المؤمن إلى الجنة، وحرصه على سلوك طريقها، وكيف لا يفرح الفرح العظيم، بفضل الله ورحمته حين يُكرَم بهذه الكرامة، ونبيه وشفيعه محمد عليه الصلاة والسلام أول الناس يشفع في الجنة، وأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة، ويحرك حلْقتها، فيدخلها ومعه فقراء المؤمنين، وهو أكرم خلق الله على الله، إلى غير ذلك مما أعطي من خصائص تشهدها الخلائق هناك !! اللهم إنها الفرحة المرضيّة المطلوبة في القرآن ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ قال الإمام مسلم: حدثنا قتيبة بن سعيد وإسحاق بن إبراهيم. قال قتيبة: حدثنا جرير عن المختار بن فُلفُل عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً » وأخرج بسنده عن أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة ». وما قولك في حوار يقوم على باب الجنة بين أكرم الأولين والآخرين أول من يحرك حلقة الجنة صلوات الله وسلامه عليه. وبين الملك الموكّل بفتحها؛ إذ يستفتح نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، فيفصح الملك عليه السلام عن أنه مأمور أن لا يفتح لأحد قبله؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ».

ألا ما أجدر أهل الإيمان في هذا العصر الذي طغت فيه المادة ومعاييرها على كثير من الناس، أن يكون لهم من هذه البشريات العظيمة التي يكونون من أهلها إذا ثبتوا للزعازع وظلوا على العهد، قائمين بالسنة علماً بها وعملاً بهديها وحفاظاً عليها، لما أنها بيان الكتاب والطريق إلى فهمه وتدبره، ولأن طاعة الرسول من طاعة الله .. أجل ما أجدرهم أن يكون لهم من هذه البشريات، حافز على العمل الصالح أيُّ حافز، وباعث على استئناف مسيرة الخير أي باعث !! إنهم إن فعلوا ذلك، فاقتحموا العقبات والمكاره، وتجاوزوا الرغبة في العافية إلى تحقيق الوجود

الإسلامي ، عادلهم التمكين في الأرض ، وغمرتهم نفحات الرحيم الرحمن يوم الدين. وهنالك تزلف لهم الجنة ، ويدخلونها آمنين ، بعد أن يكون رسولهم وحبيبهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أول من قرع بابها وحرّك حلقتها ، مستفتحاً للدخول .

ولقد وردت بعض النصوص التي تدل على أن ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من خصوصية أوليته المومى إليها تكرمةً له ولأمته.. كائن يوم الشفاعة العظمى ، وما يعطاه صلوات الله وسلامه عليه من المقام المحمود. من ذلك ما جاء عند الإمام أحمد في المسند من حديث تلك الشفاعة العامة، التي تكون ليأذن جبار السماوات والأرض ـ سبحانه ـ بفصل القضاء بين الناس في ذلك اليوم الموعود ، ما روى ابن عباس رضي الله عنهما « .. فإذا أراد الله أن يصدع بين خلقه، نادى منادٍ : أين أحمد وأمته ، فنحن الآخرون الأولون ، فنحن آخر الأمم وأول من يحاسب ، فتَفرُجُ لنا الأمم من طريقنا ، فنمضي غراً محجلين من أثر الطهور وتقول الأمم : كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلُها ، قال : ثم آتي باب الجنة فآخذُ بحلْقة باب الجنة ، فأقرع الباب ، فيقال : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيفتح لي فأرى ربي عز وجل وهو على كرسيه ـ أو سريره ـ فأخر له ساجداً وأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي ولا يحمده بها أحد بعدي ، فيقال : ارفع رأسك ، وقل تُسمَعْ وسل تعطه ، واشفع تشفّعْ ، قال فأرفع رأسي ، فأقول : رب أمتيِ أمتيِ، فيقال لي : أخرج من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا . فأخرجهم. ثم أعود فأخر ساجداً بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي ، ولا يحمده بها أحد بعدي ، فيقال لي : ارفع رأسك ، وقل يُسمَع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول : أي رب أمتي أمتي ، فيقال : أخرج من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا ، فأخرجتهم قال : وقال في الثالثة مثل هذا »

وإذا كان الأمر كذلك ، فما على المؤمن إلا أن يقدُرَ ما أعطي نبيه ـ وهو سيد الأنبياء والمرسلين ـ من هذه المكرمات يوم الحساب قدره ، ويوظف الإيمان به على

طريق الصلاح والإصلاح والجهاد في سبيل الله كيما يكتبه الله ـ برحمة الله وإحسانه ـ مع الذين تشملهم كرامة الصحبة في جنة النعيم ؛ فقد أعطى ﷺ كل ذي حق حقه ، ولم يخص المجدّين في طلب الجنة شيئاً ، رجالاً كانوا أو نساءً ، وبشر المستقيمين على صالح العمل وإخلاص الدين لله بأكرم البشريات . ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب « حادي الأرواح » ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا أول من يفتح باب الجنة ، إلا أن امرأة تبادرني فأقول لها : ما لك ومن أنت ؟ فتقول : أنا امرأة قعدت على يتامى » وقد سبقت الإشارة إليه .

إنه لمشهد أخاذ من مشاهد يوم الفصل مشهد تلك المرأة المؤمنة التي تغبط على أنها آثرت رعاية اليتامى على حظ نفسها ، فكانت لها هذه المنزلة العظيمة التي تمثلت في حديث رسول الله إليها ، بعد أن بادرته على باب الجنة وسبحان الرحمن الرحيم ..

الـذيـن يبرهنون على صـدق إيمانهم بحسـن اتبـاع المصطفى عليـه الصـلاة والسلام، والتأسي به حقَّ التـأسي ، ينالون ـ مع التوفيق في الدنيـا ـ حظ أن يكونوا من ورثة جنة النعيم يوم القيامة ، ويشهدون من إكرام الله له عليه الصلاة والسلام بما أعطاه مـن الخصائص مـا يشهدون ؛ ومن تلـك الخصائص : أنـه صلوات الله وسلامه عليه أول من يفتـح له باب الجنة ـ كما دلت أحاديث سلفـت ـ بل هنالك بعض الروايـات التي جاءت بلفظ « ومفاتيـح الجنة يومئذ بيـدي » روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتـوا ، وقائدهم إذا وفدوا ، وشـافعهم إذا حُبسوا وأنـا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمـد بيدي ، ومفاتيح الجنة يـومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولـد آدم يومئذ على ربي ولا فخر ، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم اللؤلؤء المكنون » أخرجه الترمذي والبيهقي واللفظ له . ورواه بلفظ « والمفاتيح يومئذ بيدي ».

ومما ينبغي أن ينبه الغافل ، ويزيد مـن حرص العامل المجدِّ في طاعة الله ، أن رُوَاء هذه المنقبـة التي يكرم الله بها حبيبه المصطفـى عليه الصلاة والسـلام ، يمتدُّ حتى يصل إلى الأمة ، فالسبـق وأولية دخول الجنة يوم القيامة للأمـة المحمدية مع نبيها عليه الصلاة والسلام .

أخرج البخـاري في « باب مـاذكر عـن بني اسرائيـل » من كتـاب أحاديـث الأنبياء في الجامع الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بَيْدَ كل أمة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيـه ، فغداً لليهود وبعد غد للنصارى » والمقصـود باليوم : يوم الجمعة. وتحت «باب هدايـة هذه الأمة ليوم الجمعة» أخرج مسلـم بسنده عن أبي

هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا ، هدانا الله له . فالناس لنا فيها تبع . اليهود غداً والنصارى بعد غد » وأخرجه النسائي من رواية حذيفة رضي الله عنه بلفظ «وكذلك هم لنا تَبَعٌ يوم القيامة ، ونحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق ».

بيد أن : غير أن ، سوى أن ، إلا أن ، أو من أجل .

ثم إن أولية دخول الجنة تقترن بأولية السبق يوم القيامة مضافاً ذلك إلى فضيلة يوم الجمعة ، وهدايةِ الأمة المحمدية ، نجد ذلك فيما روى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فاختلفوا ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، هدانا الله له( قال يوم الجمعة ) فاليوم لنا ، وغداً لليهود وبعد غد للنصارى » وأخرجه أحمد في المسند .

قال الإمام السيوطي في شرحه للحديث : « الآخرون السابقون : أي الآخرون زماناً الأولون منزلة . والمراد أن هذه الأمة و إن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية ، فهي سابقة إياهم في الآخرة ، بأنهم أول من يحشر ، وأول من يحاسب وأول من يقضى بينهم ، وأول من يدخل الجنة» . وفي حديث حذيفة ـ كما رأينا ـ «نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق ».

هذا : ولمزيد من البيان ، وحرصاً على تذكر الارتباط بين ما خُصّ به نبينا عليه الصلاة والسلام، وبين ما خصت به الأمة بفضل أنها أمته ؛ لعل من الخير أن نورد قدراً آخر مما ورد في شأن ما خصّ به عليه الصلاة والسلام من كونه أولَ من يقرع باب الجنة ويحرك حلْقته ، وأنه أول من يدخلها يوم القيامة ؛ فقد روى أحمد

والترمذي والدارمي ـ واللفظ له ـ عن زيد بن علي بن جُدعان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها ، قال أنس: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحركها، وصف لنا سفيان كذا ـ وسفيان هو ابن عيينة ـ وجمع أبو عبدالله أصابعه وحركها .. الحديث » .

أقعقعها : أحركها . والقعقعة : تحريك الشيء اليابس الصُلب مع صوت .

ثم إن هذا كله يوحي ، بأنه ليس من نافلة القول ، بل هو باب التناصح ، تأكيد ما يجب من محبة النبي ﷺ ، محبةً تبلغ أن يكون عليه الصلاة والسلام أحبّ إلى المسلم حتى من نفسه التي بين جنبيه ، وأن برهان الصدق في ذلك أن تُتْبَعَ هذه المحبة بالطاعة وحسن الاتباع ، إنفاذاً صحيحاً للأوامر ، واجتناباً ـ مثله ـ للنواهي ، ورضىً بحكمه ﷺ في كل صغيرة وكبيرة ، دونما حرج في الصدر ، أو جنوح عن السبيل التي حدّد معالمها عليه الصلاة والسلام .

إن المسلم حين يلتزم بهذا المنهج ، يضع قدمه ـ برسوخ ـ على الطريق الموصلة بفضل الله ، إلى دار المقامة حيث يكون النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو الأسوة الحسنة المباركة ـ أول داخليها بل أوّل من يأخذ بحلقة باب الجنة فيقعقعها .

وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر ، وأعطى لواء الحمد ولا فخر ، وأنا سيّد الناس يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وآتي باب الجنة فآخذ بحلقتها ، فيقولون : من هذا ؟ فأقول : أنا محمد ، فيفتحون لي فأدخل ، فأجد الجبار مستقبلي فأسجد له ، فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يُسْمَع منك ، وقل يقبلْ منك ، واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول : أمتي أمتي يارب ، فيقول : اذهب إلى أمتك ، فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من الإيمان فأدخله الجنة ، فأذهب ، فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلتُهم الجنة ، فأجد الجبار مستقبلي فأسجد له ، فيقول : ارفع رأسك

يـا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول: أمتيِ أمتي يارب ، فيقول : اذهب فمن وجـدتَ في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأدخله الجنة ، فـأذهبُ فمن وجدت في قلبه مثقال ذلـك أدخلتُهم الجنة ، وفرغ من حساب الناس ، وأدخل من بقي من أمتي في النار مع أهل النار ، فيقول أهل النار : مـا أغنى عنكم أنكم كنتـم تعبدون الله ولا تشركون به شيئـاً !! فيقول الجبار : فبعزتي لأعتقنهم من النار فيرسل إليهم فيخرجون من النار وقد امتحشوا ـ أو امتُحِشوا ـــ فيدخلون في نهر الحياة ، فينبتـون فيه كما تنبت الحِبة في غثـاء السيل ويكتب بين أعينهم : هؤلاء عتقاء الله ، فيذهب بهم ، فيدخلون الجنة ، فيقول لهم أهل الجنة : هـؤلاء الجهنميون ، فيقول الجبار : بل هـؤلاء عتقاء الجبار » رواه أحمد والترمذي والنسائي والدارمي ، وهذا لفظ الدارمي .

ومعنى امتَحشوا : احترقوا . وامتُحشوا بالمبني للمجهول : أحرقتهم النار .

ولنا عـودة إلى الكلام على هؤلاء العتقـاء ومشـهدهم المؤثر المعبر مـن خلال النصوص الواردة في شـأنهم إن شـاء الله ..

إنه لمشهد بالغ الدلالة ، متنوع العطاء ، عميق التأثير ، يزيد من عظمته وروعته أنه واقع في يوم الحشر المثقل بالشدائد المفعم بترقب المصير ، وإنه لمشهد تتجلى فيه رحمة الخالق تبارك وتعالى وما خصّ به نبينا محمداً ﷺ من الخصائص الرفيعة يومذاك . ومن وراء ذلك ، ما خصّ به سبحانه الأمة المحمدية ، ذلكم ما يُرى على رؤوس الأشهاد من أنه عليه الصلاة والسلام أول الناس قرعاً لباب الجنة ودخولاً إليها ، وأن أمته أسبق الأمم إلى أعلى مكان في الموقف ، وإلى الفصل والقضاء ، وإلى دخول الجنة أيضاً . بل هنالك بعض الروايات التي تدل ـ كما سنرى ـ على أن الجنة محرمة على الأنبياء عليهم السلام ، حتى يدخلها هو ﷺ . والحديث موصول بما ورد حول ذلك من نصوص السنة النبوية المطهّرة التي رأينا بعضاً منها في الماضي القريب . روى الدارقطني من حديث زهير بن محمد عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيَّب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلَها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي » قال الدارقطني : غريب عن الزهري ولا أعلم روي عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الزهري غير هذا الحديث ، ولا رواه إلا عمر بن أبي سلمة عن زهير .

وقد مرّ بنا من قبل ما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ». قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف ، وأسبقهم إلى ظل العرش وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم ، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط ، وأسبقهم إلى دخول الجنة ، فالجنة محرمة على الأنبياء حتى

يدخلها محمد ﷺ ، ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته ).

أرأيت إلى هذه المنقبة العظيمة التي تغمر بضيائها ورفعتها أمة محمد ﷺ !! ناهيك عن تفرد سيد العالمين وخاتم المرسلين بذلك العطاء الرباني الكريم !! غير أن الذي ينبغي أن يكون في الحسبان أبداً ـ يصحب المسلم في سلوكه وموقفه من الإسلام على ظهر هذا الكوكب في دار الفناء ـ.. وجوبُ العمل الذي فيه مرضاة الله ورسوله ، والاستمساك بكل ما هو من صفات المتقين الذين يدخلهم الله دار كرامته ، ويفيض عليهم رضوانه ، لما أنهم كانوا أهلاً للفضل في انتسابهم إلى الأمة المحمدية ، ودعوى أنهم من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، وليس بدعاً أن يكونوا ـ بفضل الله ورحمته ـ أول الأمم دخولاً الجنة ، كما أن رسولهم الذي آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولُ الخلق دخولاً لها .

والذي ما بدٌّ من الإشارة إليه ، أن المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لم يدع أن يبين من هو أول الأمة دخولاً !! ذلكم قول أبي داود في سننه : حدثنا هنّاد بن السَّرِي عن عبدالرحمن بن محمد المحاربي عن عبد السلام بن حرب عن أبي خالد الدالاني عن أبي خالد مولى آل جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي، فقال أبوبكر : يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » قال المنذري : فيه أبو خالد الدالاني ـ واسمه يزيد بن عبدالرحمن ـ وثقه أبو حاتم الرازي وقال ابن معين : لا بأس به .

وقد فهم ابن القيم من قول أبي بكر « وددت أني كنت معك » أن ذلك كان حرصاً منه رضي الله عنه على زيادة اليقين ،وأن يصير الخبر عياناً ، كما قال إبراهيم الخليل ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال : أولم تؤمن ؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ثم قال رحمه الله : وأما الحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه: حدثنا

إسماعيل بن عمر الطلميُّ قال : أنبأنا داود بن عطاء المدينيُّ عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب الزهري عن ابن المسيَّب عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يصافحه الحق عمر ، وأول من يسلم عليه ، وأول من يأخذ بيده فيدخله الجنة » فهو حديث منكر جداً ، قال الإمام أحمد : داود بن عطاء ليس بشيء وقال البخاري : منكر الحديث .

وقد يتساءل البعض عن السابقين من هذه الأمة ـ عموماً ـ إلى الجنة وصفتهم، والجواب عن ذلك أن أحاديث كثيرة كشفت عن صفاتهم وما كانوا عليه في دار العمل ؛ الأمر الذي يُشعر دونما لبس بالارتباط الوثيق بين ما كان عليه المسلم في الدنيا ، وما يؤول إليه أمره في الآخرة ، تذكيراً للأمة بمدى العلاقة ـ كما أشرت غير مرة ـ بين التكليف وتحمل التبعة في الدنيا دار العمل ، وبين الجزاء في الآجلة دار الجزاء . وقد مرّ بنا بعض الأحاديث المومى إليها في مناسبة أخرى. وأخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عرض علي أول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ؛ فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشهيد ، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه ، وفقير متعفف ذو عيال ، وأول ثلاثة يدخلون النار : فأمير مسلَّط ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله من ماله ، وفقير فخور ».

وهذه زمرة أخرى ، نجدها فيما روى شعبة بن قيس عن حبيب عن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء » وأخرج الإمام أحمد في المسند والطبراني ـ واللفظ له ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : تقول الملائكة : ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك، لاتدخلْهم الجنة قبلنا ، فيقول : عبادي لا يشركون بي شيئاً ، تتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته في

صدره لم يستطع لها قضاءً ، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾.

هذا : وكان للعلماء في الجمع بين هذه الأحاديث وبين قوله تعالى : ﴿والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم﴾ أقوالٌ : أرجحها أن السابقين في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات ، وأن السابقين إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان فلفظ « السابقون » الأول غير لفظ « السابقون » الثاني . وسبحان من يتفضل على عباده بالهداية إلى الصراط المستقيم، بما يعطي من الفطرة وأهلية التكليف ، ثم يرحمهم ـ إن هم سبقوا إلى الإيمان ، وسارعوا الى التقرب بالخيرات وعمل الصالحات ـ بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وذلك الفوز العظيم .

ولنا عودة إلى هذه القضية قضية السبق إلى دخول الجنة ، كيما نقف على ما سلكه العلماء في الجمع بين ما تقدم من النصوص ، وبين ما ورد في أبواب الفضائل من التصريح بسبق بعض الصحابة إلى الجنة ، ومن ذلك ما جاء في الصحيح « أن رسول الله ﷺ سأل بلالاً رضي الله عنه : بم سبقتني إلى الجنة ، فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي » رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم وجزاهم بما عملوا وبما صبروا وجاهدوا خير الجزاء ونسأله تعالى ـ وهو الرحيم الرحمن ـ أن يكتبنا في زمرة من تغشاهم رحمته يوم تُزلف الجنة للمتقين غير بعيد ، وأن يوفقنا لعمل الصالحات ، والمسارعة إلى الخيرات ، إنه البر الجواد الكريم لا رب غيره ولا خير إلا خيره ..

الإكرام الإلهي للأمة المحمدية يوم الفزع الأكبر بجنات تجري من تحتها الأنهار أُكُلُها دائم وظلُّها ، لمن استقاموا على الطريقة وسلكوا سبيل المتقين .. هذا الإكرام الإلهي يذكّر دائماً بما يسَّر ربنا تبارك وتعالى من سبل الخير في الدنيا ، وما فتح لعباده المؤمنين من أبواب الهداية إلى الطريق التي تسلمهم - إن سلكوها بالعمل الصالح والجهاد في سبيل الله وإخلاص الدين لله - إلى تلكم الكرامة الربانية دار النعيم . والمهم أن يكون المؤمن على التزام بمنهج أهل الصدق ، لا يحيد عن الجادة ، ولا ينسى مولاه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، سواء في ذلك السر ، والعلانية . إنه إن فعل ذلك ، ألفى أنه أمام الكثير الكثير من موائد الفضل التي ليس لارتياد المؤمن لأي منها جزاءٌ إلا الجنة ، فما بالك إذا علت الهمة وصدقت العزيمة ، واستعلى المؤمن بإيمانه على المعوقات والصوارف !!

أرأيت إلى ما ورد في شأن السورة التي تشرق بالتوحيد الخالص وعدد من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى « سورة الإخلاص » وكيف وثّق النبي ﷺ بين تلاوتها من قبل رجل من الصحابة ، وبين وجوب الجنة !! أخرج الإمام مالك في الموطأ عن عبيدالله بن عبدالرحمن عن عُبيد بن حُنَيْن مولى آل زيد بن الخطاب أنه قال : سمعت أبا هريرة يقول : «أقبلت مع رسول الله ﷺ ، فسمع رجلاً يقرأ « قل هو الله أحد » فقال رسول الله ﷺ : « وجبت » فسألته : ماذا يا رسول الله ؟ فقال : «الجنة» فقال أبو هريرة : فأردت أن أذهب إليه فأبشره ، ثم فرقت أن يفوتني الغداء مع رسول الله ﷺ ، فآثرت الغداء مع رسول الله ﷺ ، ثم ذهبت إلى الرجل فوجدته قد ذهب ». وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة مختصراً بلفظ : « أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد الله الصمد ، فقال رسول الله ﷺ : «وجبت » قلت : وما وجبت ؟ قال : « الجنة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن

غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن أنس . ومن رواية أبي هريرة أخرجه النسائي أيضاً بذكر السورة كلها إذ جاء فيها : « فسمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾. فقال رسول الله ﷺ : وجبت ، فسألته : ماذا يا رسول الله؟ قال : الجنة ».

وتطالعنا بعض الروايات بأخذ ورد بين رجل من الأنصار ، وبين من كان يؤمهم في مسجد قباء ، فيقرأ بسورة الإخلاص ـ لأنه يحبها وبسورة أخرى معها ـ وبإخبار هؤلاء رسول الله ﷺ بصنيع ذلك الرجل ، فيبشره النبي ﷺ بأن حبه للسورة أدخله الجنة . وأنعم بها بشارةً يظفر صاحبها بأن يكون في زمرة من تغشاهم رحمة الله يوم القيامة ويغمرهم فضله ، ويبدل سيئاتهم حسنات ، فتفتح لهم أبواب الجنة ويقول لهم خزنتها : ﴿سلام عليكم طِبْتُم فادخلوها خالدين ﴾. روى الترمذي بسنده عن ثابت البُناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : «كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة فقرأ بها ، افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرُغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تُجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى قال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بها فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرونه أفضلَهم ، وكرهوا أن يؤمَهم غيرُه . فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : يافلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك ؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة ؟ فقال : يارسول الله إني أحبها ، فقال رسول الله ﷺ: « إن حُبها أدخلك الجنة» قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه من حديث عبيد الله بن عمر عن ثابت .

ورواه النسائي بأخصر من هذا ، عن عائشة رضي الله عنها بإسناد صحيح. قال الترمذي : وروى مبارك بن فَضالة عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال : يارسول الله إني أحب هذه السورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾. فقال : « إن حبك إياها يدخلك

الجنة» .

ومما ينفع المؤمن غاية النفع في الآخرة ـ والله أعلم ـ أن يكون في هذه الدار سليم التصور ليوم الحشر يوم القيامة بما فيه حتى كأنه رأي عين . ولقد دلّ النبي ﷺ الأمة على ما به يكون لها ذلك ، الأمر الذي يبعث على التزوّد المطلوب ليوم الفصل ، اليوم الذي لا يسأل فيه حميم حميماً ، وترى الناس من شدة الهول، ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿**إذا الشمس كورت**﴾ و ﴿**إذا السماء انفطرت**﴾ و ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ أخرجه الترمذي ، وأحمد في المسند ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي في « التلخيص » .

ولكم يحسن المؤمن صنعاً إذا أخذ نفسه بسلوك المحسنين ، الذي هو سمة أهل الآخرة مبرهناً على صدق الانتساب إلى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأن هذه الحقيقة التي معها دليلها ، ترتفع به إلى حيث يناله ما بشر الله به النبي عليه الصلاة والسلام من أنه سيرضيه في أمته ولا يسوؤه يوم الدين ، وذلك ـ والله أعلم ـ بالزحزحة عن النار ودخول الجنة ، وما يتبع ذلك من الفضل الذي لا يُحَدّ . أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى بسنده في كتاب الإيمان من الصحيح «باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم» عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال : «تلا رسول الله ﷺ قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام : ﴿**رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم**﴾ وقول عيسى عليه السلام: ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك ».

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى وهو يذكر فوائد هذا الحديث : (ومنها البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله شرفاً بما وعدها الله تعالى بقوله : **سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك** . وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها ، إلى أن قال : وهذا الحديث موافق لقول الله عز وجل : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾) .

اللهم وفقنا لصدق الانتساب لهذه الأمة المحمدية كيما نفوز بما بُشر به النبي عليه الصلاة والسلام فيها يوم تحشر الخلائق إلى رب العالمين ..

مشاهد القيامة الناطقة بآثار رحمة الله في تكليف عباده بشريعته ، وجعلِ ذلك طريقاً مسلوكة لمن يأخذ نفسه بالتزام معالمها إلى جنة المأوى؛ نزلِ من يؤمنون ويعملون الصالحات .. هذه المشاهد تحمل على العودة إلى اصطحاب الحقيقة التي سبقت الإشارة إليها ــ فيما سبق ـ من أن الإكرام الإلهي للأمة المحمدية في الآخرة ، مصحوب بما يسَّر الله لهذه الأمة في الحياة الدنيا ـ وهي ميدان العمل والسباق إلى مكارم الخير ــ من شعب الإيمان والعمل الصالح ـ بأوسع مدلول ـ وما فتح لها من أبواب القُرَب والحسنات التي تعز على الحصر .

ولما كان الأمر كذلك ـ وهذه الحقيقة واقع لا ريب فيه ـ فما على المؤمن الذي عقل عن الله ما أراد ، إلا أن يحمل نفسه على الجادة ، فيغتنم الفرص المتاحة بإخلاص وصدق عزيمة ، لايفتر عن فريضة ، ولا يتقاصر عن نافلة . وفي حديث رسول الله ﷺ ما يقطع العذر ، ويوحي بضرورة أخذ الحقائق على هذه الساحة مأخذ الجد الذي يرتفع عن سفاسف الأمور ، والانحدار إلى مستوى الساهين اللاهين .

أخرج الإمام النسائي بسنده عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال: « والذي نفسي بيده ــ ثلاث مرات ــ ثم أكبَّ ، فأكبَّ كل رجل منا يبكي ، لا يدري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشرى ؛ فكانت أحبَّ إلينا من حُمْر النَّعَم . قال : ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة ، وقيل له : ادخل بسلام » وهو حديث حسن .

ولاريب في أن من ذاق حلاوة الطاعة ، وامتلأ قلبه بخشية الله واليوم الآخر،

لا يكاد يبارحه ذكر القيامة ، وصادق الرغبة في أن يكون من هؤلاء الذين تشملهم بشرى النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن بكى خشية لله وخوفاً على أمته ـ والله أعلم ـ أن يكون في عدادهم ، تفتح له أبواب الجنة التي تشتاق أهلها ـ كما جاء في الحديث ـ وهو في زمرة إخوانه المؤمنين يملأ أسماعهم قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ .

وبعد : فلا بد من أخذ الهدي النبوي في هذا مأخذ القوة ، والدأب على الطاعات ، واجتناب المعاصي والمخالفات ، والاستنارة في الشؤون كلها بنور التقوى وسبيل المتقين .

وتتسع دائرة العطاء ، فنجد آفاقاً رحبة يشرق بها الهدي المحمدي ، تأخذ بيد المؤمن ـ إن زكى نفسه وشغل عمره بصالح العمل ـ إلى مرابع الخلود في مستقر رحمة رب العالمين . من أمثلة ذلك ما روى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة كلهم ضامن ـ أي مضمون ـ على الله : رجل خرج غازياً في سبيل الله ، فهو ضامن على الله عز وجل ، حتى يتوفاه الله فيدخله الجنة ، أو يردَّه بما نال من أجر أو غنيمة ؛ ورجل راح إلى المسجد ، فهو ضامن على الله عز وجل ، حتى يتوفاه الله فيدخله الجنة ؛ ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله عز وجل » أخرجه أبوداود وإسناده صحيح .

معنى : «ضامن على الله» أي مضمون على الله ؛ إذ « فاعل » هنا بمعنى «مفعول » كما في قوله تعالى : ﴿ **في عيشة راضية** ﴾ أي مرضية .

وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، وقيل : قدم رسول الله ﷺ ، فجئت في الناس لأنظر إليه ، فلما استثبتُّ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، وكان أولَ شيء تكلم به أن قال : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح .

وفي رواية له عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام» قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

بل إنك تقع على بعض النصوص ، التي تجعل لوناً من ألوان الفضل الرباني في الجنة جزاء لأنواع من العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن في الدنيا : فعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقام أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » . أخرجه الترمذي وهو حديث حسن، كما أخرجه أحمد في المسند عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، والحاكم في المستدرك من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وصححه ووافقه الذهبي في كتابه « التلخيص » .

هذا : وليس من نافلة القول ، إن رسول الله ﷺ لم يدع أن ينبه الأمة على ما ينبغي عمله ، وما ينبغي الحذر منه ، لمن أراد النجاة يوم القيامة والفوز بجنة عالية قطوفها دانية ، يقال لأصحابها: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾. بل إنه عليه الصلاة والسلام نبّه بتأكيد ، على ما يكون من السؤال في القبر ، وكشف عن العلاقة بين حال المؤمن المصدق بعد السؤال فيه ، وبين منزلته في الجنة ، وعن العلاقة بين حال الضال المضل المكذب بعد السؤال فيه . وبين مصيره المشؤوم في نار السعير . ومما ورد في ذلك ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن الميت إذا وضع في قبره ، إنه يسمع خفق نعالهم حيث يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من قِبَل رأسه ، فتقول الصلاة : ما قِبَلي مدخلٌ ، ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قِبَلي مدخلٌ ، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قِبَلي مدخلٌ ، ثم يؤتى من قِبَل رجليه فيقول فعل الخيرات من

الصدقـة والصلة والمعـروف والإحسان إلى النـاس : ما قِبَلي مـدخلٌ ، فيقـال له : اجلس ، فيجلس وقد مثلت له الشمس وأدنيت للغروب ، فيقال له : أرأيتك هذا الرجل الذي كـان فيكم ما تقول فيه ، وماذا تشهد به عليـه ؟ فيقول : دعوني حتى أصلي ، فيقولون : ستفعل ، أخبرنا عما نسألك عنه ، أرأيتَك هذا الرجلَ الذي كان فيكم ما تقـول فيه وماذا تشهد عليـه ؟ قال: فيقول : محمد أشهـد أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق من عند الله ، فيقال له : على ذلك مِتَّ ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة ، فيقـال له : هذا مقعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد غبطةً وسروراً ، ثم يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال له : هذا مقعدك منها وما أعدّ الله لك فيها ، لو عصيته ، فيزداد غبطةً وسروراً ، ثم يُفْسَح له في قبره سبعون ذراعـاً ، وينوَّر فيـه ، ويعاد الجسـد لما بدأ منـه ، فتجعل نسمتُـه في النَسَم الطيب وهي طير يعلـق في شجر الجنة ، قال : فذلك قـوله تعالى : ﴿ يثبِّت الله الـذين آمنـوا بالقـول الثابـت في الحياة الـدنيا وفي الآخــرة ﴾ إلى آخر الآيـة (إبراهيم : ٢٧) .

قال : وإن الكافر إذا أُتيَ من قبل رأسه لم يوجد شيء ، ثم أتي عن يمينه ، فلا يوجد شيء ، ثم أتي عن شماله فلا يوجـد شيء ، ثم أتي من قبل رجليه ، فلا يوجد شيء، فيقال له : اجلس ، فيجلس خائفاً مرعـوباً ، فيقال له : أرأيتَك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه ؟ فيقول : أيُّ رجل ؟ فيقال : الذي كان فيكم ، فلا يهتـدي لاسمه حتى يقال له : محمد ، فيقـول : ماأدري ، سمعت الناس قالوا قولاً ، فقلت كما قال الناس ، فيقال له: على ذلك حييت ، وعلى ذلك مُتَّ ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح لـه باب من أبواب النار ، فيقال له: هذا مقعدك من النار وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد حسرة وثبوراً ، ثم يفتح له بابٌ من أبـواب الجنة ، فيقال لـه : ذلك مقعدك مـن الجنة ومـا أعدّ الله لك فيهـا ، لو أطعته، فيزداد حسرة وثبوراً ، ثم يضيق عليه قبره حتـى تختلِف فيه أضلاعه ، فتلك المعيشة الضنكـة التي قـال الله: ﴿ فـإن له معيشـة ضنكاً . ونحشره يـوم القيامـة

أعمى﴾ (طه : ١٢٤) .

أخرجه ابن حبان وإسناده حسن ، وأخرجه عبدالرزاق وابن أبي شيبة والطبري في «جامع البيان» ، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي والبيهقي في « الاعتقاد » وفي « عذاب القبر » وذكره الهيثمي في « المجمع » وقال : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن ، وذكره السيوطي في « الدر المنثور » وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه .

أنىّ نظرت فيما ورد عن الحبيب الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام في شأن يوم المعاد ، وما يكون فيه ، عدتَ وفي جعبتك العدد الوفير من مظاهر العطاء الرباني هناك لمن ربا الإيمان فيَ قلوبهم ، فأحسنوا العمل في الدنيا مستضيئين بنور التقوى ، خائفين عذاب ربهم حق الخوف ، راجين رحمته حق الرجاء ، كل أولئك وفق ما جاء به الكتاب الكريم ، وبينته السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وإذا ذكرنا أن رسولنا عليه الصلاة والسلام قد اؤتمن على بيان القرآن ، بل على شرع أحكام جديدة في ظل الكتاب ، كانت أخبار السنة الموثقة عن العطاء الإلهي في الآخرة ، من جنات لا ينقطع نعيمها ولا تفنى لذائذها ، وما يفيض الله جل شأنه على أهلها من الرضى ، فلا يسخط عليهم أبداً ، ومن المن عليهم برؤيته جل شأنه وتباركت أسماؤه ـ ولا كذلك أهل الضلال والإضلال ، هي إخبار عن الله عز وجل ، لما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ والعلاقة بين الوحي المتلو ـ وهو القرآن ـ وبين الوحي غير المتلو ـ وهو حديث النبي عليه الصلاة والسلام ـ علاقة وثيقة بين المبيَّن والبيان ، لا تنفصم عراها بوجه من الوجوه .

ومما يتفضل الله به على عباده المحسنين يوم الفصل ـ إذ القلوب لدى الحناجر ، والروع آخذ مأخذه من النفوس ـ ما أخرج الترمذي بسنده عن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال : « لو أن ما يُقِلُّ ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السماوات والأرض . ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطّلع فبدا أساوره لطمس ضوءَ الشمس كما تطمس الشمسُ ضوء النجوم ».

قال الترمذي : وقد روى يحيى بن أيوب هذا الحديث عن يزيد بن أبي حبيب وقال : عن عمر بن سعد بن أبي وقاص . وهو حديث حسن .

أقَلَّ الشيءَ يُقلُّه : إذا حمله ؛ فمعنى لو أن ما يُقل : لو أن ما يحمل . الزخرفة: الزينة ، والزخرف : الذهب . خوافق السماء : آفاقها .

سبحان المنعم المتفضل ، لقد كان صلاح العمل في الدنيا ـ برحمته تعالى ـ سبباً في هذا النور عند الرجل من أهل الجنة ، كما جاء في هذا الحديث .

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة من العطاء يوم الدين ، نقرأ قول البخاري في «باب الحور العين وصفتهن» من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح : وقال ـ أي حُميد ـ: سمعت أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها . ولو أن امرأة من أهل الجنة اطّلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحاً ولنَصيفُها على رأسها ـ يعني خمارها ـ خير من الدنيا وما فيها » ورواه بنحوه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال : حدثنا محمد بن عبدالله الأنصاري قال: حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «موضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا إن شئتم: فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » وأخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي في «التلخيص» .

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ما روى ابن مردويه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » . قال : ثم تلا هذه الآية ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ » .

هذا : وقد كان من هدي النبي ﷺ ، أن دلّ من كان يحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة على الذي يجب أن يصنعه في الدنيا، وأن تأتيه منيته وهو على ذلك. روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » . وأنت واجد في نص الآية الكريمة ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ...** ﴾ التي رأينا بعضاً من بيانها فيها ورد من الحديث ، تعزية لجميع الناس؛ إذ لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، كما أن فيها نوعاً من التكامل يشي بما هو كائن من قدر الله في خلقه في الحياة الدنيا وفيما بعد الموت ، كما يؤذن بالارتباط الوثيق بين العمل والتكليف في الدار العاجلة ، والمسؤولية في دار الجزاء، مع التنبيه على حقيقة الحياة الدنيا وأنها متاع الغرور .

يقول الحافظ ابن كثير : هذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدّر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحد مثقال ذرة ، ولهذا قال : ﴿ **وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ .

هذا : والمعلم الواضح في حياة أمتنا، أن جيل الصحابة رضي الله عنهم ـ وهم يدخلون دخولاً أولياً فيما كان من بشريات للعاملين ، يجدونها يوم الفزع الأكبر ـ لم تقعدهم البشارة بالجنة عن المداومة على الطاعات وعمل الصالحات وارتياد ميادين الجهاد بأنواعه ، وكان التأسي بهم واضحاً عند الموفقين من الأجيال التي تبعتهم عبر التاريخ والحمد لله . وفي ذلك عبرة لمن اعتبر ، وتذكير للغافل وشد أزر للعامل الذي يرجو الله واليوم الآخر .

وهذه واحدة من وقائع كثيرة تدل على هذا الذي نقول ، وتشعر بأن المؤمن

الصادق لا يزيده الترغيب في الجنة والترهيب من النار ، إلا حرصاً على استدامة العمل في مرضاة الله تعالى والذود عن حياض الإسلام ، حتى يلقى ربه عز وجل وله جهاده وعمله الصالح ، ما يضمن له ـ بفضل الله ورحمته ـ النجاة من النار والفوز بالجنة دار المتقين .

فعن سهل بن عمرو بن عدي الأنصاري الحارثي المعروف بابن الحنظلية رضي الله عنه قال : « إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشيةً ، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت على جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن عن بَكْرة أبيهم. بظُعُنهم ونعمهم ونسائهم اجتمعوا إلى حنين ، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى ، ثم قال : من يحرسنا الليلة ؟ قال أنس بن أبي مرثَد الغنوي : أنا يا رسول الله ، قال : فاركب ، فركب فرساً ، فجاء إلى النبي ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : استقبل هذا الشِعبَ حتى تكون في أعلاه ولا تنزل من فرسك الليلة ، فلما أصبحنا خرج النبي ﷺ إلى مصلاه ، فركع ركعتين، ثم قال : هل أحسستم فارسكم ؟ قال رجل : يا رسول الله، ما أحسسنا ، فثوَّب بالصلاة ، فجعل رسول الله ﷺ ـ وهو يصلي ـ يلتفت إلى الشِعب ، حتى إذا قضى صلاته وسلّم قال : جاء فارسكم ، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب ، فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فسَلّم فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى الشِعب حيث أمرني رسول الله ﷺ ، فلما أصبحت طلعت الشِعبين كليهما ، فنظرت فلم أر أحداً ، فقال له رسول الله ﷺ : هل نزلت الليلة ؟ قال : لا إلا مصلياً أو قاضي حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ: قد أوجبت ، فلا عليك أن لا تعمل بعدها » أخرجه أبو داود في الجهاد من السنن، وإسناده حسن حسّنه الحافظ ابن حجر في الفتح ونسبه المنذري للنسائي .

بَكرة أبيهم : يقال : جاء القوم على بَكرة أبيهم إذا جاؤوا بأسرهم ولم يتخلف منهم أحد . وثَوَّب بالصلاة : نادى إليها وأقامها .

هذا : وقد بشره النبي ﷺ جزاء حراسته وصـدقه بقوله : « أوجبتَ ». يقال : أوجب فـلان إذا فعل فعـلاً وجبت له بـه الجنة أو النار ، والمراد بـه هاهنـا الجنة، فهنيئاً له ورضي الله عنه وأرضاه .

## فغيرَ سهامك أردنا.. واهاً لريح الجنة

ما زلنا مع الحقيقة التي يبدو المسلمون اليوم ـ وهم على الحال التي تبكي القلب ـ أحوج ما يكونون إلى تمثلها و إدراكها ؛ وهي أن الإيمان بما عند الله يوم القيامة لأهل الصلاح والجهاد في سبيل الله ـ على تنوّع ميادين هذا الجهاد ـ كان له أكبر الأثر في حياة المسلمين ؛ من حيث إيجابية العمل ، والحفاظ على سلامة المحور في تحريك دفة الحياة . وقد أعطى ذلك عطاءه العظيم على مستوى الفرد والجماعة والأمة ، فكانت العبودية الصادقة ، والعمل المثمر والإخلاص فيه ، والبناء الحضاري السليم المتكامل الذي يحقق كرامة الإنسان ، وسعادته في الدنيا، ويوم الدين .

حدّث الصحابي الجليل واثلة بن الأسقع قال : «نادى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فخرجت إلى أهلي فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله ﷺ ، فطفقت في المدينة أنادي : ألا من يحمل رجلاً له سهمه ؟ فإذا شيخ من الأنصار ، فقال : لنا سهمه على أن نحملَه عُقبةً وطعامه معنا ! فقلت : نعم ، قال : فسِر على بركة الله ، فخرجت مع خير صاحب، حتى أفاء الله علينا ، فأصابني قلائص ، فسُقْتُهنّ حتى أتيته ، فخرج فقعد على حقيبة من حقائب إبله ثم قال : سقهنّ مدبِرات ، ثم قال : سقهنّ مقبلات فقال : ما أرى قلائصك إلا كراماً ، قلت : إنما هي غنيمتك التي شرطت لك ، قال : خذ قلائصك يا ابن أخي فغير سهامك أردنا » أخرجه أبو داود .

معنى لنا سهمه ، أي ما يكون له من غنيمة أوفيء ، أما الحمل عُقبةً : فيقال: حملتُ فلاناً عُقبةً إذا أركبته وقتاً وأنزلته وقتاً ، فهو يعقُب غيره في الركوب أي يجيء بعده . والقلائص جمع قَلوص وهي الناقة الشابة .

هكذا شرط الأنصاري رضي الله عنه على واثلة ،أن يحمله على مطيته من عنده إلى الميدان ، ولكن على أن يكون له سهمه ، وأن طعامه معهم. ووافق واثلة ، ولكن الذي حدث فيما بعد : أن الرجل أبى أن يأخذ ما حصل عليه واثلة من كرام القلائص وقال : خذ قلائصك يا ابن أخي ، فغير سهمك أردنا !! ما الذي أراده رضي الله عنه ؟ لقد أراد ما هو أسمى من النّوق في الدنيا ! لقد أراد الظفر بما يظفر به من صدقوا في بيع أنفسهم وأموالهم لله عز وجل ، من جنة المأوى والرضوان من الله . إنه مصدّق بما وُعد الباذلون في إعلاء كلمة الله من جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ؛ إنه مصدّق كل التصديق بما جاء في كتاب الله وبيَّنه رسول الله عليه الصلاة والسلام عما يكون من فضل الله في الآخرة على من يغزو في سبيل الله، أو يجهز غازياً ، أو يعين بأي وجه يستطيعه في هذه السبيل ؛ فموضع سوط المقاتل في الجنة خير من الدنيا وما فيها . وأثر ذلك على سلوك الأمة وقدرتها على البناء ، واضح في البذل وحشد الطاقات لتحقيق كلمة الله في الأرض ، فكان لها الوجود الذاتي وبناء تلك الحضارة المثلى في التاريخ .

ويسمو المؤمن بإيمانه وأهليته للسعادة يوم العرض الأكبر ، فتجده والجنة والنار بالنسبة إليه كأنهما رأي عين في الدنيا ، يبلغ به ذلك أن يشم رائحة الجنة وهو ما يزال في دار الفناء ، الأمر الذي يشعر بأن أهل الكرامة الأبرار وهم يساقون إلى الجنة زمراً نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، فيهم من لا يفجؤه ما صار إليه، ولكنه يحسُّ ـ كما وعد الله ورسوله ـ بفضل الله المتجدد وإنعامه على الصفوة من عباده في دار كرامته بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فطوبى للعاملين المخلصين الذين يزدادون كل يوم عملاً يقربهم من مولاهم عز وجل ، ويظفرون في الآخرة بمزيد من الفضل والإحسان . ونماذج ذلك كثيرة موفورة في التاريخ الإسلامي إلى يوم الناس هذا والحمد لله .

وفي مقدمة هؤلاء الصادقين المشوقين ما ثبت عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم . أخرج الإمام البخاري بسنده في كتاب المغازي من الجامع

الصحيح قـال : أخبرنا حسّـان بن حسّـان قال : حـدثنا محمـد بن طلحـة قال : حدثنا حُميد عن أنس رضي الله عنه « أن عمـه غاب عن بدر فقال : غِبت عن أول قتال النبي ﷺ ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرينّ الله ما أُجد ، فلقي يوم أحد ، فهزم الناس فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك ممـا جاء بـه المشركون ، فتقـدم بسيفه ، فلقي سعـد بن معـاذ فقال: أيـن يا سعـد؟ إني أجد ريح الجنـة دون أحد ، فمضى فقتل ، فما عُرف حتى عـرفته أخته بشامة ـ أو ببنانه ـ وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ».

وجاء في رواية الترمذي « .. فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو أين؟ قال : واهاً لريح الجنة أجدها دون أحُد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالـت عمتي الربيعُ بنت النضر : فما عرفت أخي إلا ببنانه ، ونزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عـاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ »

وكون هذه الآية نزلت في أنس بـن النضر وأصحابه ـ كما نرى عند الترمذي ـ مما جـزم به البخـاري عند روايته للحـديث في تفسير سـورة الأحزاب مـن الجامع الصحيح . وجاء ذلك عند مسلم أيضاً ـ كما سنرى إن شاء الله ـ. وتحسن الإشارة هنا إلى ما ذهب إليه الإمام النووي (من أن قول أنس بن النضر : « واهاً لريح الجنة أجـده دون أحـد » محمول على ظـاهـره ، وأن الله تعـالى أوجده ريحهـا مـن أرض المعركـة، وقد ثبتـت الأحاديـث أن ريحها تـوجد مـن مسيرة خمسمائة عام) . وقـال الحافظ ابـن حجر :( يحتمـل أن يكون ذلـك على الحقيقة ، بـأن يكون شـم رائحة طيبة زائدة عما يُعهد ، فعرف أنها ريح الجنة ، ويحتمل أن يكون أطلق ذلك باعتبار ما عنده من اليقين ، حتى كأن الغائب عنه صار محسَّاً عنده . والمعنى : أن الموضع الذي أقاتـل فيه يؤول بصاحبه إلى الجنـة). وقال الإمام مسلم : حدثني محمد بن حاتم قال : حدثنا بهز قال : حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : قال أنس: «عمي الذي سميت به ـ يعني أنـس بن النضر ـ لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً ،

قال: فشق عليه ، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيبتُ عنه . وإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها. قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، قال : فاستقبل سعد بن معاذ . فقال له: يا أبا عمرو أين ؟ فقال : واهاً لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قتل . قال : فوجد في جسده بِضعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، قال : فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ (الأحزاب : ٢٣) فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه ».

اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين المجاهدين واجعلنا ممن يتبعون القول العمل ، كيما نفوز بدار كرامتك يوم اللقاء ..

إذا حدثت الأرض أخبارها بأن ربك أوحى لها ، وحشر علام الغيوب الناس ليوم الجمع لاريب فيه ، ورأيتهم يصدرون أشتاتاً ليروا أعمالهم .. هنالك يقول الكافر ـ وقد انخلع قلبه من الخوف ، وشهد يقيناً ما كذّب به من قبل ، وحقت عليه كلمة العذاب ـ : ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾. وهنالك تعلن ثمرات العبودية الخالصة لله في الحياة الدنيا ، والصدق في المواطن بين يديه سبحانه إعلانها ، بما يكون من مشهد تلك الزمر المباركة من أهل جنة الخلد ، وهم يدخلونها ـ مفتحةً لهم الأبواب ـ وتراهم وقد استنارت وجوههم ، وأشرقت نفوسهم بوافر الطمأنينة والرضى ، يستريحون للكلمات النورانية تبارك أسماعهم وتفرح قلوبهم ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ .

وفي ظل التواؤم بين دار العمل ودار الجزاء ، نقع على نماذج كثيرة من أهل هذا المشهد وأمثاله، في جيل الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان عبر تاريخنا الطويل ممن أيقنوا بتلك الحقائق ، وبادروا بما يتلاءم مع هذا اليقين، مسارعين في إتيان كل ما من شأنه ، بلوغ تلكم المنازل ، والحظوة بتلكم النعماء التي لا يقدرها حق قدرها إلا الموقنون المخلصون ، الأمر الذي ينبغي أن يثير كوامن الإيمان في الأجيال المتلاحقة لحسن التأسي .

قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عفان قال : حدثنا حماد قال : أنبأنا ثابت وعلي بن زيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن المشركين لما رهِقوا النبي ﷺ وهو في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، قال : من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة !! فجاء رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ؛ فلما رهقوه أيضاً ، قال : من يردهم عني وهو رفيقي في الجنة ، حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ : ما

أنصفنا إخواننا » .

رهِقَه يرهَقُه رَهْقاً : غشيَه . ورهِقَه أيضاً : قرب منه .

وهذه الواقعة التي تحمل ما تحمل من حب الصحابة للرسول ﷺ والتصديق اليقيني بما بشر بـه من يـرد المشركين عنه بعد أن رهِقـوه المرة تلو المرة ، كـانت في « أُحد ». وهنيئـاً لهؤلاء السبعةِ الذيـن استُشهدوا بين يـديه عليه الصـلاة والسلام مبتسمين للموت، كيما يردوا عنه ﷺ أذى المشركين، وخطرهم المحدِق.. هنيئاً لهم ـ وقد صـدقوا في المبايعة ـ أن يكـونوا رفقاءه في الجنة وهم فيهـا خالدون ، والجزاء من جنس العمـل ؛ لقد صدّقوا وصـدقوا ، واقتدوا نبيهم عليـه الصلاة والسلام ـ وهو يقودهم في ميدان الفداء ـ بأنفسهم ، فكانت لهم تلك العاقبة الحسنة المشرقة كلّ الإشراق ، وأكرموا بذلك الفوز المبين .

ولأحمد في روايـة أخرى مطـوَّلـة ، تصريح بـأن ما حصـل كـان يوم أحـد كما سلفت الإشارة ، وهو ما نجد نحوه عند الإمام مسلم حيث روى بسنده عن أنس رضي الله عنه « أن النبي ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهِقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو ـ وهو رفيقي في الجنة ـ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل ، ثم رهِقوه أيضاً، فقال: من يردهم عنا وله الجنة؟ ـ أو وهو رفيقـي في الجنة ـ فتقـدم رجل من الأنصـار ، فقاتـل حتى قتل ، فلـم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ : « ما أنصفنا أصحابنا » .

ومن رُزق الإيمان وهدي إلى سبيل الفاريـن إلى رب العالمين ، لا يتقاصر عن استذكار ما أشرت إليه غير مرة ، من التكامل الواضح ـ كما توحي النصوص ـ بين التصـديق الجازم بـالمغيّبات التـي جاء بها الخبر الصـادق ، والعمل بمقتضـاه في الحياة الـدنيا ، وبين ما يكون مـن العاقبة المبشَّر بها في دار الجزاء يوم يقـوم الناس لرب العالمين . فالحركة دائبة في تحقيق الصلة الجوهرية بين الأمرين جميعاً . وذلكم برهان الصدق والوفاء .

وما أحوج أمتنا اليوم ـ وقد خيّم ظلام الفتن المادية وتخلخلت المعايير والضوابط ـ إلى أن نضع هذه الحقيقة وأمثالها بجدٍ موضع الاهتمام البالغ ، بحيث تحظى بما تستحقه في مناهج التربية والتعليم والإعلام ، على صعيد العقيدة والعلم والعمل ، كيما يكون تطلعها ، إلى سلامة البنية عند الفرد وفي المجتمع ، وإلى مستقبل أفضل للأمة ـ والحال هي الحال ـ قائماً على أسس سليمة ، لا يعتورها خلل ولا تنبو عما تقتضيه الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وما لها من حق في السلوك والالتزام .

والحق أن النصوص التي نستضيء بمعانيها في هذه العجالة من القول ، صورة صادقة لهذا التكامل المومى إليه ... حتى كأن كل مشهد من مشاهدالبررة الخالدين في دار السلام ، ذو نسب أصيل ـ بعد فضل الله ورحمته ـ إلى ما كان عليه أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه في الميادين كلها ، رجالاً ونساءً في حياتهم الدنيا ، حيث ازدانت حياتهم ، بصادق الإيمان ، وصالح العمل ، والجهاد في سبيل الله ـ على أي ثغر كانوا من ثغور الإسلام ـ وكانوا بعد ذلك على ذكر دائم من اليوم الذي لا ريب فيه ، اليوم الذي يتحقق فيه موعود الله ، وموعود رسول الله ﷺ ـ وهو يؤدي أمانة البلاغ المبين ـ ناهيك عن يقينهم بأن وعد الله حق ، وأن وعد رسوله حق ، وأنهم في موقفهم من البشارة والنذارة على هذا الصعيد ، مطمئنة قلوبهم غاية الاطمئنان ، حتى كأنهم يرون ما أشرقت به آي الكتاب العزيز وأحاديث النبي ﷺ من أمور الغيب ، واقعاً في عالم الشهادة بلا ريب .

وفي كلام موصول بدلالة ما وقع في المرحلة الثانية يوم أحد ، على يقين أولئك الصفوة المجاهدين ، بوقوع بشارة النبي ﷺ ، بمرافقته في الجنة والمسارعة في الاستجابة ، تصديقاً بوعده عليه الصلاة والسلام ، أن من يرد المشركين عنه وعمن معه في تلك الساعات العصيبات ، فله الجنة ، يكون فيها رفيقه يوم الدين ... في كلام موصول بذلك : نقرأ ما روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي النبي

ﷺ، مجوِّب عليه بجَحَفَـة ، وكان أبـو طلحة رجـلاً رامياً شـديد النـزع . لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر معه الجَعْبَة من النبل فيقول : انشُرها لأبي طلحة. قال : ويُشرف النبـي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة : يـا نبي الله بأبي أنـت وأمي ، لا تُشرفْ يُصبـك سهـم من سهـام القـوم ، نحري دون نحـرك..» الحديث . وفي رواية للبخـاري: « كان أبو طلحة يتترَّس فينظر إلى مـوضع نبله » . مجوّب عليه : أي سا ترله ، قاطع بينه وبين الناس .

والجَحَفَة : الترس الصغير يطارق بين جلـدين . والجَعبة ـ بفتح الجيـم ـ التي يكـون فيها السهـام تتخذ مـن الجلود . وقـوله : يُشرف . الإشراف : الاطـلاع على الشيء ، إذ كان النبي ﷺ يطّلع أين موضع نبل أبي طلحة .

هكذا يبـدو التكامـل بين ما تشرق بـه زمر أهـل الجنة ، ومـواكب الأبـرار في عليين، وبين تلكم الوقائع التي أسهمت أيّما إسهام في نصرة الدعوة وبناء حضارة الإسلام حيث تعمـل أخبار الرسول ﷺ عـن دار الخلد ـ خير مستقرٍ ـ عملها في إثارة كوامـن الإيمان، والمسارعة إلى البذل ـ ولـو كان جوداً بالنفـس ـ في سبيل الله ودفاعاً عن صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، حرصاً على بيضة الإسلام أن ينالها الأعداء بالسوء الذي يريدون .

وهذه صورة أخـرى ، تؤكد أثر بشـارة النبي ﷺ من يصدق في المواطـن بدار النعيم، وأن يكون في تكرمة تجِلُّ عن الوصف ، وهي صحبته عليه الصلاة والسلام هناك ... أجل ؛ تؤكد أثرها في تلكم الوقفـات التي عبّدت الطريق لدعوة الإسلام وحضارة الإسلام . أخـرج النسـائي بسنده عن جابر بـن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال : « لما كـان يوم أحد وولى الناس ، كـان رسول الله ﷺ في ناحيـة في اثني عشر رجلاً من الأنصار فيهم طليحة بن عبـدالله ، فأدركهم المشركون فالتفت رسول الله ﷺ فقال : من للقـوم ؟ فقال طليحة: أنا ، فقال رسـول الله ﷺ : كما أنت ، فقال رجل من الأنصـار : أنا يا رسول الله ، فقال: أنـت ، فقاتل حتى قتـل ، ثم التفت

فإذا المشركـون ، فقال : من للقـوم ؟ فقال طليحـة : أنا ، فقال : كما أنـت ، فقال رجل مـن الأنصار : أنا يا رسـول الله ، فقال: أنت ، فقـاتل حتى قتل . ثـم لم يزل يقول ذلك، ويخرج لهم رجل من الأنصار ، فيقاتل قتال من قبله ، حتى بقي رسول الله ﷺ وطليحة بن عبـدالله ، فقال رسول الله ﷺ من للقوم ؟ فقـال طُليحة : أنا ، فقاتل طُليحة قتال الأحد عشر حتى ضربـت يده فقطعت أصابعه فقال : حَسٍّ ، فقال رسول الله ﷺ ، لـو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والنـاس ينظرون ، ثم رد الله المشركين » .

حَسٍّ : كلمة تقال عند التوجع .

صلى الله وسلم وبـارك على من جاهـد في الله حق جهاده حتـى أتاه اليقين ، وهنيئاً لمن فدوه بـأنفسهم وفازوا برفقتـه المباركة في الجنة ، ورضي الله عـن أصحابه أجمعين ، أولئك الذين آمنوا به وعـزروه ونصروه بأموالهم وأنفسهـم ، وعلى من أخذ نفسه بنهجهم القويم إلى يوم التناد .

## يا أهل الجنة لا موت.. ويا أهل النار لا موت

ما ازداد المؤمن صلة بحديث خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، في فهم صحيح وإدراك واعٍ لمرامي كلامه في بيان الكتاب العزيز وتفصيل المنهج الرباني، إلا ازداد يقيناً على يقين بأنه عليه الصلاة والسلام ، لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، حتى أدى الأمانة التي كلف أداءها خير ما يكون الأداء ، وبلغ الرسالة التي اؤتمن على تبليغها خير ما يكون التبليغ .

أقول هذا ، وما يزال حديثنا متصلاً بالكلام على بعض من مشاهد القيامة فيما أخبر به عليه الصلاة والسلام ، وبين يديَّ نصوص مباركة من الهدي النبوي ـ والهدي النبوي مبارك كله ـ تكشف عن تقرير وتأكيد حقيقةٍ نطق بها الكتاب العزيز في العديد من المواطن ، وهي قضاء الله بالخلود فيما ينتهي إليه حال المرء في دار القرار ؛ إذ يقال لأهل الجنة : خلود فلا موت ، كما يقال لأهل النار : خلود فلا موت.

جاء في كتاب التفسير من الجامع الصحيح للإمام البخاري عند تفسير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ قوله رحمه الله : حدثنا عمر بن حفصٍ بن غياث قال : حدثنا أبي قال : حدثنا الأعمش قال : حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي

**الأمر وهم في غفلة ـ و هؤلاء في غفلة أهل الـدنيا ـ وهم لا يؤمنون ﴾**. وجاء اللفظ في إحدى الروايات عند مسلم « يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار .. وفي آخر الحديث : «ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾** وأشار بيده إلى الدنيا ».

وأوضحت بعض الـروايات ما يكون مـن زيادة الفرح عند أهـل الجنة ، ومن زيـادة الحزن عنـد أهل النـار فقـد جـاء عنـد البخـاري ومسلم : « فيـزداد أهـل الجنةفـرحاً إلى فرحهـم ويزداد أهل النار حُـزْناً إلى حزنهم » كما نجـد عند أحمد في المسند « فـازداد أهل الجنة فـرحاً إلى فرحهم وازداد أهـل النار حزنـاً إلى حزنهم » . وجاءت الرواية عند الترمذي بلفظ « ... فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن أحـداً مات حزنـاً لمات أهل النار » قـال أبو عيسـى : هذا حديـث حسن صحيح، وقـال الإمام مسلم في كتاب صفـة الجنة ونعيمها وأهلها مـن صحيحه : حدثنا زهير بن حرب والحسن بن علي الحلـوانيُّ وعبد بن حميد (قال عبد : أخبرني وقال الآخران : حدثنا) يعقوبُ ـ وهو ابن إبراهيمَ بن سعيدٍ ـ قال : حدثنا أبي عن صالح قال : حـدثنا نافع أن عبدالله قال : إن رسول الله ﷺ قـال : يُدخل الله أهل الجنة الجنةَ ، ويُدخل أهلَ النار النارَ ، ثم يقومُ مؤذن بينهم فيقول : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، كلٌ خالد فيما هو فيه ».

ولا يخفى أن لهذه النصوص دلالتهـا ، في حفز المؤمن على المزيد مـن الطاعة وأخذ النفس بمنهج أهل التقوى ،والبعد عـن طرائق الغافلين كيما يظفر ـ بفضل الله ـ بـالجنة والخلـود فيها ، كما أن لها دلالتهـا في تذكير الغـافلين الذيـن همُّهم أن يرتعوا هنا وهناك ساهين لاهين عما ينتظرهم يوم الحسرة ـ إن هم أقاموا على ذلك ـ من سوء المصير .

ولكم يحسـن المؤمن صنعاً إذا اتخذ مـن الهدي النبوي على ساحـة التذكير بما يكـون يوم الحسـاب ، باعثـاً متجدداً على مضـاعفة العمـل ، وتجويده ، وتحقيـق

الإخلاص فيه ـ على تنوع ميادين العمل ـ ذاكراً أن الآخرة هي الحياة الحقيقية التي يجب على المؤمن أن لا يغفل عنها ، وهو حين يفعل ذلك ، يكون على المحجة البيضاء من هدي الكتاب والسنة ، وتكون له عقبى البررة الأخيار في جنة الخلد التي وُعدأحباب الله المحسنون .

وليس من مكرور القول ، التذكير بما يكون لهذا النهج القويم في المعتقد والسلوك ، من أثر مجيد طيب في حياة المجتمع والأمة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

هذا : وقد جاء الكلام على خلود أهل الجنة في أحاديث أخر ، ضمن ألوان من الفضل التي يكرم الله بها عباده الأبرار في دار النعيم . أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «ينادي منادٍ إنَّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشِبّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعَموا فلا تبأسوا أبداً » ـ وفي رواية «فلا تبتئسوا» ـ فذلك قوله عز وجل : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾».

سبحان المنعم المتفضل ، هكذا يبين الرسول عليه الصلاة والسلام أن العلاقة وثيقة بين هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف ، وبين تلكم الألوان من العطاء الإلهي في الجنة ، كما كشف صلوات الله وسلامه عليه عن الارتباط بين ما قدّم أهل الاستقامة في الدنيا ، وبين ما أكرمهم الله به في الآخرة ، بأن أورثهم الجنة برحمته، وعمَّهم بإحسانه الغامر من خزائن الفضل التي لا تنفد ، ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ . والحديث رواه الترمذي ، ولكن جاءت الإشارة في آخر الرواية إلى آية الزخرف ، وهي قوله تعالى : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ قال رحمه الله : حدثنا محمود بن غيلان وغير واحد قالوا : حدثنا عبدالرزاق قال: أخبرنا الثوري قال : أخبرني أبو إسحاق أن الأغرَّ أبا مسلم حدثه عن أبي سعيد

وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ينادي منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ » قال أبو عيسى : وروى ابن المبارك وغيره هذا الحديث عن الثوري ولم يرفعه.

هذا : وقد أخرج مسلم الحديث أيضاً برواية فيها بعض الإيجاز ، إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعَم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » .

وتحت « باب من يدخل الجنة ينعم لا يبأس » أخرج الدارمي في سننه بسنده عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من دخل الجنة ينعَم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، وفي الجنة ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ».

وفي خاتمة المطاف : أجد من الخير إيراد الحديث الذي أديرَ الكلام على الحقيقة التي كشف عنها ـ وهي الخلود ـ كما رواه ابن أبي حاتم في تفسيره موقوفاً على عبدالله بن مسعود ؛ ففي هذه الرواية مزيد من البيان يعين على استجلاء المعنى المقصود ، ذلك قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، أتي بالموت في صورة كبش أملح ، حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم ينادي منادٍ : يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة من الجنة إلا نظر إليه ، ثم ينادي : يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ، ولا في أسفل درْك من جهنم إلا نظر إليه ، ثم يذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادى : يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين ، ويا أهل

النار هو الخلـود أبد الآبدين . فيفرح أهل الجنـة حتى لو كان أحد ميّتـاً من الفرح ماتوا ، ويشهـق أهل النار شهقة حتى لو كـان أحد ميتاً من شهقة ماتـوا ، فذلك قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾ ، يقول : إذا ذبح الموت » .

ومعلـوم أن هذا الحديـث الموقـوف على ابن مسعـود رضي الله عنـه له حكـم المرفوع إلى النبي ﷺ لأنـه ليس مما يقال من قبـل الرأي ، بل لا بد فيه مـن توقيف صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

هدانا الله جميعاً لما فيه صلاح القول والعمـل ، وكتبنا عنده من الفائزين بدار المقامة في الخالدين .

# جنات النعيم.. وسلوك البررة الأتقياء

بين أهل العزائم في طاعة الله ، المشمرين صادقين للجنة دار المخلصين في طلب أن يكونوا مع الأبرار في مقام أمين ... بين هؤلاء المشوقين إلى تلكم المنازل في عليائها ، وبين ما أخبر به رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام ــ بياناً للكتاب العزيز عما يكون في دار الخلود لأهلها يوم الوعيد ـ آصرة، كلما ربا الإيمان في القلب، اشتدت واستنارت ، وكانت حافز خير وبركة على الثبات على الحق في نصرة الدين، ومضاعفة النصب ـ دونما حرج في النفس ـ طاعة لله وتقرباً إليه ، على تعدد الثغور في ذلك والميادين ، علماً وعملاً وجهاداً وصبراً على البلاء ، وطمعاً فيما عند الله في الآخرة التي هي خير لأولى النهى ، ﴿ **يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه** ﴾ ويحشر المتقون إلى الرحمن وفداً .

ذلك بأنه جاءهم ما أيقنوا معه أن ذلك هو الطريق ــ بتوفيق الله ـ إلى سلعة غالية ، هي سلعة الله ، وسلعته ـ جل شأنه ـ الجنة.

وما دام الأمر كذلك : فليعدّوا لهذا الأمر الجلل عدّته ، وليربؤوا بأنفسهم عن السقوط في مهواة الاغترار بزخرف العاجلة ، أو الركون إلى الشهوات التي حفت بها النار ، والجزع من المكاره التي حجبت بها الجنة على تلك الطريق .

فمن صدّق بما جاء عن الله ورسوله في شأن ما بعد انقضاء الحياة ، ويوم يقوم الأشهاد ، أحسن في أخذ الأهبة للرحيل ـ شأن من يعقلون عن الوحي وكلماته الهاديات ـ ولم يدع أن يتزود للرحلة إلى دار باقية هي دار القرار .

ومن كانوا على هذه الشاكلة ـ إخلاصاً لله في الدين ،وإيماناً يصدقه عمل المخبتين ـ تراهم كما ينصحون لأنفسهم بالتزام هذا المنهج المبارك ، يحرصون على النصح لإخوانهم المؤمنين ، بدعوتهم إلى كل ما فيه النجاة من عذاب الله يوم

اللقاء ، والفوز برضوانه الأكبر في المقام الأمين . روى أبونعيم في كتابه « حلية الأولياء » بسنده عن صفوان بن عمرو قال : حدثنا أبو سعيد الوهبي عن سلمان الخير ، وهو الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : « إنما مثل المؤمن كمثل مريض مع طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه فإذا اشتهى ما يضره ، منعه وقال : لا تقربه فإنك إن أصبته أهلكك ، ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه . وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة مما فُضل به غيره من العيش، فيمنعه الله إياه ويحجزه عنه، حتى يتوفاه فيدخله الجنة ».

وهذا واضح من سلمان رضي الله عنه في الإرشاد إلى الرضى ـ أبداً ـ بحكم الله عز وجل ، لما أنه أعلم بما يصلح أمر عباده ، وإلى التماس الطريق التي تحسن من ورائها العاقبة يوم الفصل ، الذي هو ميقات الخلق أجمعين ، فيكون المؤمن بتقواه وصبره ـ بعد فضل الله سبحانه ـ من أهل جنة المأوى ، وذلك قوله رضي الله عنه : « ... حتى يتوفاه فيدخله الجنة ».

كما جاء في « الحلية » عن جعفر بن برقان قال : بلغنا أن سلمان الفارسي رضي الله عنه تعالى عنه كان يقول : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث ؛ ضحكت من مؤمل في الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُغفَل عنه ، وضاحك ملء فيه ، لا يدري أمسخطٌ ربَّه أم مُرضيه . وأبكاني ثلاث ؛ فراق الأحبة محمد وحزبه ، وهول المطَّلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدي رب العالمين ، حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة ».

والحق أن هذا كلام من تربى في مدرسة النبوة ، فشهد متَنزّل الوحي ، وعقل عن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يريده من البلاغ المبين في تربية الفرد والجماعة على اليقظة الأخروية ، والبعد عن الغفلة ، وكل ما يؤدي إلى الوقوع فيها ، أو الركون إلى أهلها المقيمين عليها ممن غرتهم الحياة الدنيا ، وغرهم بالله الغرور .

وتحيةً ندية بالتوقير والمحبة للتابعين للصحابة بإحسان ؛ الذين كانوا ينتفعون

لعقباهم بهذا التوجيه النيّر وأمثاله ، من أولئك الذين صدقوا في صحبة نبيهم والأخذ عنه والتأسي به ، ولم يألوا جهداً في تبليغ ما أخذوا ، وأداء الأمانة التي حمّلوها ، بما رزقهم الله من تلك الصحبة التي لاتنقطع آثارها الطيبة في الأمة إلى يوم الدين .

وما من ريب في أن المحروم ، من لم يرفع بما يبلغه على هذا الصعيد رأساً ، ولا ينتفع بما جاءه من البينات والهدى ، ويلهيه الشيطان عن الاعتبار بسراء أو ضراء؛ فلا يوقظه البلاء ، ولا تستثير شكره النعماء . أخرج أبو نعيم في الحلية بسنده عن عمارة عن سعيد بن وهب قال : دخلت مع سلمان رضي الله عنه على صديق له من كندة يعوده ، فقال له سلمان : « إن الله تعالى يبتلي عبده المؤمن بالبلاء ، ثم يعافيه، فيكون كفارة لما مضى ، فيستعتِب فيما بقي . وإن الله عز اسمه يبتلي عبده الفاجر بالبلاء ، ثم يعاقبه ، فيكون كالبعير عقله أهله ثم أطلقوه ، فلا يدري فيم عقلوه حين عقلوه ، ولا فيم أطلقوه حين أطلقوه ».

يستعتِب : يرجع عن الإساءة . ويرجو العتبى : الرضا والعفو . ولله سبحانه العتبى حتى يرضى .

أما أهل السعادة والتوفيق : ـ وهو سمة السلف الصالح ـ فقد درجوا على الاستمساك بالمعايير التي تضع ما أعدَّ الله في الآخرة لعباده المحسنين بالحسبان ، فكان أحدهم يفرح أشدَّ الفرح ، إذا وفّق للعمل الذي يكون له نوراً يوم الحساب . ولا يقعد بوجه عن سلوك الطريق التي تجعله ـ بفضل الله ـ ممن تسبق لهم الحسنى فيكونون عن النار مبعدين ، وفي دار السلام جنةِ عدن خالدين .

جاء عن الحسن البصري رحمه الله ـ كما ذكر أبو نعيم والذهبي وغيرهما ـ قوله: « إن لله عز وجل عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلَّدين ، وكمن رأى أهل النار في النار مخلّدين . قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة . صبروا أياماً قصاراً تُعقب راحة طويلة . أما الليل : فمصافّة

أقدامُهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم : ربَنا ربَنا . وأما النهار: فحلماء علماء ، بررة أتقياء ، كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، أو خولطوا ، ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم ». ومن كلامه رحمه الله في أولئـك السعداء قوله : « والله مـا تعاظم في أنفسهم مـا طلبوا به الجنة ، حين أبكاهم الخوف من الله تعالى » .

وذكر العلماء في ترجمة التـابعي الجليل العلاء بـن زياد يرحمه الله : «أنه عنـدما أتاه رجل من أهل الشام يريد الحج ، وقصّ عليه رؤيا تبشره أنه من أهل الجنة إن شاء الله ، دخل عليه من الفرح بفضل الله ، والتواضع والذلة بين يديه سبحانه، ما الله بـه عليم . يقـول هشام بـن زيـاد العدوي راوي الخبر : « .... ودخـل الرجـل وبشره برؤياه ، ثم خرج فركب، وقام العلاء فأغلق بابه، وبكى ثلاثة أيام ـ أو قال: سبعة أيام ـ ... إلى أن قال : فسمعته يقول في خلال بكـائه : أنا أنا ـ يعني أنا من أهل الجنة ـ ؟ . ويبدو أنـه لم يخرج إلى الناس حتى جاء الحسن البصري رحمه الله ، فضرب عليه بابـه وقال : افتح يا أخي . فلما سمـع كلام الحسن ، قام ففتـح بابه ، وبه مـن الضر شيء الله به عليـم ؛ فكلمه الحسن ثـم قال : رحمك الله ، ومـن أهل الجنة إن شاء الله ، أفقـاتل نفسك أنت ؟ قـال هشام : حدثنا العـلاء لي وللحسن بالرؤيا ، وقال : «لا تحدثوا بها ما كنت حياً » .

ومن المعلوم يقينـاً ـ أن الصحابة عليهم الـرضوان ـ بما فهموا مـن أمر الآخرة فهم الموقن المطمئن ، وتـأسَّوا برسول الله ﷺ عن رضى ـ كـانوا السبّاقين إلى ترجمة الأقوال إلى أفعال ، والانطلاق بعزيمة صادقة في طلب ما عند الله من الفضل يوم الديـن ... طلبوه بـالإيمان الخالص ، والعمل الصـالح ، والجهـاد في سبيل الله ، والاحتكـام إلى شرع الله وما جـاءهم بـه محمد ﷺ مـن عند ربـه في كل الشـؤون. نـاهيك عـن لجوئهم إلى مـولاهم بـالضراعة والتخشـع بين يديـه ، فليلهم قـائم، ونهارهم صائم ، أو دائب في العمل وفق شرع الله والجهـاد في سبيل الله ؛حتى قيل فيهم : رهبان بالليل أسود بالنهار .

ولعل من الخير والاستزادة من النفع ، أن أعيد إلى الأذهان ، ما روى ابن ماجة والبزار وابن أبي الدنيا وابن حبان والبيهقي ـ على مقال لبعض أهل العلم في أحد رواة الحديث ـ عن كريب أنه سمع أسامة بن زيد رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مشمر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها . هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مضطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحُلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة وفاكهة وخُضرة وحَبْرة ، ونعمة في محلّة عالية بهية . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : قولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله ».

لاخطر لها : لا عوض لها ولا مثل . والله أعلم .

ما يتفضل الله به على أهل التقوى والإنابة من عباده في دار المقامة التي يُحِلُّهم فيها ـ برحمته ـ مفتحةً لهم الأبواب ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ يعزُّ على الحصر ، وحسبك أنه لاتعلم نفس ما أخفي لهم فيها من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون . فالعطاء الإلهي هناك أعلى وأغلى من أن يحيط به الإنسان . ويزداد هذا الفضل حتى يبلغ أن يقول الحق عز وجل لأهل الجنة : « أنا أحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً ». وقد أوردت في عدد من المناسبات بعضاً مما جاء من الأحاديث التي تبرز صوراً من الكرم الإلهي تشهده الخلائق في دار القرار ، ومن تلك الصور الناطقة ببيان ما جاء في كتاب الله تعالى من مثل قوله عز وجل في سورة السجدة : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾ ما نجد فيما روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسَعْديك والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ ـ وفي رواية أنا أعطيكم أفضل من ذلك ـ فيقولون : يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً ».

وها نحن أولاء مع لون من ألوان الإحسان ، مردُّه إعطاء واحد من أهل الجنة ـ يحب أن يزرع ـ ما يحقق رغبته وما يتمنى. ففي « باب كلام الرب مع أهل الجنة» من كتاب التوحيد في الجامع الصحيح ، روى البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يوماً يحدث ـ وعنده رجل من أهل البادية ـ : أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال : أولستَ فيما شئتَ ؟ قال: بلى،

ولكن أحب أن أزرع ، فـأسرع وبذر ، فتبادرَ الطرفَ نباتـه واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال ، فيقول الله تعالى : دونـك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء . فقال الأعـرابي : يا رسول الله لا تجد هذا إلا قـرشياً أو أنصارياً ، فـإنهم أصحـاب زرع ، فـأمـا نحـن : فلسنـا بـأصحـاب زرع ، فضحـك رسـول الله » وفي روايـة : «فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ».

قال العلماء في قولـه : «فأحب أن أزرع فأسْرَعَ » فيـه حذف تقديره : فـأذن له فزرع فأسرع . وفي كتاب الحرث والمزارعة من الجامع الصحيح جاءت الرواية عند البخاري بلفظ : «.. قال : فبذر فبادر الطرفَ نباتُه واستواؤه واستحصاده ، فكان أمثالَ الجبال ، فيقول الله : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء ، فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً ، فإنهم أصحاب زرع فضحك النبي ﷺ ».

أرأيت إلى هذا الكرم الرباني في جنة الخلد !! قال الحافظ ابن حجر . (في هذا الحديث مـن الفوائد أن كل ما اشتُهـي في الجنة من أمور الـدنيا ممكن فيها ؛ قـاله المهلب . وفيـه وصف النـاس بغالب عـاداتهم قاله ابـن بطال . وفيـه أن النفوس جبلت على الاستكثـار من الدنيا . وفيـه إشارة إلى فضل القناعـة وذم الشره . وفيه الإخبار عن الأمر المحقق الآتي بلفظ الماضي ).

ونترك هذا الرجل الذي رأينا من إكرام الله له بتحقيق رغبته في الزرع ما رأينا ، إلى رجلين آخرين يسأل الأول منهما عن الخيل في الجنة ، ويسأل الآخر عن الإبل ، ويبشرهما رسول الله ﷺ بما يكون من إحسان الله وكرمه يومذاك ؛ ففي «باب ما جاء في صفة خيـل الجنة » مـن كتاب صفة الجنـة من جامـع الترمذي « السنـن » قال الترمذي : حدثنا عبـدالله بن عبدالرحمن قال : أخبرنا عاصم بـن علي قال : حدثنا المسعودي عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن يزيد عن أبيه « أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : يارسـول الله، هل في الجنة من خيل ؟ قال : إن الله أدخلـك الجنة ، فلا تشاءُ أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت. قال:

وسأله رجل فقال : يا رسول الله هل في الجنة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه . قال : إن يُدخلْك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عينك » ثم قال أبو عيسى : حدثنا سويد بن نصر قال : أخبرنا عبدالله بن المبارك عن سفيان عن علقمة عن مرثَد عن عبدالرحمن بن سابط عن النبي ﷺ نحوه بمعناه ، وهذا أصح من حديث المسعودي ..

وتحسن الإشارة هنا ، إلى أن هذا العطاء الذي يعجز البشر عن أن يقدروه قدره ـ وما كان عطاءُ ربك محظوراً ـ مضموم إليه الخلود في الجنة الذي يقابله خلود أهل النار في النار ـ كما هو معلوم ـ وذلك فضل عظيم ، على فضلٍ مِثلِه لأهل التقوى ، ممن له ملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير .

من أجل هذا : كان من الخير أن أعيد إلى الأذهان ما يؤكد الحقيقة المتحدَّث إليها ، فأورد رواية الترمذي التي اشتملت على عدد آخر من المكرمات بجانب ما سبق ، وكل ذلك من فيض إكرام الكريم المنان سبحانه وتعالى . أخرج الترمذي بسنده عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطَّلع عليهم رب العالمين فيقول: ألا يتبع كل إنسان ما كانوا يعبدونه ، فيمثَّل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون ، فيطَّلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا تتبعون الناس ؟ فيقولون: نعوذ بالله منك ، الله ربنا ، هذا مكاننا حتى نرى ربنا ، وهو يأمرهم ويثبتهم، ثم يتوارى ثم يطّلع فيقول : ألا تتبعون الناس؟ فيقولون : نعوذ بالله منك: الله ربنا ، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا وهو يأمرهم ويثبتهم . قالوا : وهل نراه يا رسول الله؟ قال: وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله، قال: فإنكم لا تضارّون في رؤيته تلك الساعة ، ثم يتوارى ، ثم يطّلع فيعرفهم نفسه ، ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني ، فيقوم المسلمون ويوضع الصراط ، فيمرون عليه مثل جياد الخيل والركاب ، وقولهم عليه : سلّم سلّم ، ويبقى أهل النار

فيطرح منهم فيها فوج ، ثم يقال : هل امتلأت؟ فتقول : ﴿ **هل من مزيد** ﴾ ؟ ثم يطرح فيها فوج فيقال : هل امتلأت ؟ فتقول : هل من مزيد ؟ حتى إذا أوعبوا فيها وضع الرحمن قدمه فيها وأزوى بعضها إلى بعض ، ثم قال : قطْ . قالت : قطْ قطْ ، فاذا أدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : أتِي بالموت ملبَّباً فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، فيطلعون خائفين ، ثم يقال: يا أهل النارِ ، فيطّلعون مستبشرين يرجون الشفاعة ، فيقال لأهل الجنة وأهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون ـ هؤلاء وهؤلاء ـ قد عرفناه ، هو الموت الذي وكلِّ بنا ، فيُضجَع فيذبح ذبحاً على السور الذي بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت ». قال أبو عيسى : (هذا حديث حسن صحيح . وقد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة مثل هذه يذكر فيها أمر الرؤية وأن الناس يرون ربهم ، وذكر القدم وما أشبه هذه الأشياء .

والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وأحمد وغيرهم ، أنهم رووا هذه الأشياء ثم قالوا: نروي هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال: كيف؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث؛ أن تروى هذه الأشياء ويؤمن بها ولا تفسَّر ولا تتوهّم ، ولا يقال: كيف؟ وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه؛ فلا تعطيل ولا تأويل ولا تكييف)

ومعنى قوله في الحديث : فيعرفهم نفسه : يعني يتجلى لهم .

هكذا نرى أن كل ما أعدّ الله للأبرار من النعيم ــ على اختلاف صوره وتعدد أنواعه وألوانه ــ مضموم إليه أن هؤلاء المنعم عليهم ، خالدون فيما هم فيه من ذلك الفضل العظيم المتجدد .

ولله الحمد في الأولى والآخرة وصلى الله وسلم على نبينا الهادي إلى سبيل الرشاد في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

# عمر بن عبدالعزيز والعقبى..

# المسلك الصحيح

الذيـن تعمل أخبـار القيامـة ـ بشـارّة ونذارةً ـ عملها في نفـوسهم ، تستنير بصائرهم، وتصلـح معاييرهم عند النظر فيها ما هـو من عمل الدنيا ،ومـا هو من عمل الآخـرة ؛ فالـدنيا متاع زائل ، والآخـرة خير وأبقى . من أجـل هذا : تـراهم يستزيدون ممـا أخبر به الصادق المصدوق بيـاناً لكتاب الله عز وجـل ، عما أعدّ الله لعباده الأتقياء الأنقياء في جنـات النعيم، وما يُفيض عليهم من كـرمه وإحسـانه ، ويُجزل لهم من العطاء الذي لا تبلغ العقول البشرية مداه . ويهولهم ما توعَّد به من جانبوا الحق وغرتهم الحياة الدنيا وغرَّهـم بالله الغرور . وهذا هو المسلك الصحيح الذي يُسلم صاحبه ـ بفضل الله ـ إلى عقبى الدار .

وإنما كان ذلـك ؛لأن آثار الوعد والـوعيد متجددة في حياة المؤمـن، تنعكـس على مفهوماتـه وسلوكه ، فواجـب عليه ـ وهو يـواجه تلكم الحقائق النـاصعة عما يكون بعد الموت ، ومـا يفوز به أهل الطاعـة والإنابة من النعيـم الذي لا ينفد ولا ينقطع، ومـا ينال أهـل الضلال والظلم الـذين حقت عليهـم كلمة العـذاب من الخزي والخلود في دار الجحيـم ـ واجـب عليه والأمـر كذلـك ، أن يجفو التراخـي والكسل ، وينهد بعزيمة أولي الألباب ، وهمة الصـادقين الصابرين ، إلى الإحسـان في التزود والإقبال على الله تعـالى بدأب لا يعرف الكلال، وشـوق متجدد إلى ذلك النزل الكريـم ، نزلِ الأبرار الفائزين بـدار المقامة التي لا يسمعـون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً .

ولقد درج سلف هذه الأمة ـ والخير متجدد إن شـاء الله ـ من بُناة تاريخ أمتنا وحضارتها الإنسانيـة الكريمة ، على أخذ أنفسهم بما تقتضيـه تلك الحقائق ، مهما كان الثغـر الذي كـان عليه الواحـد منهم ؛ حـاكماً أو محكومـاً ، غنياً أو فقيراً ، ذا

منصب وجاه ، أو غير ذي منصب وجاه ، بل وتوجيه الأمة إلى التزامها بغيرة صادقة ، وحرقة على المسلم أن يفقد سلامة السلوك في الدنيا ، فلا يكون لبنة صالحة في المجتمع المسلم ، وطاقة فاعلة في كيان الأمة ، وبعد ذلك يكون مآله في الآخرة عذاب السعير . قال أبو نعيم الأصبهاني في «الحلية»: حدثنا محمد بن أحمد قال : حدثنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو زرعة قال : حدثنا أبوزيد عبدالرحمن بن أبي المعمر المصريُ قال : حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن عن أبيه قال: خطب عمر بن عبدالعزيز هذه الخطبة وكانت آخرخطبة خطبها ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنكم لم تُخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدىً ، وإن لكم معاداً يَنزل الله فيه ليحكم بينكم ويفصل بينكم، وخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، وحُرم جنةً عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمنُ غداً إلا من حذر الله اليوم وخافه، وباع نافداً بباق، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ؟ ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وستصير من بعدكم للباقين ، وكذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين . ثم إنكم تُشيّعون في كل يوم غادياً ورائحاً ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجلُه ، حتى تغيِّبوه في صدع من الأرض ، في شِق صدع ، ثم تتركوه غير ممهّد ولا موسَّد ، فارق الأحباب وباشر التراب ، ووُجه للحساب ، مرتهَنٌ بما عمل ، غني عما ترك ، فقير إلى ما قدَم . فاتقوا الله وموافاتَه وحلولَ الموت بكم ».

وفي تواضع جم تزدان به أخلاق المقربين ـ على ما هو عليه من سلطان الخلافة والحكم ، وخشية صادقة لله وأدب معه ـ جل شأنه ـ وحفظ لحرمات وحقوق المسلمين عامة ، وبعد عن الظلم ومباءات الظالمين ـ خلص خامس الخلفاء الراشدين إلى القول : « أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي ، وأستغفر الله ، وما منكم من أحد يُبلغنا حاجتَه لا يسع له ما عندنا، إلا تمنيت أن يبدأ بي وبخاصتي حتى يكون عيشنا وعيشه واحداً ، أما والله لو أردت غير هذا من غضارة العيش ، لكان اللسان به ذلولاً ، وكنت بأسبابه عالماً ، ولكن سبق من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة دلّ فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته » ثم رفع طرف ردائه ـــ أجزل الله مثوبته وأعلى مقامه في

الآخرين ـ فبكى وأبكى من حوله . وهذا التابعي الموفّق عمر بن ذر رحمه الله، يذكّر مسلك أهل السعادة الذين هجيراهم العمل للآخرة ، والتزود بتقوى الله في السر والعلن وبما أعدّ الله لهم من كريم المثوى في الآخرة ، وأن من زهد في الطريق إلى ذلك فهو المحروم ، قال رحمه الله في موعظة بليغة وكلام مستفيض له : « المغبون من غُبنَ خير الليل والنهار ، والمحروم من حرم خيرهما ، إنما جعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم ، ووبالاً على الآخرين للغفلة عن أنفسهم ، فأحيوا لله أنفسكم بذكره ، فإنما تحيى القلوب بذكر الله، كم من قائم في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته ، وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومته عندما يرى من كرامة الله للعابدين غداً ، فاغتنموا ممر الساعات والليالي والأيام رحمكم الله ».

ألا ما أعز هذه الكرامة وأغلاها ، وما أكثر شعَبها المباركة وأنواعها ، وقد مرّ بنا الكثير من النصوص الدالة عليها . ومن ذلك أيضاً ما روى أبو الشيخ بسنده عن الحسن البصري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة جاءتهم خيول من ياقوت أحمر لها أجنحة ، لا تبول ولا تَروث، فقعدوا عليها ، ثم طارت بهم في الجنة ، فيتجلى لهم الجبار ، فإذا رأوه خروا سجداً ، فيقول لهم الجبار تعالى : ارفعوا رؤوسكم فإن هذا ليس يوم عمل ، إنما هو يوم نعيم وكرامة ، فيرفعون رؤوسهم ، فيمطر الله عليهم طيباً ، فيمرون بكثبان المسك ، فيبعث الله على تلك الكثبان ريحاً فتهيجها عليهم ، حتى إنهم ليرجعون إلى أهليهم وإنهم لشُعث غبر » . وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله قول عبدالله بن المبارك : حدثنا همام عن قتادة عن عبدالله بن عمرو قال : « في الجنة عتاق الخَيل وكرام النجائب» . وقال الإمام مسلم : حدثنا أبو عثمان سعيد بن عبدالجبار البصريُ قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم قال : إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً .

قال الإمام النووي رحمه الله : المراد بالسوق مجمع لهم ، يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق ، ومعنى «يأتونها كل جمعة» أي في مقدار كل جمعة أي أسبوع ، وليس هناك حقيقة أسبوع لفقد الشمس والليل والنهار . والسوق يذكر ويؤنث والتأنيث أفصح .

ويستوقفك هنا بكثير من الإعجاب أن النبي ﷺ ، ـ وهو سيد البلغاء والفصحاء ـ أحسن في تقريب المعنى المراد ـ وهو هنا من الغيب في العالم الآخر ـ بالأسلوب المناسب الذي يعين على سلامة الإدراك ،وحسن التصور لتلك الألوان من الإكرام الإلهي في جنات عدن لمن أيقنوا ، ولم يبخلوا ببذل المستطاع في الدنيا ، فضوعفت لهم المثوبة أضعافاً مضاعفة لا يقدر قدرها ، ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾.

قال القاضي عياض رحمه الله : وخصّ ريح الجنة بالشمال لأنها ريح المطر عند العرب ، كانت تهب من جهة الشام وبها يأتي سحاب المطر ، وكانوا يرجون السحابة الشامية ، وجاءت في الحديث تسمية هذه الريح المثيرة ، أي المحركة، لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها .

ولقد بلغ من إيمان سلفنا الصالح ، ومن سار على نهجهم بما حملت الأخبار الصادقة عن ذلك العطاء الرباني ،حداً جعل دار المقامة وما فيها ـ كما أسلفت غير مرة ـ كأنها تُرى وتُحسُّ ؛ فكان الجدُّ والاجتهاد في طاعة الله تعالى ،والبعد أبداً عن طريق الغفلة والغافلين. قال عمر بن ذر أجزل الله مثوبته: «إنما ابن آدم غرض للمنايا منصوب ، من رمته بسهامها لم تخطئه ، ومن أرادته لم تصبْ غيره ، ألا وإن الخير الأكبر خير الآخرة ، الدائم فلا ينفد، والباقي فلا يفنى ، والممتد فلا ينقطع. والعباد المكرمون في جوار الله تعالى ، مقيمون في كل ما اشتهت الأنفس ولذت الأعين ، متزاورون على النجائب ، ويتلاقون فيتذاكرون أيام الدنيا ، هنيئاً للقوم هنيئاً ، لقد وجد القوم بغيتهم ونالوا طلبتهم ، إذ كانت رغبتهم إلى السيد الكريم المتفضل ».

# كيف يتزاور أهل الجنة فيها

عباد الرحمن المكرمون في جوار الله تعالى يوم تبلى السرائر ، ويجزى كل امرىء بما كسب، إن خيراً فخير وإن شراً فشر : دلت النصوص على أنهم مقيمون في كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، ومن ذلك أنهم يتزاورون على النجائب ويتلاقون ، فيتذاكرون أيام الدنيا بعد أن فازوا بطلبتهم التي يريدون ، وبغيتهم التي كانوا ينشدون ، وتراهم على الأرائك ينظرون ، منزوع من قلوبهم الغل ،على سرر متقابلين ؛ لقد أحلَّهم الكريم المنان دار المقامة من فضله ، **﴿فهم في روضة يحبرون﴾** ، **﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾**. روى الطبراني بسنده عن أبي أمامة قال: «سئل رسول الله ﷺ ، أيتزاور أهل الجنة ؟ قال : يزور الأعلى الأسفل ، ولا يزور الأسفل الأعلى ، إلا الذين يتحابون في الله يأتون منها حيث شاؤوا محتقين الحشايا».

وقد أورد الإمام ابن القيم في كتابه « حادي الأرواح » ما روى الدورقي عن حميد بن هلال أنه قال : « بلغنا أن أهل الجنة يزور الأعلى الأسفل ولا يزور الأسفل الأعلى » وجاء في بعض الروايات عند الطبراني وغيره : « أنهم يتزاورون على النجائب » .

النجائب : النوق العتاق التي يتسابق عليها وهي موضع التكريم عند العرب . يقال : ناقة نجيب ونجيبة والجمع نجائب .

وهكذا ترى أولئك البررة الذين أنعم الله عليهم بجنة الخلد ، يتزاورون فيها ويستزير بعضهم بعضاً ، وبذلك يفوزون بفضل على فضل ، وتتم لذتهم وسرورهم باللقاء فهم جميعاً مغمورون بنعماء لا تنقطع ولا تزول ، **﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة**

**وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾**. ولعل في الحديث بعض بيان لما جاء في سورة الصافات من قوله تعالى : **﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه في سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾** قال الحافظ ابن كثير : ( يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ؛ أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم ، واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر ، والخدم بين أيديهم ، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم ، من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ) .

وفي الآيات ما يدل على إخباره سبحانه وتعالى ، أن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ، ويسأل بعضهم بعضاً ــ كما يقول العلماء ــ عن أحوال كانت في الدنيا ، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة ، إلى أن قال قائل منهم : إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة ، ويقول ما حكاه الله عنه : أئنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ، بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً ، ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة : هل أنتم مطلعون في النار ، لننظر منزلة قريني هذا وما صار إليه ؟ فاطلع فعرفه الله إياه ، فيجده قد تغير وجهه ولونه ، ولقد غيره العذاب الشديد أيَّ تغيير . فعندها قال : تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ؛ أي إن كدت وأنت تكفر بالبعث ، لتهلكني بنفثاتك الضالة المسمومة، ولولا أن أنعم الله علي بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب .

وجاء في سورة الطور قوله جل شأنه: **﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.**

**قالوا إنا كنـا قبل في أهلنا مشفقين . فمنَّ الله علينا ووقانا عـذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ .**

ومن حقيقة الإيمان التصديق بما جاء عن ذلك كله في كتاب الله وبيانه ، من حديث رسـول الله عليه الصلاة والسلام . عـن أنس بن مالـك رضي الله عنه « أن النبي ﷺ لقـي رجلاً يقـال له حـارثة في بعـض سكك المدينـة ، فقال : كيـف أصبحت ياحارثة ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : إن لكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عـن الدينا ، فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي ، وكأني بعرش ربي بارزاً ، وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها ، وكأني بأهل النار في النار يعذبون . فقـال النبي ﷺ : أصبت فالزم ، مؤمـن نور الله قلبه » وفي رواية أخرى : « عبـد نوّر الله قلبـه » قال الهيثمي في « مجمـع الزوائد » : رواه البـزار وفيه يوسف بن عطيه لا يحتج به . ورواه أيضاً الحافظ الطبراني في المعجم الكبير ـ على مقال للعلماء في أحد الـرواة ـ بلفظ « كيف أصبحـت ياحارثة ؟ قـال : أصبحت مؤمناً ، قال : انظـر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقـة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عـن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكـأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكـأني أنظر إلى أهـل الجنة يتـزاورون فيها ، وكـأني أنظر إلى أهـل النار يتضاغون فيها ، قال : ياحارثة عرفت فالزم » .

وأنت واجد في بعـض الروايات الأخرى ، التي جاءت في شـأن هذا التزاور والتذاكر ، مما يكرم الله به هؤلاء الأبرار من عباده المقربين في مقعد الصدق عنده ، تفصيلاً ، يربي الإيمان في القلب ، ويزيـد من الثبات على الحق عند التحدي ، كما يشحذ الهمـة ويقوي العـزيمة مـن أجل اللحاق بـأولئك الـذين صـدقوا الله في الدنيا، فمنَّ عليهـم بذلك الخير العظيم في الآخرة . قال ابن أبي الـدنيا : حدثنا عبدالله قال : حدثنا سلمة بن شبيب ، قال : حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يشتاق الإخـوان بعضهم إلى بعض ، قال : فيسير سرير هذا

إلى سرير هـذا ، وسرير هذا إلى سريـر هذا ، حتـى يجتمعا جميعاً ، فيقـول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعـونا الله فغفر لنـا » قال : وحدثنـي حمزة بن العباس قـال : أنبأنا عبـدالله بن عثمان قال : أنبـأنا ابن المبـارك قال: أنبأنـا إسماعيل بـن عياش قال : حـدثني ثعلبة بن مسـلم عن أيوب بن بشير العجلي عـن شُفَيّ بن ماتع أن رسول الله ﷺ قال : « إن من نعيم أهل الجنة أنهم يتزاورون على المطايا والنجب ، وأنهم يؤتون في الجنة بخيل مسرجة ملجمة لا تروث ولا تبول ، فيركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله عز وجـل ، فيأتيهم مثل السحـابة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعـت، فيقول: أمطري علينا ، فما يزال المطر عليهم حتى ينتهي ذلك فوق أمانيهم ، ثم يبعث الله ريحاً غير مؤذيـة ، فتنسف كثائب من مسـك عن أيمانهم وعن شمائلهم ، فيـأخذ ذلك المسك في نـواصي خيولهم ، وفي مفارقهم، وفي رؤوسهم ؛ ولكـل رجل منهم جمة على مـا اشتهت نفسـه ، فيعلق ذلـك المسـك في تلك الجمام وفي الخيـل وفيما سوى ذلـك من الثياب ، ثـم يقبلون حتى ينتهوا إلى مـا شاء الله تعالى ، فـإذا امرأة تنادي بعـض أولئك : ياعبدالله أمـا لك فينا من حـاجة ؟ فيقول : ما أنـت ومن أنت ؟ فتقـول أنا زوجتك وحِبـك ، فيقول : ما كنـت علمت بمكانـك ، فتقول المرأة وما علمت أن الله قال: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ فيقول : بلى وربي ، فلعلـه يشتغل عنها أربعين خريفـاً لا يلتفت ولا يعود ، ما يشغله عنها إلا ما هو فيه من النعيم والكرامة » .

شفي بن ماتـع : تابعي ثقة ، قال الحافظ : ( أرسل حديثـاً فذكره بعضهم في الصحابة خطأ ) وقد أورد الحديث ابن القيم رحمه الله في كتابه « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » غفر الله لنـا وبلغنا منازل أهل القرب عنده سبحـانه وهو المحمود على كل حال .

كلما رجع المؤمن بصره فيما حملت كتب السنة المطهرة عما يكون من تحقيق وعد الله تبارك وتعالى ـ ولا يخلف الله الميعاد ـ عباده الصالحين ، بالمنح الجليلة والعيش الرغد يوم القيامة ، حيث ينشر عليهم رحمته ، ويفيض عليهم من عطائه وكريم إحسانه فيدخلهم جنات عدن ، ويتجلى عليهم برضوانه ، ويزيدهم فضلاً برؤية وجهه الكريم ... كلما رجع المؤمن بصره في تلك النصوص المباركة ، التي هي تقرير وتأكيد وتفصيل لمجمل ما جاء في الكتاب العزيز في هذا الشأن ـ وكان على حال لا تعوزه معها يقظة القلب واستنارة البصيرة ـ ازداد يقيناً على يقين بسمو ما كان عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه ؛ من إحسان في تربية أصحابه على الشوق إلى لقاء الله ، والتطلع الإيماني إلى سلوك السبيل المشرقة بالعبودية ، والتي تحمل صاحبها ـ بفضل الله وعونه ـ إلى تلكم المنازل ، منازل أهل الرضا في عالم البقاء ؛ أولئك الذين يتبوؤون مقعد الصدق عند ذي الجلال والإكرام ﴿ إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

فكان ﷺ لاينـي يحفز على العبادة الخالصة ، والجهاد في سبيل الله ، وفعل الطاعات والقربات ، ويكشف عما لأهل السعادة من الخير المقيم عند الله ، والنعيم الذي لا يزول ؛ حتى في الدعاء ، كان فيما يدعو ويعلم أصحابه ـ أو بعضهم ـ من الأدعية التي يأمرهم بحفظها ، وأن يتعاهدوا أهلهم بها ، أدعية هي في الذروة من مناجاة المخلوق للخالق ، في عبودية خالصة وضراعة باكية ، وخشوع لله وخضوع بين يديه سبحانه ؛ كل أولئك ، رجاء حسن العاقبة ، وأن يكون الداعي من أهل القرب ، فيفوز بنزل الأبرار يوم يبعثون ، ويحظى بما يحظى به أولئك المفلحون الفائزون .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا أبوبكر قال : حدثنا ضمرة ابن حبيب بن صهيب عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت «أن رسول الله ﷺ علمه دعاءً وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال : قل كل يوم حين تصبح : اللهم لبيك وسعديك ، والخير في يديك، ومنك وبك وإليك . اللهم ما قلت من قول ، أو نذرت من نذر ، أو حلفت من حلف ؛ فمشيئتك بين يديه ، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شيء قدير . اللهم وما صليت من صلاة فعلى من صليت ، وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، إنك أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ، أسألك اللهم الرضى بعد القضاء ، وبرد العيش بعد المهات ، ولذة النظرة إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك من غير ضراءً مضرَّة ، ولا فتنة مضلة ، أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أظلم ، أو أعتدي أو يعتدى علي ، أو أكتسب خطيئة محبطة ، أو ذنباً لا يغفر ، اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، وأشهدك وكفى بك شهيداً ، أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، والجنة حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور ، وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي، تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي كله ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم». وأخرجه أبوداود .

كما أخرجه الإمام أحمد بسنده عن أبي مجلزٍ قال: «صلى بنا عمار صلاة فأوجز ، فأنكروا ذلك فقال : ألم أتم الركوع والسجود ؟ قالوا : بلى ، قال أما إني قد دعوت فيها بدعاء كان رسول الله ﷺ يدعو به . اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضى ،

والقصد في الفقر والغنى ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهديين » وأخرجه ابن حبان والحاكم .

والحق أن التوجيه النبوي الكريم إلى التزود النافع للآخرة والإعداد ليوم اللقاء بالتضرع إلى الله طلباً للثبات على الإيمان ، ودوام الاستقامة ، ورجاء غسل الحوبة ومغفرة الذنوب ، كان يصحب ـ كما أسلفت ـ الدعوة الحارة إلى العمل الصالح الذي تبتغى به مرضاة الله تعالى ، وحسن ثوابه يوم الفصل الذي لا ريب فيه .

من أجل ذلك ؛ كان الواحد من أصحاب النبي ﷺ ـ ودرج على ذلك من تبعهم بإحسان ـ لا يني يبحث ، وينقب عن العمل الذي يكون سبيله إلى ما يطلبه أولو النهى من الزحزحة عن النار ودخول الجنة دار النعيم المقيم ؛ وذلكم هو الطريق الأمثل الذي يتسق تمام الاتساق مع حقيقة أن الدنيا دار الفناء ، وأن الآخرة دار البقاء ، وأن الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لها ـ وهي خير مستقر وأحسن مقيل ـ أهلها الذين يسلكون طريقها ، مهما تفاقمت العقبات واشتدت المكاره .

ونماذج ذلك كثيرة تكاد تعز على الحصر ؛ منها سؤال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن الأعمال التي هي أقرب إلى الجنة ، فهي تقرب صاحبها إلى دار الخلود ، وتباعده عن جهنم .

قال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن أبي عمر المكي قال : حدثنا مروان الفزاري قال : حدثنا أبو يعفور عن الوليد بن العيزار عن أبي عمروٍ الشيباني عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : «قلت : يانبي الله أي الأعمال أقرب إلى الجنة قال : الصلاة على مواقيتها . قلت : وماذا يانبي الله ؟ قال : بر الوالدين . قلت : وماذا يانبي الله قال : الجهاد في سبيل الله » .

وعلى الصعيد العملي ، ثبت أن أهل السعادة يسألون الاستجابة ،ويسارعون إلى العمل بما تدعو إليه الكلمة الهادية ، دونما إبطاء أو تسويف . ولقد أكرم الله الأمة المحمدية بأن أعطاها في الآخرة مالم يعط غيرها من الأمم ؛ لما أنها على الدين الذي أنزله الله ورضيه لعباده ، والعاقل كل العاقل من يحرص على صدق الانتماء - إيماناً وعملاً - إلى خير أمة أخرجت للناس ، ويسعى جاهداً لأن يكون على المحجة البيضاء التي ترك رسول الله ﷺ الأمة عليها ، وأن لا يكون حظه من النسب إليها أمانيَّ مبتورة عن العمل ،لا تسمن ولا تغني من جوع . أخرج الترمذي بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : « كنا مع النبي ﷺ في قبة نحواً من أربعين ، فقال لنا رسول الله ﷺ : «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قالوا : نعم قال : أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قالوا : نعم قال : أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة ؟ إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، ما أنتم في الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن عمران بن الحصين وأبي سعيد الخدري .

# وجبت... كلٌ ميسرٌ لما خلق له

دواعي الفرح بما يكون للمؤمن يوم القيامة ــ بفضل الله تعالى ـ من النعيم المقيم والخير العميم ، ورجاء المرء أن يكتب في عداد من يغمرهم هذا الفضل ، ينعمون مطمئنين بما يكون لأهل الجنة في الجنة ... كل أولئك وأمثاله مما توحي به نصوص الكتاب والسنة، ويدعو المؤمن إلى أن يجدَّ في الطلب، دأباً على طاعة الله، وثباتاً على الحق ، ووفاءً بما عاهد الله عليه ، ويتأكد ذلك ، إذا علمنا ما جعله النبي ﷺ من القيمة لشهادة المؤمنين بعضهم على بعض في أمر الآخرة . قال الإمام البخاري في « باب ثناء الناس على الميت » من كتاب الجنائز في الجامع الصحيح ، حدثنا آدم قال: حدثنا شعبة قال : حدثنا عبدالعزيز بن صهيب قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : « مرّوا بجنازة ـ وفي رواية مر على النبي ﷺ بجنازة ــ فأثنوا عليها خيراً ، فقال النبي ﷺ : وجبت، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال: وجبت ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ».

وبتكرار كلمة «وجبت» ثلاثاً جاءت رواية مسلم من طريق عبدالعزيز بن صهيب عن أنس أيضاً أنه قال : مرَّ بجنازة فأثني عليها خيراً ـ أو خير ــ فقال النبيﷺ : وجبت وجبت وجبت ، ومر بجنازة فأثني عليها شراً ــ أو شر ـ فقال النبي ﷺ : وجبت وجبت وجبت ، فقال عمر : فدىً لك أبي وأمي : مر بجنازة فأثني عليها خير فقلت : وجبت وجبت وجبت ، ومر بجنازة فأثني عليها شر فقلت : وجبت وجبت وجبت، فقال رسول الله ﷺ : من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض » .

وأخرجه الترمذي مختصراً ، كما أخرجه النسائي بنحوه .

ولقد يكون في بعض الروايات ما يعين على مزيد من التبيُّن ؛ ففي رواية النضر بن أنس عن أبيه عن الحاكم ؛ كنت قاعداً عند النبي ﷺ فمر بجنازة فقال : ما هذه الجنازة ؟ قالوا : جنازة فلان الفلاني ، كان يحب الله ورسوله ويعمل بطاعة الله ويسعى فيها فقال رسول الله ﷺ : وجبت وجبت وجبت ، ومُرَّ بجنازة أخرى قالوا : جنازة فلان الفلاني كان يبغض الله ورسوله ويعمل بمعصية الله ويسعى فيها ، فقال : وجبت وجبت وجبت ، فقالوا : يارسول الله قولك في الجنازة أثني على الأول خير وعلى الآخر شر فقلت فيهما : وجبت وجبت وجبت ، فقال : نعم يا أبابكر إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر » . رواه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ . واتجه الذهبي إلى أنه على شرط مسلم . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ففيه تفسير ما أبهم من الخير والشر في رواية عبدالعزيز . وللحاكم أيضاً من حديث جابر ، « فقال بعضهم : لنعم المرء ، لقد كان عفيفاً مسلماً » وفيه أيضاً «فقال بعضهم : بئس المرء كان إن كان لفظاً غليظاً ». هذا : والتكرار في رواية مسلم لكلمة «وجبت» لتأكيد الكلام المبهم ـ كما يقول الإمام النووي ـ ليحفظ ويكون أبلغ : وقد كان من البيان غزيرِ النفع قوله ﷺ : « هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة » لأن المراد بقوله: وجبت » أي الجنة لذي الخير ، والنار لذي الشر . قال الحافظ: (والمراد بالوجوب الثبوت ؛ إذ هو في صحة الوقوع كالشيء الواجب ، والأصل أنه لا يجب على الله شيء ؛ بل الثواب فضله والعقاب عدله، لا يسأل عما يفعل). وجميل ما حقق العلماء من أن الظاهر أن الذي أثنوا عليه شراً، كان ـ والعياذ بالله ـ من المنافقين ، ويرشد إلى ذلك ما رواه أحمد من حديث قتادة بإسناد صحيح «أنه ﷺ لم يصلِّ على الذي أثنوا عليه شراً وصلى على الآخر ».

من أجل ذلك، لم يرض رسول الله ﷺ للمسلمين ترك العمل اتكالاً على ما يكون قُدِّرَ . أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال : « كنا في جنازة في

بقيع الغرقد ، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكّس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : « ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال : أما أهل السعادة فييسَّرون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة: فييسَّرون لعمل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره. لليسرى وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى﴾ ».

وفي رواية أخرى للبخاري عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ « أنه كان في جنازة فأخذ عوداً ينكت في الأرض فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار أو من الجنة قالوا : يارسول الله أفلا نتكل ؟ قال : اعملوا فكلٌ ميسر ﴿فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى...﴾ » الآية . وقوله ﷺ : « اعملوا » جرى مجرى أسلوب الحكيم ـ كما يقول الحافظ ـ أي الزموا ما يجب على العبد من العبودية ، ولا تتصرفوا في أمر الربوبية . ورواه أبوداود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، كما رواه ابن ماجة في المقدمة من « السنن ».

وفي سمة من سمات المنهج النبوي في التربية على التي هي أقوم ـ وهي سمة التكامل والعمق والشمول ـ نجد النبي ﷺ لا يدع أن يوجه الأمة وِجهة العمل الذي يقتضيه الإيمان وتوجبه أهلية التكليف ، حتى يصل الأمر إلى ذكر أوصاف لأهل الجنة في الدنيا وأوصاف لأهل النار ؛ فتحت باب « الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار » قال الإمام مسلم في صحيحه: حدثني أبو غسان المسمعيُّ ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار بن عثمان ــ اللفظ لأبي غسان وابن المثنى ـ قالا : حدثنا معاذ بن هشام قال : حدثني أبي عن قتادة عن مطرف بن عبدالله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبة : « ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني ، ويومي هذا.

كل مـال نحلته عبداً حـلال ـ أي قال الله تعالى : كـل مال نحلته ــ وإني خلقت عبادي حنفـاء كلَّهم وإنهم أتتهم الشيـاطين فاجتالتهـم عن دينهم ، وحـرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي مـا لم أنزل به سلطاناً . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عـربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهـل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتليـك وأبتلي بك وأنزلـت عليك كتـاباً لا يغسله الماء ، تقـرؤه نائماً ويقظانـاً ، وإن الله أمرني أن أحرِّق قريشـاً . فقلت : ربي إذا يثلغوا رأسي فيـدعوه خبزة ، قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك ، وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشـاً نبعث خمسة مثلـه ، وقاتل بمـن أطاعـه من عصاك . قـال : وأهل الجنة ثلاثـة : ذو سلطان مقسط متصدق مـوفق ، ورجل رحيم رقيـق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له ـ أي لا عقل له ـ الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون ـ أو لا يبتغون ـ أهلاً ولا مـالاً ، والخائن للدين لا يخفـى له ــ أى لا يظهر له ــ طمع وإن دق إلا خانه، ورجـل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومـالك » وجاء في رواية لأحمد : وذكر البخـل أو الكذب . والشنظير الفاحش ــ وهو السيء الخلق ـ قال مسلم : ولم يذكر أبو غسان في حديثه « وأنفق فسننفق عليك » .

نُغزك : نعينـك . اجتالتهـم: استخفوهـم فذهبـوا بهم. بقايـا أهل الكتـاب: الباقون على التمسك بـدينهم الحق من غير تبديل. لا زَبْرَ لـه : لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي . لا يخفى له طمع : لا يظهر له طمع . قال أهل اللغة . خفيت الشيء إذا أظهرته ، وأخفيته إذا سترته وكتمته . كل مـال نحلته عبداً حلال : فيه حذف أي ، قال الله تعالى : « كل مال ..» والله المحمود على كل حال .

# ضحكت فاطمة للبشرى العظيمة

إذا ذكرت الجنة ونعيمها المقيم ، وما تشرق به وجوه أهلها من النور ، وما يفيض عليهم من العطاء ؛ تداعت إلى ذهن المؤمن سير أولئك البررة من السلف الصالح، ومن يسلك نهجهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ ذلك بأن الواحد منهم ـ بتوفيق الله تعالى ـ لا يدع باباً من أبواب الخير التي تصل بسالكها إلى دار المقامة ، إلا ولجه ؛ وسيلته إلى ذلك صالح العمل ، والجهاد في سبيل الله، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود. ولا يدع أيضاً أن يكون في أقواله وأفعاله وسلوكه، داعية خير وهداية إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ، الموصولة بسعادة الآخرة يوم الفصل ميقاتِ الناس أجمعين .

وهؤلاء الرجال الأتقياء الأنقياء ـ الذين إذا ذُكرت الجنات ذُكروا ـ حجة على أهل الغفلة الذين لا يرجون لله وقاراً ، فلا تتحرك قلوبهم لذكر الآخرة ـ وأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار ـ ولا يعملون على تزكية أنفسهم كيما يسلَس قيادها ، وتنهض بعبء الطاعة كما ينبغي ، لا تشوبها شائبة من جهل أو رياء ، وترضى بحكم الله ورسوله في الشؤون كلها ، كيما يكونوا ـ برحمة الله ـ في عداد من يقال لهم يوم القيامة : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

هذه واحدة ،وأما الثانية : ففي الوقت نفسه تعمل تلك السير عملها في نفوس من عقلوا عن الله ورسوله بشائر الجنة لطلّاب الآخرة ، فيضاعفون من عمل الصالحات ، وتنهض بهم عزائمهم إلى التزود من كل ما هو بر وصدق في المواطن، وبذل للأموال والأنفس في سبيل الله ، موقنين أنهم ملاقو ربهم في اليوم الموعود ، وأن لهم عنده لزلفى وحسن مآب .

تذكر المصادر في ترجمة التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله تعالى ما

روى أبو نعيم في « الحلية » والفسوي في « المعرفة والتاريخ » وأورده الذهبي في «السير» بالسند عن خالد بن صفوان أنه قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: ياخالد أخبرني عن حسن أهل البصرة ـ يعني الحسن البصري ـ قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قِبَلي به: « أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك كيف يضل قوم هذا فيهم ».

هذه الأخلاق التي تبدو على الزلال من إرث النبوة، جعلت أهل البصيرة يعتقدون أن الحسن من أعلم الناس بطريق الجنة. قال عوف بن أبي جميلة الأعرابي: « كان محمد حسن العلم حسن القضاء حسن العلم بالفرائض، حسن العلم بالتجارة، غير أني والله ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن ».
وكان رحمه الله ـ يعجب لطغيان الغفلة التي تباعد الناس عن طلاب دار الخلد ويأسف له قال رحمه الله: « ما حلِّيت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمَة ـ ثم لا ترى لها عاشقاً » لقد عجب الحسن لصنيع أهل الغفلة وأسف، وحق له ذلك، وكيف يقع هذا، وقد حُليت دار النعيم على النحو الذي جاء في الكتاب العزيز وفي بيانه من حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، اللهم عفوك وعافيتك !! إنه الحرمان والعياذ بالله.

والذي يدعو إلى العجب أكثر وأكثر، لما تصنعه الغفلة وقسوة القلب بأصحابها؛ أن ما حليت به الجنة لا انقضاء له، لأن الخبر الصادق جاء بخلود أهل الجنة وخلود أهل النار. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مناسبة أخرى، ومما ورد في هذا الشأن ما روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يقال لأهل الجنة: خلود لا موت ولأهل النار خلود لا موت ». وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

قال: « يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يقال: ياأهل الجنة فيطلعون مشفقين ، ويقال : ياأهل النار فيطلعون فرحين ، فيقال: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم ، هذا الموت ، فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال : ياأهل الجنة خلود فلا موت ، وياأهل النار خلود فلا موت ».

وفي هذا الهدي النبوي بيان تقرير وتأكيد لما جاء من قوله تبارك وتعالى في شأن أهل الجنة : ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم**﴾ وقوله جل شأنه في شأن أهل النار : ﴿ **خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون** ﴾ ومثل ذلك كثير في كتاب الله . إنه الخلود للفريقين ؛ كل بما هو فيه، خلوداً لا انقضاء له دون موت يلحقهم .

وقد يتساءل بعض الناس عن الحكمة في إخبار الكتاب والسنة بالخلود ، والحكمة في الإخبار بوصفين كل منهما يدل عليه الآخر ؛ لأن الخلود يدل على عدم الموت ، وعدم الموت يدل على الخلود . وكان من جواب العلماء على ذلك أن في الإخبار لأهل النعيم بدوامه زيادة في نعيمهم ، ورفعاً لتشويش ممكن وقوعه من تخوفهم سلب ما هم فيه ، فيضاعف بتحقيق ذلك السرورُ عليهم . وكم في ذلك من مضاعفة الأحزان على أهل الشقاوة والعذاب . ثم إن في ذكر الخلود مع ذبح الموت تأكيداً في الإخبار لأهل السعادة المتمتعين بنعيم الجنة حتى لا يبقى فيه - والله أعلم - احتمال بوجه من الوجوه ، ويحصل لهم بذلك أكبر النعيم؛ وهو القطع بدوام نعم المنعم عليهم بلا تعب يلحقهم ، ولا ألم بوجه من الوجوه المحتملة في هذه الدار ، لأن نعيمها وإن دام لأحد ، فالموت يقطعه ، فأخبروا أن ذلك النعيم بخلاف هذا ،لأن دوامه لا ينقضي ، ولا لهم فيها موت يقطعه . ومثل ذلك في ضده أهل دار الشقاء .

وهكذا يزداد المؤمن يقيناً على يقين بفضل الله الذي لا يحدُّ في الجنة التي يورثها عباده الصالحين بما كانوا يعملون ؛ فلا بدع أن يشمر المحسنون عن سواعد الجد صابرين ، ويأخذوا أنفسهم بما يقتضيه طريق الجنة ، فسلعة الله

غالية وثمنها الله ـ صدق معه سبحانه ، وانصراف إلى كل ما فيه طاعة الله ، ونصرة دينه وشريعته ، وأخذ النفس بتقوى الله في السر والعلن . وليس عجباً من العجب أن يكون المؤمن ـ وهو يحس حلاوة الطاعة ويتذوق طعم العبادة ـ محباً لقاء الله ، مشتاقاً إلى جنته ، شديد الفرح إذا نالته البشرى بدار الكرامة عند مولاه سبحانه .

وذلك ما كان من فاطمة رضي الله عنها ، حين بشرها رسول الله ﷺ بأنها سيدة نساء أهل الجنة وأنها أول أهله لحوقاً به ـ عليه الصلاة والصلاة ـ إلى دار البقاء ، أخرج الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رشي الله عنها قالت : « لما كان يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ أصبح رسول الله كأنه وجد خفةً ، فافترق الناس واجتمع نساؤه عنده ، لم يغادر منهن امرأة ، ثم أقبلت فاطمة ، فلا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ ، فلما رآها استبشر وتهلل وجهه ، فسارَّها فبكت ، ثم سارَّها فضحكت ، فقلت : ما رأيت كاليوم أقرب فرحاً من بكاء ، ثم سألتها عما سارَّها به ؟ فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ . فلما مات رسول الله ﷺ سألتها وقلت لها : بما لي عليك من الحق إلا ما أخبرتني ، فقالت : أسر إليَّ : أي بنية إن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة ، وإنه عارضني الآني مرتين ، وما أراني إلا اقترب أجلي ، فلا تكوني دون امرأة صبراً ، فبكيت ، فقال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ، وأنك أول أهلي لحوقاً بي فضحكت » ورواه أبوداود بلفظ مقارب والترمذي مختصراً وحسنه .

وليس هذا بدعاً من فاطمة عليها الرحمة والرضوان ؛ فهي بضعة منه ﷺ . وهنيئاً لها تلك البشرى العظيمة التي يشهد العباد تحققها في يوم لاريب فيه .

ونسأله تعالى ـ بفضله ومنه ـ أن يرزقنا حسن التأسي ، وأن لا يعاملنا يوم الحساب بما نحن له أهل ، ولكن بما هو له ، إنه ـ سبحانه ـ أهل التقوى وأهل المغفرة .

## ماذا عن أول زمرة يدخلون الجنة!

كان من فضل الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه على الأمة المحمدية ـ وهو ذو الجلال والإكرام ـ أن أكمل لها الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً. وامتد رواء هذا الفضل ، فكان الاستخلاف في الأرض ، وتمكين الدين ، وتبديل الأمة بعد الخوف أمناً . وذلك باقٍ ما لم يغير المسلمون ما بأنفسهم ، فإذا غيروا ما بأنفسهم ـ كما هي الحال في كثير من الناس والبقاع ـ غيرَّ الله ما بهم ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ . إنها النعماء التي تتقاصر الأمة اليوم عن شكرانها الحقيقي ، الذي يتمثل في الاهتداء بهدي الكتاب والسنة ، وأن لا يكون لمؤمن ولا مؤمن خيرة فيما يقضي الله في كتابه ، ورسوله المصطفى في سنته عليه الصلاة والسلام .

يصحب هذا : أن مظاهر الفضل الأخرى : هي ما يكون للمسلم ــ إن هو التزم طريق الجادة كما هو في شرعة الإسلام ـ ما يكون له في الآخرة من النجاة من عذاب الله المهين في جهنم مآب الكافرين ، والأخذِ بيده ليكون من الخالدين في جنة عدن التي يورثها الله من عباده من كان تقياً ، والتي أكلها دائم وظلها ، لا يمسُّ أهلَها نصب، ولا يمسُّهم فيها لغوب . وتراهم ـ في خلودهم ـ لا يصدَّعون عنها ولا ينزفون . والسعيد من قدر هذه النعماء قدرها ،وتسامى عن الاغترار بزينة الحياة الدنيا ، وحزم أمره على الفرار إلى الله بعزيمة صادقة ، وهمة عالية لا تعرف ـ بعون الله ـ الكلال .

ولقد بلغ من إكرام الله لهذه الأمة ـ وفي هذا ما فيه من العظة والتذكير ـ أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر ـ وهو الصادق المصدوق ـ عن أول زمرة يدخلون

الجنة، كيف يكونـون ؟ الأمر الذي يحرك بواعث الشوق إلى الجنـة ، ويثير مشاعر الإيمان تطلعاً إلى تلك اللحظـات النيرات ، كما يبعـث على العمـل بعمل أهـل السعادة ، بصدق نية وإخلاص لله عز وجل .

قـال الإمام البخـاري في : « باب مـا جاء في صفـة الجنة وأنها مخلـوقة» مـن كتاب بـدء الخلق في الجامع الصحيح : حـدثنا إبراهيـم ابن المنذر قال : حـدثنا محمد بـن فُليح قال : حدثنـا أبي عن هلال عـن عبدالرحمن بن أبي عمـرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أول زمـرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذيـن على آثارهم كأحسن كوكـب دري في السماء إضاءة ، قلوبهم على قلب رجـل واحد ، لا تباغـض بينهم ولا تحاسـد ، لكل امرىء زوجتـان من الحور العين ، يرى مخ سـوقهن من وراء العظم واللحم » وله في روايـة أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمـر ليلة البـدر ، ثم الـذين يلـونهم ، على أشد كـوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولـون ولا يتغوطون » وأخرجـه أيضاً في كتاب أحاديـث الأنبياء من الجامع الصحيح «باب خلق آدم وذريته» .

وأخرج الإمـام مسلم عـدداً من الأحـاديث في كتـاب « الجنة وصفـة نعيمها وأهلها» من صحيحه ، فتحت باب « صفـات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشياً» قال رحمه الله : حدثنا محمد بن رافع قـال : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا معمر عن همام بن منبه قـال : هذا ما حدثنا أبوهريرة عـن رسول الله ﷺ ؛ فذكر أحاديـث منها : قال رسول الله ﷺ : « أول زمـرة تلج الجنة على صورة القمـر ليلة البدر ، لا يبصقون فيهـا ولا يمتخطون ولا يتغوطون فيها . آنيتهم وأمشـاطهم من الذهـب والفضة ، ومجامرهـم من الألوَّة ، ورشحهـم المسك ، ولكل واحـد منهم زوجتـان يرى مـخ ساقهـا من وراء اللحـم من الحسـن ، لا اختلاف بينهـم ولا تباغـض ، قلوبهم قلب واحـد يسبحون الله بكـرة وعشياً » وجاء في روايـة أخرى لمسلم : إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ... » الحديث .

وذكر الإمـام النووي «أن مذهـب أهل السنـة وعامة المسلمين أن أهـل الجنة يأكلـون فيها ويشربون ، ويتنعمون بـذلك وبغيره من ملاذٍ وأنـواع نعيمها ، تنعماً دائماً لا آخر له ولا انقطاع ، وأن تنعمهم بذلك على هيئة تنعم أهل الدنيا ، إلا ما بينهما من التفاضل في اللـذة والنفاسة التي لا تشارك نعيم الـدنيا إلا في التسمية وأصل الهيئة، وإلا في أنهم لا يبولون ولا يتغوطون.. إلى آخر ما جاء في الأحاديث.. وقد دلـت دلائل القرآن والسنة في هـذه الأحاديـث التي ذكرهـا مسلم وغيره ، أن نعيم الجنة دائم لا انقطاع له أبداً ».

وجاء في بعـض الروايات عند مسلـم « إن أول زمرة تدخل الجنـة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب». قال الشراح عند كلمـة « زوجتان» : هكذا في الـروايات بالتاء وهـي لغة متكررة في الأحـاديث وكلام العـرب ، والأشهر حذفهـا ـ أي التاء ــ وبه جـاء القرآن وأكثر الأحـاديث. وعند كلمـة « أعزب » قال الإمـام النووي : هكذا في جميـع نسخ بلادنـا «أعزب» بالألف وهـي لغة ،والمشهور في اللغة «عَـزَبٌ» بغير ألف . ونقل القاضي ــ يعني القاضي عياضاً ـ أن جميع رواتهم رووه «وما في الجنة عزب » بغير ألف إلا العذري فرواه بـالألف . قـال القاضي : ليـس بشيء والعزب بفتـح العين والزاي: مـن لا زوجة له ، والعزوب البعد ، وسمي عزباً لبعده عن النساء . الألوَّة : العود .

هذا : ونجـد في روايات أخر عـن جابـر بن عبدالله رضي الله عنهما بـالنسبة للطعام « .. ولكن طعـامهم ذاك جشاء كرشح المسك، يلهمـون التسبيح والحمد كما يلهمـون النفَـس ». وجـاء في روايـة الترمـذي : « .. آنيتهـم فيهـا الـذهـب، وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامـرهم من الألوة ورشحهم المسك ... إلى أن يقول: لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب رجل واحدٍ، يسبحون الله بكرة وعشياً » قال أبوعيسى : هذا حديث صحيح .

وإذا كانت هـذه الروايات ، قد حملت إلينـا ما تكون عليه أول زمـرة يدخلون

الجنة يومئذ ، وأشارت ـ بإجمال ــ إلى طعامهم واستغراقهم في الحمد والتسبيح : فقد جاء في أحاديث أخر شيء من التفصيل . أخرج البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده ، كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة ، فأتى رجل من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : بلى قال : تكون الأرض خبزة واحدة ـ كما قال النبي ﷺ ـ فنظر النبي ﷺ إلينا وضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أخبرك بإدامهم ؟ قال : إدامهم بالام ونون. قالوا : وما هذا ؟ قال ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً» .

معنى يتكفؤها الجبار ، الجبار اسم من أسماء الله عز وجل ، ويتكفؤها : أي يُميلها ، من قولك كفأت الإناء إذا قلبته وكببته . نزلاً : أي ما يُعدُّ للضيف من الطعام والشراب . وفي معنى «بالام »: قال ابن الأثير : قد جاء في متن الحديث أنه الثور ولعل اللفظة عبرانية . والنون: الحوت وهو عربي . وأخرج الحديث مسلم بلفظه عن أبي سعيد أيضاً .

والمهم قبل هذا وبعده : أن يكون المؤمن على المستوى اللائق من العمل الصالح والجهاد في سبيل الله ، ومراقبة المولى عز وجل في السر والعلن ، كفاء هذا الإنعام العظيم والطريق الموصلة ــ بفضل الله ورحمته ـ إليه ؛ فليست هذه الأخبار الصادقة لتزجية الوقت والترف الثقافي ،ولكنها عنوان المسؤولية يوم الدين، والحافز العظيم على اقتحام العقبات ، وتجاوز المصاعب التي تعترض طالب الجنة دار النعيم المقيم الذي لا ينقطع أبداً . والعهد قريب بما ثبت من الحقيقة التي قررها النبي ﷺ ، وهي « أن الجنة حجبت أو حفت بالمكاره ، وأن النار حجبت أو حُفَّت بالشهوات » والله حسبنا ونعم الوكيل ، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، بيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله . مغفرته أوسع من ذنوبنا ورحمته أرجى عندنا من أعمالنا . له الحمد في الأولى والآخرة ، وهو على كل شيء قدير .

# كرامة الشهيد..
# والجنة تحت ظلال السيوف

ما أعظم ما تقفنا عليه أحاديث المبلغ عن الله ما أراد ﷺ وهي تأتي على ذكر المصائر يوم القيامة ـ من ثمرات مباركات تشرق بلألائها مواكب الخالدين، أولئك الذين جادوا بأنفسهم لله عز وجل في ساحات الجهاد ، ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، بعد أن أقبلوا على الموت ، مستعلين على لذائذ الدنيا وشهواتها ، غير آبهين لزخرفها ومغرياتها ، مستبشرين ببيعهم الذي بايعوا ربهم به ، في تشوفٍ إلى ما يحظى به الشهداء من كونهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله .

ما أعظم ما تقفنا عليه أخبار الهدي النبوي في ذلك ، وأكرم بها توجبه من المسابقة إلى ميادين البذل في سبيل الله ؛ لما أن موعود الله لباذلي أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، هو الحق كله والصدق كله . والسعيد الموفق ؛ من انتفع بترغيب القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام ، فصدق اللّهَ في ساحة الجهاد ، مقبلاً غير مدبر ، معداً العدة التي ترفع ـ بعد الله ـ صاحبها إلى مصاف أولئك الذين صدق فيهم أن السيف محاء للخطايا ، فسعدوا بالشهادة ودخول الجنة من أي باب يشاؤون ، ذلك بأنهم صدقوا الله فصدقهم ، ووفى بعهده لهم . ألم تر إلى قول الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ .

ولكم تهفو نفوس أهل الفلاح ، الذين يستعلون على المعوقات في سبيل الله إلى تلكم المشاهد النوارنية يوم الحساب ، مشاهد من يتوجون تاج الكرامة في تلكم الساعات الزاخرة بالشدة والهول ، وعلى رؤوس الأشهاد: يعلَنُ ما هم

عليه من حقيقة أن اللون لون الدم والريح ريح المسك ، صدقَ وأحقيةَ ما حملته الأخبار الصادقة في ذلك ، ويفيض ربنا تبارك وتعالى عليهم عطاءه ـ ﴿**وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ـ ويحل عليهم رضوانه ، جزاء ما قدموا صادقين مخلصين في ساحات الصبر في المواطن والبذل في سبيل الله ، راضية نفوسهم ، مبتسمة للموت شفاههم .

أخرج الترمذي بسنده عن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «إن أرواح الشهداء في حواصل طيرٍ خضر تعلُق من ثمر الجنة أو شجر الجنة » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح .

تعلُق بضم اللام : ترعى من أعالي شجر الجنة ، والأصل في المعنى أن : علَقت تعلُق : أكلت ، وذلك في الإبل إذا أكلت العضاة ـ وهو نوع من شجر البادية ـ فنُقل إلى الطير.

ويقودنا هذا النص الكريم ، إلى حديث آخر يحمل لوناً من البشائر الفورية للشهيد ؛ منها : أنه يرى مقعده من الجنة ؛ فعن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال : للشهيد عند الله ست خصال : يغفر الله له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه » أخرجه الترمذي وابن ماجة وإسناده حسن وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب.

وأنت واجد ـ كما تدل الأخبار الصحيحة ـ أن الشهيد عندما يرى ما له من الكرامة في الجنة ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ، فيقتل عشر مرات في سبيل الله ، كيما يكون الحظ أوفر ـ في تصوره ـ من ذلك الفضل الإلهي الكبير . وهذا يؤكد ما أومأت إليه آنفاً ، من الترابط الوثيق بين ما يكون عليه المؤمن في الدنيا دار العمل، وبين ما يكون إليه المصير في الآخرة دار الجزاء . أخرج البخاري ومسلم والترمذي

والنسائي ــ واللفظ للبخاري ــ عـن أنس بن مـالك أن النبيﷺ قال: «مـا أحد يدخـل الجنة يحب أن يرجـع إلى الدنيـا وله ما على الأرض مـن شيء ، إلا الشهيد، يتمنى أن يـرجع إلى الـدنيا فيقتل عشر مـرات لما يرى مـن الكرامـة » . وفي رواية للنسائي قـال رسول الله ﷺ : « يؤتـى بالرجل مـن أهل الجنة ، فيقـول الله تعالى: ياابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : أسألـك أن تردني إلى الدنيا فـأقتل في سبيلك عشر مرات ، لما يـرى من فضل الشهادة ».

والحق أن الثمرة الطيبـة المباركة التي يجنيهـا الشهداء يوم يقف النـاس لرب العالمين ، منبَّـهٌ عليها من ذي قبـل ، والمؤمن يسبق بـذلَه في سبيل الله ، تصـديقُه الجازم بما جاء عن أجر المجاهد في سبيل الله، والخير العظيم الذي ينتظر الشهيد .

ومـا أحسـن ما جـاء عنـد الإمـام البخـاري في كتـاب الجهاد مـن الجامـع الصحيح تـرجمةً لبعض الأبواب حيث قـال : « باب الجنة تحت بارقـة السيوف» وقال المغيرة بـن شعبة : أخبرنـا نبينا ﷺ عن رسـالة ربنا : مـن قتل منـا صار إلى الجنـة ، وقال عمر للنبـيﷺ : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهـم في النار ؟ قال بلى . ثم قال البخاري رحمه الله : حدثنا عبدالله بن محمد قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال : حـدثنا أبو إسحاق الفـزاري عن موسـى بن عقبة عن سـالم بن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله ـ وكان كاتبه ـ قال : كتب إليه عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال : « واعلمـوا أن الجنـة تحت ظلال السيـوف » . المراد بقوله ـ وكان كاتبه ـ أن سالماً كان كاتب عبدالله بن أبي أوفى .

والأمر العظيم ذو الدلالة في تلك الحقبة من تاريخ أمتنا ـ ولا أقصد الحصر ـ سرعة الاستجابـة، وعمق التفاعل مع هذا الذي ينبىء بـه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والأمثلة على ذلك موفورة متنوعـة الصور ؛ منها ما أخرج مسلم بسنده عن أبي بكر ابـن أبي موسى الأشعري قـال: ـ سمعت أبي ـ وهـو بحضرة العدو ـ

يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجل رث الهيئة فقال : ياأباموسى آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال: نعم قال : فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل » .

جفن السيف : بفتح الجيم وسكون الفاء : غِمده ، وجاءت الرواية عند الترمذي عن أبي بكر ابن أبي موسى الأشعري بلفظ : سمعت أبي بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف »، فقال رجل من القوم رث الهيئة : أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ يذكره ؟ قال : نعم فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام وكسر جفن سيفه فضرب به حتى قتل وأخرجه أحمد وأبوداود . ومما تذكرنا به هذه الواقعة على صعيد الاستجابة السريعة وسرعة التفاعل الصادق مع ما يبشر به النبي عليه الصلاة والسلام ، دليلَ قوة الإيمان : صنيع عمير بن الحمام رضي الله عنه يوم بدر وهي واقعة مشهورة معروفة ثبتت في الصحيح وما أكثر الوقائع !!.

وقوله ﷺ: « إن الجنة تحت ظلال السيوف » نموذج رائع من نماذج البلاغة النبوية ، انظر إلى هذه الصورة التي تبدو غايةً في حسن التعبير عن المراد وإثارة المشاعر لتحقيقه ؛ فالجهاد وحضور معركة القتال حيث بارقة السيوف المتشابكة فوق رؤوس المتقاتلين : طريق إلى الجنة وسبب لدخولها . ويرى ابن الأثير أن هذا التعبير المشرق البليغ ، كناية عن الدنو من الضراب في الجهاد ، حتى يعلوه السيف ويصير ظله عليه . وقال القسطلاني في « إرشاد الساري» : أي أن ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة ، عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ، وهو من المجاز البليغ لأن ظل الشيء لما كان ملازماً له ـ ولا شك أن ثواب الجهاد الجنة ـ فكأن ظلال السيوف المشهورة في الجهاد تحتها الجنة ، أي ملازمها استحقاق ذلك، وخص السيوف لأنها أعظم آلات القتال وأنفعها ـ يعني يومذاك ـ لا أنها أسرع إلى الزهوق وهنيئاً لمن قال الله فيهم : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾.

# السيف مخاء للخطايا

مما تشرق به مشاهد القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار .... تلك المواكب التي تعلن بسناها الوضاح عما لأصحابها من مكانة عظيمة ، ومنزلة رفيعة عند الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة ، وأعني بها مواكب الشهداء .

أقول هـذا ، وقد آذنتنـا بعض النصوص مـن حديـث رسول الله ﷺ ــ وهذا البعض قليل من كثير ـ بشيء من ذلك فيما سبـق من قريب . وما أكثر المبشرات ودواعي الفرح بفضـل الله ، التي تفجأ المؤمن مـن خلال الإطلالة المبـاركة ،عبر الكلمة في الهدي المحمدي.

ومن الخير أن نتابـع النظر في هذا الهدي الميمون ، ابتغـاء الاستنارة المتجددة بما تزدان به تلـك المشاهد من الضياء ، وذلـك مما يسعف في أن يدرك الـواحد منا ببصيرة المؤمن ، ما تحمـل من الدلالة على عظيـم ما تصنعه قطرة الـدم في سبيل الله، بل ما يصنعه أيُّ إسهام مادي أو معنوي في أن تقوم قائمة الجهاد ، ويعبدَ الله حقَّ العبادة فيه .

وليس من ينكر ــ وقد أوتي حظاً من العقل عن الله ورسوله ــ ما تحمله تلك النصوص في زيـادة يقين المؤمن بأحقية قـوله عليه الصلاة والسـلام : « إن الجنة تحت ظلال السيوف » علماً بأن هذه الصـورة المعبرة المؤثرة ، تحكي عمل السلاح البارز يومئذ في معركة المناجزة مع أعداء الله والإنسان ، فلا تعارض بين ذلك وبين ما يجب استخـدامه من أسلحـة متطورة في ميـادين الجهاد في سبيـل الله ، وتظل العظة التي يحملها الحديث بالغة الإثارة ، والترغيب بدار السلام مثوى المجاهدين لتكون كلمة الله هي العليا .

وها هي ذي قبضة من الشذرات الأخر تحمل نوعاً من التفصيل ، يكشف عن آماد الرضى الذي يفوز به من قاتل في سبيل الله رضيَّ النفس راغباً حقاً في الشهادة ، كما تدلُّ على مقام أهل البذل في مرضاة الله ، وما للشهداء عند ربهم من وافر النعماء والخصوصية ، لما أنهم صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فقضوا نحبهم في المعركة مقبلين غير مدبرين ، صابرين محتسبين . وعلى ساحة الاعتبار : توحي بما يجب من الالتزام بأمانة السير على منوالهم ، والعمل بمقتضى التصديق الجازم بما أعدَّ الله جل جلاله ـ بفضله ـ لهم من النعيم الذي لا يزول . وكلما ادلهمت الخطوب ، وتطاول ليل الابتلاء والفتن على هذه الأمة، تبدَّت أكثر وأكثر ، ضرورة الالتزام المومى إليه ، والعمل الجاد الذي يتقتضيه تصديق المؤمن بما جاء به الخبر الصادق عن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وعن رسوله عليه الصلاة والسلام . قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا معاوية بن عمروٍ قال : حدثنا أبو إسحاق ـ يعني الفزاري ـ عن صفوان ـ يعني ابن عمروٍ ـ عن أبي المثنى ، عن عتبة بن عبدِ السُّلَمي ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « القتل ثلاثة ؛ رجل مؤمن قاتل بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو ، قاتلهم حتى يقتل ، فذلك الشهيد المفتخر في خيمة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة ، ورجل مؤمن فَرِقٌ على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل ، محيت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب وبعضها أفضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله ، حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله حتى يقتل ، فإن ذلك في النار ، السيف لا يمحو النفاق » .

وجاء في المسند أيضاً قول الإمام أحمد :حدثنا يعمَر بن بشر قال : حدثنا عبدالله قال : أنبأنا صفوان بن عمرو أن أبا المثنى المليكيَّ حدثه أنه سمع عتبة ابن عبد السلمي ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ يحدث عن رسول الله ﷺ قال :

«القتل ثلاثـة : فذكر معناه . فـرق بفتح الفاء وكسر الراء : أي خـائف وجزع من فرِق بمعنى خاف .

فهذا المقـاتل في سبيل الله ، خـائف على نفسه من الـذنوب والخطايـا ، وقد أقبل على الله في ميدان القتـال يبغي أن تمحى ويعفى عليها، فلا يبقـى لها من أثر يعوقـه عن دخول الجنة ، وقـد أكرمه الله بذلـك ؛ لأن السيف الذي يقاتـل به في سبيل يمحو الله به الخطايا ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « السيف محاء ـ وهي على وزن فعـال صيغة مبـالغة ــ للخطايا » واكـرم بذلـك من وسيلـة ، ويا سعادة لمن يخوضون معارك الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، يحدوهم الإيمان والإخلاص. وهنيئا لهم ما ينتظـرهم يوم القيامة في جنة الخلـد التي يجدونها فرِحة بهم ؛ كما يكونون فرحين بها .

أما المنافق : فلم يُجْدِه أن يشارك في الجهـاد ـ وَرانُ الكفر مطبق على قلبه ـ ولم ينفعه أن يقتـل هناك ، فهو في النـار خالـد مخلَّد ، لأن السيف لا يمحـو النفاق ؛ فمحو الخطايا قائم حيث الإيمان موجـود تخالط بشاشته القلب، أما محو النفاق: فليس من أمر السيف أن يمحو الخطايا والآثام ، مادام القلب خالياً من الإيمان، قـد باض فيـه الكفر وعشـش ﴿وقـدمنا إلى مـا عملوا مـن عمـل فجعلناه هبـاءً منثـوراً﴾.

والحديث أخرجه الطبراني ،وابن حبان في صحيحه والبيهقي. ولفظه عند ابن حبـان : عن عتبـة بن عبـد السُّلَمـيِّ رضي الله عنه قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول: « القتلى ثلاثـة : رجل مؤمن جاهـد بنفسه وماله في سبيـل الله حتى إذا لقي العدو قـاتلهم حتـى يقتل ؛ فذلـك الشهيد الممتحـن في جنة الله تحت عـرشه لا يفضلـه النبيون إلا بفضـل درجـة النبوة . ورجـل فَرِقٌ على نفسـه مـن الذنـوب والخطايا جاهـد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو قـاتل حتى يقتل، فتلك مُمَصْمِصة محت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من

بعض. ورجل منافـق جاهد بنفسه وماله ، حتى إذا لقي العـدو قاتل في سبيل الله عز وجل حتى يقتل ، فذلك في النار ؛ إن السيف لا يمحو النفاق » قال المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد والطبراني وابن حبـان في صحيحه والبيقهي . وقال الهيثمي في مجمع الـزوائد : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح ، خـلا المثنى الأملوكـي وهو ثقة . هكـذا وردت الروايـة عند غير أحمد بلفظ « القتلى ثـلاثة» . و«الممتحـن» بـدل « المفتخـر في خيمـة الله » كما رأينــا العبـارة عنـد أحمد . قـال المنذري: الممتحن : بفتح الحاء المهملة هو المشروح صدره ، ومنه «أولئك الذين امتحـن الله قلوبهم للتقـوى» أي شرحها ووسعهـا . وفي رواية لأحمد «المفتخـر في خيمة الله تحت عـرشه » ولعله تصحيـف ، الممصمصة : بضم الميـم الأولى وفتح الثانية وكسر الثالثة وبصادين مهملتين : هي الممحِّصة المكفِّرة .

وعن نعيم بن عمار رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : « أي الشهداء أفضل ؟ قال : الذين إن يُلْقَوْا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك ينطلقون في الغرف العلا من الجنة ، ويضحك إليهم ربهم ؛وإذا ضحك ربك إلى عبـد في الدنيـا فـلا حساب عليـه » رواه أحمد وأبـو يعلى ورواتهما ثقات . وأخـرج الطبراني بإسناد حسـن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « أفضـل الجهاد عنـد الله يوم القيـامة الـذين يلتقـون في الصف الأول فـلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف من الجنة يضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم».

تلكم نثـارات من نثارات الضيـاء التي تزدان بها مواكـب الأبرار يوم القيـامة فتعلن إعلانها على رؤوس الخلائق ، ونعم أجر العـاملين . قال ابن الأثير في معنى «يتلبطون » فيه : أنه سئل عن الشهداء فقال :« أولئك يتلبطون في الغرف العلا » أي يتمرغون . ومنه حديث ماعز «لا تسبـوه فإنه الآن يتلبط في الجنة » أما المنذري فقال : يتلبطون معناه يضطجعون . والمعنى متقارب والخطب سهل . فما أعظم ما يغمرهـم من الفضـل الكبير في تلكم الغـرف من جنـة المأوى، وأكرم بمـن هذه حاله،يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

# إلى ربها ناظرة

رؤية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى عياناً يوم القيامة ـ وهم في روضة يحبرون ـ منة إلهية عظمى ، إذا نالوها نسوا ما هم فيه من النعيم المقيم ، وسبحان المنعم المتفضل الذي لا راد لفضله ، ولا حجاز عما يريد ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . وهذا الإكرام الغامر من الله ، للسعداء من عباده ،برؤية وجهه الكريم في دار البقاء ، لا يرتاب فيه منصف ، لما أنه ثبت بالكتاب العزيز والسنة الصحيحة، وقرت به عيون أهل السنة والجماعة ، ولا يحرمه ـ كما يقول أهل الحق ـ إلا محروم . قال الحافظ ابن كثير ( وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها) من هنا كان عجبًا من العجب موقف المنكرين للرؤية في تلك الدار ، مع أن الأدلة على ذلك ، بلغت من وضوح الدلالة وقوتها ـ مع قطيعة ثبوتها ـ حداً لا يتجاوزه إلا مكابر أو زائغ .

وأنت واجد أن أبناء الآخرة تخذوا منها غاية شمروا لها ، وشحذوا هممهم في الطاعات وعمل الخيرات والجهاد في سبيل الله ، من أجل أن يكونوا ـ بفضل الله ـ من أهلها .

وبين يدي ما يجب إيراده من أحاديث، هي بيان لما جاء في القرآن الحكيم، تقرر وتؤكد ، وتفصل ما يكون من إجمال وفق ما يتسع المقام في هذه السطور، تحسن الإشارة إلى ما أفاض به الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه « حادي الأرواح» من كلام طيب تمهيداً لسوق الأدلة على الوجه الذي أراد ؛ فمما نجده هناك : (وإن سألت عن يوم المزيد ، وزيارة العزيز الحميد ، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه ، كما ترى الشمس في الظهيرة ، والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق

المصـدوق صلى الله وسلـم وبـارك عليـه ؛ وذلك مـوجـود في الصحـاح والسنـن والمسانيد مـن رواية جرير وصهيـب وأنس وأبي هريرة وأبي مـوسى ، وأبي سعيد ، فاستمع يوم ينادي المنادي : ياأهل الجنـة إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحي على زيارته ـ وما أكرمها وأعزها من زيارة ـ فيقولون : سمعاً وطاعة ، وينهضون إلى الزيارة مبادرين ، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم ، فيستوون على ظهورها مسرعين، حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعداً ، وجمعوا هناك فلم يغادر الداعي منهم أحـداً ، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنصـب هناك ، ثم نصبت لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، وجلس أدناهم ـ حاشاهم أن يكون فيهم دنيء ـ على كثبان المسك ما يرون أن أصحـاب الكراسي فوقهم في العطـايا ، حتى إذا استقـرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهـم ، نادى المنادي : ياأهل الجنة إن لكم موعـداً يريد ربكم أن يجزيَكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجـوهنا ، ويثقل موازيننا ، ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؟ فبينما هم كذلك ؛ إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة ، فرفعوا رؤوسهـم، فإذا الجبار جل جـلاله وتقدست أسماؤه قـد أشرف عليهم من فوقهم، وقال : ياأهل الجنة سلام عليكم، فـلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام ، فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى يضحـك إليهم ويقول: ياأهـل الجنة ، فيكون أول ما يسمعـون منه تعـالى : أيـن عبادي الـذيـن أطـاعوني بـالغيـب ولم يـروني ؟ فهذا يـوم المزيـد ، فيجتمعون على كلمة واحدة : أن قد رضينا فارض عنا ، فيقول : ياأهل الجنة لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتـي . هذا يوم المزيد فاسألـوني ، فيجتمعون على كلمة واحدة : أرنا وجهك ننظر إليه ، فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب ، ويتجلى فيغشاهم مـن نوره ما لولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقـوا لاحترقوا ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة ، حتى إنه ليقول : يافلان ، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا ، يذكره ببعض غدراته في الدنيا ، فيقول: يارب ألم تغفر لي ؟

فيقول : بلى بمغفرتي بلغت منزلتك هذه ).

يقول الإمام ابن القيم : فيالذة الأسماع بتلك المحاضرة ، وياقرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الآخرة ، وياذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة **﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة﴾**.

فحيَّ على جنات عدن فإنها　　　منازلك الأولى وفيها المخيم

والجدير بالذكر أن النصوص لم تدل على وقوع هذه الرؤية فحسب ، ولكن دلت على أن الرؤية تقع عياناً . عقد الإمام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله: « باب قول الله تعالى: **﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾** ثم قال رحمه الله : حدثنا عمرو بن عون قال : حدثنا خالد أو هشيم ، عن إسماعيل عن قيس عن جرير قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها فافعلوا » وله من رواية أخرى عن قيس بن أبي حازم قال ؛ حدثنا جرير قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا البدر لا تضامون في رؤيته » ثم روى البخاري بسنده في الباب المومى إليه عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبدالله قال : قال النبي ﷺ « إنكم سترون ربكم عياناً» .

ولذلك قال العلماء في قوله تعالى : **﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرة ﴾** أى حسنة بينة مشرقة مسرورة ، **﴿ إلى ربها ناظرة ﴾** أي تراه عياناً كما رأينا في حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه .

ويبدو أن الإمام البخاري في قوله : « باب قول الله تعالى : **﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾** يشير ـ كما يقول الحافظ ـ إلى ما أخرجه الإمام أحمد وابن

أبي شيبة والدارقطني والبيهقي والخطيب في تاريخه وابن المنذر و عبد بن حميد والترمذي، والطبري وغيرهم ـ وصححه الحاكم من طريق ثوير بن فاختة عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألف سنة ، وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه ربه عز وجل في كل يوم مرتين قال : « ثم تلا ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ قال : بالبياض والصفاء ﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال : تنظر كل يوم في وجه الله ». وهذا لفظ الطبري .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد قال : أخبرني شبابة عن إسرائيل عن ثوير بن فاختة قال : سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدوة وعشيَّة ، ثم قرأ رسو ل الله ﷺ ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة﴾. وروى الإمام أحمد عن ثوير بن فاختة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » .

ويبدو أن هذا الحديث، كما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، روي موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنه في تفسير الآية ـ وللموقوف هنا حكم المرفوع ـ قال الترمذي بعد أن روى الحديث : قال أبوعيسى : وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعاً : ورواه عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن ابن عمر موقوفاً . وورى عبيد الله الأشجعي عن سفيان عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله ، ولم يرفعه .

# إلى ربها ناظرة.

نواصل اليوم رحلتنا المباركة مع لون من ألوان العطاء الإلهي ، هو غاية الغايات بالنسبة للمؤمن ، وأعني به ما يكون من رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة ، تلك الرؤية التي ثبتت ـ فيما وراء الآيات من كتاب الله عز وجل ـ بأحاديث صحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث وجهابذة العلم ـ كما أسلفنا من قبل ـ لا يمكن دفعها ولا منعها ، من أجل هذا تراها ـ بحمد الله ـ مجمعاً عليها بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة المحمدية ، كما أنها متفق عليها بين أئمة الإسلام وهداة الأنام ، الذين هم على الصراط السوي من نهج النبي عليه الصلاة والسلام ، ولذلك قال قائلهم :

وينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال .

وقد جاءت الروايات التي فيها المرفوع إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وفيها الموقوف على ابن عمر رضي الله عنهما ، تكشف عن تفسيره عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى في سورة القيامة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ بأنه نظر المؤمنين إلى وجه ربهم الكريم . ونرى في رواية للإمام أحمد « وإن أفضلهم منزلة ـ يعني أهل الجنة ـ لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » وفي رواية الترمذي « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » ومثل هذا ما أخرج الدارقطني والخطيب في تاريخه عن أنس رضي الله عنه « أن النبي ﷺ أقرأه ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ فقال : والله ما نسخها منذ أنزلها ؛ يزورون ربهم تبارك وتعالى، فيُطعمون ويُسقون ويُطيَّبون ويُحَلَّوْنَ ، ويرفع الحجاب بينهم وبينه ، فينظرون إليه وينظر إليهم عز وجل » وروى ابن مردويه في «تفسيره » بسنده عن المصعب بن المقدام قال: حدثنا سفيان عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن عبدالله

بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** ﴾ قال : من البهاء والحسن « إلى ربها ناظرة» قال :« في وجه الله عز وجل». وقال أبوصالح ذكوان السمان الزيات عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ قال : تنظر إلى ربها نظراً . ثم حكى عن ابن عباس مثله . قال الإمام ابن القيم : ( وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والحديث ).

وإذا كان المؤمن يطمع أن يقع على ما يزيده يقيناً على يقين ، بأن لأهل الجنة من عباد الله الصالحين ـ ومن هنا بيانية ـ موعداً لابد هو منجزهم إياه ـ بكرمه وفضله ـ وهو الرؤية التي يتفضل بها عليهم : فهنالك العديد من البراهين التي تؤدي هذا المطلب ؛ من ذلك ما جاء في شأن قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ إذ فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه ، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ المنزل عليه القرآن ، وهو المؤتمن على بيانه .

قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عفان قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب « أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى منادٍ ياأهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويُجرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم» ورواه أيضاً ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر الهذلي ـ على كلام للعلماء فيه ـ عن أبي تميمة الهجيمي به . وقال الإمام مسلم: حدثنا عبيد الله بن عمر بن ميسرة قال: حدثني عبدالرحمن بن مهدي قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبدالرحمن أبي يعلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى : تريدون أن أزيدكم شيئاً؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا

من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » ثم قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة بهذا الإسناد ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

فالذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح والإخلاص في الدين ،يبدلهم الله الحسنى في الدار الآخرة ، وهي الجنة كما قال تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومن كريم فضله أن ينعم عليهم بالزيادة على ذلك بالكثير الكثير من النعم في دار المقامة ؛ وأفضل ذلك وأعلاه ، النظر إلى وجهه الكريم، وهو ما فسرت به الزيادة ـ كما نرى ـ فإنه زيادة أعظم من جميع ما أُعطوه، لايستحقون ذلك بعملهم ، بل برحمته ـ سبحانه ـ و إحسانه، فهو يعطي الجزيل على العمل القليل .

والحديث الذي نحن بصدده أخرجه أيضاً الترمذي والنسائي وابن ماجة ولفظ الترمذي بسنده ، عن صهيب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكموه قالوا : ألم يبيض وجوهنا ، وينجنا من النار ويدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب ، قال : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » قال أبو عيسى : حديث حماد بن سلمة هكذا ، رواه غير واحد عن حماد بن سلمة مرفوعاً ، وروى سليمان بن المغيرة هذا الحديث عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قوله ولم يذكر فيه عن صهيب عن النبي ﷺ .

هذا : وأخرج الطبري الحديث مختصراً ، تقتصر الرواية فيه على تفسير الزيادة وأنها النظر إلى الله عز وجل : فقد روى بسنده عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبيﷺ في قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : «النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » كما روى بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه « أنه سأل

رسول الله ﷺ عـن قول الله عـز وجل : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال: «الحسنى : الجنـة ، والزيادة : النظر إلى وجـه الله عز وجل» ، ورواه أيضـاً ابن أبي حاتم من حـديث زهير به . وروى الحسن بن عرفة بسنـده عن أنس رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فقال: «للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة. والزيادة النظر إلى وجه الله».

ومما يزيـد الأمر توكيداً ، ويضيف إليه قـدراً جديداً من الوثـوق الذي يقدره أهل العلم ، ما نقل بالأسانيد الصحيحة ، من تفسير الآية بما فسرها به النبي عليه الصلاة والسلام ،عـن عدد من الصحابة عليهـم الرحمة والرضوان ، وهـم الذين شهدوا التنزيل ، وعلمـوا بيان الفرقان الحكيم ، ممن وكـل إليه البيان صلوات الله وسلامه عليه. من هؤلاء الأجلة : أبوبكر الصديق ، وأبوموسى الأشعري، وحذيفة ابن اليمان ، وأنس بـن مالك ، وعبدالله بـن عباس وعبدالله بن مسعـود . كما نقل ذلك عن عدد من التابعين يرحمهم الله . منهم سعيد بن المسيَّب ، وعبدالرحمن بن أبي ليلى ،والحسن البصري ، وعبدالـرحمن بن سابط ، ومجاهد بـن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعامر بن سعد ، وعطاء الخرساني والضحاك بن مزاحم ، وقتادة وإسماعيل بن عبدالرحمن السدي ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف .

ومما روي في ذلك أيضـاً : ما أخرج الإمام أبو جعفـر الطبري بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه (« للـذين أحسنوا الحسنى وزيادة» النظر إلى وجـه الله الكريم) وبـه عن حـذيفـة رضي الله عنه « النظـر إلى وجـه ربهم تبارك وتعـالى » . كما روى بسنده عـن ثابـت البناني عن عبـدالرحمن بن أبي ليلى في قـوله : « وزيـادة» قال: «قيل له : أرأيت قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : «إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنـة ، فأعطوا فيها ما أعطـوا من الكرامة والنعيـم، قال : نودوا: ياأهل الجنة إن الله قد وعدكم الزيادة ، فيتجلى لهم . قال ابن أبي ليلى : فما ظنك بهم حين ثقلت مـوازينهم ، وحين صـارت الصحف في أيمانهم ، وحين جـاوزوا جسر جهنم ، ودخلوا الجنة ، وأعطوا ما أعطوا فيها من النعيم ؟ كل ذلك لم يكن

شيئاً فيما رأوا » .

اللهم اجعلنا من الذين تثقل موازينهم يوم الحساب ، ويعطون كتابهم بأيمانهم ، ويفوزون برؤية وجهك الكريم في جنة النعيم ياذا الجلال والإكرام .

كلما ذكرت مشاهد القيامة ، يـوم يوفي الله العباد دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ، وما ينتظـر الذين ضلوا السبيـل وغلبت عليهم شقوتهم، مـن نار تلظى وحميم وغساق ، وظـل من يحموم لا بارد ولا كريم ، وما يتحقـق معه موعود الله لأهـل تقواه مـن النعيم في الجنـات العاليـة ، وما يتفضـل به عليهـم ـ وهـو المتفضل ذو الإحسان ــ من إحلال رضوانـه عليهم ورؤية وجهه الكـريم .. كلما ذكرت تلك المشـاهد وما فيها ، أشرقـت في نفس المؤمن صور مـن سلوك أولئك الربانيين أهل الآخرة .. الذين كان لهم من عقيدة التوحيد وتذوق حلاوة الإيمان ، مـا حجزهـم عـن محارم الله ، وجعل هجيراهـم أن يكونـوا ــ على كل أحـوالهم ـ جـاهديـن في طاعتـه والتقرب إليـه ؛فتراهـم إليه منيبين ، وبين يـديه خـاشعين خاضعين ، وفي سبيلـه مجاهديـن . ويجتهدون في أن يعبـدوه ـ جـل شأنـه ـ حـق العبادة ويشكروه على نعمـه ـ كما ينبغي ـ فيضعـوا ما أنعم به عليهـم على طريق امتثالهم لما أمـر واجتنابهم لما عنه نهى ؛ فهم أبـداً ـ بتوفيقـه إياهم ـ على الطـريق التـي تجعلهم في عـداد من تـزلف لهم دار المقـامـة يوم الـدين ، ويكـونون ــ بما يتغمدهم برحمته جل وعلا ـ من أهل القرب والفوز العظيم .

وليس من المغالاة في شيء أن نقول مع القـائلين من أهل البصائر : كأن بين هؤلاء البررة ـ في إيمانهم وتقـواهم وجهادهم ـ وبين العطـاء الإلهي في ذلك اليوم العظيم نسباً ؛ لما أن الجنة ـ كما هو ثابت ـ تشتاق إلى أبنائها ، وكل ميسر لما خلق له .

ثم إن برهان الإخلاص في قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » القيام بحقها، ومن حقها أن تحجز قائلها عن محارم الله ، قال أبو نعيم في « الحلية » : حدثنا محمد

قال: حدثنا محمد بن أسلم قال : حدثنا عمار بن عبدالجبار عن الهيثم بن جماز عن أبي داود عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قال رسول الله ﷺ . وإخلاصك بلا إله إلا الله ، أن تحجزك عما حرم الله عليك » أخرجه الطبراني . وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من لم تكن فيه واحدة من ثلاث فلا يعتد بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن المحارم ، و حلم يكف به السفيه ، و خلق يعيش به في الناس» قال الهيثمي في « معجم الزوائد» : رواه الطبراني ، وفيه عبدالله بن مسلم بن هرمز قال أبو حاتم : يكتب حديثه وليس بالقوي ، وبقية رجاله ثقات .

هكذا يأخذ أهل العزائم أنفسهم بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في الدنيا ، فيفوزون بالزحزحة عن النار ، ودخول الجنة دار المتقين ، فضلاً من الله ورحمة يوم الدين ، وتتبدى معالم النسب المتصل بينهم، وبين تلك المكارم التي يجود بها الرحيم الرحمن على من يحبهم ويحبونه ، يوم تزلف الجنة للمتقين .

بدرت إلى ذهني هذه الخاطرة ، وأنا أسعد برحلة مباركة مع بعض الأحاديث المتعلقة ببعض مشاهد القيامة، وأنظر في صفحات من تراجم أولئك المقربين الذين بات سلوكهم عنواناً على سلامة الطريق التي سلكوها ، إيماناً وطاعة وجهاداً ، فكان موقعهم يوم القيامة ، أنهم في جنات مكرمون . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

والحق أن أمتنا اليوم بأمس الحاجة إلى تبين الصلة بين سيرة هؤلاء الرجال ـ الذين همهم سلامة الاتباع لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ وبين الأثر الذي يتركه ما جاء في أخبار يوم الحشر الأكبر ، من الترغيب والترهيب، في تصوراتهم وسلوكهم؛ فقد يحل ذلك كثيراً من المشكلات الفكرية ، والسلوكية، ويعالج أمراضاً ، مبعثُها ما يكون من انفصام بين العلم والعمل ، أو بين العقيدة

والسلوك . يقـول العالم الـزاهد الثقة أحمد بـن أبي الحواري المتوفى سنـة( ٢٤٦هـ) «سمعت أبـا سليمان الداراني ـ المتـوفى سنة (٢٠٥هـ) أو (٢١٥هـ) ـ يقـول : «اختلفوا علينا في الزهد ، بالعراق ؛ فمنهم مـن قال : الزهد في ترك لقاء الناس ، ومنهم من قـال : في ترك الشهوات ، ومنهم مـن قال : في ترك الشبع : وكـلامهم قريـب بعضه مـن بعض وأنا أذهـب إلى أن الزهد في تـرك ما يشغلـك عن الله» . ويشكو أحمد بن أبي الحواري إلي أبي سليمان أنه لم يوتر البارحة ، ولم يصلِّ ركعتي الفجر في جماعة ، فيكون من جوابه : «أن سبب ذلك شهوة أصابها » قال أبونعيم في الحلية : حدثنا أبـو محمد قال: حدثنا أحمد بن أبي المعلى قـال : حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال: «قلت لأبي سليمان : لم أوتر البارحـة ولم أصل ركعتي الفجر ولم أصل الصبـح في جماعة قـال : بما كسبت يـداك والله ليس بظـلام للعبيد ، شهـوة أصبتها».

وفي فهم عميق لما تكون عليه الحال ، والناس على الصراط يـوم القيامة ؛ فإما إلى الجنة و إما إلى النـار، ودعاء الأنبياء والمرسلين «سلم سلـم » يقول أبو سليمان : «إذا قال الرجـل لأخيه : بيني وبينك الصراط ، فإنه لا يعـرف الصراط ، لو عرف الصراط لأحب أن لا يتعلق بأحد ، ولا يتعلق به أحد ».

وعلى هذا السنـن، في استشعار مـا جاء في الكتـاب والسنة عـن ذكر الموت، وعما يكون بعد الموت وعن يوم الحساب : يوجه رحمه الله إلى ما ينبغي أن يكون عليه العبد المعنيُّ بنفسه ، كيما يكون بتوفيق الله من أهل الآخرة . قال أثابه الله : «ينبغي للعبد المعنيِّ بنفسه ، أن يميـت العاجلة الزائلة المتعقبة بالآفات مـن قلبه، بذكر الموت وما وراء الموت من الأهوال والحساب ، ووقوفه بين يدي الجبار » .

إنه النهج الذي يجعل من التصديـق الجازم بما جاء عن الله ورسوله في هذه الشؤون ، خير حـافز على العمل المخلص المتـوازن الذي يسعد في الدنيـا ويوم الحساب ، الأمر الذي يجعل من عمارة الأرض وفق المنهـج الرباني ـ بإخلاص نية

وإتقان قائم على الأخذ بـالأسباب ـ باباً إلى مرضـاة الله في دار الجزاء . ويانعم ما أعـده الله لهؤلاء المؤمنين الأتقياء الأصفيـاء ، من الخير العميـم يـومذاك ، حيـث تكون عاقبة أمـرهـم أن يتغمدهم الله برحمة من عنده ، فيكونـوا في زمرة من يقال لهم وقد وجفت القلـوب واشتدت الكرب : ﴿ **ياعباد لا خـوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الـذين آمنوا بآياتنـا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنـة أنتم وأزواجكم تحبرون**﴾ .

وهنـالك يكشـف الغطاء ، فيبصر مـن أعمتهـم الغفلة في الـدنيا ، حقيقـة الصلة بين ما أخذ أهل التقوى به أنفسهم في تلك الدار ، وبين أحقية ما وُعدوا به من عطاء الرحمن الرحيم الذي لا تنفد خزائنه ، وهو الجواد الكريم .

﴿ **أنتم وأزواجكم** ﴾ : أي أنتم ونظراؤكم و ﴿ **تحبرون** ﴾ تنعمون بسعة ورغد عيش . روى ابـن أبي حاتـم بسنده عن أبي عبـدالرحمن القاسـم بن أبي القـاسم الدمشقي عـن أبي أمامة أنه سمعـه يحدث عن النبي ﷺ أنه قـال : « إن قمص أهل الجنة لتبدو مـن رضوان الله، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم: يـا أهل الجنة، ماذا تريـدون أن أمطركم ؟» الحديث . وقـال الإمام أحمد : حدثنا حسـن هو ابن موسى قـال :حدثنا مسكين بن عبدالعـزيز قال : حدثنا الأشعـث الضرير عن شهر بـن حوشب عـن أبي هريرة أنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنـى أهل الجنة منزلة أن له لسبع درجات وهو على السادسة ، وفوقه السابعة ،وإن له لثلثمائة خادم ، ويغـدى عليه ويراح كل يـوم بثلثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قـال : « من ذهب» ـ في كل صحفـة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ أولـه كما يلذ آخره ، وإنه ليقول: يـارب لو أذنـت لي لأطعمت أهـل الجنة وسقيتهـم ، لم ينقص ممـا عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجـه من الدنيا ،..» الحديث ، وأخـرجه عبدالـرزاق الصنعاني في « المصنـف» بأطول مـن رواية أحمد وشيء من الاختلاف ، وهو مرسل من طريق عكرمة عن ابن عباس .

وروى ابن أبي حاتـم بسنده عن الحسن عـن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبـا **أمامة** رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم ـ وذكر الجنة ـ فقال : « **والذي نفس** محمد بيده ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه ، ثم يخطر على باله طعام آخر ، فيتحول الطعام الذي في فيه إلى الـذي اشتهى » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿**وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون**﴾ .

وصلى الله وسلم وبـارك على نبي الهدى والـرحمة ، سيدنـا محمد بـن عبدالله الذي ترك أمته على المحجة البيضاء فيما كان وفيما سيكون ، ورزقنا حسن الانتفاع بما عهد إلينا من أخبـار الغيب يوم ينعم السعداء الموفقون بـألوان العطاء من رب الأرض والسماء . ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾.

الفوز الكبير يوم يحشر الناس لرب العالمين ـ وهو مظهر من مظاهر الرضا عن أولئك الفائزين ـ يناله من وفقوا للإيمان وعمل الصالحات ، راضين عن ربهم مذعنين لما تحكم به شريعته ؛ وذلك الفوز ـ كما ثبت في الكتاب والسنة ـ جنات عالية قطوفها دانية ، ينزع الله ما في قلوب أهلها من غل ، وتراهم على سرر متقابلين، يتوج ذلك بإحلال المولى عز وجل عليهم رضوانه ـ كما جاء في صحيح الأحاديث ـ فلا يسخط عليهم أبداً . ولا تعجب ؛ فالخير منه وإليه سبحانه ؛ إذ الجنة نزل من عنده جل شأنه ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وقد جعل ذلك كله ثواباً من عنده ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ .

وقد أشرت فيما سلف إلى ما كان من حرص المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ أن يتخذ سلوك المسلمين في الحياة الدنيا ، طابع التطلع إلى العقبى، كيف تكون في خاتمة المطاف؟ وكان هو خير أسوة للأصحاب الكرام ـ ومن ورائهم الأمة بأسرها ـ في مضمار العمل الصالح بأوسع معانيه وأشملها ؛ عبادة وجهاداً في سبيل الله ؛ فلا يدع أن يملأ الوقت كله بما هو سبيل النجاة في الدار الآخرة، حيث يتحقق للعاملين قول ربنا جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لايبغون عنها حولاً﴾ وقوله سبحانه : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾.

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الغاشية : ﴿وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية.﴾: ونذكر ههنا هذا الحديث الذي رواه أبوبكر بن أبي داود ـ وقد أشرت إليه في مناسبة سابقة ـ

قال: حدثنا عمرو بن عثمان قال : حدثنا أبي عن محمد بن مهاجر عن الضحاك المعافري عن سليمان بن موسى قال : حدثني كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ « ألاهل من مشمر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة، وحَبرة ونَعمة في محلة عالية بهية ؟ قالوا : نعم يارسول الله ، نحن المشمرون لها. قال : قولوا : إن شاء الله ، قال القوم : إن شاء الله » الضحاك المعافري وثقه ابن حبان ، وشيخه سليمان بن موسى الأموي الدمشقي مختلف فيه ، وباقي رجال الإسناد ثقات .

الحَبرة : النَعمة وسعة العيش ، والحَبرة السرور ومنه قوله تعالى : ﴿ فهم في روضة يحبرون ﴾ والمراد بقوله : « إن الجنة لا خطر لها » أي لا عوض لها ولا مثل ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ومن الواضح هنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام حضّ على التشمير للجنة لأنها عظيمة عظيمة ؛ فهو يقول : ألا فيكم ساع غاية السعي ، طالب لها عن صدق ورغبة ، ووفور عزيمة ، فإنها لا عوض لها ولا مثل ، وذكر الكثير من مظاهر النعيم المقيم فيها وصوره المشرقة، ثم وجَّه ـ وهو الذي أوتي جوامع الكلم ـ إلى عدم الاتكال على العمل ، وأنه لابد لصدق التشمير الذي يقتضي العمل الدائب والاجتهاد في طاعة الله ، من صدق التوكل على الله وتعليق الأمر على مشيئته ، فقال : « قولوا : إن شاء الله ، فقالوا : إن شاء الله ».

والتشمير : الهمّ ، وهو الجد والاجتهاد في الأمر ، والحديث أخرجه ابن ماجة أيضاً في كتاب الزهد من « السنن » من رواية أسامة رضي الله عنه وجاء فيه: «وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجةٌ حسناء جميلة وحللٌ كثيرة في مقام أبداً ، في حبرة ونضرة ، في دور عالية سليمة بهية . قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله ! قال:

قولوا : إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحض عليه» . وأخرجه ابن حبان في صحيحه «باب وصف الجنة وأهلها » واللفظ عنده أيضاً « قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله ! قال: قولوا : إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحض عليه. ورواه البغوي في « باب صفة الجنة وأهلها وما أعد الله للصالحين فيها » من كتابه «شرح السنة» واللفظ عنده : « ومقامٌ في أبد في دار سليمة ، فاكهة وخضرة ، وحبرة ، ونعمة في محلة عالية بهية ، قالوا : نعم يارسول الله نحن المشمرون لها ، قال: قولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله » .

والذي صح من سيرة أهل السعادة ، الذين ترنو بصائرهم إلى ما يكون من عاقبتهم في الآخرة ، أنهم يأخذون هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى التشمير ، والاهتمام بما يوصل ـ بفضل الله ـ إلى جنة عدن من الأعمال، مأخذ الجد وصدق العزيمة ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه ،لا ينطق عن الهوى ، وفي الوقت نفسه ،لا يدع أن يهدي أمته إلى الصراط المستقيم في كل ما يعود عليها بخيري الدنيا والآخرة ، وأن يحجز عن كل ما يودي بصاحبه إلى النار . والسعيد من وفقه الله ، فكان على الجادة ، وأخذ نفسه بطريق المتقين ..

وهناك يوم يقف الناس بين يدي مالك الملك رب العالمين ، يجد كل إنسان ما قدم فيوفى حسابه ، والله سريع الحساب ؛ فإما إلى دار الكرامة والنعيم الذي لا ينقضي ، وإما إلى جهنم وبئس المهاد . حتى العلاقة بين شخص وآخر في الدنيا، محسوب حسابها ؛ ما إذا كانت على النهج السوي ، إيماناً ، وصلاحاً ، تواصياً بالحق وتواصياً بالصبر على درب الصلاح ، أم يشوبها من أحدهما ، أو من كليهما ، ما يسيء إلى العقبى ، لما أن الأخلاء يوم المعاد بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، فالتقوى ضمان أن لا يكون بعض الأخلاء عدواً لبعض هناك .

وما من ريب في أن آثار السلوك ، سوف تبدو واضحة في مشاهد يوم الحساب ﴿ ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ قال عبدالرزاق

الصنعاني في «المصنف»: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ قال : «خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة ، فذكر خليله فقال: إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أني ملاقيك ، اللهم فلا تضلَّه بعدي حتى تريَه مثل ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له : اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً . قال : ثم يموت الآخر ، فتجتمع أرواحهما .. فيقال : لِيُثْنِ أحدكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل . واذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أني غير ملاقيك ، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي . قال: فيموت الكافر الآخر: فيجمع بين أرواحهما فيقال: لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ وبئس الصاحب ، وبئس الخليل » رواه ابن أبي حاتم ، كما رواه ابن جرير الطبري من غير هذه الطريق .

هكذا تشهد ساحات القيامة آثار العلاقات بين الناس في الدنيا ، فكل صداقة وصحابة لغير الله ، فإنها تنقلب عداوة يوم القيامة، إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه ، ويحظى الأخلاء المتقون بما يفيض الله على أهل الرضى، من جنات تجري من تحتها الأنهار جزاءً بما كانوا يعملون . ويقع من اجتمعوا على الكفر ومعاداة الحق وأهله والصد عن سبيل الله في سواء الجحيم؛ فهم في عذاب الهون خالدون ، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ العنكبوت : ٢٥ .

والحق أنه ما من امرىء ينير الله بصيرته ، إلا يتخذ لنفسه النهج الذي يسلمه

ـ بفضل الله وعونه ـ إلى متبوأ الكرامـة والعطاء الرباني في دار الخلود ، حيث يوفي العليم الحكيم عباده دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

ومن مظـاهر العـدل الإلهي يومذاك : أن أهـل النار يرى كـل منهم منـزله في الجنة ، أن لو آمـن مع من آمن وعمل الصالحات ؛ فيـزداد حسرة ، وأن أهل الجنة يرى كل منهم منزله في النار ، أن لو ضـل السبيل ؛ فيزيد من شكره لله عز وجل، روى ابن أبي حاتم بسنـده عن الأعمش عن أبي صالح عـن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة فيقول : ﴿ **لو أن الله هداني لكنت من المتقين** ﴾ وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿ **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ ليكون له شكراً » وقال: قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد إلا وله منـزل في الجنة وله منزل في النار ؛ فالكافر يـرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزلـه من الجنة » وذلك قوله تعالى: ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ » .

فـالأعمال الصالحة كـانت سببـاً لشمـول رحمة الله هؤلاء السعـداء ، فإنـه لا يدخل أحداً عمله الجنة ـ كما ثبت في الحديث الصحيح ـ ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما تتفاوت الدرجـات التي تنال في الجنة ، بحسـب الأعمال الصالحات كما بينا ذلك من قبل .

والله المسؤول أن يتغمـدنا بـرحمته ويـورثنا الجنـة نتبوأ منهـا حيث نشـاء ، وله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أبناء الآخرة الموفقون ، بينهم وبين الغفلة عما يلزم المؤمن عمله، كيما يكون ـ برحمة الله ـ من أهل النجاة والفوز بدار المتقين: عداء مستحكم لا ينتهي ، وذلك من توفيق الله تعالى ، فما أعد للأبرار في جنة الخلد ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لا يغفل عن التطلع إليه ، وإنفاق الساعات في طلبه، إلا من ضل سعيه وحرم بركة الحياة . ويظهر ذلك آكد وآكد ، إذا كان المؤمن على ذكر من حقيقة أن أبواب الطاعات والقربات التي تجوز بأصحابها إلى الخلود في دار المقامة ـ وهي كثيرة على كل الأصعدة في هذه الدار ـ مفتحة مشرعة، والسعيد من لم يزغ عنها ، وجاهد في سبيل أن يلجها . قال عبدالله بن الإمام أحمد حدثني أبي قال : حدثنا علي بن إسحق قال : أنبأنا عبدالله ـ يعني ابن المبارك ـ قال : أنبأنا محمد بن سوقة عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بالجابية فقال : قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم فقال : «استوصوا بأصحابي خيراً ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى إن الرجل ليبتدىء بالشهادة قبل أن يسألها ، فمن أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ؛ فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» وفي رواية أخرى لأحمد ... «فمن أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة» .

الجابية : كانت يومذاك قرية من دمشق لصيقة بها وهي اليوم جزء منها ، وباب الجابية من أبوابها ، وما تزال التسمية قائمة والحمد لله . أما عن البحبوحة ـ وهي المكان المرموق المرتفع كما سيأتي ـ فهل هنالك مسلم آتاه الله نفاذ البصيرة، ورزقه حرقة الشوق إلى لقائه سبحانه ، يعزف عن التطلع إلى حسن

العاقبة يوم الدين، وأن يدخل الجنة ويكون موقعه في رحابها خير موقع !!
صحيح أن الجنة كلها خير، ولكن الرسول ﷺ أراد ـ والله أعلم ـ مزيداً من الترغيب؛ فالبحبوحة هي الوسط والمكان المختار، لأن بحبوحة كل شيء وسطه وخياره، قال ابن الأثير في النهاية: يقال: تبحبح إذا تمكن وتوسط المنزل والمقام.
ونجد عند الزبيدي في شرح القاموس قوله: والبحبوحة: وسط المحلة، قال جرير:

قومي تميم هم القوم الذين هم ينفون تغلب عن بحبوحة الدار

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «من سره أن يسكن في بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة» قال أبوعبيد: أراد ببحبوحة الجنة وسطها. قال: وبحبوحة كل شيء: وسطه وخياره.

فهنيئاً لمن يصدقون في إيمانهم، ويعملون الصالحات ـ ومنها ملازمة جماعة المسلمين والبعد عن كل ما يحدث الفرقة والضعف ـ هنيئاً لهم ما يكون من الإكرام الإلهي العظيم الذي بشر به من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه، وهو أن يسكنوا في بحبوحة دار المقامة جنة النعيم. والحديث السابق رواه الترمذي في باب ما جاء في لزوم الجماعة من الجامع الصحيح سنن الترمذي من طريق محمد بن سوقة أيضاً عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان. عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد. من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن» قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد رواه ابن المبارك عن محمد بن سوقة. وقد

روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ .

وهذا رجل يخبر النبي ﷺ أنـه من أهل الجنة وقد كان بابـه إلى ذلك ـ **بفضل الله تعالى** ــ إماطتُـه الأذى عن طـريق الناس ، حيـث عزل عـن طريقهـم **شجرة كانـت تؤذيهم** . وما أجمل الصورة التـي أحسن النبي ﷺ أيما إحسـان في الكشف عنها وهي صورة ما يكون عليه ذلك الرجل في الجنة ، حين بيَّن ـ فداه أبي وأمي ـ أنه رآه يتقلب في ظـل تلك الشجرة التي عـزلها عن طريق النـاس ؛ الشجرة التي كانت تعـوق طريق الناس، تأخذ مـوقعها المناسب في جنة عـدن بظلها الوارف ، وفاعل الخير الذي أزاحها دفعاً للأذى يستظل بذلك الظل جزاء بما أحسن **﴿إنَّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾**. قال الإمام أحمد : حدثنا **حسن بن موسى قال : حدثنا أبوهلال** قال: حدثنا قتادة عن أنس بن مالك « **أن شجرة كانت على طريق الناس تؤذيهم**، فأتاها رجل، فعزلها عن طريق الناس ، قال : قال النبي ﷺ : **فلقد رأيته يتقلب في ظلها في الجنة** ».

وغني عن البيان أن الرجل المومى إليه ما بد أن يكون مؤمناً ؛لأن الإيمان **هو** القاعدة التي تؤهل العمل للقبول ، وأن يكون في ميزان صاحبه ـ مع الإخلاص ـ يوم الحساب.. أما الكافر : فلا وزن يوم القيـامة لأعماله في الدنيا مهما **عظم شأنها لأنها لا تقوم** على أساس مـن الإيمان ، وتراه يوفى المثوبة من سمعـة ، وذكرٍ حسـن وأجر مادي وما إلى ذلك في الدار العـاجلة . أما يوم عرض الأعمال **على الله في دار** القرار : فليـس لها أي أثر في ثقـل الموازين . ذلكم قـول ربنا جـل **شأنـه في شأن** الكفار : **﴿ وقدمنـا إلى ما عملوا مـن عمل فجعلناه هبـاءً منثوراً ﴾** وقوله تعالى : **﴿والذيـن كفروا أعمالهم كسراب بقيعـة يحسبه الظمآن مـاءً حتى إذا جـاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسـابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فـوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾** .

وما أكثر ما تضم مواكب أهل الجنة التي تشرق في تلكم الساعات العصيبات يوم الفصل، أناساً تعلن منازلهم عن مدى عدل الله وفضله وإحسانه، فيما يكرمهم به ، جزاء موقف من مواقف الحمد والرضى بمصيبة، أو الشكر على نعمة ، وغير ذلك مما يدل على صدق إيمانهم وصبرهم وعمق تسليمهم لما يأتي به القدر ، وأن ما يختاره الله للمؤمن فهو الخير كله على كل حال . من أمثلة ذلك ما ورد من أن الله ينعم على عبد تقبض الملائكة روح ولده، فيسترجع ويحمد صابراً راضياً بالقضاء ، بأن يبنوا له بيتاً في الجنة ويسموه « بيت الحمد » على كلام لبعض العلماء في أبي سنان عيسى بن سنان القسملي أحد رواة الحديث . قال الحافظ ابن حبان : في «باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض» : أخبرنا أحمد بن الحسين بن عبدالجبار الصوفي قال : حدثنا أبو نصر التمار قال : حدثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال : « دفنت ابني ، ومعي أبوطلحة الخولاني على شفير القبر، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأخرجني وقال : ألا أبشرك ؟ حدثني الضحاك بن عبدالرحمن بن عرزب، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا مات ولد العبد المؤمن قال الله للملائكة : قبضتم ولد عبدي ؟ قالوا : نعم. قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا : نعم. قال : فما قال ؟ قالوا : استرجع وحمدك ، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» وأخرجه أبوداود الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه . ولفظ الترمذي «ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد ».

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وجزاه الله عما رغب في الجنة ورهَب من النار ، خير ما جزى نبياً عن أمته في دار القرار .

مما تشرق بـه مشاهـد القيامة ــ وقد تبـدلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرز الخلق جميعاً لله الواحد القهار ـ أن أهـل الجنة يكون فيهم أناس أدخلهم دار المقامـة ـ وهـو المنان المتفضـل ـ بـدعاء دعـوه في الدنيـا يشتمل على عهـد رجوه سبحانـه ، أن يوفيهم إياه يـوم القيامة ، فيكـون من تحقيق الموعود ــ ولا أحد أوفى بعهده من الله ـ أن يقـول جل وعلا لملائكته في شأن الواحـد منهم : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه ، فيدخله ـ جل وعلا ـ برحمته الجنة .

والدعاء المشتمل على العهد المذكور ، من الأدعية التي رويت عن النبي ﷺ ورغب بها وأخبر ـ وهو المؤيد بوحي السماء ـ عـن ثمرتها المباركة يوم الدين . قال الإمام أحمد: حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بـن سلمة وأخبرنا سهيل بن أبي صالح وعبدالله بن عثمان بن خثيـم عن عون بن عبدالله بن عتبة بـن مسعود وعن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هـذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريـك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، فـإنك إن تكلني إلي نفسي تقربني مـن الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتـك ، فاجعل لي عندك عهـداً توفينيـه يوم القيـامة ، إنـك لا تخلف الميعـاد ، إلا قال الله عـز وجل لملائكته يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه ، فيدخله الله الجنة» قال سهيل : فأخبرت القاسم بن عبدالـرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا ! فقال : ما في أهلنا جـارية إلا وهـي تقول هذا في خـدرها . قال الحافـظ ابن كثير : تفـرد به الإمام أحمد .

هكذا تـزدان مواكـب جنة الخلـد ، بتلكم الصـور المضيئة ، التـي تشهد على

رؤوس الخلائق بفضل الله و إحسانه لمن صدقوا في العبودية، وأنه الجواد الكريم .

و إذا كان الإحسان يذكر بالإحسان ، فإن هذه الزمرة من أهل الجنة تذكرنا بما وقَفنا عليه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أحمد والترمذي وحسنه ، وابن حبان والطيالسي - كما مر فيما سبق - من أن رضى من قبض الملائكة روح ولده وثمرة فؤاده بقضاء الله وحمده له سبحانه على كل حال ، يجعل عاقبة هذا المؤمن يوم القيامة أن يأمر الله ملائكته بأن يبنوا له بيتاً في الجنة ويسموه « بيت الحمد » فإذا رأيت بيت الحمد في الجنة ، فاعلم أنه لهذا المؤمن الذي كان يحمد ربه في السراء والضراء ، ويرضى بقضائه ويسلم الأمر إليه .

ومما يجدر ذكره هنا ، أن أصح ما ورد في باب المثوبة بالجنة لمن قبض حبيبه المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان فصبر واحتسب ورضي بقضاء الله : الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري ؛ ففي كتاب الرقاق «باب العمل الذي يبتغى به وجه الله » من الجامع الصحيح قال رحمه الله : حدثنا قتيبة قال : حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن عن عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » .

الصفي: الحبيب المصافي من الولد والأخ والزوج والأم والأب وكل من يحبه الإنسان . والمراد بالقبض : قبض روحه وهو الموت . والمراد باحتسابه: صبره على فقده راجياً الأجر من الله على ذلك ، فهو لا يجزع ولا يضيق بقدر الله ، بل يكون منه الحمد والتسليم، فلله ما أعطى ولله ما أخذ ، وأصل الحسبة - بالكسر - الأجرة. والاحتساب طلب الأجر من الله تعالى خالصاً . وفي هذا الحديث القدسي تأييد واضح لحديث المجازاة بالجنة ، لمن ابتلي بفقد صفيه فصبر واحتسب، وإن كان هذا الحديث نفسه - كما أسلفنا من قريب - أصح شيء في هذا الباب من ناحية الرواية .

وعندما يكون الأمر متعلقاً بعطاء الله ـ وهو عطاء دائم غير مجذوذ ـ فكن على اليقين الذي لا يعتريه شك من صدق وعد الله تبارك وتعالى، وأن مظاهر الرحمة والفضل في الجنة يوم الجزاء لا تدع ريبة لمستريب، ومنها ما ينيله الرحيم الرحمن أولئك الذين لا يقلقون ولا يجزعون عند فقد صفي من الأصفياء. ومن هذا الباب ما روى النسائي عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض، فصبر واحتسب وقال ما أمر به، بثواب دون الجنة». ويدخل في هذا ما أخرج الإمام أحمد في المسند عن مرة بن إياس المزني رضي الله عنه «أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ: أتحبه؟ فقال: يارسول الله أحبَّك الله كما أحبُّه، ففقده النبي ﷺ فقال: ما فعل فلان؟ قالوا: يارسول الله مات ابنه! فقال: ألا تحب أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟ فقال رجل: يارسول الله أله خاصةً أم لكلنا؟ قال: بل لكلكم» وجاء في رواية أخرى له: «فقال: ما فعل ابن فلان؟ قالوا: يارسول الله مات، فقال النبي ﷺ لأبيه: أما تحب أن تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟» ورواه النسائي، وسنده على شرط الصحيح. وقد صححه ابن حبان والحاكم. واللفظ عند النسائي «فسأل عنه فقال: أما يسرك أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك؟» وله من رواية أخرى «فعزّاه عليه ثم قال: أيما كان أحب إليك أن تُمتَّع عمرك، أولا تأتي غداً باباً من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟».

وعلى هذا السنن تطالعك مشاهد القيامة بتلك الصور المؤثرة المعبرة التي تنبىء عن عظيم فضل الله وكريم إحسانه، لمن وفقوا على طريق الطاعة والرضى: فكل صورة تسلمك إلى أخرى مثلها في مثوى الأبرار دار الخلود.

وهذا الذي رأيناه من ثمرات الصبر والاحتساب، عند فقد الولد الواحد، يشدنا إلى ما ورد في شأن فقدان المؤمن لأكثر من ولد، فقد تنوعت الحوادث ـ والله أعلم ـ ورسول الله ﷺ ـ وقد أوتي من الحكمة ما أوتي، كما أوتي جوامع

الكلم ـ يداوي كل كَلْمٍ بما يناسبه حقاً وحكمةً ،لأنه لا ينطق عن الهوى ، ويبلغ عن الله ما أراد ، والسبب الخاص الذي يرد عليه الحديث ،لا يمنع عموم اللفظ عندما يكون اللفظ عاماً ، وهذا من سعة العربية المباركة التي بها نزل الكتاب، ورحمة الله بهذه الأمة المحمدية ، وفي ذلك شديد التذكير بوجوب أن يراجع المؤمن نفسه أبداً ويدينها ؛ كيما يكون النسب صحيحاً إلى خير أمة أخرجت للناس ، الأمر الذي يجعل من التصديق الجازم بتلك البشائر عن الجنة وما فيها ، حافز إصلاح للعمل ، وباعث جدية في مراقبة الله عز وجل، وتجنبٍ لكل ما يتصل بالمسالك التي ينجرُّ إليها أهل اللهو واللعب ، والزينة والتفاخر والتكاثر، والغفلة عند النعمة، والقلق والجزع عند المصيبة . روى ابن حبان في صحيحه عن محمود ابن لبيد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات له ثلاثة من الولد دخل الجنة » قال : قلنا: يارسول الله ، وابنان؟ قال : «وابنان » قال محمود : قلت لجابر بن عبدالله إني لأراكم لو قلتم واحداً لقال واحداً، قال : والله أظن ذلك ».

وأخرجه الإمام البخاري في « الأدب المفرد» كما أخرجه الإمام أحمد في المسند . وإسناده قوي وقد ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد» وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

هذا : ومما هو جدير بالذكر ، وواجب أن يأخذ طريقه إلى النفوس : أن السلف الصالح ومن سلك سبيلهم ،تخذوا من هدي النبي ﷺ معلماً من معالم التربية على ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، وهو يواجه وقائع الحياة في السراء والضراء ، ويقوم بما يوجبه المنهج الرباني في شموله وتكامله ، سواء في أنفسهم وأهليهم ، أو فيمن ولاهم الله أمر توجيهم وإرشادهم ببصيرة وإخلاص إلى ما تقتضيه سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام التي هي بيان للكتاب الكريم، وكان ذلك بحمد الله ، طريقهم إلى أن يكونوا ـ بعد الأنبياء ـ في مقدمة من تشرق بهم مواكب الخالدين في جنات النعيم وسبيلهم هذه أمانة على طريق التأسي والكل راع ومسؤول عن رعيته !!

## مفتاح الجنة... والكلمة الطيبة

عندما يـدار الحديث حول ما يتفضـل الله به على أهل القرب مـن عباده يوم القيامـة في دار السلام ، دار المقـامة والنعيم ؛ وأعـلاه وأغلاه ما يكـون من الـرؤية لوجهه الكريم ـ جلَّ ربنا وتنزه عن الشبيه والمثيل .... ـ عندما يدار الحديث حول ذلك تبصراً بما جاء في كتاب الله وبيانه مـن سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ما بـد من أن يستنار بفهـوم الصحابة رضي الله عنهـم ومن تبعهم بـإحسان على هذه السـاحة ، فقـد كانوا مثـال الدقـة والاتزان في شأن المنطلـق الذي يبـدأ به، والوجهـة التي يتحـدد معها الطريـق، التي إن سلكـت كان المصير ــ بفضل الله ورحمتـه ـ تلكـم الجنات التـي لا يقدر قـدر العطـاء فيها . ولا تسـل عن مقـدار السعادة التـي تغمر المؤمـن بنورها الفيـاض ، ثمرة الإكـرام الإلهي الذي تقـر به الأعين، وتنشرح له الصـدور . وسبحان مـن لا تنفد خـزائنه ، وإنما أمـره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

أخرج رزيـن عن يحيى بن طلحـة بن عبيد الله التيمـي المدني رحمه الله قال: «إن عمر رضي الله عنـه رأى طلحة كئيبـاً بعد مـا توفي رسـول الله ﷺ واستخلف أبوبكر ، فقال له : مالك ؟ لعله ساءك إمرة ابن عمك أبي بكر ؟ قال : لا ، وأثنى عليه خيراً ، وقـال : إني لأجدركم أن لا تسوءني إمـرته ، ولكن كلمة سمعتهـا من رسول الله ﷺ يقـولها ، قال : إني لأعلم كلمة لا يقـولها عبد عند موتـه إلا فرج الله عنه كربته ، وإن جسده وروحه ليجدان رَوْحاً ، فما منعني أن أسأل عنها إلا القدرة عليها حتى مات . قال عمر : إني لأعرفها ، قال : فلله الحمد ما هي ؟ قال . هل تعلم كلمة هي أعظم من كلمة عـرضها على عمه عند الموت ؟ ولو علم أن شيئاً أعظم منها لأمره به » قال طلحة : هي والله » قال العلماء : يحيى بن طلحة بن عبيد الله يرسل عن عمر .

وليس خفياً أن الكلمة التي أرادها عمر رضي الله عنه هي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهي التي عرض صلوات الله وسلامه عليه على عمه أبي طالب ـ وهو في مرض الموت ـ أن يقولها كيما يشهد له بها يوم القيامة فينجو من عذاب الله مع الناجين، ويكون من أهل الجنة، ولو علم ـ وهو المبلغ عن ربه عز وجل ـ شيئاً أعظم منها لأمره به. تلكم هي نقطة البدء؛ فإذا توافر الإخلاص والعمل بمقتضى تلك الكلمة، كان ذلك إيذاناً بسلامة الوجهة على طريق تنتهي ـ برحمة الله ـ إلى دار المقامة التي يتفضل الله بها على أهل السعادة من عباده، الذين كانوا في الدنيا وهواهم تبع لما جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام، فيحمدونه حق الحمد، ويشكرونه بالغ الشكر، وقد أثنى سبحانه عليهم بذلك فقال جل ثناؤه: ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذي أحلَّنا دار المقامة من فضله لا يمسُّنا فيها نصب ولا يمسُّنا فيها لغوب﴾.

والحديث المذكور أخرجه ابن ماجة بسنده عن الشعبي عن يحيى بن طلحة عن أم سعدى بنت عوف المُرِّيَّة أنها قالت: «مر عمر بطلحة بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال: مالك كئيباً؟ أساءتك إمرة ابن عمك؟ قال: لا ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند موته إلا كانت له نوراً لصحيفته، وإن جسده وروحه ليجدان لها روحاً عند الموت، فلم أسأله حتى توفي. قال: أنا أعلمها، هي التي أراد عمه عليها. ولو علم أن شيئاً أنجى له منها لأمره». قال البوصيري في «الزوائد»: اختلف على الشعبي فقيل: عنه، هكذا، وقيل: عن ابن طلحة عن أبيه، وقيل: عن يحيى عن أم سعدى عن طلحة وقيل: عنه عن طلحة مرسلاً.

وعلى هذا السنن من التبصر الحكيم، والفهم العميق الذي يصل القول بالفعل، كيما يفوز المؤمن بأن يزحزح عن النار ويدخل جنة الخلد، نقرأ ما جاء عن وهب بن منبه رحمه الله في شأن مفتاح الجنة ـ وهو لا إله إلا الله ـ من أنه لابد للمفتاح من أسنان، وهي العمل بحق لا إله إلا الله، فإذا فعل المرء ذلك، فتح له

ودخل الجنة برحمة الله ، و إلا لم يفتح له . قال الإمام البخاري في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح : « باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله» . «وقيل لوهب بن منبه :أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله قال : بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك » قال الحافظ رحمه الله . كأن القائل ـ يعني القائل لوهب ـ أشار إلى ما ذكر ابن إسحاق في السيرة « أن النبي ﷺ لما أرسل العلاء بن الحضرمي قال له : « إذا سئلت عن مفتاح الجنة فقل : مفتاحها لا إله إلا الله » . وروي عن معاذ بن جبل مرفوعاً نحوه أخرجه البيهقي في « الشعب »، وزاد « ولكن مفتاح بلا أسنان ،فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك و إلا لم يفتح لك » وهذه الزيادة نظير ما أجاب به وهب فيحتمل أن تكون مدرجة في حديث معاذ .

والمراد بقول «لا إله إلا الله» في هذا الحديث وغيره ـ كما أسلفنا ـ كلمتا الشهادة، فلا يرد التساؤل عن عدم ذكر الرسالة . قال الزين بن المنير : «قول لا إله إلا الله» لقب جرى على النطق بالشهادتين شرعاً . وأما قول وهب: فمراده بالأسنان التزام الطاعة ، عملاً بمقتضى الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله »؛ وذلك ما أشرت إليه من الفهم العميق والتبصر المؤمن، لما يجب أن تكون عليه نقطة البدء لخطى المؤمن على طريق تبدأ بالتوحيد الخالص والعمل الصالح، وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، وإنها لنعم النزل لعباد الله الصالحين ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴾ .

هذا: والأثر الذي رواه البخاري عن وهب معلقاً ـ بدون سند هنا ـ في الجامع الصحيح ، وصله في « التاريخ » ، كما وصله أبو نعيم الأصبهاني في «الحلية» إذ جاء به ضمن كلام طويل لوهب. قال أبونعيم: حدثنا سليمان بن أحمد قال: حدثنا عبيد بن محمد الصنعاني قال: حدثنا همام بن مسلمة قال: حدثنا غوث بن جابر قال : حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول... وكان من

ذلك قولـه : « وإن الله عز وجل لا يعطفه على الناس شيء مـن أمرهم إلا التضرع إليه حتـى يرحمهم ، ولا يستخـرج أحد مـن الله شيئاً من الخير بحيلـة ولا مكر ولا مخادعة ولا سخط ولا مشاورة ، ولكن يأتي بـالخير من الله رحمته ، ومن لم يتبع الخير من قبل رحمته لا يجد باباً غير ذلك يدخل منه ، فإن الله تعالى لا ينال الخير منه إلا بطاعته ، ولا يعطف اللهَ على الناس شيء إلا تعبُّدهـم وتضرعهم إليه حتى يرحمهم ... إلى أن يقول : ورحمة الله تعالى باب كل خير يبتغـى من قبله ، وإن مفتاح ذلك الباب التضرع إليه سبحانـه ؛ فمن جاء بذلك المفتاح ، فتـح لديه ، ومن أراد أن يفتح ذلك الباب بغير مفتاحه لم يفتح له. وباب خزائن الله رحمته ، ومفتاح رحمته التضرع إليه ، فمن حفظ ذلك المفتاح وجاء به فتح له الباب ودخل الخزائن، ومن دخل الخزائن فلـه فيها ما تشتهـي الأنفس وتلـذ الأعين ، وفيها ما يشـاؤون وما يدعون في مقـام أمين ، لا يحولون عنها ، ولا يخافون ولا ينصبـون ولا يهرمون ، ولا يفتقرون فيها ولا يموتون ، في نعيم مقيم وأجر كريم عظيم ، وثواب كريم نزلاً من غفور رحيم».

وقد أخرج سعيد بن منصور بسند حسن عـن وهب قوله : «مثل الداعي بلا عمل مثل الرامي بلا وتر ». قـال الحافظ رحمه الله : والحق أن من قال لا إله إلا الله مخلصاً أتى بمفتاح وله أسنان ، ولكن من خلط ذلك بالكبائر حتى مات مصراً عليها ، لم يكن للمفتاح أسنان قوية ، فربما طال علاجه .

جزى الله سلفنا الصالـح كل خير وأجزل لهم مثوبته، بما علموا الأمة بأقوالهم وأفعالهم، كيـف تسلك الطـريق للـوصول إلى مـا أعد الله لعبـاده الصالحين يـوم القيامة ، مما لم تره الأعين ولا سمعته الآذان ، ولا يحيـط به بشر ، وكان ذلك صورة عن حسن تأسيهم بنبيهم عليه الصلاة والسلام .

# لا تضارون في رؤية ربكم

هذه كلمات يراد لها أن تكون موصولة السبب، بوقفات عند الذي دلت عليه بعض النصوص القرآنية وبيانها في السنة النبوية ، من تكرمة ذي الجلال والإكرام يوم المساءلة العظيمة لأحبائه الذين أخذوا أنفسهم في الدنيا ، بأن يكونوا أذلةً على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيله، ولا يخافون على طريق الطاعة وعمل الصالحات لومة لائم ... من تكرمته ـ جل شأنه ـ لهم برؤية وجهه الكريم سبحانه وتعالى الأمر الذي تقر له أعين المؤمنين ، ويشعر أهل الإيمان والتقوى بالمزيد من فضله تباركت أسماؤه ، وأحقية ما وعد به الذين يحسنون في الدنيا ، وأن لهم يوم القيامة الحسنى وزيادة .

وهذا أوان أن نصطحب زمرة من الأحاديث التي تقرر ما سبق من أن الرؤية حق لا ريب فيه ، وتزيد الأمر توكيداً على توكيد ، سائلين المولى سبحانه إخلاص الدين والثبات على الحق ، عسى أن يجعلنا ـ بمنه وكرمه ـ من أهلها ، فإنها غاية الغايات ، وهو المحمود على كل حال . قال الإمام البخاري : حدثنا علي بن عبدالله قال : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالصمد عن أبي عمران عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » أبوبكر بن عبدالله بن قيس : هو أبوبكر بن أبي موسى الأشعري واسم أبي بكر ،عمرو ، وقيل : عامر .

هكذا يخاطب رسول الله ﷺ العرب بما يفهمون ، فليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جل جلاله إلا زوال المانع ورفعه بمشيئة سبحانه. وفي هذا مافيه من تقريب المعنى المراد إلى أفهامهم. ولا تسل عما يشرق في نفس المؤمن من

السرور البالـغ والفرح بفضل الله ورحمته عنـد سماع هذه البشارة العظيمـة ، وهو يرجو أن يكون ممن يسعدون يوم الدين بموعود الله بها .

والحديث أخرجه مسلم والترمذي ، واللفظ عند الترمذي « إن في الجنة جنتين آنيتهما وما فيهما من فضة ، وجنتين آنيتهما وما فيهما من ذهب . وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » والتقدير : وبين أن ينظروا في جنـة عدن ، فهـي ظرف للنـاظر . قال أبـوعيسى : هـذا حديـث حسن صحيح .

ويتفضل الله عليهـم فتقع الـرؤية ، وتكـون عيانـاً لايضامـون فيها . أخـرج البخاري بسنده عن ثابت البناني عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قـال : « إذا دخل أهـل الجنة ، قـال : يقول الله تبـارك وتعالى : تـريدون شيئـاً أزيدكم ؟ فيقـولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تـدخلنا الجنة وتنجِّنا مـن النار ؟ قال : فيكشف الحجـاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهـم من النظر إلى ربهم عـز وجل» . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة .

وجـاء في « كتاب التـوحيـد » مـن الجامع الصحيـح « بـاب ﴿ وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة ﴾ قول الإمام البخاري ـ في حديث طويل يشتمل على ذكر عدد من مشاهد يوم القيامة ـ : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابـن شهاب ، عن عطاء بن يزيد الليثي عـن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس قالـوا: يارسول الله ، هل نـرى ربنا يوم القيامـة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارُّون في القمر ليلـة البدر ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قـال : هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا :لا يارسول الله ، قـال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يـوم القيامة فيقول : من كـان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبـع من كان يعبد الشمـس ، ومن كـان يعبد القمـر القمر، ويتبـع من كـان يعبد الطـواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمـة فيها شافعوها أو منافقوها ـ شـك إبراهيم، فيأتيهم

الله ، فيقولون: هـذا مكاننا حتى يأتي ربنـا ، فإذا جاء ربنا عرفنـاه ، فيأتيهم الله في صـورته التـي يعرفـون ، فيقول : أنـا ربكـم ، فيقولـون : أنت ربنـا ، فيتبعونـه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فـأكون أنا وأمتي أول من يجيـزها ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلـم ...» الحديث وله في رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال : هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ قلنا: لا ، قال: فإنكـم لا تضارُّون في رؤية ربكم يومئـذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ، ثم قال: ينـادي منادٍ : ليـذهب كـل قوم إلى مـا كانـوا يعبدون ، فيـذهب أصحـاب الصليب مـع صليبهم ، وأصحـاب الأوثان مـع أوثانهم ، وأصحـاب كل آلهة مـع آلهتهم حتى يبقى من يعبد الله من بر وفـاجر ، وغبرات من أهل الكتاب. ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب؛ فيقـال لليهود: ما كنتم تعبدون ؟ قالـوا : نعبد عزيراً ابن الله ، فيقال: كـذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولـد ؛ فما تريدون ؟ قالـوا : نريد أن تسقينـا ، فيقال: اشربـوا ، فيتساقطـون في جهنم . ثـم يقال للنصـارى : ما كنتـم تعبدون ؟ فيقولون : كنـا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال : كذبتـم لم يكن لله صاحبة ولا ولد . فما تريدون؟ نـريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطـون . حتى يبقى مـن كان يعبـدالله من بـر أو فاجـر فيقال لهم : مـايحبسكم وقـد ذهب النـاس ؟ فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم ، وإنا سمعنا منادياً ينادي : ليلحق كل قـوم بما كانوا يعبـدون ، وإنما ننتظر ربنا. قـال: فيأتيهم الجبـار في صورة غير صورتـه التي رأوه فيهـا أول مرة؛ فيقـول : أنا ربكـم ، فيقولـون : أنت ربنـا ، فلا يكلمه إلا الأنبيـاء ، فيقول : هـل بينكم وبينه آيـة تعرفونـه ؟ فيقولـون : الساق ؛ فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة فيذهـب كيما يسجد ، فيعـود ظهره طبقـاً واحداً ، ثـم يؤتـى بالجسر فيجعـل بين ظهري جهنم ..» الحديث .

قوله ﷺ: « هـل تضارون » بتشديد الـراء : أي هل تضارون غيركم في حـالة

الرؤيـة بزحمة أو مخالفة في الـرؤية أو غيرها لخفـائه ، كما تفعلون أول ليلة مـن ليالي الشهر . وما يقال هنا ، يقال بالنسبة لرؤية الشمس ليس دونها سحاب . وجاء في بعض الروايـات : « تضارون » بتخفيف الراء . والمعنى : هـل يلحقكم في رؤيته ضير ، وهو الضرر . وقيل : المعنى : لا يحجب بعضكم بعضاً فيضرّبه .

وقد وردت الكلمـة في عدد مـن الروايـات عند البخـاري ومسلم وأبي داود والترمذي بلفظ « هل تضَـامون » بتخفيف الميم ، وبلفظ « تضامـون» بتشديدها، وبتاء مفتـوحة . والمعنـى في « تضامـون » أي : هل يلحقكـم ضيم ، وهـو المشقة والتعب ، فإنكم ترونه جميعاً ، لا يظلم بعضكم في رؤيته ، بحيث يراه البعض دون البعض .

وأمـا بتشديـد الميم ، فهـو من الانضمام والازدحـام ، والمعنى: لا تـزدحمون ، ويضم بعضكـم إلى بعض من ضيق . قـال ابن الأثير في «النهايـة» كما يجري عند رؤية الهلال مثـلاً ، دون رؤية القمر ، إذ يـراه كل منكم مـوسعاً عليه ، منفـرداً به. وصلوات الله وأزكـى تسليماته على سيد الأولين والآخريـن محمد بن عبـدالله الذي قرب بنور هـديه وبلاغته الفذة ، حقيقـة ما يكون من الكرم الإلهي في الـرؤية التي يسعد بها أهل الفلاح الموفقون ، سعادة لا يشقون بعدها أبداً . ونسأله تعالى ـ وهو الجواد الكريم ـ أن يمن علينا بمغفرتـه ورحمته ويجعلنا في زمرة من يفوزون بها ، إنه هو الغفور الرحيم .

## رؤية العيان.. والفضل الكبير

كلامنا اليوم موصول بما كنا بسبيلـه في الصفحات القريبات، من إيراد بعض من نصوص السنة المطهـرة، التي تؤكد ثبوت ما جاء في الكتاب العـزيز من إكرام الله عباده الصادقين، الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات، برؤيته جل شـأنه وتباركت أسماؤه وتعالى عن الشبيه والمثيل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾.

وليس مـن نافلـة القول، أن أعيـد إلى الأذهان أن هـذا العطاء الإلهي الـذي يتفضل الله بـه على أهل الإيمان في جنـة عدن ، قد بلغـت الأحاديـث الدالـة عليه مبلغ التواتر ـــ ناهيك عما جاء في آي الكتاب الكريم ـ قـال الحافظ ابن حجر في كتابه «فتـح الباري » : وقد أخرج أبـو العباس السراج في تاريخه عن الحســن بن عبدالعزيز الجروي ـــ وهو من شيوخ البخاري ـ سمعت عمـرو بن سلمة يقول: سمعت مالك بن أنس ، وقيل له : يا أبا عبدالله قول الله تعالى : ﴿ إلى ربها ناظرة﴾ يقول قوم: ( إلى ثـوابه) فقال : كذبوا فـأين هم عن قـوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ومن حيث النظر: إن كل موجود يصح أن يرى وهذا على سبيـل التنزل ، وإلا فصفـات الخالـق لا تقـاس على صفات المخلـوقين ، وأدلـة السمـع لها جمَّة بـوقـوع ذلك في الآخـرة لأهـل الإيمان دون غيرهـم ، وإنها لمنقبـة عظيمة لأهل الإيمان أن يكرموا زيادة على كل ما ينعم عليهم في الجنة أن يروا ربهم عياناً ، فله الحمد بجميع محامده ، قال ابن بطال : ذهب أهل السنة وجمهور الأمة إلى جواز رؤيـة الله في الآخرة ، ومنع الخوارج والمعتـزلة وبعـض المرجئة .. إلى أن قال: وقد تلقاها المسلمون بالقبول مـن لدن الصحابة والتابعين حتى حدث من أنكر الرؤية وخالف السلف .

كـان عليّ أن أقدم هـذه الكلمات بين يدي إيـراد النصوص مـن السنة ـــ كما

وعدت ــ لأن المهم في الموضوع أن يتذكر المؤمن ما لهذه النعمة الكبرى من حق عليه في هذه الدار ،لأن الذي يستنزل رحمة الله تعالى التي بها يزحزح العبد عن النار ويدخل الجنة .. إيمان صادق وعمل صالح وعبودية خالصة للخالق المنعم المتفضل سبحانه وتعالى ؛ فما بالك بذلك العطاء الجزيل الذي لا يقدر قدره، بعد كل ما يكون لأهل الجنة من النعيم المقيم الخالد الذي لا يبغون عنه حولاً ؛ فأهل الجنة هم فيها خالدون ؛ وقد أوردت فيما سبق من قبل جزءاً من رواية أخرجها البخاري في صحيحه تتعلق بالرؤية ، ومن الخير إيراد ما يتسع له المقام هنا من روايات أخرتزيد الأمر وضوحاً وتعين على استجلاء المعنى المراد ؛ قال الإمام مسلم : حدثني زهير بن حرب قال : حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا أبي عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي، أن أباهريرة أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يارسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا :لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يتبع القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ...» الحديث. وفي هذا الحديث العديد من الصور التي تطفح بها مشاهد القيامة العظام، أوردها في موضعها إن شاء الله كالذي صنعت في إيراد رواية البخاري .

وغني عن البيان أن كل ما في تلكم الروايات الصحيحة ، يوجب تحريك العزائم إلى مجانبة الغفلة واللحاق بركب أهل السعادة الذين عقلوا عن الله وعن

رسـول الله عليه الصـلاة والسلام ، ووضعـوا الخبر الصـادق عما يكون في الآخـرة لأهل الإيمان البررة المخبتين موضعه اللائق به ،على ساحة العمل والجهاد والتزود ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، يوم ينبأ كل امرىء بما قدم وأخر ولا يسأل حميم حميماً .

ولكم تبدو ـ على صعيـد الواقع اليوم ـ آفاق للعمل الصـالح المنتج والجهاد بالمال والنفس وكل الوسائل المشروعة المتاحة ، والدفاع عن حوزة الإسلام ، وصد الغـارات المبيتـة عليـه وعلى أهلـه ، والسعيد مـن لم يبخـل بما يمكنـه على هـذه الساحـة ، وتوظيف إمكاناته تحت هذه الراية . وهنالك الثمرات المرجوة في الدنيا والآخرة إن شاء الله.

ولمسلم من رواية أخرى عن أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا : يـارسول الله هل نرى ربنا يوم القيـامة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : هـل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليـس معها سحاب، وهل تضـارون في رؤية القمر ليلـة البدر صحواً ليـس فيها سحاب ؟ قـالوا : لا يـارسول الله ! قـال : مـا تضارون في رؤيـة الله تبارك وتعـالى يـوم القيامـة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مـؤذن ، لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فـلا يبقى أحـد كان يعبـد غير الله سبحانـه من الأصنـام والأنصاب ، إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر وغبر أهل الكتاب ـ أي بقـاياهم ـ فيدعى اليهود فيقـال لهم : ما كنتم تعبـدون ؟ قالوا : كنـا نعبد عزيـراً ابن الله ، فيقـال : كذبتم مـا اتخذ الله من صـاحبة ولا ولـد . فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا ياربنا فاسقنا . فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضهـم بعضاً ، فيتساقطون في النـار ، ثم يدعى النصـارى ، فيقال لهم : ما كنتـم تعبدون ؟ قالـوا : كنا نعبد المسيح ابـن الله ، فيقال لهم : كذبتـم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولـد ، فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنـا ياربنا فاسقنا ، قال : فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم

بعضها بعضاً ، فيتساقطـون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبـد الله من بر وفاجـر ، أتاهم رب العـالمين سبحانه وتعالى في أدنـى صورة من التـي رأوه فيها ، قال: فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد .قالوا : ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ماكنا إليهـم ولم نصاحبهم، فيقول : أنا ربكم ، فيقولـون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً ( مرتين أو ثلاثاً) حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب فيقول : هل بينكم وبينه آيـة فتعرفونـه بها ؟ فيقولون: نعـم، فيكشف عن سـاق ، فلا يبقى مـن كان يسجد مـن تلقاء نفسه إلا أذن الله لـه بالسجود ، ولا يبقـى من كان يسجـد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورتـه التي رأوه فيها أول مرة فقال : أنا ربكـم ، فيقولون : أنت ربنـا ، ثم يضرب الجسر على جهنـم وتحل الشفاعـة ويقولـون : اللهم سلـم سلم ...» الحديث .

اللهم اجعلنـا من أهـل طاعتـك وأدخلنا الجنة يـوم القيامـة برحمتـك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ،لا يهمها غيرها ، لما يكون من شدة الهول، وتوفى كل نفس جزاء ما عملت في دار الفناء ،وهم لا يظلمون شيئاً ... في ذلك اليوم ينشر الله رحمته على السعداء الذين كانوا في الدنيا ، مقيمين على خشيته بالغيب ، وهنالك ترتفع للعطاء الإلهي أعلام ، ويحظى أولئك الموفقون بالنعيم المقيم في جنة الخلد ، ويبلغ الإكرام الإلهي ما يبلغ من المدى، حين يتجلى الله عليهم ـ وهو أرحم الراحمين ، المتصف ـ جل شأنه ـ بصفات الكمال جميعها ـ يتجلى عليهم برؤية وجهه الكريم سبحانه . وصدق ربنا إذ يقول في محكم تنزيله ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة﴾ وكلامنا اليوم موصول بما كنا فيما سبق من القول بصدده ، من إيراد زمرة مباركة من نصوص الحديث النبوي الشريف، التي حملتها إلينا دواوين السنة في شأن تلكم الكرامة الإلهية، التي يتفضل الله بها على الصفوة من خلقه .

ولكم يسعد المؤمن أن يكون في عداد أهل الرضا ، فيناله ما ينالهم من الرحمات والفضل والإحسان . من أجل ذلك تراه في شوق دائم إلى لقاء الله ؛ وهنالك يسعى جاهداً في أن يكون على المحجة البيضاء ، سلوكاً للسبيل الأقوم، وأخذاً للنفس بما يأخذ به أهل العزائم أنفسهم ، طاعة لله وجهاداً في سبيل الله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . أرأيت إلى قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم﴾ وهنيئاً لمن يحظون بموعود الله في الرؤية ،وسبحان من لا تنفذ خزائن فضله ، وعطاؤه هو العطاء .

أخرج الترمذي بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتضامون في رؤية القمر ليلة البدر ، وتضامون في رؤية الشمس ؟ قالوا: لا . قال: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته » .

تضامون : من الضيم وهو المشقة والتعب فلا يظلم أحداً. وفي رواية «تضامون » من الضم ـ كما مر من قبل . وفي رواية أخرى : هل تمارون أي تجادلون في ذلك أو يدخلكم شك ، وكلها روايات ظاهرة المعنى ، تؤكد ما أراده عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد البلغاء والفصحاء ـ من إيصال القناعة إلى النفوس بحصول ذلك يوم القيامة، ويومئذ يدخل قلوب المؤمنين من الفرح والبشرى ما الله به عليم . قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وهكذا روى يحيى ابن عيسى الرملي وغير واحد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وروى عبدالله بن إدريس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ . وحديث ابن إدريس عن الأعمش غير محفوظ، وحديث أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أصح .

وهذا التفصيل في الحكم على الروايات ، صورة من صور الدقة والأمانة العلمية عند علمائنا رحمهم الله . ثم قال أبوعيسى : وهكذا رواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وقد روي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ من غير هذا الوجه مثل هذا الحديث وهو حديث صحيح .

وما من ريب ـ والله أعلم ـ أن هذا العطاء الإلهي الذي يتمثل برؤيته سبحانه، مرده إلى تفضله جل شأنه على عباده المتقين وهو الكريم المنان سبحانه، بأن يرضى عنهم فلا يسخط عليهم أبداً . هذا في الوقت الذي لم يكونوا يطمعون ـ وقد أحلهم دار المقامة في نعيم مقيم ـ بشيء فوق ما هم فيه ، لأنهم موقنون بأنه أعطاهم ما لم يعط أحداً من خلقه .

أخرج الإمام البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : قال : رسول الله ﷺ: « إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : ياأهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك !! فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

ألا إنه الفضل الرباني الذي لا يحد .. وما أعظم أن يجدد المسلمون دينهم ، بتجديد الصلة بهذه الكلمات النوارنية وأمثالها، تلك التي تضيف إلى القناعة العقلية حرارة الإيمان بالغيب ، وصدق الوجهة في أن تكون الدنيا ـ بحق ـ مطية الآخرة .. فهذا الكلام كلام من لا ينطق عن الهوى، وإنه لنعم البيان لما جاء في كتاب الله العزيز من ترغيب العاملين الصادقين ، والمجاهدين المخلصين بدار المقامة نزل الأبرار ، التي يتصاعد الإنعام فيها ويتصاعد حتى يصل إلى ما نرى في هذا الحديث : رضوان من الله أكبر ، ورؤية وجهه الكريم سبحانه. والعلاقة بينهما جد وثيقة ـ كما سلفت الإشارة من قريب ـ والحديث رواه بهذا اللفظ عن أبي سعيد ، أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه وغيرهم . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح وفي رواية أخرى لابن حبان عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : أتشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا وما فوق ما أعطيتنا ؟ قال: فيقول : بلى رضاي أكثر ».

هذا وتفيد بعض الروايات أن الخطاب بهذا الإنعام الكريم ، يكون أيضاً لأولئك الذين يخرجهم ربنا جل جلاله ـ وهو أرحم الراحمين ـ من النار وقد عادوا حمماً ويدخلهم الجنة ، فيقول أهلها عند ذلك : هؤلاء عتقاء الله ؛ ففي أعقاب الحديث الطويل الذي بدىء بالكلام على رؤية الله عز وجل ـ كما رأينا في بعض الروايات ـ والذي عرض لعدد من مشاهد يوم القيامة، الناطقة بصدق وعد الله ووعيده ـ وهو من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ نقرأ «أن أبا سعيد كان

يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟ فقال: يارسول الله كأنك ترعى بالبادية، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا قد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا: فيقولون: ياربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

هؤلاء عتقاء الله أي يقولون: هؤلاء عتقاء الله.

ومن الواضح أن هؤلاء الذين نالتهم عناية الله تبارك وتعالى ورحمته لم يعملوا خيراً ولكنهم من أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله.

والحِبَّة: بكسر الحاء واحدة الحب بالكسر أيضاً وهو بزر مالا يقتات به مثل بزور الرياحين. وحميل السيل: فعيل بمعنى مفعول وهو ما يحمل من غثائه وزبده..

هذا: والحمد لله على نعمه التي لا تحصى ومننه التي لا تستقصى، وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة، سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن استمسك بهداه إلى يوم الدين.

## عتقاء الله.. والجنة

هذه كلمات أتابع فيها ما العهد به قريب من أن الارتباط ـ والله أعلم ـ قائم بين الإكرام بالرؤية، وبين إحلال الله رضوانه على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبداً . وقد أشرت هنالك إلى أن هذه المكرمة الربانية ، تنال أيضاً زمرة من الموحدين الذين لم يعملوا خيراً قط ، وينتهي بهم الأمر إلى الجنة ، بعد أن يخرجهم ربنا برحمته وفضله من نار السعير ، ويحييهم على الوجه الذي أراد ، بعد أن صاروا في جهنم حمماً . وقد أوردت رواية الإمام مسلم في ذلك .

ومما ينبغي ذكره ، أن الإمام أحمد أورد الحديث بطوله في المسند من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه الكلام على إخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان من النار ، وعلى هؤلاء الذين يقول لهم أهل الجنة : عتقاء الله ، وما يكون من منة الله عليهم وتفضله بالرضا عنهم، فلا يسخط عليهم أبداً ، وقد جاء هناك: «قال أبوسعيد : فمن لم يصدق بهذا : فليقرأ هذه الآية : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وهي الآية الأربعون من سورة النساء . قال: فيقولون : ربنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحد فيه خير ، قال : ثم يقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع الأنبياء ، وشفع المؤمنون ، بقي أرحم الراحمين وقال : فيقبض قبضة من النار أو قال : قبضتين ، فيخرج ناس لم يعملوا لله خيراً قط ، قد احترقوا حتى صاروا حمماً : فيؤتى بهم إلى ماء يقال له : ماء الحياة ، فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحِبة في حميل السيل ، فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم ، عتقاء الله ، قال : فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم . عندي أفضل من هذا . قال : فيقولون : ربنا وما أفضل من ذلك ؟ قال : فيقول : رضائي عليكم فلا أسخط عليكم أبداً » .

ولا يخفى ما تدل عليه النصوص ، من أن هؤلاء الموحدين الذين دعاهم إخوانهم من أهل الجنة : «عتقاء الله » وكانوا قد قصروا في الدنيا ، وتخلفوا عن ركب العاملين ـ إنما جاءتهم الرحمة ، وحفتهم العناية ـ وسبحان الرحيم الرحمن ـ بعد أن ذاقوا ما ذاقوا من العذاب الذي تطهروا به من الأرجاس ، حتى أصبحوا حمماً ، بسبب أنهم قد ماتوا على التوحيد ، ولقوا ربهم على الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله» . أما الكفار : فهم خالدون مخلدون في النار ، أعاذنا الله من شرها ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً . خالدين فيها أبداً لايجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ .

أقول هذا دفعاً للالتباس ، وتذكيراً بحق لا إله إلا الله ، وما يجب من أن يدور المؤمن مع الكلمة الطيبة ، عاملاً بمقتضاها ،حيث دارت ، فهي منبع الهداية ، وسلسبيل السعادة الدنيوية الموصولة بسعادة الآخرة . والنظرة المتأملة في مجموع الروايات ، تؤكد مذهب أهل السنة والجماعة في هذه القضية بالنسبة للموحدين وغير الموحدين ، وتبينه أوضح بيان . فلا خلود في النار لأهل التوحيد، ولا جنة لأهل الكفر والضلال . قال الإمام مسلم : وحدثني هارون بن سعيد الأيلي قال : حدثنا ابن وهب قال : أخبرني مالك بن أنس عن عمرو بن يحيى بن عمارة قال : حدثني أبي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يُدخل الله أهل الجنة الجنة . يُدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ، ثم يقول : انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون منها حمماً قد امتحشوا فيلقون في نهر الحياة أو الحيا ، فينبتون كما تنبت الحِبة إلى جانب السيل ، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية » .

امتحشوا أو امتُحشوا كما في بعض الروايات : احترقوا ، والحيا : المطر سمي حيا لأن به تحيا الأرض . وأنت ترى أن هؤلاء الذين امتحشوا في النار ، كان في قلب كل واحد منهم بقية باقية من إيمان ، وهي ما عبر عنه بمثقال حبة خردل من إيمان ، فنالتهم رحمة الله تبارك وتعالى ، ثم كان لهم بفضله ومنِّه ـ جل شأنه ـ ما

أخبر عنه الحديث .

هذا: وبعد أن كشف الإمام مسلم ــ وهو المعروف بدقته في الرواية ــ عن اختلاف الروايات اليسير في بعض الألفاظ ، قال : وحدثني نصر بن علي الجهضمي قال : حدثنا بشر يعني ابن المفضل عن أبي مسلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها : فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ( أو قال بخطاياهم) فأماتتهم إماتةً ، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحِبة تكون في حميل السيل ، فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية».

قوله ﷺ : «ضبائرَ ضبائرَ » كذا هو في الروايات والأصول كما قال العلماء، مكرر مرتين . وهو منصوب على الحال. والضبائر : جماعات في تفرقة والمفردضبارة وضبارة بفتح الضاد وكسرها ويقال فيها أيضاً : إضبارة بكسر الهمزة . وبثوا على أنهار الجنة : نشروا .

هكذا يحرص النبي ﷺ على تجلية المعنى الذي أراده في شأن هؤلاء المنعم عليهم في دار القرار ، ولقد كان من بلاغته الفاذة عليه الصلاة والسلام أن استعان بما يحصل في البادية في أعقاب السيل من نبات الحِبة ، وهي بزرة مالا يقتات كالريحان وغيره فيما يحمل السيل من الطين والغثاء والزبد ؛ فعتقاء الجنة هؤلاء ــ على الحال التي يكونون عليها بعد خروجهم من جهنم ـ يجيء الله بهم جماعات » متفرقة وينشرون على أنهار الجنة ، أو يلقون في نهر في أفواه الجنة ـ كما رأينا في بعض الروايات ـ فينبتون كما تنبت تلك الحبة في حميل السيل ...إلا أن هذه البلاغة التي وضعت الأمور موضعها ـ ومن ذلك الاستعانة بما يعرف الناس من أمور البادية ، حيث يحمل السيل الذي يحدثه الغيث ما يحمل من الغثاء

والزبـد ، وتنبت فيه تلـك البذور حيث تخرج النبتة صفراء ملتوية ــ قد استوقفت ذلك الـرجل ، وهو مـن أهل اللغة والبيـان والمعرفة بشـؤون البادية فقـال : كأن رسول الله ﷺ قد كان بـالبادية . وسبحان من اختار لبيان كتابـة المعجز بيان نبيّه محمد عليه الصـلاة والسلام ، فكان هذا التساوق الفذ بين المبيَّن وبيـانه على أبلغ وجه وأكمله ، واتضحت معالم الطريق ، وبان الصبح لكل ذي عينين .

وبعد هـذا: لابد مـن الإشارة إلى أن الظاهـر ـ كما يقـول العلماء ـ مـن معنى الحديث : أن الكفار الـذين هم أهل النـار والمستحقون للخلود، لا يموتـون فيها ولا يحيـون حياة ينتفعـون بها ويستريحون معهـا ،كما قال الله تعـالى: ﴿**لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها**﴾ وكما قال سبحانه ﴿**ثم لا يموت فيها ولا يحيى**﴾ . قال الإمـام النووي رحمه الله : «وهذا جـار على مذهـب أهل الحق أن نعيـم أهل الجنـة دائم، وأن عذاب أهـل الخلـود في النار دائم . وأمـا قولـه ﷺ : «ولكن ناس أصابتهم النار » إلى آخره .فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى بعـد أن يعذبـوا المدة التي أرادهـا الله تعالى . وهـذه الإماتـة ، إماتـة حقيقية يذهب معها الإحساس ، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم يميتهم، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس المدة التي قدرها الله تعالى ، ثم يخرجون من النار مـوتى قـد صاروا فحماً فيحملـون ضبائر كما تحمـل الأمتعة ، ويلقـون على أنهار الجنة، فيصب عليهـم ماء الحياة فيحيون وينبتون نبات الحبـةفي حميل السيل في سرعـة نباتها ، فتخـرج لضعفهـا صفـراء ملتويـة ، ثـم تشتـد قوتهم بعـد ذلـك، ويصيرون إلى منازلهم ، وتكمل أحوالهم» .

اللهم اجعلنا ممن ينتفعون بهدي نبيـك المصطفى ، فلا يحيدون عن الجادة في العمل ليوم الحساب .

## السلف الصالح.. والإيقان بالرؤية

ليس عجباً من العجب أن يكون السلف الصالح ، بدءاً من الصحابة عليهم الرضوان ، مصدقين تمام التصديق بوقوع المغيبات ومنها رؤيته عز وجل يوم الدين ، بعد أن علموا ذلك من كتاب الله المجيد سبحانه وعلى لسان النبي عليه الصلاة والسلام المبلغ عن الله ما أراد . وما من ريب في أن هذا الإيمان الصادق بالغيب ـ كما جاء به الخبر الصادق عن الله ورسوله ـ سمة مميزة ألقت ظلالها على السلوك في حياة الفرد والجماعة عبر تاريخ هذه الأمة ، وكان لذلك آثاره العملية في بناء الحياة الإسلامية بشتى ميادينها ، وفق المنهج الرباني في الكتاب والسنة، كما أن ذلك الإيمان ، كان من الحوافز الجادة على العمل الصالح والجهاد في سبيل الله، وارتياد ساحات العلم النافع والعمل بأوسع معانيهما ، وكل ذلك مع الخشوع والخضوع بين يدي الله عز وجل ، والاجتهاد في العبادة ، والتزود بالتقوى ليوم المعاد.

وقد حملت إلينا المصادر شذرات طيبة تدل على عمق الإيمان عند أصحابها واستنارة بصائرهم ، وذلك عند بعض الصحابة رضوان الله عليهم ـ وقد عاشوا متنزل الوحي ـ وبعض التابعين لهم بإحسان ، ومن سار على دربهم في ذلك، ولست بسبيل الاستقصاء ، ولكني مورد منها ما يتسع له المقام في هذه العجالة، ولعل القليل ينبيء عن الكثير ، قال ابن القيم رحمه الله : قال أبو إسحاق عن عامر بن سعد « قرأ أبوبكر الصديق رضي الله عنه ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ : ما الزيادة ياخليفة رسول الله ؟ قال : النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى». وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عمارة بن عبيد قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول: «من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى » أجل، وأكرم بها من نعمة. وذكر أبوعوانة عن هلال عن عبدالله بن حكيم أنه قال: سمعت

عبدالله بن مسعود يقول في هذا المسجد ـ مسجد الكوفة ـ يبدأ باليمين قبل أن يحدثنا فقال : « والله ما منكم من إنسان إلا إن ربه سيخلو به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر قال : فيقول : ما غرّك بي ياابن آدم ـ ثلاث مرات ـ ماذا أجبت المرسلين ـ ثلاثاً ـ كيف عملت فيما علمت» وقيل لابن عباس رضي الله عنهما : «كل من دخل الجنة يرى الله عز وجل ؟ قال : نعم ».

وروى ابن أبي حاتم عن ميمون بن أبي حمزة قال : ( كنت جالساً عند أبي دائل فدخل علينا رجل يقال له : أبو عفيف ، فقال له شقيق بن سلمة : ياأبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ! قال: بلى ، سمعته يقول : «يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحد فينادى: أين المتقون ؟ فيقومون في كنف واحد من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا لله في العبادة فيمرون إلى الجنة » .

وروى يزيد بن هارون وابن أبي عدي بالسند عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه « أنه كان يحدث الناس فشخصوا بأبصارهم فقال: ما صرف أبصاركم عني؟ قالوا : الهلال . قال : فكيف بكم إذا رأيتم وجه الله جهرة !» وقد أحصى الطبري عدداً من روى حديث الرؤية من الصحابة فبلغ ثلاثة وعشرين نفساً منهم: علي وأبوهريرة وأبو سعيد الخدري وأبو موسى وغيرهم ، وروى الدارقطني عن يحيى بن معين أنه كان يقول : عندي سبعة عشر حديثاً في الرؤية كلها صحاح. وتحدث الإمام البيهقي عن موقف الصحابة من الرؤية وأنه لم يرو عن أحد منهم نفيها ثم قال : ولو كان فيها مختلفين لنقل اختلافهم في ذلك إلينا ، كما أنهم لما اختلفوا في رؤية الله بالأبصار في الدنيا ، نقل اختلافهم في ذلك إلينا ، فلما نقلت رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصار في الآخرة عنهم، ولم ينقل عنهم في ذلك اختلاف كما نقل عنهم فيها اختلاف في الدنيا ، علمنا أنهم كانوا على القول برؤية الله بالأبصار في الآخرة متفقين ومجتمعين .

وجميل ما ورد عن الصحابي الجليل فضالـة بن عبيد رضي الله عنه أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضا ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك».

وقد سار التـابعون ومن سار على نهجهـم سيرة الصحابة في هذا التصـديق والفهم ـ كما أسلفت ـ . هذا عمر بن عبـدالعزيز رحمه الله وأجزل مثوبته ، يكتب إلى بعـض عمالـه فيقول : « أمـا بعـد : فـإني أوصيـك بتقـوى الله ولزوم طـاعتـه، والتمسك بأمره والمعاهدة على ما حملك الله مـن دينه واستحفظك من كتابه ، فإنه بتقوى الله نجا أوليـاء الله من سخطه ، وبها رافقوا أنبيـاءه ، وبها نضرت وجوههم، ونظروا إلى خـالقهم، وهي عصمـة في الدنيا مـن الفتن ، ومـن كرب يوم القيـامة» وقال الحسـن البصري : «لو علم العابـدون في الدنيا أنهم لا يـرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا » . وتحمل إلينا المصـادر ما قال حماد بن زيد عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى « أنه تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ فقال : إذا دخل أهـل الجنة الجنة أعطوا فيها مـا سألوا وما شـاؤوا ، فيقول الله عز وجل لهم: إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه ، فيتجلى لهم ربهم ، فلا يكون ما أعطوه عند ذلك بشيء ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه ربهم عز وجل . ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى ».

وحدث عبـدالله بن وهب قـال : قال مالـك بن أنس : « النـاس ينظرون إلى ربهم عز وجل يوم القيامة بأعينهم» . وقد مر بنا من قبل أنه ـ رحمه الله ـ سئل عن قوله عز وجل : ﴿ وجوه يومئذ نـاضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ أتنظر إلى الله عـز وجل، فقال: نعـم ، فقيل له : إن أنـاساً يقولـون : تنظر ما عنـده ، قال : بل تنظـر إليه نظراً، أين هم من قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئـذ لمحجوبون﴾ . وروى الربيع عن الإمام الشافعـي رحمه الله أنه قال في قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ « لما حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا، قال الربيع : قلت: ياأبا عبدالله وتقول به ؟ قال: نعم وأدين الله به»

وحدث أبوالقاسم الأنماطي صاحب المزني قال: قال الشافعي رحمه الله : «في قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ » دلالة على أن أولياء الله يرونه يوم القيامة بأبصارهم ووجوههم» وقال إسحاق بن منصور قلت لأحمد رحمه الله : «أليس ربنا تبارك وتعالى يراه أهل الجنة ؟ أليس نقول بهذه الأحاديث ؟ قال : صحيح ».

وهكذا نجد الأئمة ومن يوثق برأيهم في الإسلام ، يسيرون على سنن الصحابة والتابعين لهم بإحسان في هذا الأمر العظيم والمنة الكبرى .

وذكر ابن أبي حاتم عن قتيبة بن سعيد أنه كان يقول : « قول الأئمة المأخوذ به في الإسلام والسنة، الإيمان بالرؤية والتصديق بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ ». وذكر ابن بطة عن أبي عبيد القاسم بن سلام، أنه ذكرت عنده هذه الأحاديث التي في الرؤية فقال : «هي عندنا حق رواها الثقات عن الثقات حتى وصلت إلينا ، إلا أنَّا إذا قيل لنا فسروها لنا قلنا : لا نفسر منها شيئاً ولكن نمضيها كما جاءت ».

## ماذا عن آخر أهل الجنة دخولاً الجنة

من مشاهد الرحمة الغامرة والإنعام الإلهي الكبير يوم اللقاء .. مشهد آخر أهل الجنة دخولاً الجنة !! أو آخر أهل النار خروجاً من النار ودخولاً الجنة حسب تعدد الروايات وألفاظها في ذلك ، فقد أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام خبر هذا الرجل بتفصيل يحرك القلوب ، ويهز المشاعر ، ويثير كوامن الإيمان بعظمة كلمة التوحيد . وماذا أنت قائل بتفصيل واقعة غيبية تتجلى فيها رحمةالله بعباده ، وتبديله السيئات حسنات ، وفيض عطائه الجزيل تفضلاً منه وإحساناً ... وقد جاء ذلك كله على لسان سيد البلغاء صلوات الله وسلامه عليه ببيانه المشرق وأسلوبه الرفيع الأخاذ ...

وتشدك الواقعة المؤثرة التي تأخذ بمجامع القلب أكثر وأكثر ... حين تعيش ـ بإيمانك ــ الحوار الذي ورد في الحديث، بين الواحد القهار غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول سبحانه ، وبين ذلك العبد الضعيف ، الذي أقعده تخلفه في العمل عن اللحاق بركب السابقين، الذين تفتح لهم أبواب الجنة ويقول لهم خزنتها : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ وكل ما يملكه في هذه الحال أن يرجو ويلحَّ في الرجاء ، لعل الكريم المنان يستجيب؛ على ما كان من ضعفه وتقصيره فيما مضى . ولقد حمله الطمع بفضل الله وجوده ، حتى على عدم الوفاء بما يعد ، من أنه لا يطلب جديداً من ربه ، ويرضى بما حصل له من العطاء.. أجل حمله الطمع على ذلك ، لأنه يريد أن لا يقف عند الذي يفرضه الوفاء ، فيحرم دخول الجنة وليس له صبر عنها، وكيف يصبر نفسه عنها وقد أشرق جمالها بقلبه ، وأبصرها تلوح أمام ناظريه، وهي من عطاء الرحمن الرحيم ، ثم إنه لا ييأس من استجابة الله له . وإذا امتلأ القلب بالرجاء الصادق، فحدث ولا حرج .. خطوة تتلوها ـ إلى الإمام ــ خطوة .. وطمع بعطاء المنان المتفضل يتبعه

طمع، ورجاء لا يكاد يتحقق من ورائه المأمول، حتى يندفع الرجل ـ وهو العبد المتخلف عن الركب كما قلنا ـ إلى ما وراء ذلك خاشعاً متضرعاً متوسلاً والشيء البارز في الموضوع : أنه وهو يسأل ربه الكريم جل وعلا بتلك الضراعة والطمع أن يستجاب له، يعلل كل مطلب جديد بعلة، ويكشف له عن سبب، وكل ذلك في ساحة الضعف بين يدي مولاه القادر القاهر والافتقار إليه .. وما أجمل أن يؤوب العبد ويحسن التضرع بخشوع وخضوع .. وكيف لا يعمل ذلك كلّه عملَه، والمدعو المفتقَر إليه المتضرَّع على بابه، هو الله ذو القوة المتين الذي كتب على نفسه الرحمة، ولا ينقص ملكَه العطاء .

ويشدك الحوار العظيم بين الخالق والمخلوق ـــ وهو الحوار الذي يتجلى فيه الإحسان بأعز مظاهره وأعلاها وأغلاها ـــ ويهفو قلبك لمعرفة ماذا سيكون !! ويسعد الرجل بعد تلك الرحلة، بدخول الجنة .. جنة عدن التي يخلد أهلها في نعيم مقيم لا ينقطع ولا يزول .

ولكن هل يكون ذلك خاتمة المطاف .. لا . إنه الفضل الذي لا يحد والعطاء غير المجذوذ .. فإذا دخل دار النعيم قال الله له : سل وتمنه، فيسأل ويتمنى ما يخطر على باله في تلك اللحظات . حتى إن الله ليذكره .. يقول : كذا وكذا حتى تنقطع به الأماني فيقال له : هذا لك ومثله معه. وفي رواية : قال الله له : هذا لك وعشرة أمثاله . إنه مشهد رائع معبر عن الفيض الرباني بكلمة التوحيد، باعث على المزيد من العمل والطمع بفضل الله الذي لا راد لفضله، وهو ذو الجلال والإكرام .

ولننظر الحديث : أخرج البخاري بسنده في كتاب التوحيدمن الجامع الصحيح عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا: لا يارسول الله : قال : فهل تضارون في الشمس ليس دونها

سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ...إلى أن يقول : ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولاً الجنة ، فيقول : أي رب اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها ، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه ، ثم يقول الله : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره ؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء ، فيصرف الله وجهه عن النار ؛ فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول : أي رب قدمني إلى باب الجنة، فيقول الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً ؟ ويلك ياابن آدم ما أغدرك !! فيقول : أي رب ، ويدعو الله حتى يقول : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطى ما شاء من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الحَبْرة والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أي رب أدخلني الجنة ، فيقول : ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟ ويلك ياابن آدم ما أغدرك ، فيقول : أي رب لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه قال له : ادخل الجنة ، فإذا دخلها قال الله : تمنه ، فسأل ربه وتمنى، حتى إن الله ليذكره، ويقول : كذا وكذا حتى انقطعت به الأماني ، قال الله : ذلك لك ومثله معه » .

ثم قال البخاري قال عطاء بن يزيد : وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئاً ، حتى إذا حدث أبوهريرة أن الله تبارك وتعالى قال : ذلك لك ومثله معه ، قال أبو سعيد الخدري : وعشرة أمثاله معه ياأباهريرة . قال أبوهريرة : ما حفظت إلا قوله : « ذلك لك ومثله معه » قال أبوسعيد الخدري: أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله : «لك وعشرة أمثاله » قال أبوهريرة: «فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة» .

والملاحظ في هذه الرواية للبخاري أنه جاء في أول الحديث عن هذا الرجل هو آخر أهل النار دخولاً الجنة » كما جاء في آخره : قول أبي هريرة رضي الله عنه : « فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة » ...

ويبدو أن المآل واحد ؛ فإذا نظر إلى ما كان فيه قبل دخول الجنة ، فالوجه ما جاء في أول الرواية . وإذا نظر إلى ما آل إليه أمره من بعد حيث أصبح ـ بفضل الله وإحسانه ـ من أهل الجنة فهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة . وذلك ما جاء في رواية الإمام مسلم كما يأتي إن شاء الله ونصها « ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة » وهو رواية أخرى للبخاري أيضاً .

معنى قشبني ريحها : سمني وآذاني وأهلكني . كذا قاله الجماهير من أهل اللغة والغريب . وقال الداوودي : معناه غيرَّ جلدي وصورتي . وأما ذكاؤها ـ بفتح الذال ـ : فمعناه : لهيبها واشتعالها وشدة وهجها ، تقول : ذكيت النار إذا أتممت إشعالها ورفعتها . والأشهر في اللغة : ذكاها مقصوراً تقول : ذكت النار ذكاً : إذا اشتعلت . وذكر جماعات أن المد والقصر لغتان ؛ أي ذكاء وذكا. والاستفهام في قوله سبحانه : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره ؟ يفيد تقرير المتوقع وهو عودة للسؤال كائن وأن الصواب في هذا التوقع ، ومعنى انفهقت : انفتحت واتسعت. والحبرة : السرور ، وحبره الله: سره ، ومنه قوله تعالى: ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ ولفظ رواية مسلم « ورأى ما فيها من الخير والسرور».

اللهم اجعلنا ممن يغمرهم فضلك وإحسانك يوم الدين إنك يا ربنا أهل التقوى وأهل المغفرة .

بين المؤمن ، وبين الخبر الصادق عما يكون يوم القيامة من شديد الأهوال،وما أعد الله لعباده الصالحين ، من جنات هم فيها خالدون ، وزروع ومقام كريم، وفوز برضوانه الأكبر ... نسب صحيح كريم ، وهذا النسب يجعل المؤمن شديد الفرح بتلكم البشريات العظيمة ، ويحمله على التزود لغده القريب بالعمل الصالح والجهاد في سبيل الله ، كيما يكون ـ بفضل الله ـ ممن ينشر سبحانه عليهم رحمته ، ويورثهم الجنة يتبوؤون منها حيث يشاؤون ، ونعم أجر العالمين . ولذلك تراه عندما يصبغ صبغة في الجنة يبدو كما ثبت في الحديث الصحيح ـ كأنه خالي الذهن من تذكر شدة مرت بـه في الدنيا، أو بؤس ضرب بجرانه عليه ، لأن النعيم المقيم الذي آل إليه ينسيه ما كان من شدة أو بـؤس ، فأين ما انتهى إليه من جنة عدن وما فيها : مما كان عليه أمره في الـدنيا !! وعلى العكس من ذلـك ، من كان مصيره سواء الجحيم وبئس المصير .

قال الإمام مسلم حدثنا عمرو الناقد قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ صبغة ثم يقال : ياابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : ياابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مر بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » ورواه أحمد في المسند بهذا اللفظ .

وله في رواية أخرى عن أنس أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بأشد الناس كان بلاءً في الدنيا من أهل الجنة فيقول : اصبغوه صبغة في الجنة فيصبغونه

فيها صبغة فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط أو شيئاً تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً أكرهه قط ، ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار ، فيقول: اصبغوه فيها صبغة فيقول : ياابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ قرة عين قط ؟ فيقول : لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرة عين قط »

قولـه: فيصبغ في النـار صبغة أي يغمس كما يغمـس الثوب في الصبـغ ، من أجل هذا لابدع في أن يُلِـحَّ ذلك الرجل الذي هو آخر أهـل الجنة دخولاً الجنةأو آخر أهـل النار دخـولاً الجنة ــ كما جاء في الحديـث الصحيـح ــ ويكون ــ على تقصيره وتخلفه عن ركب أهـل الصلاح والتقوى ـ شديد هـذا الإلحاح بأن يكرمه ربه بإدخاله الجنة، كيلا يكون أشقى خلقه .

وقد أوردت فيما سبق حديثه من رواية الإمـام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيـح ، وفي لفظ للبخاري مـن رواية أبي هريـرة في الرقاق مـن الجامع «... حتى إذا فـرغ الله من القضـاء بين عباده وأراد أن يُخرج مـن النار مـن أراد أن يُخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفوهم بعلامة آثار السجود ، وحرّم الله على النار أن تأكل مـن ابن آدم أثر السجود ، فيُخرجونهم قد امتُحشوا ، فيُصَبُّ عليهم ماءٌ يقال له: ماء الحياة ، فينبتون نبات الحِبة في حميل السيـل ، ويبقى رجـل مقبـل بوجهـه على النـار فيقول: يـارب قـد قشبني ريُحهـا وأحرقني ذَكاؤهـا فاصرف وجهي عن النار ، فلا يزال يـدعو الله فيقول : لبيك، إن أعطيتُك أن تسـألني غيره ؟ فيقـول : لا وعزتـك لا أسألـك غيره ... إلى أن يقول يارب لا تجعلني أشقى خلقك . فلا يزال يـدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذِن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها قيل: تمنَّ من كذا فيتمنى . ثم يقال له : تمنّ من كـذا فيتمنى ، حتـى تنقطع بـه الأماني ، فيقول لـه : هذا لـك ومثله معـه قال أبوهريرة : فذلك آخر أهل الجنة دخولاً » ثم أضاف البخاري ماروى عطاء من أن أبا سعيد يحفظ « هـذا لك وعشرة أمثاله» على أن هنالك روايـة للإمام البخاري في كتاب الأذان فيها اختـلاف في بعض الألفاظ يسير : فقد جاء فيهـا : «.. ثم يفرغ

الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ـ وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة ـ مقبل بوجهه قِبل النار فيقول: يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبني ريحها وأحرقني ذَكاؤها ثم يأذن له في دخول الجنة ، فيقول : تمنّ . فيتمنى ، حتى اذا انقطع أمنِيَّتَهُ قال الله عز وجل : مِن كذا وكذا ـ أقبل يذكِّره ربه ـ حتى إذا انتهت الأماني قال الله تعالى : لك ذلك ومثلُه معه » .

قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رضي الله عنهما : إن رسول الله ﷺ قال : قال الله : لك ذلك وعشرة أمثاله . قال أبو هريرة : لم أحفظ عن رسول الله ﷺ إلا قوله : لك ذلك ومثلُه معه . قال أبو سعيد : إني سمعته يقول : ذلك لك وعشرة أمثاله». وجاء في « فتح الباري » للحافظ ابن حجر رحمه الله شرحاً لقوله : « يارب لا تجعلني أشقى خلقك » المراد بالخلق هنا : من دخل الجنة ، فهو لفظ عام أريد به خاص . ومراده أنه يصير إذا استمر خارجاً عن الجنة أشقاهم . وكونه أشقاهم ظاهر لو استمر خارج الجنة وهم من داخلها .

قال الطيبي : «معناه : يارب قد أعطيتُ العهد والميثاق ولكن تفكرتُ في كرمك ورحمتك فسألت» . ووقع في الرواية التي في كتاب الصلاة « لا أكون أشقى خلقك» وللقابسي « لأكوننَّ » قال ابن التين : المعنى : لئن أبقيتني على هذه الحالة ولم تدخلني الجنة لأكوننَّ والألف في الرواية الأولى زائدة . وقال الكرماني : معناه لا أكون كافراً : قال الحافظ : قلت : هذا أقرب مما قال ابن التين ، ولو استحضر هذه الرواية التي هنا ما احتاج إلى التكلف الذي أبداه ، فإن قوله : «لا أكون » لفظُهُ لفظُ الخبر ومعناه الطلب ، ودل عليه قوله : « لا تجعلني » ووجه كونه أشقى أن الذي يشاهِد ما يشاهِد ولا يصل إليه ، يصير أشدَّ حسرةً ممن لا يشاهد . وقوله : «خلقِك» مخصوص بمن ليس من أهل النار .

ومهما يكن من أمر : فإن واقعة هذا الرجل بما فيها من الحوار بين رب العالمين جل جلاله، وبين عبد من عباده الضعفاء، الذي أقعده عن أن يكون في

عداد مـن يدخلون الجنة مـن أول الأمر ، تقصيرهُ وتوانيـه عن العمل الصالـح وما إليه. هـذه الواقعة الغيبيـة التي ثبتـت بالخبر الصحيح. يفترض أن تشحـذ عزائم المؤمنين لمزيد من الاجتهاد في طاعـة الله ، والقيام على أمره ، والجهاد في سبيله على كل صعيـد أمكن هذا الجهـاد ، لأنه إذا كان العطـاء الربـاني الذي رأينا مـع هذا الإنسان الوحيد آخر أهل الجنة، دخولاً الجنة والذي عانى ما عانى قبل ذلك ، فما بالك بالفوز الكبير الذي يناله أهل التقـوى الذين دأبوا في الدنيا على المسارعة في الخيرات ودعاء مولاهم سبحانه رغباً ورهباً وكانوا له عابدين . إن الانتفاع بحديث هذا الرجل وأمثال ذلك من الأحـاديث التي جاءت على لسان الصادق المصدوق عليه الصـلاة والسلام ، عنـوانه : مثابـرة العامل واستـدامة سعيـه في الصالحات، والجد في كل ما هو طاعة وجهاد في سبيل الله ، ويقظة الغافل كيما يستأنف طريق السعـداء الموفقين ، وهنـالك يحظـى بما ينـالهم في الجنـة التـي أورثـوها بما كـانـوا يعملون.

هذا : والحديث رواه الإمام مسلم بلفظ البخاري الأول ، وفي آخره كلام عطاء ابن يزيد عن مخالفة أبي سعيد لأبي هريرة في شأن الأمثال ، فأبوهريرة سمع «ومثله معه » وأبـوسعيد سمـع «عشرة أمثالـه » ولعلهما واقعتان كما نجـده عند أحمد مـن رواية أبي هريرة بعدة روايات كذلك .

والله المسؤول أن ينفعنـا بهدي نبيه الكـريم صلـوات الله وسلامـه عليه ، وأن يباعـد بيننا وبين الغفلة والغـافلين ، ويقربنا مـن طريق عبـاده المتقين المقربين، الذين هم في الآخرة طوبى وحسن مآب ، وصلاة الله وسلامه على إمام الهدى ونبي الرحمة وعلى آله وصحابته ، ومن سلك سبيله واتبع سنته ، وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين .

السالكون طريق الجنة والزحزحة عـن النار بإخلاص الدين وصالح العمل ، المنيبـون إلى ربهم في خشية ليـوم الحسـاب .. أهـلٌ لأن يغبطوا ويُغبطـوا ، لما أنهم صدقوا في الإيمان والعمـل للآخرة ، ولم يقعدهم شيء عن تحمـل المكاره في سبيل الله ، وعدم الركون إلى العـاجلة وزخرفها ، ولا غرَّهم بالله الغـرور ، ويوم القيامة تشرق مواكبهم بنـور العطاء الإلهي ، ويدخلون ـ بفضل الله ورحمتـه ـ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، جزاء بما كانوا يعملون .

والواقـع أن هؤلاء البررة كـانوا حقاً مـن أولى النهى ، حين سلكـوا إلى جنة الخلـد طريقهـا ، ولم يبخلوا بـالثمن ؛ ومـا أكثر أبـواب الخير المفتحة ، على هـذه الطريق .

والمهم أن يأخـذ المرء نفسه بعزيمة الصـادقين، ويرتفع ـ مستعينـاً بالله ـ على المعوقات والصوارف ، ﴿ إنَّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾. وقد أوردت فيما مضى عـدداً من الأحـاديث التي تقـرر كثرة أبـواب الخير المومى إليهـا، والتي إن ولجها المؤمـن بصدق كـانت بريـده إلى الجنة ، والسعيد مـن سارع في الطـاعة ولم يسوِّف . وأنت واجد أن بعض الأعمال التي هي من أيسر أحكام التكليف ، أكرم الله بها الأمة، فجعلها على لسـان نبيه عليه الصلاة والسلام ، طـريق المؤمن إلى دار النعيم .

فعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قـال : « كانت علينا رعاية الإبل ، فجاءت نوبتـي أرعاها ، فروّحتهـا بالعشي ، فأدركت رسـول الله ﷺ قائماً يحدث وأدركت من قوله : «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه ، إلاوجبت له الجنة » فقلـت: ما أجود هذا ؟ فإذا قائل

يقول بين يدي : التي فيها أجود ، فنظرت ، فإذا عمر بن الخطاب ، فقال : إني قد رأيتك قد جئت آنفاً ، قال : « ما منكم من أحد يتوضأ ، فيبلغ الوضوء ، أويسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسولـه ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانيـة ، يدخل من أيها شـاء» أخرجه مسلم .

ونجد عند أبي داود ما روى بسنـده عن معاوية ـ يعني ابن صـالح ـ عن أبي عثمان عـن جبير بن نفير عـن عقبة أيضـاً قـال : «كنا مـع رسول الله ﷺ خـدام أنفسنا ، نتناوب الرعاية ، رعاية إبلنا ، فكانت علي رعاية الإبل ، فروحتها بالعشي فأدركت رسول الله ﷺ يخطـب الناس ، فسمعته يقول : «ما منكم مـن أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا قد أوجب» فقلت. بخ بخ ما أجود هذه . فقال رجـل من بين يدي : التي قبلها ياعقبة أجود منها، فنظرت فإذا هـو عمر بن الخطاب ، فقلت: ما هي ياأبـا حفص ، قال : إنه قال آنفاً قبل أن تجيء : «ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يقول حين يفرغ مـن وضوئه : أشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له ، وأشهـد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » قال معاوية: وحدثنـي ربيعة بن يـزيد عـن أبي إدريس عن عقبـة بن عامـر . ثم قـال أبوداود: حدثنا الحسين بـن عيسى قال : حدثنا عبدالله بـن يزيد المقرىء عن حيـوة ـ وهو ابن شريح ـ عـن أبي عقيل ، عن ابن عمه ، عن عقبة بن عـامر الجهني نحوه ، ولم يذكر أمـر الرعاية ، قـال عند قوله : «فـأحسن الوضوء » ثـم رفع بصره إلى السماء فقال : وساق الحديث بمعنى حديث معاوية .

قوله : روحت الإبل ، من الرواح ويكون بالعشي كما يكون الغدو في الصباح تقول : روحت الإبـل والغنم إذا أعدتها إلى مراحهـا بالعشي وهو موضـع مبيتها ، ورواه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني وأبي عثمان النهدي ولفظه عن عمر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من توضـأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد

أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريـك له ، وأشهـد أن محمـداً عبده ورسـوله . اللهـم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ».

هكذا يحبّب النبيﷺ إلى أمتـه عمل الصـالحات وإتقانـه ، وأن يكون هـذا العمل خالصـاً لله تبارك وتعالى ، وهذه أبواب الجنـة تفتح للمؤمن عنـدما يفعل ذلك ، مهما قل ذلك العمل أو كان من طبيعتـه أن يتكرر ... إنها مائدة ربانية من موائد الخير والإحسـان .. وما على المؤمن إلا اغتنـام الفرصة ، وحسـن الامتثال لما دعا إليـه النبي عليـه الصلاة والسلام ورغـب به .. إنه إن فعـل ذلك كـان الفوز هناك ، وأكرم به مـن فوز عنوانه وحقيقته ، حسن المآب وجنـة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

هذا : وقـد جاء الحديـث المومى إليـه عند النسـائي بدون الـدعاء، إذ روى بسنده في المجتبى ـ السنن الصغرى ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مـن توضـأ فأحسـن الوضـوء ثم قـال : أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ».

وليس مـن مكرور القول ، التنبيه على أن هـذه المثوبة العظيمة التـي تترتب على هذه الطـاعة ، مابـدٌ من أن تصحبها الاستقـامة ، فليس يفترض بـالمؤمن أن يكون موقفه من ذلك ، موقف العابث فيقول : أذنب الآن ويغفر لي عند الوضوء، فأدخل الجنة ، ويتكرر منه ذلك عمـداً لا سمح الله ، فالذي تدل عليه النصوص أن المرء بحاجة أبداً إلى التوبة والمغفرة ، وقد تبدر منه الخطيئة في لحظة من لحظات الضعف ، فإذا تاب وأناب وأقبل على العبادة بكليته صادقاً منيباً إلى مولاه ، كان من وراء ذلـك ـ والله أعلـم ـ ما جـاءت البشارة به في كتـاب الله وسنة نبيـه عليه الصلاة والسـلام ، فالأمـر أمر تـرغيب في العبـادة وحسن الإتيـان بها ، في صدق توجه إلى الخالق البارىء سبحانه وتعالى ، وما دام العبد في مقام العبودية الخالصة

لله ائتماراً بما أمر بـه الشارع ، وانتهـاء عما نهى عنه ، كـان ذلك عنـوان السعادة في الدنيا والآخرة ، وإذا مسه طائف من الشيطان أسرع التذكر فتاب وأناب ، فكان من الذاكـرين المبصرين وذلكم ما جـاء في كتاب الله العزيز مـن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إن الـذيـن اتقوا إذا مسهـم طـائف مـن الشيطـان تـذكروا فـإذا هـم مبصرون﴾.

وتجدر الإشارة هنـا ، إلى أن كثيراً مما بشر بـه النبي ﷺ مـن غفران الـذنوب ودخول الجنة ، ملاحـظ فيه هول الموقف يوم القيامة ، ومـا يضيء به مشهد أولئك الذين ينشر الله عليهم رحمته يوم الدين ويحظـون بالنعيم المقيم ، من أمثلة ذلك ما ورد في فضل المؤذنين مـن قوله ﷺ فيما روى معـاوية رضي الله عنه قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المؤذنـون أطول الناس أعناقـاً يوم القيامة » وفي روايـة قال راوية : كنـت عند معاويـة بن أبي سفيـان فجاءه المؤذن يعدو إلى الصـلاة ، فقال معاوية سمعت رسول الله ﷺ وذكره . أخرجه مسلم .

قال ابن الأعرابي في معنى «أطول أعنـاقاً » أي أكثر أعمالاً يقال : لفلان عنق من الخير أي قطعـة . وقال غيره ــ كما يقول ابـن الأثير ـ مـن طول الأعنـاق وهي الرقاب لأن الناس يوم القيامة يكـونون في الكرب ـ والمؤذنون مشرئبون لأن يؤذن لهم في دخول الجنة . ـ وروي « إعناقاً » بكسر الهمزة أي إسراعاً إلى الجنة من العَنق وهو ضرب من سير الإبل سريع .

جعلنـا الله ممـن يستمعـون القـول فيتبعون أحسنـه، ووفقنـا لـلانتفـاع بهدي المصطفـى عليه الصـلاة والسلام ، كيما نكـون في زمرة المرحـومين المغفور لهم يـوم الدين ، الذين يدخلون الجنة هم فيها خالدون .

# اذهب فادخل الجنة

في خضم الاستغراق بمطالب دار الفناء العاجلة ، والاغترار بزخرفها الزائل ، والتعامل في دنيا المسلمين ـ إلا من رحم ربك ـ وفق المعـايير المادية الصِّرفة التي هبت على المسلمين ريحها من حضارة الغرب التي لها وعليها ، الأمر الذي كان من عقابيله عند الكثيرين ، ضعفُ الارتباط القائم على أخوة العقيدة بين المؤمنين ، والغفلةُ المرعبة عن الله واليوم الآخر ، وما أعدّ الجبار فيه لعباده ، فلكلٍ درجاتٌ مما عملوا إن خيراً فخير و إن شراً فشر .. في خضم ذلك كله يحزن المؤمن على نفسه وعلى إخوانه ، لما تحدثه تلك الغفلة بشِقَّيها من الأذى ، وما يترتب عليها من آثار بالغة السوء .. سواء في ذلك ما هو على صعيد الفرد، وما هو على صعيد الجماعة . والواقع الذي تكاد النفس تذهب من سوئه حسرات ، أقوى وأوضح شاهد على ذلك .

أقول هذا ، مع أن النصوص التي تحمل أخبار يوم القيامة، وما بُشر به المؤمنون الذين يعملون الصالحات ـ من جناتٍ تجري تحتها الأنهار ، وما أُنذر به أهل الضلالة والمظاهرة على الإسلام وأهله من العذاب الأليم ـ تملي وجوبَ الانفلات من الغفلة ، وتجديدَ العزيمة للعمل الصالح ، وتغليبَ المعايير الخيرة في السلوك عامة ، وفي التعامل بين أبناء العقيدة المكرَّمة بوجه خاص ، وذلك كيما يكون المسلم أهلاً لأن تناله الرحمة يوم الدين ؛ فيزحزحَ عن النار ويُدخَلَ الجنة خالداً فيها مع الخالدين ، ولعل القراءة المتدبرة الواعية لقدر من النصوص الواردة في هذا الشأن ، مع التأدب بأدب المنصفين والحياء من الله ، تشعر المؤمن بوجوب الأوبة الصادقة إلى طريق أهل الفلاح ، والإذعان لما توحي به البشارة والنذارة من ضرورة الإعراض عن طريق المفتونين الذين لا يرجون لله وقاراً ،والتشمير لدار الكرامة في الآخرين .

أخرج الإمام البخاري بسنده ـ من حديث طويل ـ عن قتادة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « يُحْبَسُ المؤمنون يوم القيامة حتى يهمّوا بذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا .. إلى أن يقول : فيأتوني فأستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعُني ما شاء الله أن يدعني ، فيقول : ارفع محمد وقل يُسْمع ، واشفع تشَفّعْ وسل تُعط ، قال : فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يُعلِّمنيه ، فيحُدُّ لي حدّاً فأخرج فأدخلهم الجنة . قال قتادة : وسمعته أيضاً يقول : فأخرج فأُخرجهم من النار ، وأُدخلهم الجنة، ثم أعود فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يَدَعَني ، ثم يقول : ارفع محمد وقل يُسْمَعْ ، واشفع تشفّعْ وسل تعطه قال : فأرفع رأسي ، فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلِّمنيه ، قال : ثم أَشفع فيحُدُّ لي حدّاً فأَخرج وأُدخلهم الجنة . قال قتادة : وسمعته يقول : فأَخرُجُ فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدَعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول : ارفع يا محمد وسل تُعْطَه قال : فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يُعَلِّمينه ، قال : ثم أشفع فيحُدُّ لي حداً فأخرج ، فأُدخلهم الجنة قال قتادة : وقد سمعته يقول : فأخرجُ فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن ، أي وجب عليه الخلود ، ثم تلا الآية ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : وهذا المقام المحمود الذي وُعِدَ نبيكم ﷺ » .

وفي رواية لمسلم : «فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي . ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفّع فأرفع رأسي فأقول : يارب أمتي أمتي فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . والذي نفس محمد بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة

وبُصرى ».

وبعد : فهذا قليل من كثير من حقائق الغيب التي تعني ـ فيما تعني ـ التنبيه على أن الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام، يمتد رواء رحمته ـ بفضل الله تعالى ـ إلى الآخرة فتكون تلك الشفاعة التي يخرج بها من جهنم أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم من أهل التوحيد . ويدخلون الجنة ويفوزون فيها بالنعيم المقيم .

هذه واحدة ، وأما الثانية : فإن تلك الرحمة ، يجب أن تثير نفحات الإيمان وتشحذ العزائم ، كيما يكون المؤمن في عداد أولئك الأوابين الذين تزلف لهم الجنة غير بعيد، كما جاء في قوله تعالى في سورة ق : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد** ﴾ .

وما أروعه مشهداً ، يفرح قلوب أهل الفلاح السعداء ، فيحمدون الله حق حمده على ما أولاهم من حسن العاقبة، وما أكرمهم به من صدق وعده بإحلالهم دار المقامة من فضله يتبؤون منها حيث يشاؤون ، وتزداد نفوسهم طمأنينة بأحقية ما وعد الله من أنه لا يضيع أجر العاملين . ألم تر إلى قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿**وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين**﴾ .

هذا : وليس العهد بعيداً ، بما أوردته من حديث آخر أهل الجنة دخولاً الجنة أو آخر أهل النار دخولاً النار . ويبدو للناظر في روايات الحديث أن الأمر تكتنفه صور متعددة تشرق كلها بواسع الرحمة وجزيل الإحسان ؛ قال الإمام البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال : حدثنا جرير عن منصور عن إبراهيم عن عَبيدةَ عن عبدالله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً ؛ رجل يخرج من النار حبواً ، فيقول الله : اذهب فادخل الجنة : فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول: يارب وجدتها ملأى،

فيقول : اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى ، فيرجع.فيقول: يارب وجدتها ملأى ، فيقول : اذهب فادخل الجنـة ، فإن لك مثل الدنيا وعشرةَ أمثالها ـ أو إن لك عشرة أمثـال الدنيا ــ فيقول : أتسخر مني ــ أو أتضحك مني ــ وأنت الملك ؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، وكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة » وبهذا اللفظ رواه مسلم .

وتجدر الإشارة إلى أنه كانتَ للعلماء وقفات عند قـوله : أتسخر مني ـ خطاباً لله عز وجـل ـ . ومما ذكـر في ذلك ما جـاء في «فتح البـاري » من قول الحافـظ ابن حجر رحمه الله : ونقل القاضي عياض عن بعضهـم أن ألف « أتسخر مني » ألف كهي في قولـه تعالى : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهـاء منا ﴾ على أحد الأقـوال . قال: وهو كـلام متدلّلٍ علـم مكانه مـن ربه ، وبسطه لـه بالإعطاء . وجـوّز عياض أن الرجل قال ذلك وهو غير ضابط لما قال ، إذ ولِهَ عقله من السرور بما لم يخطر بباله. ويؤيـده أنه قال في بعـض طرقه عند الإمـام مسلم لما خلص مـن النار ـ وهـو ما سوف يـذكر في مـوضعه إن شـاء الله ـ لقد أعطـاني الله شيئاً مـا أعطاه أحـداً من الأولين والآخرين».

وقال القـرطبي في « المفهـم » : أكثروا مـن تأويلـه ، وأشبه مـا قيل فيـه : أنه استخفه الفرح وأدهشه فقال ذلك . وقيـل : قال ذلك لكونه خاف أن يُجازى على مـا كـان منه في الـدنيـا مـن التساهـل في الطـاعـات وارتكاب المعـاصي كفعـل الساخريـن ، فكأنه قال: أتجازيـني على ما كان مني ؟ فهـو كقوله : ﴿ سخر الله منهم ﴾ ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ جزاء سخريتهم واستهزائهم .

ومن سـلامة وحسن اتبـاعَ الصحابة رضوان عليهـم : أنه جاء في روايـة ابن مسعود رضي الله عنه ، « فضحك ابن مسعود فقالوا : مم تضحك ؟ فقال : هكذا فعل رسول الله ﷺ مـن ضحك رب العالمين حين قال الرجـل : أتستهزىء مني؟ قال : لا أستهزىء منك ، ولكني على ما أشاء قادر » .

والحمد لله أولاً وآخراً ونسأله تعالى أن يغفر لنـا خطيئاتنا ويكتبنا في عداد من ينشر عليهم رحمته يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

# آخر أهل النار خروجاً منها

هذه خطوة أخرى في الرحلة مع نصوص مباركة من السنة المطهرة، تشرق بالكشف عن مظاهر الرحمة التي تلحق بمن وافتهم آجالهم وهم على كلمة التوحيد، بعد أن قعدوا عن اللحاق بركب أهل التقوى من المؤمنين الذين يفوزون من أول الأمر بالكريم من العطاء، فيدخلون الجنة ـ برحمة الله وفضله ـ ثم تتفاضل منازلهم حسب أعمالهم، ويحمدون الله على ما حباهم من النعيم المقيم ورؤية وجهه الكريم، إذ كانت لهم الحسنى وزيادة، وهو المحمود على كل حال وهو العلي الحكيم.

وأقول: خطوة أخرى لأنه قد تتعدد رواية الحديث في موضوع واحد، تبعاً لتعدد المجالس أو المناسبات في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، ويكون من أثر ذلك أن يتعدد ـ في بعض الأحيان ـ رواةُ ذلك الحديث من الصحابة عليهم الرحمة والرضوان. وهذا ما نسعد به في شأن واحد من مشاهد القيامة الذي لابد أن يعمل عمله في القلب والعقل، ويوحي بما يجب من التشمير للجنة التي حفت بالمكاره، لأنها سلعة الله وسلعة الله غالية. وكان آخر ما رأينا رواية للإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح؛ مدارها الكلام على واحد من عباد الله قال رسول الله ﷺ في شأنه: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً».

وعلى هدي ما أومأت إليه من أمر تعدد الروايات، أجدني مسوقاً إلى التذكير بعدد منها جاءت في الموضوع نفسه عند الإمام مسلم وغيره. وما نجده عند مسلم جاء تحت باب عنون له الإمام النووي بقوله: «باب آخر أهل النار خروجاً» قال رحمه الله في بعض تلك الروايات: حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة وأبو كريب ـ واللفظ لأبي كُريب ـ قالا: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن عَبيدةَ عن

عبدالله ـ يعني ابن مسعود ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار رجل يخرج منها زحفاً ، فيقال له : انطلق فادخل الجنة ، قال : فيذهب فيدخل الجنة ، فيجد الناس قد أخذوا المنازل ، فيقال له أتذكر الزمان الذي كنت فيه ؟ فيقول : نعم . فيقال له : تمنّ فيتمنّ ، فيقال له : لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا . قال : فيقول : أتسخر مني وأنت الملك ؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » سبحان الله كم كان فرح هذا الرجل شديداً بفضل الله، وحُق له ذلك وكأنه قال ـ على ما نقل الإمام النووي رحمه الله عن بعض العلماء ـ : أعلم أنك لا تهزأ بي لأنك رب العالمين ، وما أعطيتني من جزيل العطاء وأضعاف مثل الدنيا حق ، ولكن العجب أنك أعطيتني هذا وأنا غير أهل له .. قال : وهذا كلامُ منبسطٍ متدللٍ .

ويرى القاضي عياض ـ كما سبقت الإشارة ـ أن قول الرجل : « أتسخر مني » قد صدر عنه وهو غير ضابط لما قاله ، لما ناله من السرور ببلوغ ما لم يخطر بباله ؛ فلم يضبط لسانه دهشاً وفرحاً ، فقاله وهو لا يعتقد حقيقة معناه ، وجرى على عادته في الدنيا في مخاطبة المخلوق ، وهذا كما قال النبي ﷺ في الرجل الآخر أنه لم يضبط نفسه من الفرح ـ يعني الذي وجد في الصحراء دابته وعليها طعامه وشرابه بعد فقدها واليأس منها ـ «فقال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » رواه البخاري ومسلم . والنواجذ ـ كما يقول جمهور العلماء من أهل اللغة وغريب الحديث : الأنياب . قال الإمام النووي : وفي هذا جواز الضحك وأنه ليس بمكروه في بعض المواطن ولا بمسقط للمروءة إذا لم يجاوز به الحدَ المعتاد من أمثاله في مثل تلك الحال .

وهذه صورة أخرى تحمل تفصيلاً أكثر ، نقع عليها في رواية أخرى لمسلم إذ روى بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آخر من يدخل الجنة رجلٌ : فهو يمشي مرةً ويكبو مرةً ، وتسفعه النار مرة . فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذي نجاني منك ، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من

الأولين والآخـرين ، فتُرفـع له شجـرة ، فيقـول : أي رب أدنِني مـن هذه الشجـرة لأستظلَّ بظِلها وأشربَ من مائها فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقـولُ : لا يارب ، ويعاهده أن لا يسـأله غيرهـا ، وربُه يَعذِره لأنه يرى مالا صبر لـه عليه ، فيُدنيه منهـا ، فيستظل بظلها ، ويشرب من مـائها ، ثم تُرفع له شجرة هي أحسن من الأولى ، فيقول : أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائهـا وأستظل بظلهـا ،لا أسألك غيرهـا ، فيقول : يـا ابنَ آدمِ ألم تعـاهدني أن لا تسـألني غيرهـا ، ويقول : لعلي إن أدنيتـك منها تسـألني غيرَهـا ، فيعاهـده أن لا يسأله غيرها . وربُه يَعذِره لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مـائها، ثم ترفـع له شجرة عنـد باب الجنة هي أحسـن من الأوليين ، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظلَّ بظلها وأشربَ من مائها لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابـن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألنـي غيرها ؟ وربه يعذِره لأنـه يرى ما لا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فإذا أدناه منها ، فيسمع أصوات أهل الجنة ، فيقول : أي رب أدخلنيها ، فيقول : يـا ابن آدم ، ما يصريني منك ، أيُـرضيك أن أعطيك الدنيـا ومثلَها معها ؟ قال : يـارب أتستهزىء مني وأنت رب العـا لمين ؟ فضحك ابن مسعود فقال : ألا تسألوني مم أضحـك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسـول الله ﷺ ، فقالوا : مم تضحـك يا رسول الله ؟ فقال : مـن ضحك رب العا لمين حين قال : أتستهزىء مني وأنت رب العا لمين ؟ فيقول : لا أستهزىء منك ولكني على ما أشاء قادر » .

معنى « مـا يصريني منـك » : أي ما يقطـع مسألتـك مني ، مـن الصَّر بفتح الصاد وسكون الراء وهو القطع .

صلى الله على معلم الناس الخير الـرؤوف الرحيم با لمؤمنين ، فكـم يحمل هذا الهدي النبوي المشرق بـالأخبار عما يكـون يوم الـدين ، وعما يحصـل من رحمة ذي الجلال والإكرام وفضله وإحسـانه .. كم يحمل هذا الهدي المبارك لأهـل التوحيد من نعـم يعز على العقول تحديدهـا ، وحوافز بـالغة التأثير تـرتفع با لمؤمن ــ وهو

يشتاق صادقاً إلى الجنة ـــ ترتفع بـه إلى حيث إخـلاص الدين لله ، والمسـارعة إلى مغفرةٍ منه جل شأنه وجنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

هذا : وفي الصحيح عند الإمام مسلم بعض الروايات الأخر التي تميط اللثام عن جوانب مهمة تزيدنا إحاطة بما يكـون عليه حال ذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهـل النار . روى رحمه الله بسنده عن المعرور بن سـويد عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهـل النار خروجاً منها ، رجل يـؤتى به يوم القيامة ، فيقـال : اعرضوا عليه صغار ذنوبـه وارفعوا عنه كبارها. فتعرض عليه صغار ذنـوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا ، وعملتَ يومِ كذا وكذا وكذا ، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق مـن كبار ذنوبه أن تُعْرَض عليـه ، فيقال له : فإن لك مكـان كل سيئة حسنةً ، فيقـول : رب قد عملت أشياء لاأراهـا ههنا . فلقد رأيـت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » .

ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

## الجنة والنار تتحاجان

أخبار يوم الفصل وما يكون فيه من تحقيق الوعد والوعيد ، لها دائماً آثارها المشهودة في نفوس أهل التوفيق، الذين همُّهم أبداً مرضاة الله عز وجل فيما يأخذون، وفيما يدعون . ويالها من غاية سامية تثمر - بفضل الله - الفوز بالجنة والنجاة من النار . وهؤلاء الموفقون ، يشهد لإخلاصهم أنهم - وقد تذوقوا حلاوة الإيمان - يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ، فتراهم أمناء نَصَحَةً ، يذكّرون بالموت كما يذكرونه ، ويدعون إلى عدم الغفلة عن يوم الحساب، كما هي الحال في ذوات أنفسهم أنهم لا ينسون يوم الحساب . ثم إنهم لا يفتؤون يعملون على إنارة البصائر ، كيما يباعدوا الناس - وبخاصة ذوي الكلمة المسموعة والمسؤولية الثقيلة منهم - عن الركون إلى دار الغرور ، والفتنة التي توقع في المهالك ، وتقذف بصاحبها - والعياذ بالله - إلى نار الجحيم .

من هؤلاء الموفقين الذين يُذكرون بجميل نصحهم ، وعميق مواعظهم: التابعي الجليل الثقة زِرُّ بنُ حبيش المتوفى سنة سبع وعشرين ومائة ؛ فقد كانت موعظته - وهو من هو بصدقه واستقامته على أمر الله قولاً وعملاً - تأخذ طريقها بالقول البليغ إلى النفوس ، فتحدث ما تحدث من عظيم الأثر ، ونافعه في الدنيا ويوم الدين .

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في « الحلية » : حدثنا سليمان أحمد بن عبدالوهاب بن نجدَة قال : حدثنا علي بن عياش قال : حدثنا زكرياء بن حكيم الحنفيُّ عن الشعبي قال : كتب زِرُّ بن حبيش إلى عبدالملك بن مروان كتاباً يعظه، وكان في آخره : «.. ولا يُطمِعنك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما يظهر من صحتك فأنت أعلم بنفسك ، واذكر ما تكلم به الأولون :

إذا الرجال ولدت أولادُها وبليت من كبر أجسادها

وجعلت أسقامُها تعتادهـا تلك زروع قددنا حَصادها

فلما قرأ عبدالملك الكتاب، بكى حتى بلَّ طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زِرٌّ لو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق ».

وإنها ــ ورب السماء والأرض ـ لمنقبـة لهذا العالم العـامل النـاصح ،لا تفـي بقدرهـا كلمات معدودات ؛ العملُ بالعلـم والنصح لله ولرسولـه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وإن ذلـك ليسهم أيّما إسهام في توجيه الأمـة إلى ما فيه النصر والتمكين في الدنيـا ، والسعادة في الآخرة ، حيـث الفوز بـالنعيم المقيم في جنـات تجري من تحتها الأنهار ونعم أجر العاملين .

ولذلك كان من المهم حقاً ، أن يضع المؤمـن نصب عينيه تزكية نفسه، والرقي بها إلى مصاف أولئك السـعـداء ، الذين تكون مواكبهـم يوم القيامة إعلانـاً صادقاً يُثبتُ على رؤوس الأشهـاد سلامة الطريـق التي يسلكها من شرح الله صـدره لنور الهداية الربانية ، فخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، لأن من وراء ذلك جنة المأوى، والنعيـمَ الذي لا ينقضي ، والعطـاءَ الإلهي المتجدد .. عطـاءَ من لا تنفَـد خزائنه جل وعلا ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

وهـل علينا مـن بـأس بعد هـذا ، إذا نحـن استيقنَّـا أن هذا التصرف الـذي سلمت فيـه المقدمات فـأعطى ـ بفضـل الله ـ أكرم ثمـرة وخير عاقبة ، هـو الذي يكشف عن التساوق مع الذي يضيء به عقل المعاد !! إنها حقيقة ينبغي أن تكون أبداً في الحسبان عند المؤمن ، كيلا تنالَ منه المعوقات والصوارف في الدار العاجلة فتحولَ دونه ودون اللحاق بركب السعداء الموفقين .

وهل ننسى ما أخبر الله به عن أولئك الذين غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا ، فكانوا يوم الفصـل من المحرومين ، وكانت عاقبتُهـم جهنم وساءت مصيراً . وإذ ذاك يعترفـون بذنـوبهم معلنين أنهم ـ وقـد ضلّوا سبيـل الهدى ـ مـا أغنى عنهـم سمعهم ولا عقلهـم الدنيـويُّ شيئاً ﴿ وقـالوا لـو كنا نسمـع أو نعقـل ما كنـا في

أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ .

وفي عود على بدء ، من اصطحاب بعضٍ من الأحاديث النبوية في شأن ما يؤول إليه أمر العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لعل من الخير أن أورد هنا ما يكشف عن المحاجَّة التي تقع بين الجنة والنار يومذاك ، ففي ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر وذكرى لمن جعل رضا الله همَّه والعمل للآخرة هجيراه ...

قال الإمام البخاري رحمه الله : حدثنا عبدالله بن محمد قال : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمرٌ عن همّام عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « تحاجّت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ! قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي . ولكل واحدة منهما مِلؤها . فأما النار : فلا تمتلىء حتى يضع رجله فتقول : قط قط قط ، فهنالك تمتلىء ويُزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً. وأما الجنة : فإن الله عز وجلّ ينشىء لها خلقاً».

وأخرجه الإمام مسلم رحمه الله بهذا اللفظ ولكن عند قوله : «قالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم» جاءت العبارة عند مسلم « وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقَطهم وغِرّتهم » ورواه الإمام أحمد بلفظ: «فتقول : قط قط قط أي حسبي .. ».

معنى تحاجّت : تخاصمت . أما عن المتكبرين والمتجبرين : فقيل : هما بمعنى واحد ، وقيل : المتكبر : المتعاظم بما ليس فيه ، والمتجبر : الممنوع الذي لا يوصل إليه . وقيل : الذي لا يكترث بأمر . وكم في الظَّلمة الطغاة من يتصفون بذلك ويصرون على إيذاء عباد الله . والكلام هنا في صفات المخلوقين كما هو واضح ، والصفتان مذمومتان فيهم. أما عند الكلام على صفات الخالق جلّ وعلا

المتصف بالكمال المطلق، المنزّه عن كل نقص، وله الأسماء الحسنى والصفات العُلى: فنذكر قوله جل شأنه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

**قوله** : ضعفاء الناس وسقطهم . السَقَط بفتح السين والقاف : أي المحتقرون الساقطون من أعينهم . قال الحافظ ابن حجر : هذا بالنسبة إلى ما عند أكثر الناس ، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم ـ لعظمة الله عندهم وخضوعهم له ـ في غاية التواضع لله والذلّة في عباده ، فوصفهم بالضعف والسَّقَط بهذا المعنى صحيح . أو المراد بالحصر في قول الجنة « إلا ضعفاء الناس » : الأغلب . والغِرّة ، في الرواية المومى إليها عند مسلم كما هي عند الطبري أيضاً بكسر الغين وتشديد الراء المفتوحة أي غَفَلَتُهم ، والمراد به أهل الإيمان الذين لم يفطنوا للشُبَه ولم توسوس لهم الشياطين بشيء من ذلك ؛ فهم أهل عقائد صحيحة ، وإيمان ثابت وهم الجمهور . وأما أهل المعرفة : فهم بالنسبة إليهم قليل .

وكم يحسن المسلم لنفسه ولأهله ومجتمعه ، عندما يعمل على الابتعاد عن صفات أهل النار والاتصاف بصفات أهل الجنة ، وذلك لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح وإخلاص الدين لله عز وجل في الشؤون كلها ، والله جل شأنه ـ وهو الرحيم الرحمن ـ لا يضيع أجر من أحسن عملاً . وقد بلغ من أهمية الصفات المشار إليها أن تحاجت النار والجنة في هذا الأمر ـ كما رأينا في هذا الحديث ـ .

وجميل ما ذهب إليه الإمام النووي رحمه الله، من أن الحديث على ظاهره ، وأن الله تعالى جعل في النار والجنة تمييزاً تدركان به وتقدران على المراجعة والاحتجاج فتحاجَّتا ، ولا يلزم من هذا أن يكون التمييز دائماً .

وقد روى الحديث أيضاً الترمذي والنسائي وآخرون ، وجاءت الرواية عند الترمذي وفيها شيء من الاختصار وبلفظ « احتجت» وبكلمة « المساكين» وكلمة « الجبارون » . إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« احتجت الجنة والنار ، فقالت الجنة: يدخلني الضعفاء والمساكين، وقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون . فقال للنار : أنت عذابي أنتقم بك ممن شئت، وقال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من شئت » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وسبحان من تنزه عن الظلم ، وتفضل بالعدل والرحمة والإحسان .

وصلوات الله وتسليماته على إمام النبيين وخاتم المرسلين الذي ترك أمته على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وعلى آله وصحابته، ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله إلى يوم المعاد ..

# ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾

من المسلّمات عند أهل الإيمان ، أن طريق الجنة حزن يحتاج إلى عزائم الرجال، لأن الجنة ـ كما أخبر النبي ﷺ ـ حفّت بالمكاره. أما طريق جهنم : فسهل مذلّل؛ لما أنها حفّت بالشهوات ؛ من أجل هذا دأب من استنارت بصائرهم على التشمير لدار البقاء ، بارتياد ساحات الجهاد وصالح العمل ، وخلّفوا وراءهم أكداس الشهوات ومطالب النفس الأمارة بالسوء ، وتسويلات شياطين الإنس والجن ، ناهيك عن زخرف الدنيا ولهوها ومغرياتها، وما ينصب فيها للمؤمن من شباك وأحابيل..

وغير خافٍ أن هذا المسلك الجادَّ الذي ألزموا أنفسهم به ـ وهم يركضون إلى الله بزاد التقوى ويتطلعون إلى دار المقامة طامعين بفضله سبحانه ـ كما تظهر آثاره واضحة في أعمالهم وحرصهم على أن تحكم تصرفاتهم شريعة الله ، تظهر أيضاً في كلماتهم التي تبدو وهي على إرث من إرث النبوة ، لا يصرفهم عن ذلك ـ بعون الله ـ صارف ، ولا يُقعدهم عن اللحاق بركب الخالدين في جنة الخلد مطمع من مطامع الدنيا ، أو ركون إلى ما تسربل به الغافلون عن الله واليوم الآخر .

وما دام الأمر كذلك ، فالانتفاع ليوم المعاد كبير على ساحة التأسي، باستذكار مواقفهم وكلماتهم رحمهم الله . وهذه وقفة مع واحد منهم هو عبدالرحمن ابن أحمد بن عطية العَنْسي المذحجي المشهور بأبي سليمان الداراني نسبة إلى بلدة «داريا » قرب دمشق والمتوفى سنة خمس ومائتين للهجرة أو سنة خمس عشرة ومائتين، فقد كان يرحمه الله من عيون صلحاء هذه الأمة وزهادها ، والسالكين إلى دار الخلود بالعلم والعمل . وإن شئت فقل : بحسن التأسي بالرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام .

قال أبو سليمان في كلام طويل له كما روى أبو نُعيم في الحلية وغيره : «... من ترك الدنيا للآخرة ربحهما ، ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما ، وكل أم يتبعها بنوها ، وبنو الدنيا تُسلمهم إلى خزي شديد ، ومقامع من حديد ، وشراب الصديد ، وبنو الآخرة تسلمهم إلى عيش رغد ، ونعيم الأبد ، في ظل ممدود وماء مسكوب ، وأنهار تجري بغير أخدود . وكيف يكون حكيماً من غرّته الدنيا فهو لها يهوى رَكون؟ وكيف يكون راهباً من يذكر ما أسلفت يداه ولا يذوب ؟ الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتحيي القلب. ومن نظر إلى الدنيا مولية ، صح عنده غرورها ، ومن نظر إليها مقبلة بزينتها شاب في قلبه حبها ، ومن تمَّت معرفته، اجتمع همه في أمر الله، وكان أمر الله شُغلَه».

وما أحسب منصفاً يمتري في أن وعي هذه الكلمات النيّرة في مبناها، العميقة التأثير في معناها .. مما يعين ـ إذا صدقت الوجهة ـ على انتزاع المسلم من وهدة التأثر بأوضار الحضارة المادية الساحرة ، الحضارة التي تحمل الكثير الكثير مما يلهي عن الخير وقد ينسي البعضَ ربّه، ويشغله ، عن يوم المعاد، ومشاهد القيامة ، وما يجب من التزود النافع لذلك اليوم الذي لا ريب فيه . وإذا حصَل هذا التحوُّل عن ساحة الغفلة ، كان بمقدور المؤمن أن يكون على الطريق التي تنتهي به ـ وذلك برحمة الله ـ إلى جنة المأوى التي لا يبلى نعيمها ولا ينفد ، وذلك الفوز العظيم.

وفي فهم متبصّر لكتاب الله وتدبُّر إيماني لما ورد في شأن العاقبة يوم الدين لمن أكرمهم الله بالإيمان والعمل الصالح ، ولمن غلبت عليهم شقوتهم فضلوا وأضلوا: يقول أبوسليمان رحمه الله كما روى عنه أحمد بن أبي الحواري : «من سرّه أن يشهد يوم القيامة فليقرأ آخر الزمر » . وآخر « الزمر » قوله تعالى بدءاً من الآية السابعة والستين : ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ في الصور فصعق من السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت**

**الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .**

حقاً من أراد أن يشهد يوم القيامة، فليقرأ آخر «الزمر» . وكلما صفا القلب وأخلص المؤمن في صلته بكتاب الله عز وجل، كانت الفائدة أعظم والتدبُّر أنفع . وقد وردت أحاديث كثيرة تبدو بياناً مباركاً لهذه الآيات، أوردت عدداً منها فيما خلا من القول . وقال الإمام البخاري في تفسير سورة الزمر من كتاب التفسير في الجامع الصحيح عند قوله تعالى : ﴿**وما قدروا الله حق قدره** ﴾ حدثنا آدم قال : حدثنا شيبان عن منصور عن إبراهيم عن عَبيدةَ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حَبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ؛ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقاً لقول الحَبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ «وما قدروا حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ... » الآية .

ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث الأعمش عن ابراهيم عن عَبيدةَ عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه . وفي رواية للإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن

رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ورسول الله ﷺ يقول : هكذا بيده يحركها يقبل ويدبر ، يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا لَيَخِرّنَّ به».

وقد وردت أحاديث كثيرة تحمل البيان لهذه الآية الكريمة وأخواتها، وتبصِّر المؤمنين بما يكون في ذلك اليوم العظيم والطريقُ فيها وفي أمثالها من مذهب السلف: إِمرارها كما جاءت من غير تأويل ولا تكييف ولا تحريف .

والله نسأل أن يجعلنا ممن صدقوا في إيمانهم، وأخلصوا لله دينهم، فكانوا في عداد المتقين الذين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة زمراً ـ جماعة بعد جماعة ـ المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم؛ كل طائفة مع من يناسبهم ، مصداقاً لقوله جل شأنه : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ وصلى الله وسلم وبارك على البشير النذير وعلى آله وصحابته أجمعين .

# أهل الجنة وأهل النار

البشائر لمن يعملون الصالحات في الدنيا كثيرة في أخبار القيامة ،ومشاهد من أُكرموا بالفـوز العظيم وحسن المآب ؛ فكانوا ممن غشيتهـم الرحمة وأُدخلوا جنات تجري تحتها الأنهار جزاءً بما كانوا يعملون .

ولعل ممـا يستوقـف المؤمن المتبصِّر ، ما يخلـق ربنا جل جـلاله مـن إحساس خاص عند كل مـن الجنة والنار فتتحاجّان وتختصمان في شأن مـن أوثرت به كل منهما من أصناف الناس ـ كما دلت على ذلك أحاديث أوردتُها من قبل ـ وكيف أن الله تبارك وتعـالى ـ كما هو عنـد البخاري ومسلم ـ يقـول للجنة بعد هـذا : «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبـادي ، ويقول للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي . ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار : فلا تمتلىء حتى يضع رجله». وفي رواية ـ«حتى يضع الله تبارك وتعالى رجلـه ـ فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلىء ، ويُزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقـه أحداً ، وأما الجنة : فإن الله ينشىء لها خلقاً ». وجاء في بعض الروايات . قول الجنة : «فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرّتهم ».

وإضافـة إلى ما أوردته سـابقاً من كـلام العلماء في بيان المعنى المراد مـن هذا الكلام ، أودُّ الإشـارة إلى أن رواية « وغِـرّتهم » تحمل بشارة خـاصة لأولئـك الغرة الذين قد يرثي لهم بعض الناس أحياناً ،لجهلهم بأمور الدنيا إذ أنهم لايُتقنوها على الوجه الـذي ينبغي عند أهلها ، فالغِـر الذي هو من أهل الجنـة، يستمتع بنعيمها المقيم ، ويفوز منها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ هذا المؤمن إنما كان كـذلك في الدنيا ، لأنه لم يجرب الأمـور الدنيوية بدقـة ، فهو قليل الخبرة منقاد إلى الخير . والمعنى ـ كما يقول ابن الأثير ـ أن من آثر الخمول وإصلاح نفسه والتـزوّد لمعاده ، ونبـذ أمور الـدنيا، فليـس غِرّاً فيما قَصـد له ، ولا سقَطـاً ولا

مذموماً بنوع من الذم .. والحق أن الناس الذين هم على هذه الشاكلة من المؤمنين قد أغفلوا أمر دنياهم ـ فيما وراء ضرورياتها ـ فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فأتقنوا أسبابها ، وشغلوا أنفسهم بها ، ولم يكن ذلك من عجز عن كسب الدنيا ، وتخلف في الحذق بها ، ولكنهم آثروا ما يبقى على ما يفنى ـ وهذا من الفطنة المستنيرة بمكان ـ فأعرضوا عن الفانية إلى اكتساب الباقيات الصالحات . وفي ميزان أهل النجاة : ليس مذموماً من تقاصر عن كسب الدنيا وتخلّف في الحذق بها وأعرض عنها إلى اكتساب ما به يكون من الفائزين يوم الفصل وكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له .

وهؤلاء الذين خُصت بهم الجنة ، كان ما فيها من العطاء الإلهي الذي لا ينفَد ، رحمةً من الله رحمهم بها وتفضّل عليهم بأن جعلهم من أهلها ، إذ وفَّقهم ـ وهو الكريم المنان ـ لسلوك طريقها . كما خُصّت النار بأصناف الطغاة الظالمين المتكبرين ، الذين يجاهرون الله بمحاربة شريعته، ويحتقرون الناس ويزدرونهم ويظلمونهم ، ولا يرون لهم قدراً ، ويرفعون أنفسهم عليهم تجبراً وتكبراً .

هذا وفي هدي خير العباد ﷺ من الأحاديث الواردة في ذلك ،ما يغني في تصور ما تقوم عليه تلكم المشاهد التي قوامها من خُصت بهم الجنة ومن خُصَّت بهم النار ؛ والتذكير ببعض من صفات كلٍ من الفريقين ؛ الأمر الذي يستثير الهمم ويحرك العزائم إلى الإكثار من الطاعات والقربات والجهاد في سبيل الله ، وأخذ النفس بما عليه طلاب الآخرة الذين لا يصرفهم عن طريق دار المقامة صارف ، ولا يضعفون أمام زخرف الدنيا، ولا يغرهم بالله الغَرور ؛ لأنهم إن وقعوا في هذا الشرك، ضلّوا السبيل ، وعتوا عن أمر الله ، وكان من وراء ذلك الخيبة وسوء المصير ، شأن أولئك الذين جاءت النصوص على ذكر أوصافهم في أهل النار التي لا يصلاها إلا الأشقون العتاة عن أمر الله . من ذلك ما روى البخاري تحت « باب الكبر » من كتاب الأدب في الجامع الصحيح ، حيث قال رحمه الله : حدثنا محمد ابن كثير قال: أخبرنا سفيان قال : حدثنا معبد بن خالد القيسيُ عن حارثة بن

وهب الخزاعي عن النبي ﷺ قال: « ألا أخبركم بأهل الجنة !! كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبرّه ، ألا أخبركم بأهل النار !! كل عُتُل جوّاظٍ مستكبر » ولما كان عنوان الباب « الكبر » عُني شراح الحديث ببيان معناه بين يدي الشرح لما جاء تحته من الأحاديث . وكان لا بد من ذلك تحديداً لإبعاد صفةٍ جعلها النبي ﷺ من صفات أهل النار . وقد نقل صاحب « الفتح » عن الراغب الأصفهاني قوله : الكبر والتكبُّر والاستكبار تتقارب ، فالكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره وأعظم، كذلك أن يتكبر على ربه ؛ بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة . والتكبر يأتي على وجهين: أحدهما ـ أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن الغير ، ومن ثم وصف سبحانه بالمتكبر ؛ قال تعالى : ﴿العزيز الجبار المتكبر﴾ والثاني ـ أن يكون متكلفاً ذلك متشبعاً بما ليس فيه . وذلك في وصف عامة الناس ، نحو قوله تعالى : ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ وقوله جل شأنه: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ والمستكبر مثله .

وقد أخرج البخاري هذا الحديث أيضاً في كتاب التفسير من الجامع تحت باب ﴿عُتُلٍ بعد ذلك زنيم﴾ من سورة « نون » ولكن بلفظ «كلُّ ضعيف متضعِّف». وفي باب قول الله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهد أيمانهم﴾ من «كتاب الأيمان والنذور». قال رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثني غُنَدرٌ قال : حدثنا شُعبة عن معبد بن خالد سمعت حارثة بن وهب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « ألا أدلكم على أهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعِّف لو أقسم على الله لأبرّه ، وأهل النار كل جواظٍ عُتلٍّ مستكبِر » .

صلى الله وسلم على نبينا محمد الذي لا ينطق عن الهوى. كيف وجّه الأمة إلى محاسن الأخلاق ومكارم الفضائل ، ونبّهها على ما هو في معيار الحق والهدى من مساوىء الأخلاق ومعوج السلوك ، وذلك بأن جعل الأولى من صفات أهل الجنة الذين يفوزون بمرضاة الله يوم القيامة ، ويكونون ممن يُحِلُّهم الله دار المقامة، في

البررة المتقين ، كما جعل التي تقابلها من صفات أهل الضلالة الـذين تسعَّر بهم نار الجحيم . وفي ذلك ما فيه من عقد الصلة بين حركة الحياة في الدنيا ، وما يجب أن يكون عليـه المؤمن في سلوكه وأخـلاقه ـ وهـو يكدح إلى ربه سبحانـه وتعالى ـ وبين ما ينتهي إليه الأمر في الآخرة دار البقاء .

لقد أوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم ، وكان منها هذا الهدي المبارك في الدلالة على أهل الجنـة وعلى أهل النار ... والعاقل كل العـاقل من اتخذ لنفسه سلوك الطريـق الأقوم التي تنتهي به ــ بفضل الله ورحمته ـ إلى جنـة الخلد والنعيم المقيم.. إنه إن فعل ذلك ، كان حقاً مـن أولي النهى الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .. ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾.

# صفات أهل الجنة وحوافز الخير

ما من ريب في أن الرسول ﷺ مبلِّغ عن الله ما أراد ، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قَبل ، وهو المؤتمن على بيـان الكتاب العزيز ؛ لذا لم يلتحق بـالرفيق الأعلى حتى قـام ببيان كل ما يجب بيـانه للأمة . هـذه حقيقة لا يمتري فيها مؤمـن ، بل يتقرب إلى الله بالعمل بها ، أخذاً بما جاء عن صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

من هنا كان من البدهيات في ميزان العقل المنقاد لمعايير الإسلام : أنه ما كان لمؤمن ولا مـؤمنة إذا جـاء الخبر الصادق عن مشـاهد القيامـة وما فيهـا ، أن يكون الحظُّ من ذلـك ترفاً ثقـافياً ، وزاداً جديـداً من المعرفـة وكفى . ولكن الـواجب أن تكون المعرفة ـ وهـي معراج المسؤولية ـ حافزاً قويـاً على العمل الذي يكشف عن التصديق الجازم والرغبة في الاستعداد للموت ولما بعد الموت ، ثم التفاعل العميق مع ما سوف يكون يوم العرض الأكبر على رب العالمين ، حيث الناس بعد ذلك : فريق في الجنة وفريق في السعير . ﴿ ولكلٍ درجات مما عملوا وليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ .

ويرحـم الله الحسن البصري ــ وهو ــ كما نعلم ــ واحد مـن كبار التـابعين وعلمائهـم العاملين وأبْنِـائِهم الموفقين الـذيـن وجدت الأمـة فيهم القـدوة الخيِّرة للانتفاع بهدي النبي عليه الصلاة والسـلام .. رحمه الله حيث يقول : « ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عـن قليل قبرك ، إنك لم تزل في هدم عمرك مـذ سقطتَ من بطن أمك ».

وددت تقديم هـذه الكلمات العجلى بين يدي ما وعدت به من قـريب ، من متابعة الكلام على ماورد عن المصطفى عليـه الصلاة والسلام في شأن صفاتٍ من

صفات أهل الجنة، وصفاتٍ من صفات أهل النار ؛ لأن الواجب يقتضي كثيراً من الاحتراس عن الوقوع في أي من تلك الخلائق التي أخبر من لا ينطق عن الهوى: أنها من سمات من تسعّر بهم جهنم يوم الدين. ولا يخفى أن الأمر بالغ الأهمية، والعاقل من أخذ حِذره في الحياة الدنيا ، وكان على هدي من ربه فلم يخض مع الخائضين .

وقد أوردت ـ فيما سبق ـ ما أخرج البخاري في غير موطن من الجامع الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام فيما روى حارثة بن وهب رضي الله عنه : «ألا أدلكم على أهل الجنة ـ وفي رواية : ألا أخبركم بأهل الجنة ـ كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرّه . وأهل النار كل جوّاظٍ عُتّلٍ مستكبر » . وفي رواية « ألا أخبركم بأهل النار ... » الحديث . وقال الإمام مسلم : حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبريُ قال : حدثنا أبي قال : حدثنا شعبة قال : حدثني معبد بن خالد أنه سمع حارثة بن وهب أنه سمع النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ قالوا : بلى . قال ﷺ : كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرّه . ثم قال : ألا أخبركم بأهل النار ؟ قالوا : بلى ، قال : كل عُتُلٍ جواظ مستكبر » وحدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة بهذا الإسناد بمثله ، غير أنه قال : « ألا أدلكم » .

وهذه الدقة في التفريق بين الروايتين في أن الأولى « ألا أخبركم » والثانية « ألا أدلكم » صورة من مميزات منهج الإمام مسلم رحمه الله في كتابه « الصحيح » .

هذا : وقد جاء في رواية أخرى عنده لفظ « زنيم » بدل « عُتُل » وجاءت الرواية عند الترمذي بلفظ « كل عتل جوّاظ متكبر » . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ثم إن العلماء ـ كما يقول الإمام النووي يرحمه الله ـ قد ضبطوا « متضعَّف » بفتح العين وكسرها . والمشهور الفتح ، ولم يذكر الأكثرون غيره . ومعناه:

يستضعفه الناس ؛ فلا يلتفون له بالاً ، ولا يأبهون له ، بل يتجبّرون عليه لضعف حاله في الدنيا . يقال : تضعّفه واستضعفه . وأما رواية الكسر : « متضعِّف » فمعناها : متواضع متذلل خامل واضع من نفسه . وقال القاضي عياض رحمه الله : ( وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها ، وإخباتها للإيمان . والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء ، كما أن معظم أهل النار : القسم الآخر . وليس المراد الاستيعاب في الطرفين ) وهذا حق لأنه ما بدٌّ من دفع ما يتوهم من أن في الخبر دعوة للضعف ـ عموماً ـ فمعاذ الله أن يكون ذلك والرسول ﷺ يقول ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير ... » الحديث . وتأويل العلماء للحديث الذي نحن بصدده يعين على ذلك والحمد لله ..

أما الحافظ ابن حجر : فيقول : « متضعِّف » بكسر العين وفتحها ، وهو أضعف وفي رواية الإسماعيلي : « مستضعف » . وفي حديث عبدالله بن عمروٍ عند الحاكم النيسابوري «الضعفاء المغلوبون » وله من حديث سراقة بن مالك «الضعفاء المغلوبون » ولأحمد رحمه الله من حديث حذيفة رضي الله عنه « الضعيف المستضعف ذو الطمرين لا يؤبه له » .

ثم بيَّن الحافظ المراد من ذلك ( وهو أن الضعيف من نفسُه ضعيفة لتواضعه وضعف حاله في الدنيا ، والمستضعف : المحتقر لخموله في الدنيا ) وهذا ما أوضحته من قريب في شأن القوة في الدنيا ؛ فقد يكون هذا الضعيف في نظر من همُّهم تحصيل الدنيا ـ ولو أدى بهم ذلك إلى الغفلة عن الآخرة ـ غاية في القوة في الدين ، والصبر على المكاره في سبيل الله . ثم : أليس الذي يظل مغلوباً بشهواته وأهوائه ضعيفاً غاية الضعف من هذا الوجه ؟ وما أعظم المتضعّف الذي أتى على ذكره سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه مبيناً ما له من المنزلة عند الله ، بحيث إنه لو أقسم على الله لأبرَّ قسمه !! والمعنى : لو حلف يميناً طمعاً في كرم الله تعالى بإبراره لأبره ، وقال : لو دعاه لأجابه . يقال : أبررت قسمه وبررته ، وهو المشهور .

ونجد عند ابن الأثير في كتابه « النهاية في غريب الحديث » قوله : وفي حديث أهل الجنة « كل ضعيف متضعَّف » يقال تضعفته واستضعفته بمعنى، كما يقال : تيقن واستيقن . يريد : الذي يتضعفه الناس ويتجبرون عليه في الدنيا للفقر ورثاثة الحال . ومنه حديث الجنة « مالي لايدخلني إلا الضعفاء » قيل : هم الذين يبرئون أنفسهم من الحول والقوة . ومنه حديث عمر رضي الله عنه « غلبني أهل الكوفة ، أستعمل عليهم المؤمن فيضعّف، وأستعمل عليهم القويَّ فيفجَّر» .

أما « العُتُلّ » : فهو الشديد الخصومة بالباطل . وقيل : الجافي عن الموعظة . وروى عبدالرزاق في مصنفه عن الحسن البصري رحمه الله : العتُل: الفاحش الآثم. وقال الهروي : الجموع والمنوع . وجاء في حديث مختلف في صحته عند الإمام أحمد: أنه الظلوم للناس ، الرحيب الجوف .

أما الجوّاظ : فهو الفظ الغليظ . وقال الخطابي : الكثير اللحم المختال في مشيه. والزنيم: الدعي في النسب، الملصَق بالقوم وليس منهم. والمستكبر: صاحب الكبر . والكبر : بطر الحق وغمط الناس ، وقد سَبَق القول في هذا من قبل .

اللهم خلقنا بأخلاق أهل الجنة ، وباعد بيننا وبين أخلاق أهل النار ، إنك وليُّ ذلك والقادر عليه يا أرحم الراحمين .

# فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون

من الأمراض التي ابتليت بها فئات من الأمة ، ويخشى من اتساع سلطانها ؛ ضعف الارتباط بعلم الغيب والحقائق التي دلّ الخبر الصادق عليها في شأنه ، ومن ذلك أخبار يوم القيامة وما يشهده الناس هنالك من أهوال ، وكيف تكون عاقبة من أشرقت قلوبهم بنور الهداية وتحركت جوارحهم بصالح العمل ، وما يكون عليه حال أولئك الذين اتبعوا سبل الشيطان فضلّوا وأضلوا ؛ فأهل الإيمان والعمل الصالح يفوزون بجنة المأوى ، وهم فيها خالدون ، وأهل الضلالة يبوؤن بالعذاب الأليم في جهنم وساءت مصيراً .

وعواقب هذا الداء العضال في الدنيا ويوم الدين، لا تخفى على ذي بصيرة ؛ إذ المطلوب من المؤمن أن يكون وقافاً عند الذي جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعند الذي صحّ عن الصادق المصدوق رسول الله المبلّغ عنه ــ جل شأنه ــ ما أراد ... وإلا كان سوء العاقبة والضلال المبين في الدنيا والآخرة ﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ .

وما من ريب في أن النظرة المؤمنة المتبصرة إلى عالم الغيب عموماً ، وما يشهده العباد يوم القيامة من مشاهد تنطق بعاقبة أهل التقوى ، ومشاهد تبرز عاقبة من تنكبوا الصراط المستقيم .. ما من ريب في أن هذه النظرة لها انعكاساتها الإيجابية الطيبة على الفرد والمجتمع ، لما أنها تبعث على الاستقامة وصدق العزيمة في إدارة حركة الحياة على الوجه المشروع ، ومضاعفة الأعمال الخيرة ، وما به يُتقرب إلى الله تعالى ، وينتهي بالمؤمن إلى جنة المأوى . وكم تكون بنية المجتمع سليمة، إذا كان أفراده يتمتعون بهذه القوة في الإيمان والأخلاق ، والسعي الحثيث إلى تنمية حب الله تعالى وعظيم الرجاء برحمته وفضله ، والخوف من شديد عقابه يوم الدين ، وقد

أشرت غير مرة إلى حقيقة لايصح جهلها أو تجاهلها ، وهي العلاقة الوثيقة بين العمل في الدنيا ، وبين ما تكون عليه الحال في دار البقاء .

ولعل من الضرورة بمكان ، أن نشير هنا إلى أن الله جلت حكمته لا يظلم مثقال ذرة ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾. وهذا من سننه الحكيمة التي لا تتخلف ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . ولا تسل عن الأثر المبارك لهذه السنة يوم يقف الناس لرب العالمين . وقد أوردت في مناسبة خلت ـ ضمن عدد من الروايات ـ ما أخرج البخاري ومسلم من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه .. « فيقول الله عز وجل : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار » وفي لفظ « فمن وجدتم في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً » ثم يقول أبو سعيد : ( اقرءوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾) .

وقد وعى الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان عبر تاريخنا المثقل بالعبر ، هذه الحقيقة، واطمأنت نفوسهم إليها ، فسعوا للآخرة سعيها ، لا يقعدهم عن العمل الصالح رجاء ، ولا يوقعهم في اليأس من رَوح الله خوف ، وأصبحنا نرى آثار ذلك في بناء الفرد والمجتمع ، حيث المنهج المتكامل في إدارة حركة الحياة، وإعمار الأرض وإعداد القوة وفق سنن الله التي لا تتخلف ، مصحوباً ذلك كله بشوق إلى لقاء الله ورغبة صادقة فيما عنده ، وحرصٍ على الفوز العظيم يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، الفوز الذي عنوانه الزحزحة عن نار السعير ، ودخول جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

وأين ذلك من بلاء التخلخل في النظرة إلى عالم الغيب، وعدمِ الاهتمام الصادق بما جاء في كتاب الله وفي حديث الرسول ﷺ من أخبار تبرز ما يكون يوم

القيامة للعباد ، جزاءً بما كانـوا يعملون ؛ حيث الشدَّة الشادَّة ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبـو سعيد الأشج ، قال : **حدثنا عيسى بـن يونس عـن** هارون بن عنترة عن زاذان قـال : قال عبدالله **بـن مسعود:** «**يؤتى بالعبد والأمة** يوم القيـامة ، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين : **هذا فلان بـن فلان ،** من كان لـه حق فليأت إلى حقه ، فتفـرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها ، أو أخيها ، أو زوجها ثم قرأ ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ **فيغفر الله من حقـه ما** يشاء ،ولا يغفر مـن حقوق الناس شيئاً ، **فينصـب للناس، فيقول : ائتوا إلى** الناس حقوقهم ـ وفي رواية ـ فينادى : هذا **فلان** بن **فلان من كان له حق فليأت إلى** حقـه فيقول : رب فنيت الدنيا من أين أوتيهـم **حقوقهم؟ قال : خذوا من أعمال** الصالحة فأعطوا كل ذي حقه حقه بقدر طَلِبتِهِ ، **فإن كان ولياً لله، ففضل له** مثقال ذرة ، ضاعفها الله له حتـى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنةً يضاعفْها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ . **قال :** ادخل الجنة . وإن كان عبداً شقياً ، قال الملـك : رب فنيت حسناته **وبقي طالبون كثير !! فيقول** : خذوا من سيئـاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثـم صُكّوا **له صكاً إلى** النـار » **ولبعض** هـذا الأثـر ــ كما يقول الحافـظ ابـن كثير ــ شاهـد في الحديـث الصحيح.

وقد رواه ابن جرير الطبري في « جامع البيـان » عن ابن مسعود من وجه آخر من طريق زاذان نحوه ولفظه : « إذا كان يـوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد من عند الله : « ألا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه» ! قال : فيفرح والله المرء أن يـذوب له الحق على والده ، أو ولده ، أو زوجتـه ، فيأخذ منه ، وفي روايـة أخرى « فتفـرح المرأة أن يذوب لها الحق على أبيهـا أو على ابنها أو على أخيها أو على زوجها » ومصداق ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ فيقال له: إيت هؤلاء حقوقهم ـ أي أعطهم حقـوقهم ــ فيقول : أي رب من أيـن وقد ذهبـت الدنيـا ؟ فيقول الله

لملائكته : « أي ملائكتي انظروا في أعماله الصالحة وأعطوهم منها ، فإن بقي مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة: ـ وهو أعلم بذلك منها ـ يا ربنا أعطينا كل ذي حق حقه ، وبقي له مثقال ذرة من حسنة ، فيقول للملائكة: ضعِّفوها لعبدي ، وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة » ـ ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾ أي الجنة، يعطيها . وإن فنيت حسناته وبقيت سيئاته ـ قالت الملائكة : ـ وهو أعلم بذلك ـ إلهنا فنيت حسناته وبقيت سيئاته وبقي طالبون كثير . فيقول الله : ضعّفوا عليه من أوزارهم ، واكتبوا له كتاباً إلى النار » قال صدقة : أو « صكاً إلى جهنم ». شك صدقة أيتهما قال .

وليس من العبث تكرار التنبيه على هذا الارتباط بين السلوك في الدنيا أداءً للحقوق أو عدم أداءٍ لها ، وبين ما يكون من العاقبة يوم الدين . والعاقل الذي يخشى الله والدار الآخرة ، يحرص الحرص كله على أن يلقى ربه وقد أدّى حقوق الله وحقوق العباد ، لكيلا تزل به القدم ، فيكون من أصحاب الجحيم . روى أبو جعفر الطبري عن قتادة قال : كان بعض أهل العلم يقول : لأن تفضُل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة أحبُ إليَ من أن تكون لي الدنيا جميعاً » ﴿ **إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين** ﴾.

# الأمر أعجل من ذلك

كلما ذُكرت الجنةُ ونعيمُها المقيم ، ونارُ الجحيم ــ أعاذنا الله منها ــ وعذابُها الأليم ، اتجه القلب إلى صنيع أولئك البررة من عباد الله الصالحين، الذين امتثلوا أمر ربهم؛ علماً وعملاً وجهاداً مستبِقين الخيرات ، وسارعوا ـ وقد أخلصوا دينَهم لله ــ إلى مغفرة منه سبحانه ، وجنة عرضها السماوات والأرض ، بالإقبال على الطاعات والقربات ؛ أسوتهم الحسنة في ذلك إمام المتقين محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه ، ثم صحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان .

والأمة ـ وهي تعاني من واقع يخضع في كثير من جوانبه للمعايير المادية التي كانت سبباً في نوع من الفتور المضني عند فئام من الناس ، بينهم وبين ما يجب من عدم الركون إلى زخرف العاجلة ومن التزود النافع ليوم الحساب .. ـ هذه الأمة التي يعمل المصلحون جاهدين على ردها إلى الصراط السوي ، بالتزام المنهج الذي كانت به خير أمة أخرجت للناس ، بحاجة ماسة في هذا الإطار المبارك إلى استئناف الطريق الإيمانية التي توثق العلاقة بين العاجلة والآجلة ، بقراءة جديدة واعية لأخبار القيامة ومشاهد الهول فيها ، وما تكون عليه عاقبة كلٍ من أهل الهدى وأهل الضلال .. ومن الخير أن يقترن ذلك بأخبار أولئك الصفوة المنيبين إلى الله ـ كما أسلفت ـ الذين هم من أهل الآخرة على الحقيقة ، دون إهمال لما به قوة المسلم في الدنيا ، كما تدل على ذلك أقوالهم وأفعالهم ، وسلوكهم المنضبط بمعايير الكتاب الكريم والسنة المطهّرة .

ذلك بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين ــ وهو ما يجب التنبه إليه من الناحيتين التربوية والنفسية ــ بشر من البشر ، عقلوا عن الله ورسوله ، وانتفعوا بما جاء من الخبر الصادق في كلام الله وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، فحملوا أنفسهم، وقد زكت واطمأنت، على الجادة في طاعة الله تعالى وتقواه ، فكان ذلك

إيذاناً بارتقائهم مدارج السالكين بصدق إلى الله ، الفائزين يوم الخوف والحسرة بما أعدّ جل شأنه لعباده المتقين المجاهدين الصابرين في دار البقاء، من إحلالهم دار المقامة من فضله ، والإحسان إليهم برضوانه الأكبر ورؤية وجهه الكريم سبحانه، وهو المحمود على كل حال .

ها هي ذي وصية واحد من هؤلاء الأبرار لقريب له ، يذكّره فيها الموت وما بعد الموت ، وما يلزم لذلك من الزاد النافع ليوم الوعيد ، مرحلة بعد مرحلة ، إنها وصية داوود بن نصير الطائي أبي سليمان ـ وهو الثقة الفقيه الزاهد العابد ـ المتوفى سنة خمس وستين ومائة للهجرة ـ فقد قال له رجل من أهله يوماً : يا أبا سليمان قد عرفتَ الرحم التي بيننا فأوصني ، قال : فدمعت عيناه ثم قال : «يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم لكل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل ، فان انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاضٍ من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتَك . إني لأقول لك هذا ، وما أعلم أحداً أشد تضييعاً مني لذلك» يقول الرجل : ثم قام وتركني .

وكأني بهذه الكلمات المضيئة ، على النسب المتصل بما كان ينتهجه الصحابة عليهم الرضوان ؛ قال الإمام النسائي : أخبرنا محمد بن عبدالله بنِ عبدالحكم عن شعيب عن الليث قال : أنبأنا خالد عن ابن أبي هلال عن نُعَيمِ المجمر أبي عبدالله قال : أخبرني صهيب أنه سمع من أبي هريرة ومن أبي سعيد يقولان : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « والذي نفسي بيده ـ ثلاث مرات ـ ثم أكبّ فأكبَّ كل رجل منا يبكي لا ندري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشرى ، فكانت أحبَّ إلينا من حُمْر النَعم ثم قال : ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ويجتنب الكبائر السبع إلا فُتحت له أبواب الجنة فقيل له : ادخل بسلام » وهو حديث حسن .

والحق أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ لم يدع أن يجعل من الوعد على طاعة الله والاستقامة على أمره ، والوعيد على اتباع غير سبيل المؤمنين والتولي عن طريق الهداية ، حافزاً عظيماً من حوافز الإقبالِ على كل ما فيه مرضاة الله ومرضاة رسوله ، واقتحامِ العقبات التي تعترض سبيل طلاب الآخرة ، والانتصار على المكاره التي حفت بها جنة الخلد التي وُعد المقرَّبون .

وكم يُسعد المؤمن نفسه وأهله ومجتمعه ، إن هو انتفع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وأعطى العمل للآخرة حظه الأوفى ، فكان من أهل القرب في جنات النعيم ، ولم يكن من جُثَى جهنم الذين هم فيها خالدون .

روى الترمذي بسنده عن زيد بن سلاّم أن أبا سلاّم حدثه أن الحارث الأشعري حدثه أن النبي ﷺ قال: « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطيء بها ، فقال له عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات: أن تعمل بها ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ! فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعذَّب ، فجمع الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشُرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات: أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . أولُهنّ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثَل من أشرك بالله شيئاً كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهبٍ أو ورِق، فقال : هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إلي ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبدُه كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت . وآمركم بالصيام ، فإن مثَل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرَّة فيها مسك كلهم يعجب ـ أو يُعجِبُه ـ ريحها ، وإن ريح الصائم عند الله أطيب من ريح المسك . وآمركم بالصدقة فإن مثَل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يديه إلى عنقه وقدّموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم . وآمركم أن تذكروا الله ، فإن مثَل ذلك كمثل

رجل خرج العـدو في أَثَرِهِ أو إِثْرِهِ سراعاً ، حتى إذا أتـى على حصن حصين أحرز نفسه منهم ، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله .

قـال رسول الله ﷺ : وأنـا آمركـم بخمـس الله أمرني بهن ؛ السمـعُ والطاعـةُ والجهاد والهجرة والجماعة ، فإنه من فـارق الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يُـراجع ، ومن دعا دعوى الجاهليـة ، فإنه من جُثـى جهنم . فقال رجل: يارسول الله وإن صام وإن صلّى ــ وفي رواية : وإن صلى وصام ـ قال : وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » قال أبو عيسى : هـذا حديـث حسن صحيـح غريب وهـو كما قال . وأخـرجه أيضـاً ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم وصححه .

معنى الربقـة هنا : العروة يشد المسلـم بها نفسه من عرى الإسـلام . الجُثى : جمع جثوة وهي الشيء المجموع من جماعات جهنم . ويروى جِثي والمعنى : الذين يجثون على الركـب واحدها جاثٍ مـن قوله تعالى في سـورة مريم : ﴿ حَوْلَ جهنم جِثِياً ﴾ !

والعـاقل كـل العاقـل من أحســن الفهـم وأحسن العمـل والله يتولى عبـاده الصالحين..

# الجنة.. ومجتمع الحور العين

إذا خالطت بشاشة الإيمان القلب ، واستنارت البصيرة بالإقبال على الله، صلَحت المعايير التي توزن بها الرغبة والرهبة ، والعطاء والمنع ، وما هو من أسباب السعادة ، وما ليس من تلك الأسباب ؛ ومن هنا يكون الانصراف التام إلى كل عمل هو من الآخرة بسبيل ، ويحصل اطمئنان القلب واستراحة النفس إلى سلامة العاقبة يوم الوعيد بفضل الله ورحمته سبحانه وتعالى ؛ حتى كأن ما جاء الخبر الصادق بوقوعه يومذاك هو رأي عين عند المؤمن . ويترتب على ذلك أن ينتفع بكل من البشارة والنذارة ، ويطمع أن تناله مغفرة الله ورحمته ، فيكون يوم القيامة في جنات وعيون خالداً فيها ونعم أجر العاملين .

وما أعظم ما جاء به كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ من البشائر الأخروية وعطاء الكريم المنان الذي لا تنفد خزائنه جل وعلا ـ وقد مر بنا الكثير من ذلك فيما مضى ـ وهنيئاً لمن يقابلون تلك البشائر بصالح العمل والجهاد في سبيل الله ، والصبر في المواطن ، والاستعلاء على ما يصرف عن الآخرة من زخرف الدنيا وشهواتها ، أو الترغيب فيها والترهيب من خسرانها ، كما توحي بذلك الأهواء الضالة وشياطين الإنس والجن . إنهم إن فعلوا ذلك نالوا من الخير في جنة الخلد ما الله به عليم . من ذلك ما روى الترمذي بسنده عن عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفِّعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها . يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس . قال أبو عيسى : حديث علي حديث غريب . ثم قال الترمذي . حدثنا روح بن عبادة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله عز وجل : ﴿فهم في روضةٍ يُحبَرون﴾ قال:

السماع . ومعنى السماع مثل ما ورد في الحديث أن الحور العين يرفّعن بأصواتهن .

الحور : جمع حوراء وهي الشديدة بياض العين ، الشديدة سوادها . والعين: جمع عيناء وهي الواسعة العين . هذا : وللعلماء مقال في إسناد الحديث ، لكن له شواهد بمعناه ذكرها الحافظ المنذري في كتابه « الترغيب والترهيب » يمكن أن يرتقي بها ، وقد رأينا أن الترمذي رحمه الله قال : وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس وأخرج الحديث البيهقي أيضاً .

ومما أورد الحافظ المنذري وذكره الحافظ ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم» ما روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في «الكبير » و «الأوسط » في شأن أسئلة عن الحور العين سألتها أم سلمة رسول الله عليه الصلاة والسلام : حيث قال الطبراني: حدثنا بكر بن سهل الدمياطي ، قال : حدثنا عمرو بن هاشم البيروتي ، قال : حدثنا سليمان بن أبي كريمة عن هشام بن حسّان عن الحسن عن أمه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : «قلت : يارسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿حور عين﴾ قال : «حُورٌ بيضٌ عينٌ ضخامٌ ، شُفر الحوراء بمنزلة جناح النسر قلت : يارسول الله أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقون والمرجان ﴾ قال : صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصواف الذي لم تمسَّه الأيدي ، قلت : يارسول الله فأخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ فيهنَّ خيرات حسان ﴾ قال : خيِّرات الأخلاق ، حسان الوجوه . قلت: يارسول الله فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿كأنهن بَيْضٌ مكنون﴾ قال: رقَّتهن كرقة الجلد الذي بداخل البيضة مما يلي القشر وهو الغِرقىء. قلت: يارسول الله أخبرني عن قوله جل وعلا : ﴿ عُرُباً أتراباً ﴾ قال : هُن اللواتي قُبضن في دار الدنيا عجائز رُمصاً شُمطاً خلقهن الله بعد الكِبَر فجعلهن عذار متعَشَّقات متحبّبات ، أتراباً على ميلاد واحد . قلت : يارسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : نساء الدنيا أفضل من الحور العين ، كفضل الظِهارة على البطانة . قلت : يارسول الله وبم ذاك ؟ قال بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل !! ألبَس الله عز وجل وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض

الألوان ، خُضْر الثياب ، صفر الحُلي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب يقلن : ألا نحن الخالـدات ، فلا نمـوت أبداً ، ألا نحن النـاعمات ، فلا نبـأس أبداً ، ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبـداً ، ألا ونحن الراضيات ، فلا نسخط أبـداً ، طوبى لمن كُنا له وكان لنـا . قلت : يارسول الله المرأة منا تتزوج الـزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا ، ثم تموتُ فتدخلُ الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجَها منهم؟ قال : يا أم سلمة إنها تُخيَّر فتختار أحسنَهم خُلقـاً فتقول : أي رب إن هذا كان أحسنَهم معي خلقـاً في دار الدنيـا فزوِّجنيه . يـا أم سلمة ذهب حُسـن الخلق بخير الـدنيا والآخرة ».

الشُفر ، بضم الشين أصل منبت الشعر في الجفـن . الظهارة : ما علا وظهر من الثوب ولم يل الجسد ، والبطانة : ماولي منه الجسد وكان داخلاً . لانبأس : لا نفتقر ولا تشتـد حاجتنـا . والغرقىء كـزبرج : القشرة الملتـزقة ببيـاض البيض أو البياض الذي يؤكل .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط ، إن مما يغنين به ، نحن الخيِّرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرون بقُرَّة أعيـان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا نموتنّه ، نحن الآمنات فلا نخـافنّه ، نحن المقيمات فلا نظعَنُنّه ». قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورواتهما رواة الصحيح . وللحافظ أبي يعلى عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً « إن الحور العين ليغنين في الجنة ، يقلن : نحن خيّرات حسان ، خبئنـا لأزواج كرام » وفي روايـة للإمام عبـدالرحيـم بن إبـراهيم الملقـب بـدحيـم « إن الحور العين يغنين في الجنة : نحـن الجوار الحسـان خلقنـا لأزواج كـرام » ولابن أبي الـدنيا والطبراني والبيهقـي «نحن الحور الحسـان هدينـا لأزواج كرام».

وإذا كان الشيء بـالشيء يذكـر ؛ فقد كان مـن مُزاح النبـي ﷺ مرةً ــ وهو

يمزح ولا يقول إلا حقاً ـ ما أخرج عبد بن حُميد قال : حدثنا مصعب بن المقدام ، قال: حدثنا المبارك بن فَضالة عن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يارسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال: فولت تبكي، قال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿إنَّا أنشأناهن إنشاءً . فجعلناهن أبكاراً عُرباً أتراباً﴾ وهكذا رواه الترمذي في الشمائل عن عبد بن حُمَيْد .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الابتلاء قائم بتلك البشريات لأهل الإيمان : هل ينتفع بها المؤمن ، فتكون بمثابة حافز يتزوده إلى تزكية النفس ، وحملها على الجادة في طاعة الله وتقواه !! وقل مثل ذلك فيما يكون من النذر لأهل الغيِّ والضلال الوالغين في إثم الغفلة والبعد عن الله .. وإذا كان المؤمن على بينة من أمره وصدق في التعامل مع الخبر الصادق ؛ بشارة أو نذارة ، فما أكثر ما يجد من أبواب الخير التي إذا ولجها منيباً إلى ربه مستعلياً على المعوقات الدنيوية ـ شأن من يخشون ربهم بالغيب .. ـ انتهى به المسير إلى حيث تتنزل الرحمات ـ ويتجلى الله على أحبابه بالفوز العظيم .

ويا نعمّا هي ، مشاهدُ ذلك الفوز العظيم ومنها ما يكون للشهداء . قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب قال : حدثنا أبي عن ابن إسحاق قال : حدثني الحارث بن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد الأنصاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً ».

وهل أتاك نبأ التواؤم المطلوب بين ما يعطاه الشهداء في الآخرة ، وبين أن تظل سيوف الجهاد مشرعة لا تفتر عنها العزائم، وأن يظل المؤمنون على استعذاب الموت في سبيل الله لا يزهدون في شأن من شؤون الجهاد ولا ينكلون عن الحرب؟؟ ذلك ما كشف عنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله

وسلامه عليه .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خُضرٍ ، **ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحُسنَ متقلبهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون ﴾ وما بعدها » . ورواه ابن جرير وأبو داود ، والحاكم في المستدرك ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد رسول الله الذي جعل الجهاد ذروة سنام الإسلام .. وأكرم بها للشهداء يوم القيامة من الخير العميم .

# أحياء عند ربهم يرزقون

من مشاهد القيامة العميقة التأثير حقاً ـ وكل تلك المشاهد مؤثر ـ والتي ينبغي أن تخالط القلوب وتوثق عرى الإيمان بما عند الله لأهل التقوى والجهاد، وتحفز على استعذابِ الموت في سبيل الله، وعدم النكول عن الجهاد بالمال والنفس مهما كان الثمن .. مشهدُ ما يكون للشهداء عند الله من حسن المتقلّب والعطاء .. عطاء الكريم المنان سبحانه وتعالى الذي لا يضيع عنده ـ جل شأنه ـ عمل عامل. إنه مشهد يعلن إعلانه بتكريم الشهادة والشهداء على رؤوس الخلائق يوم الدين . وحسبك أن هؤلاء الأخيار البررة ـ وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقتلوا في سبيل الله ـ ليسوا بأموات ولكنهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون ؛ فهم يقدُمون على مولاهم وقد سعدوا بالشهادة وعطرها الفوّاح ونجيعها المشرق الأخاذ .. ولا تسل عن الحال التي يصيرون إليها وماهية الرزق الذي يرزقون، والكيفية التي يكون ذلك عليها .. فهذا أمر يعز على الإحاطة .. ولكن النبي ﷺ ـ وقد اؤتمن على بيان الكتاب العزيز ـ أخبر عن تلك الحقيقة الكبرى بما يؤدي غرض البيان، والله أعلم بما وراء ذلك في عمقه وأبعاده وجزئياته ...

والمشهد عظيم بالغ التأثيرحقاً بنوره المتلألىء وهيبته ومدى ما يعطي من عبر ودروس، وما يتميّز به أهله من الفضل وجلال الموقع والمنزلة الكريمة عند الله .. والحديث موصول بما روى الإمام أحمد في المسند عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن متقلَّبهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكُلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ولا

تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون ﴾ الآيات . وقال الإمام الطبري : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا جرير بن عبدالحميد ، وحدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة ، قالا جميعاً : حدثنا محمد بن إسحاق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق بن الأجدع قال : « سألنا عبدالله بن مسعود عن هذه الآيات ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله ﴾ الآية قال : «أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنا: إنه لما أصيب إخوانكم بأحُد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فيطّلع الله إليهم اطّلاعة فيقول : يا عبادي ما تشتهون فأزيدَكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتَنا ، الجنةُ نأكل منها حيث شئنا ثلاث مرات ، ثم يطلع فيقول : يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ! الجنة نأكل منها حيث شئنا ! إلا أنا نحب تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا ، ثم تردَّنا إلى الدنيا ، فنقاتل فيك حتى نقتلَ فيك مرة أخرى ».

ثم روى أبو جعفر عن مسروق أنه قال : سألنا عبدالله عن هذه الآية ثم ذكر نحوه وزاد فيه : « إني قضيت أن لا ترجعوا » وفي رواية أخرى عن مسروق قال: سألنا عبدالله عن أرواح الشهداء ،ولولا عبدالله ما أخبرنا به أحد ! قال : أرواح الشهداء عند الله في أجواف طير خضر في قناديل تحت العرش تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها ، فيطَّلع إليها ربها فيقول: ماذا تريدون ؟ فيقولون : نريد أن نرجع إلى الدنيا فنقتَلَ مرة أخرى ». وجاء في رواية أبي داود « لما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكُلوا عن الحرب فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم قال : فأنزل الله ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله ... ﴾ الآية. والحديث رواه الحاكم أيضاً وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورمز له الذهبي برواية مسلم .

ونص رواية مسلم كما جاءت بسنده عن مسروق قال : سألنا عبدالله (هو ابن

مسعود) عن هذه الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا ....﴾ قال : أما إنا قد سألنا رسول الله عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ؛ فاطّلع عليهم ربهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أيَ شيء نشتهي ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا ، قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا » وروى ابن جرير عن أبي عبيدة عن عبدالله « أنهم قالوا في الثالثة حين قال لهم : هل تشتهون من شيء فأزيدكموه ؟ قالوا : تقرىء نبينا عنا السلام وتخبره أن قد رضينا ورُضي عنا » كما روى عن ابن إسحاق أنه قال : «قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ يرغب المؤمنين في ثواب الجنة ويهوّن عليهم القتل : «ولا تحسبن ... يرزقون » أي قد أحييتهم، فهم عندي يرزقون في روح الجنة وفضلها مسرورين بما آتاهم الله من ثوابه على جهادهم في سبيله .

وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي إسحاق الفزاري عن سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون ﴾ ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وكذا قال قتادة والربيع والضحاك : إنها نزلت في قتلى أحد . على أية حال : خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، وقد مر بنا من قريب ما يدل على هذا العموم والنصوص في ذلك كثيرة ، وهذا لايغض من قدر قتلى أحد عليهم الرضوان ؛ فهم داخلون في هذه البشارة العظيمة دخولاً أولياً .

وها هي ذي بشارة لفرد بعينه من أولئك البررة الذين صدقوا في المواطن وقضَوا في سبيل الله . روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن طلحة بن خراش بن عبدالرحمن بن خراش بن الصِّمَّة الأنصاري قال : سمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : «نظر إليّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : يا جابر ، مالي أراك مهتماً ؟

قال: قلت : يارسول الله استُشهد أبي وترك ديناً وعيالاً ، قال : فقال : ألا أخبرك ! ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلّم أباك كفاحاً .» قال علي : الكفاح المواجهة ــ فقال : سلني أُعطك ، قال : أسألك أن أردَّ إلى الدنيا فأقتلَ فيك ثانيةً ، فقال الرب عز وجل : إنه سبق مني القول أنهم إليها لا يُرجعون . قال: أي رب فأبلغ من ورائي . فأنزل الله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً..﴾ الآية . ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري عن أبيه عن جابر به نحوه ، وكذا رواه البيهقي في « دلائل النبوة » من طريق علي بن المديني به ، وقد رواه البيهقي أيضاً من حديث أبي عبادة الأنصاري عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال النبي ﷺ : « يا جابر ألا أبشرك ؟ قال بلى بشرك الله بالخير قال : شعرت أن الله أحيا أباك فقال : تمنّ علي عبدي ما شئت أعطكه . قال : يارب ما عبدتك حق عبادتك ، أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك وأقتل فيك مرة أخرى ، قال : إنه سلف مني أنه إليها لا يرجع ».

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد بن عبدالله الذي جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين وعلى آله وصحابته أجمعين .

# إن عذابها كان غراماً

إن يوماً تتقلب فيه من شدة الهول والفزع القلوب والأبصار ، ويعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ، وترى الظالمين وقد أخذوا بما ظلموا مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء .... إن يوماً تشهد فيه الخلائق سوء عاقبة المجرمين الصادين عن سبيل الله ، إذ تراهم ـ وقد أخذوا أخذ عزيز مقتدر ـ مقرنين في الأصفاد ﴿سرابيلُهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ .. هذا اليوم الذي لا يجد فيه المرء إلا ما قدّم في دنياه .. جدير أن يكون بحسبان المؤمن وهو يقطع العمر إلى أجله ، جدير أن يتزوّد له بالصالح من العمل، والطيب من القول في طاعة الله عز وجل .. إنه إن فعل ذلك مخلصاً صادق الوجهة ، كان ـ بفضل الله تعالى ـ ممن تدركهم العناية وينشر الله عليهم رحمته، ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقَّون فيها تحية وسلاماً﴾. وهنيئاً لأهل الجنة ـ وهم فيها خالدون ـ ما يفيض عليهم ربهم من كريم الإحسان ، والنعيم المقيم، والفضل العميم .

ولا يرتاب منصف في أن ما يشهده يوم الفصل من إكرام الله لعباده الصالحين، موصول النسب بخوفهم ذلك اليوم العبوس القمطرير ، الذي تشخص فيه الأبصار فكأنهم وهم يأخذون أنفسهم بالاستقامة على الطريقة في العمل والسلوك، على موعد مع حسن المآب الذي يؤولون إليه في الآخرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . مصداق ذلك من كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فقد أثنى الله على نفر من عباده الصالحين بأنهم ـ وهم يخالطون الدنيا والكسب فيها ـ لا يغفلون عن الله واليوم الآخر ؛ فهم وقافون عند حدود الله تعالى، مقيمون للصلاة مؤتون للزكاة ، مديمون ذكره جل شأنه وتسبيحه ، تملأ قلوبهم خشية يوم المعاد وما تتسم به مشاهده من عظمة الأهوال وشدتها ، حيث الشغل الشاغل للخلائق أن يكونوا من أهل النجاة من عذاب الله ، والفوز بما أعدَّ

الله لعباده الصالحين . ذلكم قول ربنا جل شأنه في سورة النور : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾.

ومن الواضح أن أهل الإنابة البررة ، بما يصل بين ما كانوا عليه في الدنيا ، وبين ما يفوزون به يوم العرض الأكبر ، يشرُفون يومذاك بأن ما يعطَوْنه ـ برحمة الله ـ جزاءً بما كانوا يعملون ، برهانٌ صدق على أحقية ما درجوا عليه في دار الفناء من محبة الله عز وجل وخوف يوم الحساب ، وذلك بحسن اتباعهم لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه عليهم الرحمة والرضوان . أخرج النسائي بسنده عن علقمة «أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً ـ وواضح أن هذا في غير رمضان ـ ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾» وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أسماء بنت يزيدَ بنِ السكن قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت يُسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلائق».

وروى الطبراني من حديث بقية بن الوليد عن إسماعيل بن عبدالله الكِندي عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ « في قوله :﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله** ﴾ قال : أجورهم : يدخلهم الله الجنة، ويزيدهم من فضله : الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة ، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا ».

ومن الأهمية بمكان : التذكير بأن أهل السعادة هؤلاء ، لا يغفلون عن الضرَع إلى الله تبارك وتعالى أن يؤامنهم يوم الخوف ، حيث الفزع الأكبر ضارب على

القلوب بالأسداد ، وأن يصرف عنهم عذاب النار ،لأنهم بمقدار معرفتهم وسلامة تصورهم لما جاء عن الله ورسوله في شأن يوم المعاد ، يكونون ـ مع الرجاء ـ في خوف شديد أن يكونوا من أصحاب الجحيم .

ولقد ذكر القرآن من صفات عباد الرحمن ، أنهم يدعون ربهم جلت قدرته أن يصرف عنهم عذاب جهنم، فعذابها ملح ملازم دائم والعياذ بالله . ذلك قوله تعالى: ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً** ﴾ روى عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري في هذه الآية وأخواتها : « إن المؤمنين قوم ذلت منهم ـ والله ـ الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم ـ والله ـ لأصحاء ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومَنَعَهم من الدنيا علمُهم بالآخرة ، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطَّعُ نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب ، فقد قلّ علمه وحضر عذابه » ونحن نقول : لقد حُقَّ لهم ـ و الله ـ أن يبكيهم الخوف من النار ؛ فإن عذابها أليم شديد دائم ملازم ﴿ **إن عذابها كان غراماً** ﴾. والموفق من لم تلهه العاجلة عن الآجلة ، وأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار .

والعجب كل العجب ممن يستسلمون للغفلة فلا يحذرون الآخرة ، وينسون قول عباد الرحمن وهم يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم : إن عذابها كان غراماً ، أي دائماً ملازماً ، وكان حرياً بهذه الديمومة والملازمة أن توقظهم من الغفلة وتحرك عزائمهم إلى الإنابة والإحسان من جديد .

ومما يدل على معنى الغرام في عذاب النار قول الأعشى :

إن يعذب يكن غراماً وإن يُعْـــــــطِ جزيلاً فإنه لا يبالي

يقول: إن يعاقب يكن عقابه عقاباً لازماً لا يفارق صاحبه مهلكاً له؛ فالغرام:

الهلاك والخسران الملح اللازم ومنه الغريم لإلحاحه و إلزامه ولهذا قال الحسن رحمه الله في قوله تعالى : ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرامُ اللازم ما دامت السماوات والأرض ، وكذا قال سليمان التيمي .

وذكر الحافظ ابن كثير عن محمد بن كعب : ان الله تعالى سأل الكفار ثمن النعمة فلم يردوها ـ أو عن نعمه ـ فما أدوها إليه ، فأغرمهم ؛ فأدخلهم النار .

وقال الراغب الأصفهاني : الغرام : ما ينوب الإنسان من شدة ومصيبة .. ثم نقل عن الحسن قوله : كل غريم مفارقه غريمه إلا النار .

والويل كل الويل : أنها ساءت مستقراً ومقاماً . فبئس المنزل منظراً ، وبئس المقيل مقيلاً .

وهذا ما يخشاه عباد الرحمن وذلك قولهم في دعائهم: ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ قال ابن أبي حاتم عند هذه الآية : حدثنا الحسن بن الربيع قال : حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مالك بن الحارث السُّلمي ـ وهو تابعي ثقة ـ قال: «إذا طرح الرجل في النار هوى فيها ؛ فاذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانك حتى تتحَف ، فيسقى كأساً من سم الأساود والعقارب ، قال : فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة ، والعصب على حدة والعروق على حدة» .

اللهم أجرنا من النار بمنك وفضلك ، وباعد بيننا وبين كل سبيل موصلة إليها، ووفقنا لطريق عباد الرحمن الذين أتبعوا الإيمان بالعمل الصالح ، وكانت التقوى زادهم إلى يوم المعاد ؛ فهم دائماً يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم العزيز الغفار .

# ويل يومئذ للمكذبين

الحديث موصول بما كنا بصدده قبلاً ، من الكلام على ما تفيض به قلوب عباد الرحمن وتمتلىء بـه نفوسهـم من خشيـة الله واليوم الآخـر ، وما يكـون من دعـائهم الخاشع أن يصرف الله عنهم عذاب جهنم ، العذاب الملازم الدائم الذي لا ينقطع ـ والعياذ بالله ـ ﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾.

ومنـذا الذي يملـك قـدراً من المعـرفـة بما جاء في الكتـاب الكـريم والسنـة الصحيحة عن نـار الجحيم، وما يلقى أهلهـا من العذاب الأليم ، ثـم يغضي عن ذلـك ، ويسلم قيـاده لهواه ويكون في طـاعـة الشيطان ؟! إن الـذي يقع في هـذه الحمأة يحكم على نفسه أنه من أهل الغفلة الذين يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ويعطلّـون ما أعطـاهم الله من وسـائل الهداية والانتفـاع بدعـوة الحياة، وبذلك يساقون يوم القيامة إلى جهنم في زمـر من يساقون إليها إلا أن يتوبوا التوبة النصوح . ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بـل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

أما عباد الرحمن الذين آمنوا وعملـوا الصالحات : فهم على ذُكر دائم لما توعّد الله به أهـل الضلالـة الذيـن تسعّربهم الجحيـم ، ويُعطون ذلـك قدراً ذا بـال من الأهمية في سلوكهـم وتعاملهم مع الله تعالى ومـع عباده ؛ فالأمر جـدُّ لا هزل فيه ، والغفلة عنه إلقاء باليـد في خضم الهلكة والضياع ﴿ إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافـع . يوم تمور السماء مـوراً . وتسير الجبال سيراً . فـويل يـومئذ للمكـذبين . الذين هم في خـوض يلعبون . يوم يدعّون إلى نارجهنم دعّاً . هـذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى قال : حدثنا سلاّم يعني ابن مسكين ـ عن أبي طلال عن أنس بن مـالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

«إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يامنان ، فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فائتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : ائتني به ، فإنه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول : يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدي فيقول : يارب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها ، فيقول الله عز وجل : دعوا عبدي ».

هكذا نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو يفيض في البيان عن جهنم وأحوال أهلها ـ لا يدع أن يعمل على تربية النفوس وإعدادها للإفادة من هذا البيان والتنبيه على منافذ النجاة ومواطن الهلكة ، وتحديد الأمور التي تنتفع الأمة بتحديدها ، ليثمر ذلك ما يثمر من التذكر والجد في طاعة الله تعالى ، والجهاد في سبيله ، واجتناب كل ما من شأنه الاغترار بزينة الحياة الدنيا ، والغفلة عما جاء في شأن الصاخّة وأهوالها من الوعد والوعيد ، حيث دار المقامة ونعيمها الدائم لأهل القرب عباد الله الصالحين ، ونار السعير جهنم لأهل الضلالة والمجرمين الظالمين.

روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : «قلت : يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : يا عائشة ، أما عند ثلاث : فلا . أما عند الميزان حتى يثقل أو يخفَّ : فلا . وأما عند تطاير الكتب ؛ فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله : فلا ، وحين يخرج عُنُق من النار فينطوي عليهم ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وُكلتُ بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلتُ بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ، قال: فينطوي عليهم ويُرمى بهم في غمرات ، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلّم رب سلّم ، فناج مسلَّم ومخدوش مسلَّم ، ومكوّر في النار على وجهه » .

العنق من النـار : الطائفة . المخدوش : مـن خدشه يخدِشه خـدشاً : قشره ، وخدْش الجلد : قشره بعود أو نحوه . والخُدوش : جمع خَدْش لأنه سمي به الأثر ـ كما يقول ابـن الأثير ـ وإن كان مصـدراً . وقولـه : مكوَّر في النار على وجهـه : من التكوير وهو اللفُّ والجمع ، فهو ملفوف مجموع بعضه على بعض ملقىً في جهنم على وجهه مع من أحاط بهم سرادقها جزاءً بما كانوا يصنعون .

وإنها لصورة مفزعة مـرعبة حقاً في ذلك المشهد من المشاهـد المهولة المخيفة لمن تُصلى بهم نـار الجحيم . وإذا كـان الأمر كـذلك : فـإن هذا الهدي النبـوي في الإجابة عن سـؤال السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، يبدو أمـانة في أعناق المكلفين رجالاً ونساءً ؛ من الواجب أن يـؤدوا حق الله فيها ،فتكون حافز خير على إيقاظ الغـافل وشد أزر طلاب الآخـرة ، وتذكّر ما يكـون في عرصات القيامـة وما يجب من الإعداد لتلك الساعات العصيبات . والموفّـق التوفيق كله من عمل على تزكية نفسـه ، فحظي بالنور الإلهي في قلبـه وفي أعماله ، فكان مصيره يوم القيـامة جنة المأوى ويـا نعم دار المتقين . والمحروم من حـرم ذلك النور ، فكـان تقلبه في ظلمات بعضها فوق بعض ، وكانت عاقبته جهنم وساءت مصيراً . قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾ يعني بذلك إيمان العبد وعمله . وقال أبي بـن كعب : ﴿ نور على نور ﴾ فهو يتقلب في خمسـة من النور : فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نـور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة » وقال رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ فهو يتقلب في خمسـة من الظلـم ؛ فكلامـه ظلمة ، وعملـه ظلمة ، ومـدخله ظلمـة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار .

فليختر عاقل لنفسه مستعيناً بالله عز وجل ، صادقاً في العمل ابتغاء مرضاته، مخلصاً في الوقـوف ببابه متضرعاً إليـه .. فعسى أن ينير المولى عز وجل قلبـه وقوله وعمله ويرحمه بأن يكـون يوم القيامة من أهل جنات النعيم ، ويبـاعد بينه وبين ما يـؤول إليه مـن تغلـب عليهم شقـوتهم ، فتلتهمهـم نار تلظـى ﴿لا يصلاهـا إلا

**الأشقى. الذي كذب وتولى ﴾.** وإني لأسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً وعن أيمانـنا نـوراً وعن شمائلنا نوراً وأن يعظم لنا نوراً . فالله تعالى يهدي لنوره من يشاء ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

ثم إن لله سنة ماضية في ترتيب النتائج على الأعمال، بمنه وكرمه سبحانه وتعالى . ألا ترى إلى قوله جل شأنه في سورة الحديد : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾** ! أخرج البخاري بسنده عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «مثل المسلمين واليهود والنصارى ، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا ، وما عَمِلْنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ،فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ماعَمِلْنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال : أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا ؛ فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » انفرد به البخاري بهذا اللفظ . وفي رواية للإمام أحمد « فغضبت النصارى واليهود وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا: لا . قال: هو فضلي أوتيه من أشاء ».

ما كان لمؤمن ولا مؤمنة ـ وقد بصّرهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام بما يكون يوم الدين لأهل الهداية والصلاح ، وما يكون لأهل الضلالة والصد عن سبيل الله ـ ما كان لهم ـ وقد أُكرموا بذلك ـ أن يعرضوا عن ذكر الله ، وينسوا ربهم واليوم الآخر .. فيوم الفصل ، هولُه شديد ، والذين أساءوا في الدنيا لهم السوءى يوم القيامة ، وقد أعذر ربنا جل جلاله ، وأعذر نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وعلى المرء أن يُعد العدَّة للجواب عن تقصيره في العمل وتفريطه في جنب الله ، يوم يقف للمساءلة أمام الواحد القهار رب العالمين، وأن يكون على ذكر مما جاء به الخبر الصادق عن أحوال أهل الجحيم .

قال الإمام البخاري : حدثني محمد بن بشار قال : حدثنا غُندَر قال : حدثنا شعبة قال : سمعت أبا إسحاق قال : سمعت النعمان رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه » وله في رواية أخرى عن النعمان بن بشير قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيام رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم » ورواه مسلم بلفظ : سمعت النعمان بن بشير يخطب وهو يقول . ورواه الترمذي .

وهذا رسول الله ﷺ يذكر النار ، فيشيح بوجهه فيتعوذ منها ، ويوجه المسلمين إلى ما يتقون به عذابها . فقد روى البخاري وغيره عن عدي بن حاتم « أن النبي ﷺ ذكر النار ، فأشاح بوجهه فتعوذ منها ، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ». وقال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا يحيى بن أبي بُكَيْر قال : حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن النعمان بن أبي عياش عن أبي سعيد الخدري

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل النار عذاباً ، ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه » وله في رواية عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » .

الأخمص : المتجافي من الرجل عن الأرض . والشراكان : مثنى شراك وهو أحد سيور النعل وهو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم . والمرجل : قِدر معروف سواء أكان من حديد أو نحاس أو خزف أو نحوها . والمعاذ الله من نار السعير وأليم عذابها ؛ فهذا تأخذه النار إلى كعبيه ، وذاك تأخذه إلى ركبتيه ، وآخر إلى حجزته ، ورابع إلى ترقُوته .. وهكذا .

وفي ذلك وأمثاله بلاغ لمن عقل عن الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وعمل على أن يتقي الجحيم بسلوك الصراط المستقيم ؛ إيماناً وعملاً وسلوكاً وأخذاً بما هدى إليه وبلغه عن ربه نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . روى مسلم بسنده عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حُجزَته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقُوته » وفي رواية أخرى له « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه إلى حُجزته ، ومنهم من تأخذه إلى عنقه » .

والحق أن المؤمن قد وُضع على المحجة البيضاء في هذا الأمر وغيره ؛ فإذا عمل وأحسن الظن بالله عز وجل ،كان ذلك عنوان النجاة من الوعيد الذي جاء الخبر الصادق عنه يوم القيامة . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه جل وعلا أنه قال : «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ؛ إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة ». رواه ابن حبان في صحيحه . وقد أوردت غير مرة ما رواه الترمذي وحسّنه عن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ

المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ».

فالثمن غال للـزحزحة عن النار ودخول الجنة ، ولكن المؤمـن وُضع ـ بحمـد الله ـ على الطريق التي تنتهي بمن يسلكها ـ بصدق ـ إلى العاقبة المشرقة الكريمة، وتباعد بينـه وبين أن يكـون ممـن تسعّرهم لظـى ويقـذفـون في الجحيم .. ومـن المسلّمات أن حسن الظن بـالله تعالى مع الاستقامـة ـ كما تدل النصوص ــ عنوان النجاة من عذاب الله بمنه وفضله سبحانه . وقد كشف الرسول ﷺ عن أمثال من الغابرين لهذه الحقيقة كي تنتفع الأمة بها وتعتبر ؛ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هـريرة رضي الله عنـه أن النبي ﷺ قـال : « كـان رجل يسرف على نفسـه ، ولما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مُـت فأحرقوني ثم اطحنوني ثـم ذرّوني في الريح ، فوالله لئـن قدر الله علي ـ وهـو قادر ــ ليعذبني عـذاباً ما عـذبه أحـداً ، فلما مات الرجل فعـل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقـال : اجمعي ما فيك ففعلـت ، فإذا هو قائم؛ فقـال: ما حملك على ما صنعـت؟ قال: خشيتك يارب ، أو قـال: مخافتك، فغفر له» وفي روايـة : ثم قال : « لم فعلت هـذا ؟ قال : من خشيتك يـارب وأنت أعلم ، فغفـر الله تعالى له » . ورواه مالـك في الموطأ والنسائي في المجتبـى «السنن الصغرى» نحوه. وعن أبي سعيد رضي الله عنه قـال : إن رجلاً كان قبلكم رزقه الله مـالاً ، فقال لبنيـه لما حضر ـ أي الموت ــ أيّ أب كنت لكـم ؟ قالـوا : خيرُ أب ، قال: فإني لم أعمـل خيراً قط ، فإذا مِت فـأحرقوني ثم اسحقـوني ثم ذروني في ريح عاصف ، ففعلوا ، فجمعه الله فقال : ما حملـك ؟ فقال : مخافتك ، فتلقاه برحمته » رواه البخاري ومسلم .

وما من ريب في أن مخافة الله ، أثر مـن آثار الإيمان العميق في النفس ، والأمة المحمدية بين يديها ـ في كتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم ما فهمـه أئمة الهدى منهما وقـدموه للنـاس بالكلمـة والقدوة ــ بين يديها المنهـج المتكامل لإعمار الدنيا والعمل للآخرة ، وأن تكون الوجهة خالصة لله عز وجل، في يقظة تباعـد عن اختلاط العمل بـالشوائب المحبطة ، وعن الاغترار بما يكـون من

زينة العاجلة وزخرفها في المال أو المنصب والسلطان .. بل عن الوقوع في الخلل الذي يصيب أعمال القلوب أحياناً من رياء وسمعة ، ومكر وخداع ، أو مخالطة للأقوال والأعمال الشركية مما ينافي إخلاص العبودية لله عز وجل .

وإذا كان الأمر كذلك ـ والرسول عليه الصلاة والسلام لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى ترك الأمة على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ـ فالواجب أن يكون المؤمن والمؤمنة على بينة من الأمر في شؤون العمل الأخروي، واستدامة التذكر للجنة ، وما يكون فيها للكرام البررة من أهل التقوى والجهاد والصلاح ، ولنار السعير ، وما يكون فيها لمن ضلّوا الطريق وصدوا عن سبيل الله .

وإدراك الحقيقة باستنارة وتبصُّر ، يفعل في النفس الكثير الكثير ويوجه العمل ـ بعون الله ـ الوجهة المطلوبة . روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين» وفي رواية بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال : «عرضت علي الجنة والنار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدُ منه غطّوا رؤوسهم ولهم خنين » .

الخنين : البكاء مع غنة بانتشار الصوت من الأنف .

رضي الله عن الصحابة أجمعين ، ورزقنا حسن الانتفاع بهذه الرقة في القلب والدمعة الخاشعة في العين إنه هو الرؤوف الرحيم .

## وحق لعائشة أن تبكي

كان من فضل الله على هذه الأمة ، أن نبيها محمداً عليه الصلاة والسلام، لم ينتقلْ إلى الرفيق الأعلى ـ كما أشرت غير مرة ـ حتى بيّن كلَّ ما يجب بيانه على صعيد الرسالة وتبليغها ، وترك المسلمين على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ؛ وكان من ذلك كشفه عما يكون يوم القيامة بعامة ، وعن صفات كلٍ من الجنة والنار والإفاضة في كل ما يتعلق بهما بخاصة ، كل أولئك رحمة منه بأمته كي تكون على سواء الصراط ، فتسلك السبيل الموصلة ـ برحمة الله ـ إلى دار النعيم ، وتتجافى عن سبل الهوى والشياطين التي تؤدي بها إلى المهالك ،وتجعلُ سالكها من أهل الجحيم . والنصوص في ذلك كثيرة وفيرة أوردتُ العديد منها فيما خلا من القول .

وفي متابعة لهذه الرحلة المباركة ، أجد لزاماً إيراد بعض ما حملت إلينا كتب الحديث في شأن جهنم ، إضافة لما مضى من قريب . قال البخاري رحمه الله في « باب صفة النار وأنها مخلوقة » من كتاب بدء الخلق في الجامع الصحيح : حدثنا إسماعيل بن أوس قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل : يارسول الله إن كانت لكافية . قال : فُضِلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثلُ حرها » . ورواه مسلم عن أبي هريرة أيضاً بلفظ « ناركم هذه التي يوقِد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ! قال : فإنها فُضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كُلها مثل حرها » وله في رواية أخرى « كلهن مثل حرها » وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من حر جهنم، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فإنها فُضلت عليها بتسعة وستين

جزءاً كلهن مثل حرها » وفي رواية له : فقال رجل : « إن كانت لكافية » كما له في رواية أخرى « من مائة جزء » والجمع ـ كما يرى الحافظ ابن حجر وغيره ـ بأن المراد المبالغة في الكثرة لا العدد الخاص ، أو أن الحكم للزائد . وزاد الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه « لكل جزء منها حرها » ومما يدل على أن الصحابة هالهم الأمر قولهم : «إن كانت لكافية » فـ « إن » هي المخففة من الثقيلة أي أن نار الدنيا كانت مجزئة لتعذيب العصاة . ومعنى « فضلت عليهن » كما في رواية البخاري : « فضلت على نيران الدنيا » ورواية مسلم ــ كما رأينا ــ ورواية مالك التي تأتي إن شاء الله « فضلت عليها » أي على النار .

وفي «فتح الباري» للحافظ ابن حجر : قال الطيبي ما محصله : إنما أعاد حكاية تفضيل نار جهنم على نار الدنيا إشارة إلى المنع من دعوى الإجزاء ، أي لابد من الزيادة ليتميز ما يصدر من الخالق من العذاب على مايصدر من خلقه . وروى الحديث ابن حبان ونحوَه ابن ماجة ، والحاكم عن أنس رضي الله عنه بلفظ فيه اختلاف يسير ، ورواه مالك في الموطأ في كتاب جهنم باب «ما جاء في صفة جهنم » عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا : يا رسول إن كانت لكافية . قال : « إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » حدث مالك عن عم أبي سهيل بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « أتُرَوْنها حمراء كناركم هذه ؟ لهي أسود من القار » والقار الزفت . ونقل الزرقاني في شرحه للموطأ عن الباجي قوله : ( مثل هذا لايعلمه أبو هريرة إلا بتوقيف ـ يعني لأنه بإخبار عن مغيّب ـ فحكمه الرفع ) وعلى هذا فحكم هذا الحديث الموقوف على أبي هريرة في صفة نار جهنم حكم المرفوع لأن الخبر متعلق بعالم الغيب فليس للرأي فيه مجال .

وهذا الحديث أخرجه الترمذي بلفظ أطول وهو حديث حسن ؛ إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أوقد على النار ألف

سنة حتى احمرّت ، ثـم أوقد عليها ألف سنـة حتى ابيضت ، ثم أوقـد عليها ألف سنـة حتى اسـودت فهي سـوداء مظلمة » قـال الترمذي : وروي مـوقوفـاً على أبي هريرة وهـو أصح . وقد قدمنـا أن له حكم المرفوع لأنـه لا مجال للرأي فيه ، وزاد رزين «فلو أن أهل النـار وجدوا مثل ناركم هذه ، لقالوا فيهـا » وفي أخرى لرزين «أن رسول الله ﷺ ذكر النـار فقال : أتُرونها حمراء مثل نـاركم هذه التي تـوقدون ؟ إنها لأشد سواداً من القار ، ولـو أن أهل النار أصابوا ناركم هذه ، لنـاموا فيها ـ أو قال : لقالوا فيها» . قالوا : من القيلولة .

وبعد : فهذا قليل من كثير ـ كما سوف نـرى إن شاء الله ـ مما ورد في شأن نار السعير وصفتها أعاذنا الله منها .

وكلما ازداد إيمان المؤمن ، ورقّ قلبـه ، وصفَت نفسـه ، كان أكثر تـأثراً بـذكر جهنم، وفَعَل الخبر الصـادق فعله في شحذ العزيمـة إلى طاعة الله وتقواه والإنـابة إليه . من أجل هـذا لم يكن بدعاً أن ينقل عن السلف الصالـح شدة التأثر ، حين يذكرون النـار ، وظهور علامات الخشية الصـادقة على محياهم، والبكاء النـابع من خوفهـا عند ذلـك . قال الإمـام أبو داود في كتـاب السنة مـن «السنن » : حـدثنا يعقوب بـن إبراهيـم وحميد بـن مسعدة ، أن إسماعيل بـن إبراهيـم حدثهـم قال: أخبرنا يونس عن الحسن عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت ، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قالت :ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن: فلا يـذكر أحد أحداً . عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند الكتاب حين يقال : « هاؤم اقرؤا كتابيه » حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » .

والحديث حسن تشهـد له روايات أخر .مـن هذه الشواهد مـا رأينا في حلقة سلفت عند الإمام أحمد من الرواية التي تقول فيها عائشة رضي الله عنها : «قلت:

يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيـامة ؟ قال : يا عائشة أما عند ثلاث: فـلا.. وكـانت الثـالثـة: «وحين يخرج عُنـق مـن النـار فينطوي عليهـم ويتغيـظ عليهم..» الحديث . وقال الترمذي في كتاب صفـة القيامة من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ حدثنا عبدالله الصَّبَّاح الهاشميُّ قال : حدثنا بدَل بن المحبَّر قال : حدثنا حـرب بن ميمون الأنصاري أبو الخطـاب قال : حدثنا النضر بـن أنس بن مالك عن أبيه قال : سألت النبيَّ ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل . قلت: يارسول الله فأين أطلبك ؟ قال : أوَل ما تطلبني على الصراط . قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قـال : فاطلبني عند الميزان . قال قلـت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قـال : فاطلبني عند الحوض فـإني لا أخطىء هذه الثلاثـة مواطن » وإسناده حسن . قال أبو عيسى : هذا حديـث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

هكذا بكت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عند ذِكرها النار وحُق لها أن تبكي؛ فقـوة إيمانها ، وكمال تصديقهـا بما جاء عـن الله ورسولـه في شأن اليـوم الآخر والجنـة والنار ، كل أولئك ولّـد عندها ـ والله أعلـم ـ ذلك الصفاء الـروحي المقترن بتهذيـب النفس ، فلا عجـب أن تفيض دموعهـا وهي تـذكر بذكـر النار الأنكال والجحيـم والغسَّاق ، وشجرة الـزقوم طعـام الأثيم، وهي كـا لمهل يغلي في البطون كغلي الحميـم، وغير ذلك مما يتسربـل به الذيـن ضلّوا السبيل وعمـوا عن طريق الهداية ، فكانت عاقبتُهم أن يصلوا نار السعير خالدين فيها .

رضي الله عن الصـديقة بنت الصديـق وعن الصحابـة أجمعين والتابعين لهم بإحسان ، وجعلنا جميعاً ممن تملأ قلوبهم خشية الله ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، وباعد بيننا وبين طريق من تسعّر بهم الجحيم .

بشاشة الإيمان ،وما أدراك ما بشاشة الإيمان !! إذا خالطت القلب واستضاء بنورها ، أصبح المسلم على حال لا يسأم معها استدامة النظر فيما يحمله الخبر الصادق من العطاء الإلهي في جنة الخلد يوم الدين، للصفوة من العباد الذين ازدانت حياتهم بمحبة لقائه سبحانه، وعملوا الصالحات ولم يشركوا بعبادة ربهم أحداً . وقل مثل ذلك في مخالطة ما جاء في كتاب الله وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام من النذارة لأهل الضلالة ـ الذين عتوا عن أمر ربهم ، وحادّوا الله ورسوله ـ بالعذاب الأليم والخلود في نار السعير ، جهنم يصلونها فبئس المصير .

ومن ثمرات ذلك كله ـ على صعيد الواقع ـ تحرك الهمم إلى المسارعة في الخيرات والإكثار من القربات ، والبعد عن كل ما هو من الغفلة ونسيان الله واليوم الآخر بسبب ؛ ذلك بأن الأمر يوم الفصل لا يحتمل اللهو والعبث ، فهو خطير جدٌّ خطير ، والله تبارك وتعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، والعاقل كل العاقل من سلك طريق أهل الخشية وأعدّ العدّة ليوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

قال الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح : حدثنا إسماعيل قال : حدثني أخي عن سليمان عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « أول من يُدعى يوم القيامة آدم ، فتراءى ذريتُه ، فيقال لهم: هذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك، فيقول : يارب كم أخرج ؟ فيقول : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين ، فقالوا : يارسول الله إذا أخذ منا تسعة وتسعين فماذا يبقى منا ؟ قال : إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود » وإذا كان الأمر كذلك : فما أحرى المسلمين رجالاً ونساءً بأن يضعوا نُصب أعينهم ما يجب من سلوك سبيل النجاة ، وأخذ

النفس بالجدّ في طاعة الله والجهاد في سبيله، حذراً من الوقوع في الهاوية يوم المآب ، يوم لا يملك خليل الله إبراهيم عليه السلام أن ينقذ أباه آزر من النار ، وقد جاهر الله بالكفر في الدنيا ، وكان في مواجهة رسالة السماء من الغاوين .

أخرج الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قَتَرة وغَبَرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟! فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأيُ خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار ». وأخرجه في باب ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ من كتاب التفسير في الجامع مختصراً بلفظ « يلقى إبراهيم أباه فيقول : يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون . فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين ». قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره للآية من سورة الشعراء بعد أن أورد رواية البخاري : رواه عبدالرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير .

الغَبَرَة من الغبار . والقَتَرَة : غبرة معها سواد . والذيخ : ذكر الضباع ، والأنثى ذيخة . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وصف نفسه ـ يعني إبراهيم عليه السلام ـ بالأبعد على طريق الفرض إذ لم تقبل شفاعته في أبيه .

هذا : وذكر الغَبَرَة والقترة في حديث إبراهيم عليه السلام، يشدنا إلى ما نجد في الكتاب الكريم من أن سمة وجوه الكفار يوم القيامة أن عليها غبرةً ترهقها قترة. والمؤمن ـ مع ما ينبغي أن يكون عليه من الرجاء بفضل الله ورحمته ـ يداخله ما يداخله من الخوف حين يقرأ في بيان هذه الحقيقة قول الله تبارك وتعالى في خواتم سورة عبس : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قَتَرة . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

ولكم نحسن صنعاً ، إذا نحن اتخذنا من سيرة أهل القرب والصفاء الذين

حرصوا على حسن الاتباع لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .. ضياءً يعين على قطع المسافة بين الواقع الذي نشكو منه ـ حيث حب الدنيا والركون إلى الذين ظلموا وكراهية الموت والاستخذاء أمام الصوارف عن الخير ـ وبين ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، من تطلع صادق إلى النجاة من عذاب الله يوم الدين ، والفوز بما أعدّ الكريم المنان لعباده المتقين المجاهدين الصابرين ، الذين تراهم، ووجوههم ـ من الفرح بفضل الله ورحمته وكريم عطائه ـ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة.

من هؤلاء الربانيين الذين نسعد بهديهم: التابعي الثقة والإمام الرباني الواعظ بلال بن سعد أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق المتوفى سنة نيّف وعشرة ومائة. قال الأوزاعي : كان من العبادة على شيء لم نسمع أحداً قوي عليه. وقال أيضاً : سمعت بلال بن سعد ولم أسمع واعظاً أبلغ منه، وقال أبو زرعة النَّصْري : كان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق ؛ ها هو ذا يذكر الناس بالموت وبما بعد الموت كي يحسنوا التزود للآخرة، فيقول ـ كما سمع ذلك عبدالرحمن بن يزيد بن تميم ـ: « يا أهل التقى إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما تنقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار » .

وفي حرص على إيقاظ من يركن إلى الاستمتاع بالدنيا وملذاتها ، وينسى ما يكون من سوء العاقبة لأهل الغفلة الساهين اللاهين ؛ نجد ما روى أبو نعيم في الحلية بسنده من طريق العباس بن الوليد عن عثمان بن مسلم أنه سمعه يقول : «رُبَّ مسرور مغبون ، ورُبَّ مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل ولا يشعر ، يأكل ويشرب ، ويضحك ويلعب، وقد حق عليه في قضاء الله أنه من أهل النار . زاد عباس في حديثه : فيا ويلاً لك روحاً ، ويا ويلاً لك جسداً ، فلتبك وليبك عليك البواكي بطول الأبد » وفي رواية له عن الأوزاعي أنه قال : سمعت بلال بن سعد يقول : « رُبَّ مسرور مغبون ، يأكل ويشرب ويضحك ، وقد حق له في كتاب الله

أنه من وقود النار ».

وما أبلغه موعظة . ذلك التذكير بأن لا ينظر المرء إلى صغر الخطيئة ، فيستهين بها عمل ، ويصرّ على تلك الخطيئة التي قد يسوقه الشيطان إلى ما هو أكبر منها ، بل ينظر إلى من عصى سبحانه ، وهنالك يتذكر فيؤوب ويفوّت على الشيطان ما أراد . روى أبو نعيم بسنده عن عبدالله بن المبارك عن الأوزاعي قال : سمعت بلال بن سعد يقول « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيته ».

ومن كلماته التي تشير إلى حسن انتفاعه بالعبادة ، وخوفه الصادق من عذاب الجحيم قوله فيما روى عنه الأوزاعي رحمه الله : «تنادي النار يوم القيامة يا نار أحرقي ، يا نار اشتفي ، يا نار أنضجي ، يا نار كلي ولا تقتلي ».

اللهم برحمتك الواسعة ولطفك الخفي ، قنا عذابك يوم تبعث عبادك ، واكتبنا من أهل الفوز بجنتك يارب العالمين .

# الفهرس

* * * * *